

نَفْحَاتُ الْقُرْآنِ

أسلوب جديد في التفسير الموضوعي
للقرآن الكريم

سلسلة
العلم

العلم والمعرفة

مكتبة دار الفكر
طبعة الأولى: ١٤٢٥ هـ
٢٠٠٤ م

نَفَاحَاتُ الْقُرْآنِ

أُسْلُوبٌ جَدِيدٌ فِي التَّفْسِيرِ الْمَوْضُوعِيِّ
لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

العلم و المعرفة في القرآن

الجزء الأول

مَمَّا حَتَّى آتَى اللَّهَ الْعُظْمَى الْمَشِيخُ
نَاصِدٌ مَكَارِمُ الشَّيْخَانِ
بِمُسَاعَدَةِ مَجْمُوعَةِ الْمُتَلِمِينَ

مكارم شیرازی، ناصر، ۱۴۰۵ هـ.

نقحات القرآن / مكارم الشيرازي: بمساعدة مجموعة من الفضلاء - قم: مدرسة الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام)، ۱۴۳۶ ق. - ۱۳۸۴.

ISBN:964-8139-75-X (دوره)

ج ۱۰

ISBN:964-8139-88-1 (ج ۱)

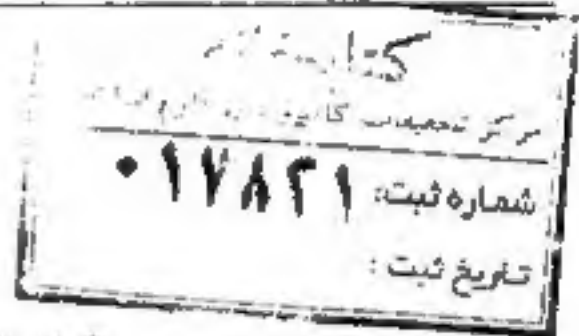
کتابنامه

۱- تقاسیر شیعه - قرن ۱۴. الف. مدرسة الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام).

ب- عنوان

۲۹۷ / ۱۷۹

BP ۹۸ / م ۷ ۱۳۸۴



نقحات القرآن / الجزء الأول

المؤلف: سبعة آية الله العظمى مكارم الشيرازي (مد ظله) بمساعدة مجموعة من الفضلاء

الكمية: ۲۰۰۰ نسخة

الطبعة: الأولى (التصحيح الثاني)

تاريخ النشر: ۱۳۸۴ هـ - ۱۴۳۶ هـ

عدد الصفحات: ۳۸۰ صفحة

حجم الغلاف: كبير

المطبعة: مطبعة الزاد

الناشر: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)

ردمك: ۹۶۴-۸۱۳۹-۸۸-۱

ردمك الدورة: X- ۹۶۴-۸۱۳۹-۷۵



ایران - قم - شارع شهدا - فرع ۲۲

تلفکس: ۰۰۹۸-۲۵۱-۷۷۳۲۴۷۸

www.amiralmomeninpub.com

سعر الدورة: ۳۵۰۰۰ تومان



الأهداء:

إلى الذين أحبوا القرآن
إلى الذين يريدون أن ينهلوا المزيد من معين
الحياة الصافي
إلى الذين يتوقون إلى معرفة القرآن وفهمه
أكثر فأكثر.



بمساعدة العلماء الأفاضل وحجج الإسلام السادة:

محمد رضا الآشتياني

محمد جعفر الإمامي

عبدالرسول الحسيني

المرحوم محمد الأسدي

حسين الطوسي

سيد شمس الدين الروحاني

محمد محمدي الاشتهاردي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

- ١- أنواع التفسير.
- ٢- ما هو التفسير الموضوعي؟
- ٣- ما هي المشكلات التي يمكن حلها بواسطة التفسير الموضوعي؟ (وكيفية الاستفادة من هذا النوع من التفسير).
- ٤- تاريخ التفسير الموضوعي.
- ٥- الأسلوب الأمثل في التفسير الموضوعي.
- ٦- العقبات التي تعترض التفسير الموضوعي.
- ٧- لماذا لم يتطور هذا اللون من التفسير؟

❦❦❦

أنواع التفسير:

عندما نريد الحديث عن تفسير القرآن الكريم يتبادر إلى الذهن التفسير المتعارف *(التفسير الترتيبي)* حيث تجري عملية بحث آيات القرآن الكريم بالترتيب ويتم توضيح مضمونها وماهيتها، وهو الأسلوب المتبع في تفسير القرآن منذ صدر الإسلام وإلى يومنا هذا، وقد قام علماء الإسلام بتأليف مئات أو آلاف الكتب تحت عنوان «تفسير القرآن الكريم» على هذه الطريقة.

وهناك نوع آخر من التفسير الرائج إلى حد ما والذي يهدف إلى تفسير «مفردات القرآن»

أي أنه يتناول كلمات القرآن كلُّ على حدة وبالتسلسل حسب الحروف الأبجدية وعلى هيئة مُعْجَم، ومن أبرز نماذج هذا التفسير هو كتاب «مفردات الراغب» و«وجوه القرآن» و«تفسير غريب القرآن» للطريحي، وأخيراً كتاب «التحقيق في كلمات القرآن الكريم» و«نظم طويس» أو «دائرة معارف القرآن الكريم».

بينما توجد هناك أنواع أخرى من تفسير القرآن منها «التفسير الموضوعي» الذي يحقق ويبحث آيات القرآن الكريم على أساس مختلف المواضيع المتعلقة بأصول الدين وفروعه والأمور الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية.

وهناك نوع آخر من التفسير نطلق عليه «التفسير الارتباطي» أو التسلسلي، حيث يتناول مواضيع القرآن المختلفة من حيث علاقتها ببعضها.

فعلنى سبيل المثال، بعد بحث موضوع «الإيمان»، و«التقوى» و«العمل الصالح» كلُّ على حدة في التفسير الموضوعي تتم عملية بحث علاقة هذه المواضيع الثلاثة ببعضها من خلال الاعتماد على الآيات والملاحظات الواردة في ذلك، ومن المسلم أن حقائق جديدة سوف تنكشف لنا عن كيفية ارتباط هذه المواضيع ببعضها لكون بالغة الأهمية والفائدة.

إن أفضل طريقة للبحث حول عالم الخلق والتكوين وما يتضمنه ويحويه من كائنات هو دراسة العلاقة بين هذه الكائنات التي تؤلف هذا العالم، ففي الحقيقة أن الشمس والقمر والأرض والإنسان والمجتمعات البشرية هي موجودات لا تنفصل عن بعضها البعض وهي تشكل في مجموعها كياناً واحداً مترابطاً، والأسلوب الصائب في دراستها هو أن نبحثها من حيث ارتباطها مع بعضها.

وهكذا الأمر في كتاب «التدوين» أي القرآن الكريم، فهناك علاقات دقيقة وظرفية بين مواضيع القرآن الكريم، ولا بد من تفسيرها من حيث ارتباطها مع بعضها.

النوع الآخر من التفسير هو «التفسير العام» أو «الرؤية الكونية للقرآن» وهنا يتناول المفسر جميع مضمون القرآن فيما يتعلق بعالم الوجود، وتعبير أكثر وضوحاً: يربط كتاب «التكوين» مع كتاب «التدوين» وينظر إليهما معاً، ويتم دراستهما من حيث ارتباطهما ببعضهما.

وعلى هذا الأساس فإن هناك خمسة أنواع من التفاسير:

١ - تفسير مقدرات القرآن.

٢ - التفسير الترتيبي.

٣ - التفسير الموضوعي.

٤ - التفسير الارتباطي.

٥ - التفسير العام، أو النظرة الكونية للقرآن.

والمشهور والمعروف من بين هذه الأنواع الخمسة هو النوع الأول والثاني. وإلى حد ما النوع الثالث، أي أن التفسير الموضوعي لا زال يسير في مراحله الأولية، على أمل أن يقطع مراحله التكاملية تدريجياً من خلال الإهتمام الذي أولاه علماء الإسلام به مؤخراً ومن خلال المزيد من الجهد والمثابرة، وأن يحتل مكانه اللائق في المستقبل القريب.

أما النوع الرابع والخامس من تفسير القرآن فلم يحظيا باهتمام المفسرين بعد، وهذا العمل يقع على عاتق الجيل الحاضر وأجيال المستقبل بأن يتناولوا هذا الباب بعد تكامل التفسير الموضوعي بما فيه الكفاية، ويقوموا بإدائه حقه بالقدر المستطاع.

مركز تحقيقات علوم القرآن

ما هو التفسير الموضوعي؟

قبل الإجابة على هذا السؤال لابد من طرح سؤال آخر وهو: لماذا لم يُرتب القرآن بأسلوب موضوعي يشبه الكتب المتداولة؟ بل أنه جمع بشكل يختلف عنها جميعاً.

والجواب هو: إن المؤلف أو المؤلفين يأخذون بنظر الاعتبار مختلف المواضيع المتشابهة في حقل واحد من أجل أعداد الكتب المتداولة، فمثلاً في علم الطب يؤخذ بنظر الاعتبار «مختلف الأمراض التي ترتبط بمسألة صحة الإنسان» ثم تُقسم المسائل المتعلقة بهذه المواضيع على فصول وأبواب (أمراض القلب، الأمراض العصبية، أمراض الجهاز الهضمي، أمراض جهاز التنفس، الأمراض الجلدية وسائر الأمراض).

ومن ثم يبحثون كل فصل وكل باب من خلال الاعتماد على المقدمات ونتائجها وبهذا

التحوي يتم تأليف كتاب باسم كتاب «الطبيب».

يبد أن القرآن ليس كذلك، فهذا الكتاب نزل على مدى ٢٣ سنة وفقاً للحاجات والظروف الاجتماعية المختلفة والوقائع المتباينة، والمراحل التربوية المتفاوتة، وكافة شؤون حياة المجتمع الإسلامي، وفي نفس الوقت لم يتعلق بزمان ومكان معينين! ففي وقت تدور كافة بحوث القرآن حول محور مقارعة الوثنية والشرك وبيان التوحيد بكل فروع، والصور والآيات النازلة في هذه المرحلة كلها في المبدأ والمعاد: (كالمسور التي نزلت في مكة خلال السنوات الثلاث عشرة الأولى من البعثة).

وفي زمان آخر نرى محور البحث والحديث ساخناً وقوياً حول الجهاد وكيفية مواجهة الأعداء في الداخل والخارج والمنافقين.

وعندما تقع غزوة الأحزاب فتتزل سورة الأحزاب، وما لا يقل عن ١٧ آية منها تتحدث عن هذه المعركة والتجارب والقضايا التربوية فيها ووقائعها.

وحينما جرت واقعة صلح الحديبية نزلت سورة الفتح وبعدها فتح مكة وغزوة حنين نزلت سورة الإخلاص وآيات أخرى.

والخلاصة، فتزامناً مع انتشار الإسلام والتحريك العام للمجتمع الإسلامي كانت تنزل الآيات المناسبة وتصدر الأوامر اللازمة، وهذا ما كان يكمل المسيرة التكاملية للإنسان. واستناداً إلى ما ذكرنا آنفاً، يتضح المغزى من التفسير الموضوعي وهو جمع الأحداث والوقائع المتعلقة بذلك الموضوع وترتيبها لتجلى وجهة نظر القرآن الكريم بشأن ذلك الموضوع وأبعاده.

فمثلاً، تُجمع الآيات المتعلقة ببراهين معرفة الله كالقطرة، وبرهان النظم وبرهان الوجوب والإمكان وبقاى البراهين، وحيث إن القرآن يفسر بعضه بعضاً تتضح أبعاد هذا الموضوع^١.

١. لقد رويت عبارة «القرآن يفسر بعضه بعضاً» عن ابن عباس، وليس من المستبعد أن يكون قد أخذها عن النبي ﷺ وأمر المؤمنين ﷺ نتيجة لعلاقته القوية بهما في مسائل القرآن، كما ورد مضمونها في نهج البلاغة

وهكذا بالنسبة للآيات المتعلقة بالجنة أو النار، والصراط وصحيفة الأعمال، والآيات المتعلقة بالقضايا الأخلاقية والتقوى وحسن الخلق والشجاعة، و... والآيات المتعلقة بأحكام الصلاة والصوم والزكاة والخمس والأنفال، والآيات المتعلقة بالعدالة الاجتماعية وجهاد الأعداء وجهاد النفس و...

والمسلم به أن هذه الآيات التي نزلت في مناسبات مختلفة، عندما تُجمع كل طائفة منها على حدة وتنظم وتُفسر فسوف تنكشف عنها حقائق جديدة، ومن هنا تتضح أهمية التفسير الموضوعي، حيث سيأتي الكلام عنه في البحث الآتي إن شاء الله.

ما هي المشاكل التي يمكن حلها بواسطة التفسير الموضوعي؟

إنّ الجواب على هذا السؤال واضح للغاية من خلال ملاحظة ما مرّ ذكره آنفاً، ولكن للمزيد من التوضيح ينبغي الالتفات إلى هذا الأمر وهو:

إنّ الكثير من آيات القرآن الكريم تناولتُ بعداً واحداً من أبعاد موضوع ما، فمثلاً، فيما يخص مسألة «الشفاعة» فقد ورد في بعض الآيات أصل إمكان الشفاعة.

وفي البعض الآخر «شروط الشفاعة» (سجاً ٢٣، مريم ٧٨).

وفي بعضها شروط «المستفعل لهم» (الأنبياء ٢٨، غافر ١٨).

وفي بعض تُنفى الشفاعة عن الجميع ما عدا الله تعالى (الزمر ٤٤).

وفي بعض آخر ثبتت الشفاعة لغير الله (المذثر ٤٨).

نجد أنّ حالة من عدم الوضوح تحيط بأمور الشفاعة بدءاً من حقيقة الشفاعة وحتى سائر الشروط والخصوصيات الأخرى، ولكن عندما نأخذ آيات الشفاعة من القرآن

حيث يقول: «وذكرت أنّ الكتاب يصدّق بعضه بعضاً» (نهج البلاغة، الخطبة ١٨) وقد أورد بعض العلماء في كتبهم جملة «القرآن يفسر بعضه بعضاً» على أنّها حديث، كما في صفحته ١٠٦ من كتاب (تنزيه التنزيل) للمرحوم الشهرستاني، إذ وردت هذه العبارة باعتبارها رواية بدون أن ترد عليها مؤخذة، كما نلاحظ في نهج البلاغة إشارة أخرى إلى هذا الأمر، حينما يقول بشأن القرآن الكريم: «وينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض» (نهج البلاغة، الخطبة ١٣٣).

وتنضمها جانب بعضها وتفسرها على ضوء بعضها لبعض يرتفع هذا العموض ويحل الأيهام على أحسن وجه.

وكذلك الآيات المتعلقة بالجهاد أو فلسفة أحكام وتعاليم الإسلام، أو الآيات المتعلقة بالبرزخ، أو مسألة علم الله، وكذلك موضوع علم الغيب، وهل أن العلم بالغيب ممكن لغير الله أم لا؟ فلو وُضعت آيات كل موضوع في جانب من الممكن أداء حق هذا الموضوع وحل الإشكالات الموجودة عن طريق التفسير الموضوعي

وعلى هذا الأساس فإن الآيات المتعلقة بـ «المحكم» و«المتشابه» والتي تدعو لتفسير «المتشابهات» بالاستعانة بـ «المحكمات» يعد نوعاً من تفسير الموضوعي.

ومن هنا يبدو أنه من خلال تفسير الآيات المتعلقة بموضوع ما بالاستعانة بالآيات الأخرى تنشق عنها معارف وعلوم جديدة، هذه العلوم تكمن فيها معارف القرآن والحلول لكثير من المعضلات العقائدية وأحكام الإسلام

من هذا اساب يمكن تشبه «باب القرآن بالكلمات المتفرقة، حيث إن لكل منها معنواً دائماً، ولكن حينما ترتب وتجمع في جمل مفردة فهي تعطي معاهيم جديدة.

أو تشبيهها بالعناصر الحياتية مثل «الأوكسين» و«الهيدروجين» التي حينما تتفاعل مع بعضها ينتج عنها الماء الذي هو عنصر حياتي آخر.

خلاصة القول إنه لا يمكن حل الكثير من سرار لقرآن إلا عن هذا الطريق، ولا يمكن النفوذ إلى مكتوباتها إلا من خلال هذا السبيل ويعتمد بأن هذا القدر كافٍ لتوضيح أهمية التفسير الموضوعي.

وباختصار يمكن تلخيص فوائد لتفسير موضوعي في النقاط التالية:

١- إزالة الإشكالات التي تبرز في بعض آيات التوهلة الأولى، وحل أسرار وألفاظ المتشابه في القرآن.

٢- الاطلاع على خفايا ودقائق وعلل وأسباب ونتائج المواضيع والقضايا المحيطة الواردة في القرآن الكريم.

- ٣- الحصول على معلومات جامعه لمواضيع مختلفة مثل «توحيد» و«معرفة الله» و«المعاد» و«العبادات» و«الجهاد» و«الحكومة الإسلامية» وعلوم مهمة أخرى
- ٤- كشف أسرار وخفايا جديدة من القرآن من خلال الجمع بين الآيات.

تاريخ التفسير الموضوعي:

يمكننا ملاحظة نماذج من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم في نفس آيات لقرآن الكريم حيث أمرت هذه الآيات بتفسير المنشبه بها بالمحكم، وبعد هذا الأسلوب نوعاً من التفسير الموضوعي.

وفي كلام أئمة الهدى عليه السلام أمثلة كثيرة تهدي إلى أسلوب جمع الآيات المتعلقة بموضوع معين وترتيبها ثم الاستفادة منها، ولأجل إثبات هذا الأمر يكفي بذكر عدد من الأمثلة

١- في الرواية المعروفة ^١ بصواب وصية النبي صلى الله عليه وآله وموعظته لعبد الله بن مسعود المذكورة في بحار الأنوار - وهي رواية طويلة ^٢ وكثيرة المصاحف، وفيها أمثلة كثيرة سحو يمكن القول أن الرواية تدور حول محور التفسير الموضوعي - عندما ينكلم صلى الله عليه وآله عن دم الدنيا حيث يقول «يا ابن مسعود إنَّ الأحقَّ من طلب الدنيا زائلَةٌ»، ثم يستدل على هوان الدنيا وحارف هذا العالم بالآيات التالية:

«اعلموا أنَّما الحياةُ الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثُرٌ في الأموال والأولادِ.» (الحديد / ٢٠)

«وَلَوْ لَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالْإِيمَانِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقُماً مِنْ غَضَبٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ» * وَلِيُؤْتِيَهُمْ أَمْوَالاً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ * (الزخرف / ٣٣ و٣٤)

«مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَذْهُوراً.» (الاسراء / ١٨)

وفي محل آخر يتحدث عن (القول بعير عدم)، ويقول صلى الله عليه وآله يا ابن مسعود لا تقل شيئاً

بغير علم ولا تنوء بشيء ما لم تسمعه وتراه، ثم يذكر آيات عديدة حول هذا الموضوع:
قال تعالى: «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا» (الاسراء / ٣٦).

وقال تعالى «سَتَكُفُّ سَهَدَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ» (الزخرف / ١٩)

وقال تعالى: «مَا يُلَظُّ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ» (ق / ١٨)

وقال تعالى «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (ق / ١٦)

وكذلك ذكرت الرواية ابحاثاً حول انذكر والإنفاق في سبيل الله، ومكارم الاخلاق وغيرها اعتماداً على جمع الآيات وتبويبها.

٢- جاء في حديث آخر عن أمير المؤمنين علي عليه السلام تقسيم لمعنى «الكفر في القرآن المجيد»:

إن الكفر في القرآن على أربعة أقسام

الأول: الكفر بمعنى الحهود والابكار، وهو على قسمين

أ/ إنكار اصل وجود الله والجنة و النار والقيامة كما يحكى القرآن عن لسانيهم «وَمَا يَمْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ» (الحاثيه / ٢٤)

ب/ الكفر المقارن للمعرفة واليقين كما جاء في لقرآن:

«وَجَعَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا» (النمل / ١٤)

الثاني: الكفر بمعنى المعصية وترك الطاعة كما أخبر الله سبحانه عن قوم من بني اسرائيل يؤمنون ببعض انكتاب ويكذبون ببعض اد يقول سبحانه: «أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ» (البقرة / ٨٥)

الثالث: الكفر بمعنى البراءة والتنصل كما قل سبحانه عن لسان ابراهيم عليه السلام لعبدته الأصنام «كَفَرْنَا بِكُمْ» (الممتحنة / ٤)

وقال سبحانه أيضاً «يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ» (العنكبوت / ٢٥)

الرابع: الكفر بمعنى عدم شكر النعمة كما قل سبحانه «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ

كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ» (ابراهيم / ٧)

ثم يجمع عليه السلام الآيات الواردة في شرك وأقسامه في القرآن فيقسمها إلى الشرك في العقيدة، والشرك في العمل، والشرك في الطاعة، وشرك الرياء، ويوضح كلاً منها بذكر الآيات القرآنية^١.

وكما تلاحظ فإن الإمام عليه السلام بتقسيمه لآيات الكفر والشرك يلقي نظرة كلية على هذا الموضوع، ويوضح بأن لهدى المصطلحين مفهومًا وسعاً شاملاً، فالكفر يشمل كل إخفاء للحق سواء كان في العقائد أو في العمل أو في لموهب الإلهية، والشرك يعني أن تجعل لله شريكاً أو بدأ سواء كان في العقائد أو في العمل أو الطاعة للعواصم، ويستصحح حيداً بهذا العرض الجميل للتفسير الموضوعي في العناوين المذكورين بكلمات الإمام عليه السلام الدور الكبير لهذا التفسير في سعة ذهنية الإنسان وبعمق العمق بآيات القرآنية.

والموضح البديع الآخر ما ورد في كلام الإمام موسى بن جعفر عليه السلام مع هشام بن الحكم للإمام عليه السلام وفي مقام بيان منزله العقل يدرك الآيات المرتبطة بـ «أولى الألباب» ويحتملها كلها ويقول لهشام: «أنتظر كيف آت الله سبحانه وصف أولي الألباب على أحسن وجه وزينهم بأفضل لباس». ثم يذكر سبع آيات من القرآن المجيد تتكلم عن منزله أولي الألباب وهي (البقرة / ٢٦٩ - آل عمران / ٧ - آل عمران / ٩ - المؤمن / ٥٤)^٢

فالقيام بجمع هذه الآيات والنظر إليها منصبة بعضها إلى البعض يعطي للإنسان رؤية عميقة يستطيع معها فهم معنى أولى الألباب ومعانيهم ومنزلتهم، وهذا عمل لا يتم إلا عن طريق التفسير الموضوعي

هذه نماذج من أصول التفسير الموضوعي في كلمات قادة الإسلام لعظام النبي عليه السلام ونبوة الهدى عليه السلام، وهناك نماذج عديدة أخرى لم يذكرها تجنباً للإطالة

❦❦❦

١. بحار الأنوار ج ٦٩، ص ١٠٠ - ١٢٠ (خلاصة الحديث)

٢. أصول الكافي ج ١، ص ١٥ كتاب العقل والجهل

التفسير الموضوعي في كلمات العلماء السابقين:

لم يكن التفسير الموضوعي متدولاً في فترات محدودة وحول موضوعات خاصة، إلا أنه ورد كثيراً على ألسنة العلماء السابقين، ولكن يجب الاعتراف بأننا لا نعرف أحداً منهم تناول التفسير الموضوعي في جميع المجالات.

ومن الرواد الأوائل في هذا المصمار، العلامة المجدسي رحمته الله حيث نراه قد تصدى لجمع كل الآيات ذات العلاقة بالموضوع عند دحوله في كل فصل من فصول بحار الأنوار، ثم يلقى عليها نظرة شاملة وينقل أحياناً آراء المفسرين، ويسمى لتوضيح ما يذكره من الآيات فرئ مثلاً في الجزء ٦٧ عندما يتكلم حول «القلب» و«السمع» و«البصر» ومعنى كل منها في القرآن الكريم، يجمع عشرات الآيات ثم يذكر رواية من الكافي ثم يقوم بذكر بيان جامع لها، فيستغرق بحثه في هذا المجال عشر صفحات تقريباً^١.

وهي الجزء ٥٨ في باب حفيظة لرؤيا وتفسيرها يذكر أولاً أكثر من عشر آيات من القرآن حول هذا الموضوع ثم يبحث في تفسيرها عدة صفحات^٢.

وهي الجزء ٢٢ في الباب الأول يبحث عن ما حري لليهود والنصارى والمشركون بعد الهجرة، فيذكر عشرات الآيات من مختلف السور حول هذا الموضوع ثم يقوم بتفسيرها^٣ وقد اتبع هذا المحقق العظيم نفس الأسلوب في فصول الأخرى من الكتاب.

ومن الأمثلة الأخرى للتفسير الموضوعي في كلمات المتقدمين، الكتب المؤلفة تحت عنوان آيات الأحكام، فهي هذه الكتب ذكرت الآيات المتعلقة بالأحكام الشرعية، مثل الآيات التي لها ارتباط بأجزاء وشروط الصلاة وأقسام وشروط الصوم، والحج والكااح والطلاق وأحكام الحدود والديات وانقصاء وغيرها، حيث جمعت الآيات وتم بحثها على نحو موضوعي بالاستعانة ببعضها الآخر.

١ بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٢٧ إلى ٤٣

٢ المصدر السابق، ج ٥٨، ص ١٥١ إلى ١٥٨

٣ المصدر السابق، ج ٢٢، ص ١ إلى ٦٢

ويبدو أن أول كتاب أُلّف في هذا المجال هو كتاب *(أحكام القرآن)* تأليف (محمد بن صاحب الكلبي)، وهو من أصحاب الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام والمتوفى سنة ١٤٦ هـ وهو سابق حتى للشافعي الإمام المعروف المتوفى سنة ٢٠٤ هـ بآليف كتاب في هذا المجال.

وبعد تصدّي العديد من الفقهاء والعلماء لتأليف كتب في مجال آيات الأحكام (تارة بهذا الاسم وتارة بأسماء أخرى) وقد ذكر المرحوم المحدث الطهراني في كتاب *«الدرية»* ثلاثين كتاباً من هذه السلسلة^١، وأشهرها بين العلماء وفقهاء المعاصرين كتاب آيات الأحكام للمحقق الأردبيلي رحمته الله المسمى *«زبدة البيان»*، وآيات الأحكام للمفاضل المصنّف المسمى *(كنز العرفان)*.

وجاء في الكتاب الأخير أن من مشهور بين العلماء أنه يوجد خمسمائة آية في القرآن، المحيد حول أحكام الفقهية، إذا أحداً في الحساب الآيات المنكرة في هذا المجال وإلا فاعدد أقل من ذلك^٢.

وقد كُتب في هذا المجال كتاب *«معجزة القرآن في العلوم المعاصرة»* وفيه الآيات ذات العلاقة بالاكشافات العلمية المعاصرة، والتي هي من المعجرات العلمية بلقرآن، وكتاب *«المجتمع والتاريخ»* و *«المعرق في القرآن المجيد»*، وكلها تعبير عن السعي المستمر في التأليف في حقل التفسير الموضوعي.

كما ألفت كتب حول قصص القرآن تمّ فيها توسيع الوقائع لوردة في قصص الأنبياء بواسطة جمع آيات القرآن.

ولكن مع هذا يجب الإدعان بأن كل هذه محاولات ناظرة للتفسير الموضوعي في مجال معين وراوية محددة، وهي ليست بصدد تفسير جامع وشامل لكل موضوعات القرآن، وفي الفترة الأخيرة بذلت محاولات وجهود لتفسير القرآن تفسيراً موضوعياً واسعاً، وهذه الجهود تستحق كل تقدير.

١ الدرية إلى تصانيف الشيعة، ج ١ ص ١٠-١١

٢ كنز العرفان، ج ١ ص ٤

ومن جملة هذه الكتب يمكن ذكر كتاب «مفاهيم القرآن» وقد صدر عدد من أجزاءه بالفارسية والعربية وهو كتاب قيم

ولكن مع هذه المساعي التي تستحق لتقدير يجب الاعتراف بأن مسألة التفسير الموضوعي للقرآن لا زالت في مرحلة البدئية، وتحتاج إلى مسار كي تحتل المكانة المناسبة لها كالتفسير التريبي، وهذا لا يتم إلا بالمضي المستمر الدائب للعلماء والمفسرين، وبلاستفادة من بحار المعاصير وسميتها ووصولها إلى درجة لكمال المطلوب وما تراء في هذا الكتاب هو حنفة من هذه السلسلة التي نأمل لها أن تنضم إلى الحلقات المعتمدة الأخرى، والمهم أن يتحسب أصحاب الطر ومعرفة لأعمال المكررة في هذا المجال، وأن يبادر كل منهم إلى الإبداع والتجديد حتى يتمكن تحت ظل هذه الإبداعات أن يطوي هذا الطريق الطويل

XXXX



الأسلوب الصحيح في التفسير الموضوعي

يوجد أسلوبان للتفسير الموضوعي

الأسلوب الأول: الذي اختاره بعض المفسرين في عملهم، وهو أنهم يتناولون مواضيع مختلفة كالموضوعات المعاندية (سوحيد وسمعاد و...) والموضوعات الأخلاقية (التقوى حسن الخلق و...)، وبعد ذكر بحوث فلسفية وكلامية وأخلاقية يذكرون بعض الآيات القرآنية المرتبطة بالموضوع بعنوان الشاهد على ذلك

الأسلوب الثاني: وهو الذي يتم فيه قبل كل شيء جمع الآيات الواردة حول الموضوع من جميع أجزاء القرآن، وقبل أي حكم أو بدء طر يتم جمع الآيات وتفسيرها مجتمعة، ويجمعها وملاحظة العلاقة فيما بينها بحصل منها على الصورة الكاملة

وهذا لا يملك المفسر شيئاً من عبده مطلقاً ويسير كالظل خلف آيات القرآن فيهم كل شيء من القرآن، ويكون كل همه كشف محتوى الآيات، وإذا أراد الاستعانة بأراء الآخرين

بل حتى بالأحاديث، فذلك في المرحلة الثانية وبصورة مستقلة.

وقد إحترنا هذا الأسلوب في (نصائح القرآن) حيث جمعنا كل الآيات الواردة في كل موضوع وجعلناها في مقدمة كل بحث، وجمعنا كل مسائل البحث تسير تحت ظل الآيات، ونعتقد أن هذا هو السبيل الأمثل لإيصالنا إلى حقائق القرآن

وهذان الأسلوبان متبعان في التفسير المعتاد (التفسير الترتيبي حسب السور والآيات) جماعة يحصلون آيات القرآن على آرائهم وجماعة أخرى يحملون آراءهم تسعة لآيات القرآن، ومن الواضح أن الأسلوب التفسيري بصحيح هو الثاني

القرآن (نور وكتاب مبين) فهو ليس كل الحقائق المرتبطة بسيادة الإنسان «قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ»
(المائدة / ١٥)



حقبات تواجهه للتفسير الموضوعي:

يواجه المفسر في طريقه ثلاثين خطبة مهمة

١- ليس التفسير الموضوعي بأن تجعل فهارس الآيات أمامك وتجمع الآيات التي ورد فيها ذكر لكلمات المواضيع التي تريد البحث فيها، مثل الجهاد والتقوى، لأن الكثير من الآيات تتكلم حول هذه المواضيع بدون أن تذكر فيها كلمة التقوى أو الجهاد، ولا بأس هنا أن نذكر مثلاً واحداً، نحن نعلم أن الله سبحانه «رحيم» و«رحيم» و«أرحم الراحمين» وهذا المعنى وارد في الكثير من آيات القرآن، ولكن توجد آيات تبين هذه الحقيقة بدون استعمال مادة «رحيم»، منها «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَاقِبَتُهَا مِنْ ذَاتِهِ»
(النحل / ٦١)

٢- لابد من الإشارة إلى أن الآية الأولى تشير إلى ظلم الناس وفي الآية الثانية جاء بدل الظلم الاكتساب، ومن جمع الآيتين معا يظهر أن الكثير من الأعمال التي تصدر عن الناس ليست عالية من نوع من أنواع العلم.

ونفس هذا المعنى مع اختلاف يسير ذكر في الآية ٤٥ من سورة فاطر: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾.

هاتان الايتان شيران إلى رحمة الله ولطفه المطلق على عباده من غير أن تُسعمل مادة (رحم) في الآيتين.

٢- العقبة الأخرى التي تعترض التفسير لموضوعي مشكلة جمع الآيات وأخذ النتيجة منها، فهذه العملية تحتاج إلى دقة وعناية ودوق ووعي كامل واحاطة تامة بالآيات القرآنية والتفاسير، وعندما تكون الآيات المرتبطة بموضوع ما كثيرة ويكون لكل منها بعد خاص بها فإن الجمع سيكون أكثر تعقيداً.

مضافاً إلى ذلك فإن التفسير الموضوعي لا يزال يحطو خطواته الأولى ولم يُبذل في هذا النطاق جهد وسعى حثيث، وهذا يجعل الأمر أكثر صعوبة وتعقيداً بالنسبة للمستثنين ويختلف كثيراً عن التفسير المعتاد المتبع منذ نزول القرآن.

٣- العقبة الكبيرة الثالثة **إن موضوعات القرآن الكريم**، هذا الكتاب الإلهي العظيم لا حُد لها ولا حصر، فهي المسائل العقائدية والعنصرية، وفيه المسائل الأخلاقية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وآداب عشرة وحكام الحرب والسلام وتاريخ الأنبياء وأمور الكون والخلق.

وفي كل واحدة من هذه الأمور موضوعات كثيرة بحثها القرآن، ومناقشة كل هذه المسائل تحتاج إلى وقت طويل وصدر واسع.

وأحياناً تبحث الآية الواحدة في التفسير لموضوعي أبحاثاً عديدة من جهات مختلفة، وفي كل بُعد من أبعادها يجب بحث فصل خاص به، في حين تفسر الآية في التفسير الترتيبي تفسيراً واحداً فقط.

لماذا لم يتطور هذا الموضوع من التفسير؟

يبدو أن جواب هذا السؤال قد أتضح من لأبحاث سابقة، فالمشكلات الكثيرة التي تواجه التفسير الموضوعي، قد منعت من تطوره خاصة، وأن التفسير الموضوعي يحتاج إلى معاجم دقيقة وجامعة بحيث يمكن استخراج الآية منها بسهولة ولم تكن توجد في السابق، ولكنها اليوم بحمد الله في متناول الأيدي.

ومن الطريف ما جاء في مقدمة المعجم بقرآني المعروف بـ «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» حيث قال (إن المتقدمين اهتموا كثيراً بأعلوم القرآنية ولكن لم يهتموا بأعداد معجم دقيق لبعض آيات القرآن، والسبب في ذلك أن أغلبهم كان من حفظة القرآن) ولا نعلم مدى صحة هذا الرأي، ولو افترضنا كون الإنسان حافظاً للقرآن فهذا لا يجعله مستعياً عن المعجم، الذي هو وسيلة لا بد منها من أجل تسهيل عملية التفسير الموضوعي (وإن كانت بوحدها ليست كافية)، وهذا العمل لم يتم في السابق إلا بسحو ناقص ودون الطموح أحياناً.



ولا بد من الإشارة إلى مسألة هنا وهي أن جمعاً من المفكرين العربيين والأجانب المعين للقرآن المجيد بدلوا جهوداً من أجل إعداد معاجم لهذا الكتاب السماوي ومن مآدحها المعتبرة كتاب «تجويد الفرقان في أطراف القرآن» بإعداد المستشرق الألماني «فلوغلر» وتأليفات أخرى قام بها المسلمون مثل «مفتاح كنوز القرآن» وكتاب «فتح الرحمن»

وبناءً على ما ورد في مقدمة «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» فإن هؤلاء هم الذين مكثوا المؤلف من إعداد هذا المعجم، فبني البديع وجعله في متناول أيدي علماء الإسلام

وأحر ما نقوله هنا هو أنه على الرغم من جميع المشكلات والمعوقات الموحودة في طريق التفسير الموضوعي، فإن بركاته ومعطياته كثيرة وبغس النسبة وخاصة بالنسبة للعلماء والمحققين، حيث تكشف لهم في صوته الحقائق التي تريد إيماناً وقوة وبشاًطاً

لمواصلة العمل، وتوجع في قلوبهم بار الشوق والصحبة حيث إن مثل الآية القرآنية عندما تتحدث حول موضوع ما لوحدها، كمثال النقطة التي إذا اجتمعت مع نقاط أخرى ورتبت كونهت شكلاً جذاباً وصورة بديعة لم تكن موحودة من قبل، وهذا أمر مهم جداً ويبحث على النشاط والاشياق، وكما ذكرنا فإن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت (عليهم السلام)، أرشدونا منذ البداية إلى التفسير الموضوعي ووردت في كلامهم بمادج مختلفة جميلة وجذابة وقد أشرنا إلى البعض منها.

❦❦❦

وحيث انتهى من هذه المقدمة بعد أن بسا أمام هذا العمل العظيم المملوء بالمصاعب، ولا ريب في أننا لا نستطيع - اعتماداً على أنفسنا - أن نحمل هذه الأمانة ونوصلها إلى الهدف إلا بطلب الله وعونه وعمايته، ونحن هنا بكامل وجودنا توجه إلى الله سبحانه وتعالى ونمد إليه أيدينا قائلين.

إلهنا! حد بأيدينا في هذا الطريق، اهتدنا الصراط المستقيم صراط الدين أعمت عليهم، احفظنا في هذا الطريق الكثير المراق من السقوط في وادي الضلالة، وتفضل علينا بالتوفيق لإتمام هذا العمل على النحو الأحسن.

آمين يا رب العالمين

تم - الحوزة العلمية - ناصر مكارم الشيرازي

٢٦ / محرم الحرام / ١٤٠٨ هـ

كل عمل باسم الله

تمهيد:

علّمنا القرآن الكريم في بداية كل سورة (عدا سورة النوبة) وفي آيات كثيرة أخرى أن نبدأ عملنا باسم الله وأن نطهر أجواء قلوبنا ورواحنا بطيب اسمه

باسم «الله» وهو الجامع للصفات الكمالية

باسم «الرحمن» و«الرحيم».

باسمه الذي هو على كل شيء قدير

باسمه الذي هو بكل شيء عليم

إنّ هذا الاسم المقدّس ينور القلب ويهب للروح الصفاء والقوة والمشاط

ذكر رحمته الخاصّة والعامة يبعث في الإنسان عازماً من الأمل

ذكر قدرته وجبروته يبعث في الإنسان الجرأة لمواجهة المصاعب.

ذكر علمه واحاطته بكلّ فرد وبكل شيء يطمئنّ الإنسان بأنّه ليس لوحده

فإذا بدأنا عملنا بهذه الروح فأننا نسصل إلى العاية المطلوبة بلا شك، وكل سعي وجهاد

يبدّل وفق هذا المنهج فسوف تكون نتيجته الموفقة والفلاح

لذلك فقد ارتأينا أن أقصّل ما يبدأ به بحثنا في هذا الكتاب هو موضوع (بداية كل عمل

باسم الله).

فنبداً أولاً بمناقشة الآيات ذات العلاقة بهذا المعنى، ثم نقوم بعملية التفسير والجمع.

وهي المرحلة الأخيرة بذكر بعضاً مكملته تحت عنوان «توصيحات» وسواصل اتباع هذا

الأسلوب بالترتيب المذكور إلى آخر نكتاب إن شاء الله.

الآيات:

- ١ - ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (كل سور القرآن عدا سورة براءة)
- ٢ - ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (العلق / ١)
- ٣ - ﴿ وَقَدْ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ عَجْزًا وَنُزْأَةً إِنَّ رَبِّي لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾. (هود/ ٤١)
- ٤ - ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنَّ إِلَيْنَا لِمَنْ يَكْتُمُ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُوْنِي مُنْشِينَ ﴾ (النمل / ٢٩ - ٣١)



شرح المفردات:

«الاسم»: يعتقد الكثير من علماء اللغة أن هذه الكلمة في الأصل مشتقة من مادة «سمو» (على وزن علو) بمعنى الارتفاع، وحيث إن التسمية سبب للمعرفة والظهور وعلو الصلة لكل شيء استخدمت كلمة اسم في هذا المعنى (م)

«الرحمن» و «الرحيم». كلمتان مشتقتان من مادة «رحمة» والمعروف أن (الرحمن) يعني ذو الرحمة العامة الشاملة للجميع، و(الرحيم) يوصف بها ذو الرحمة الخاصة، وعلى هذا رحمانية الله جعلت فيصه وبعثته شاملة للعدو ولصديق والمؤمن والكافر، ولكن رحيمته أوجبت للمؤمنين مواهب خاصة في الدنيا والآخرة في حين أن هذه المواهب محرمة على الغافلين والبعيدين عن الله.

والشاهد على هذا الاختلاف ما يلي:

- ١ - «الرحمن» صيغة مبالغة والرحيم صفة مشبهة. وصيغة المبالغة تفيد معنى التأكيد

١ البعض يرى أن الاسم من مادة (وشم) بمعنى (العلامة)، ولكن يبدو أن هذا غير تام لأن جمعه على هيئة أسماء وتصغيره يد (سُشي، وسُشي) يدل على عدم وجود (الو،) في أصله والبعض يعتبره مشتقاً من كلمة (شما) وهي اصطلاح عبري وعند التصريب صارت بهيئة اسم وسما (لتحقيق في كلمات القرآن الكريم) ولكن هذا مستبعد أيضاً ولا شاهد عليه، والشاهد الآخر على عدم كون لاسم مشتقاً من مادة (وسم) أن الهمزة في اسم تسقط عند وصل الكلام ولو كانت من مادة (وسم) الهمزة بدلاً عن الواو ولا ينبغي أن تسقط

ينحو أكثر وتدل على سعة هذه الرحمة، ولكن لبعض يرى أن كليهما صفة مشبهة أو أن كليهما صفة مبالغة، ولكن مع ذلك صرحوا بأن الرحمن تعيد معنى المبالغة الكثيرة^١.

٢- وقال البعض إن الرحيم صفة مشبهة ونفي الإسمرار والثبات، لذلك هي محتصة بالمؤمنين، لكن الرحمن صيغة مبالغة ولا تدل على المعنى المذكور.

٣- «الرحمن» اسم خاص بآله ولا يطلق على غيره، في حين أن الرحيم يقال لله ولغيره، وهذا دليل على أن مفهوم الرحمن يدل على رحمة أوسع.

٤- هناك قاعدة معروفة في الأدب العربي وهي (زيادة المعاني تدل على زيادة المعاني)، يعني أن الكلمة التي حروفها أكثر من مفهومها يكون أكبر وحيث إن (الرحمن) خمسة أحرف و(رحيم) أربعة أحرف فمفهوم (رحمن) أوسع^٢.

٥- كما أن البعض استفاد هذا المعنى من آيات القرآن حيث إن (الرحمن)، ذكر غالباً نحو مطلق، في حين أن (رحيم) ذكر مقيداً في كثير من الموارد، مثلاً، قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَؤُوفٌ رَحِيمٌ».

وقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً»

أما الرحمن فذكر من غير قيود فهو يدل على عموم رحمته

٦- وتشهد بعض الروايات على هذا الاختلاف، ففي حديث ذي معرى ومعاذ عن الإمام الصادق عليه السلام بقرأ: «الرحمن اسم خاص بصفة عامة والرحيم اسم عام بصفة خاصة»^٣.

ولكن مع هذا لا يمكن أن ننفي استخدام الكلمتين في معنى واحد، كما ورد في دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة: «يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما» ويمكن أن يعد هذا استثناءً فلا يناقض الاختلاف المذكور.

«مجرها» و«مرساها»: كلتا الكلمتين اسم زمان أو اسم مكان بمعنى مكان الحركة

١- راجع تفاسير مجمع البيان وروح المعاني والميراث، ج ١ ص ٢٠ و ٥٥ و ١٦ على التوالي

٢- تفسير شيراز، ص ٢٨ روح المعاني، ج ١ ص ٥٦.

٣- تفسير مجمع البيان، ج ١ ص ٦١

وزمانها، أو مكان التوقف وزمانه^١.

الأولى مشتقة من مادة (حريان) والثانية من مادة (رسو) على وزن (رسم) بمعنى الثبات والاستقرار، لذلك يقال للجبال (الرواسي) جمع (راسية)، لأنها ثابتة ومستقرة.

جمع الآيات وتفسيرها

لماذا تبدأ فقط باسم الله؟

هي الآية الأولى (بسم الله الرحمن الرحيم) التي تصدرت كل سور القرآن (ما عدا سورة براءة) يعني تعلمكم أن تبدأوا عملكم باسم الله الرحمن الرحيم وتستمعوا به في أداء عملكم وتنفيذ خططكم^٢.

إن أعمالنا مهما تكن فهي غاية رائلة وصغيرة محدودة، أما عندما ترتبط بالذات القدسية الباقية العالدة التي لا حد لها ولا نهاية، فإنها تستطیع بصفته وتسليم من عظمتها وإرليته قدراتها مهما تكن فهي صغيرة لا تحتل إلا نقطة في بحر، لكن عندما ترتبط تلك القطرات بالبحار العظيمة للقدره الإلهية فإنها تصبح العظيمة وتكتسب روحاً جديدة وهذا كله سرُّ بسم الله في بداية كل عمل.

﴿٢٢٢﴾

في الآية الثانية كلام عن خطاب جبرئيل لأمير في بداية بعثة النبي الأكرم ﷺ عندما احتضن النبي وصمه وقال: «اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ».

وبهذا فقد بدأ جبرئيل منهاج رسالته عند بعثة النبي ﷺ بـ «بسم الله

﴿٢٢٣﴾

١ قال بعض المفسرين إنها اسم زمان فقد كما في (مجمع البيان) والبعض اعتبرها اسم مكان فقط كما في (الميران) والبعض اعتبرها اسم زمان ومكان كما في (تفسير شبرا).

٢ البعض يعتقد أن هناك جملة محدودة وهي «ابتدي» والبعض قال هي «استمع»، هم في صورة كون الجملة عن الله سبحانه كما في جميع السور عند الحمد، حينئذ يتعين المعنى الأول ولكن في خصوص سورة الحمد حيث إن الجملة تعبير عن لسان العباد فيكون فيها المعنى الأول والثاني أو كلاهما وعنى هذا فإن (ب) هي بسم الله إنما بمعنى الاستعانة أو بمعنى الابتداء (تأمل جيداً).

الآية الثالثة تتحدث عن قصّة نوح عندما سدت لحظة الطوفان والجزاء الإلهي الشديد على قومه الكفرة والطغاة، وعندما استعدت السفينة للحركة وصدر الأمر لأصحاب نوح الذين لم يتجاوز عددهم الثمانين بأن يركبوا في لفلك قال (بسم الله مجريها ومرسها) ثم استعان بمغفرة الله ورحمته وقال: ﴿إِنْ رَأَى لَغُورٌ رَجِيمٌ﴾.

❦❦❦

وفي الآية الأخيرة كلام عن كتاب سليمان بن ملكة سبأ بعد أن أحبره الهدد عن قوم سبأ وعبادتهم للأصنام.

وعندما تناولت ملكة سبأ الكتاب جمعت عواصمها وفراديلها وقالت ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتِيْتُ إِلَيْكُمْ كِتَابَ كَرِيمٍ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىٰ وَاتُؤْتَىٰ مُسْلِمِينَ﴾.

❦❦❦

من مجموع الآيات الأربع المذكورة نلاحظ جميعاً أن ابتداء كل عمل يجب أن يكون بـ (بسم الله)، سواء كان في التعليم والهداية مثل سور القرآن أو كان دعاءً من العباد مع الذات القدسية مثل سورة الفاتحة، أو بداية البعثة والرسالة وأول تداء للوحي مثل بداية سورة العلق، أو أنه بداية الحركة للنجاة من لأخطار ولطوفان وبداية توقف السفينة والبرول منها للابتداء بالصهيح الحديد كما في قصة نوح، أو ابتداء الكتاب المرسل من أجل اندعوة للتسليم إلى الحق كما في كتاب سليمان لملكة سبأ.

وحلاصة الكلام أن العمل سواء كان من الله سبحانه أو من الخلق أو من جبرئيل أو من الأنبياء مثل نوح وسليمان أو من عامة الأفراد، يجب أن يبدأ بـ (بسم الله)، ويرتبط بالذات المقدسة ويستمد منه القوة والعلم والإدراك.

وهذا هو معنى الحديث المعروف للبيهي عليه السلام: «وكل أمر ذي بال لم يذكر فيه اسم الله فهو باطل».

والأمر الذي ينبغي ملاحظته أن الصفات التي ذكرت بعد بسم الله في الآيات المذكورة تناسب العمل الذي يبدأ بـ (بسم الله) ففي قصة نوح جاء ذكر (غفور رحيم) وهو إشارة شمول الرحمة الإلهية لأصحاب نوح، وفي قصة رول أول آية جاء ذكر صفة الربوبية والخالقية ونحن نعلم أن مسأله الوحي بداية لعمل تربوي وعلى هذا فإن التربية التشريعية تفتقر بالتربية التكوينية.

وبهذا معلوم أن الاستفادة من ذكر الصفات لمناسبة هو بمثابة درس للجميع حول كيفية ابتداء أعمالهم بـ (بسم الله).

﴿٢٨﴾

توضيحات

١ - الأهمية الخاصة للبسملة

يلمس في الروايات الإسلامية أهمية كبرى لهذه الآية المباركة وأنها في درجة (السم لله الأعظم). كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال «بسم الله الرحمن الرحيم أقرب إلى اسم الله الأعظم من ناظر العين إلى بياضها»^١

وفي حديث آخر عن الإمام الرضا عليه السلام «أقرب من سواد العين إلى بياضها»^٢

إن (بسم الله) أهمية بالغة إلى درجة بحيث أن بعض الروايات ذكرت أن في تركها تعريض النفس للعقاب الإلهي، كما ورد في رواية أن عبد الله بن يحيى دخل في مجلس أمير المؤمنين عليه السلام وكان أمامه سرير فأمره الإمام أن يجلس عليه فتعظم السرير فجأة ووقع عبد الله على الأرض وجرح رأسه وجرح منه بدم فأمر أمير المؤمنين عليه السلام بماء فغسلوا الدم ثم وضع الأمير يده على الجرح فأحس عبد الله بأنه شديد في قول الأمر ثم برىء جرحه فقال الإمام عليه السلام «الحمد لله الذي يغسل ذنوب شعبنا ويظهرها بالحوادث المؤلمة».

١ تفسير البرهان، ج ١، ص ٤٦، ح ٢

٢ المصدر السابق، ح ٩

فقال عبد الله: يا أمير المؤمنين لقد بهتني، خبرني أي ذنب ارتكبته حتى أصاب بهذا الحادث المؤلم كي لا أعود إلى ذنبي فإن ذلك يسعدني.

فقال عليه السلام: «عندما جلست على السرير لم تقن: (بسم الله الرحمن الرحيم) ألم تعلم أن رسول الله ﷺ قال عن لسان ربه: (إن كل عمل ذي بال لم يبدأ فيه بسم الله فهو أهر ولا ثمرة فيه)».

فقال عبد الله: فديتك لا أدعها بعد هذا أبداً.

فقال الإمام عليه السلام: «إذن ستكون سعيداً»^١.

ولكن من الواضح أن الاسم الأعظم أو بسم الله الذي هو أقرب ما يكون إليه ليس المقصود منه جريان العاطفة على اللسان، فالتلفظ لوحده لا يجعل العقد المستصية ولا يفتح أبواب الخيرات والبركات ولا يستظم به شئ من الأمور، بل المراد هو التعلق به.

يعني أن مفهوم بسم الله يجب أن يدوب في روح الإنسان وباطنه. وعندما يتلفظ بها بلسانه يشعر أن كامل دقائق وجوده قد دخل في الجحوى الإلهية وصار من أعماق وجوده يستمد من داته المقدسة

ويبغى الانتشاء إلى أن التأكيد على الابتداء بسم الله ليس فقط في الكلام وإنما في الكتابة أيضاً كما في كتاب سليمان عليه السلام إلى بنقيس

في حديث الإمام الصادق عليه السلام: «لا تدع البسملة ولو كتبت شعراً» ثم ذكر الإمام عليه السلام أنهم كانوا يبدأون رسائلهم قبل الإسلام بعبارة (سمعت لله).

ولما نزلت الآية الكريمة «إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَهُوَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، بدأوا رسائلهم بعبارة (بسم الله).

وفي حديث آخر نقرأ أن الإمام الهادي عليه السلام وصى أحد وكلائه وهو داود الصرمي الذي قال: أمرني عليه السلام بحوائج كثيرة فقال لي قل كيف تقول؟، فلم أحفظ مثل ما قال لي، فسمعت الدواة وكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» اذكر إن شاء الله والأمر بيد الله، فتبسمت، فقال: «ما

لك» قلت خير فقال: «أخيرني» قلت جعلت فداك ذكرت حديثاً حدثني به رجل من أصحابنا عن جدك الرضا (عليه السلام) إذا مرّ بحاجة كتب: «بسم الله الرحمن الرحيم» اذكر إن شاء الله فتبسمت، فقال لي: «يا داود لو قلت إن تارك التسمية تارك الصلاة لكنت صادقاً»^١.
 إن لبسم الله أهمية بالغة وعظيمة بحيث مرأى في حديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا قال المعلم للصبي بسم الله الرحمن الرحيم (ويكرر الطفل ذلك) كتب الله براءة للصبي وبراءة لأبيه وبراءة للمعلم»^٢.

ونختم هذا الكلام، بمقالة مشهورة بين جماعة من المفسرين وهي:

إن معاني كل الكتب الإلهية مجموعة في القرآن

ومعاني كل القرآن مجموعة في سورة الحمد

ومعاني كل سورة الحمد في بسم الله.

ومعاني بسم الله مجموعة في الباء^٣.

وتتمركز جميع مفاهيم القرآن والكتب الإلهية في باء بسم الله يمكن أن يكون لكون أن كل المخلوقات في عالم التكوين، وكل التعليمات في عالم التشريع تستمد وجودها من الدات المقدسة حيث إنها على العنل لجميع الكائنات، ونعلم أن باء بسم الله هي الوسيلة للاستعانة وطلب البصرة من الله وهذه مسألة جديرة باندقة واسأمل



٢- هل لن بسم الله جزء لكل سورة؟

لم يجد المفسرون وعلماء العلوم القرآنية لبسمة من آيات السور عند حسابهم للآيات القرآنية إلا في سورة الفاتحة، التي أجمع النعماء وانفقوا على أن البسمة جزء منها ولذلك

١ سفينة البحار، ج ١، ص ٦٦٢، مادة (سما)

٢ تفسير البرهان، ج ١، ص ٤٣، ح ٣٢

٣ تفسير روح المعاني، ج ١، ص ٣٧

فقد ذكروا أن آياتها سبع ومنها البسملة.

وكذلك فإن أحد الأسماء المعروفة لهذه السورة هو «سبع المثاني» لأنها سبع آيات «مثنائي»، لأنها مرت على رسول الله ﷺ مرتين بطراً لاهميتها ولكن مع هذا فإن كتابة البسملة في جميع مصاحف القديمة والجديدة دليل قاطع على جريئتها للسور.

روى عن عبد الله بن عمر، أنه كان يبدأ الصلاة بعد التكبير قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، وكان يقول إذا لم تقرأ بسم الله الرحمن الرحيم فماداً كتبت في القرآن؟^١

وورد السيوطي في المحلّد الأول في تفسيره اندر المثنور وهو عالم معروف من أهل السنة روايات كثيرة حول جرئية بسم الله لسورة الحمد

وهناك روايات كثيرة من طرق أنفة الهدى وأهل البيت عليهم السلام وردت في جرئية بسم الله لسورة الفاتحة ولبعة سور القرآن الكريم، لذلك فإن علماء الشيعة متفقون ومجمعون على جزئيتها في جميع الموارد^٢

وبذكر مثلاً على الأحاديث الواردة من طرق أهل السنة ما ورد عن «جابر بن عبد الله» أن النبي ﷺ قال له «إذا قمت للصلاة فكيف تقرأ؟» فقال جابر: أقول الحمد لله رب العالمين (أي بدون بسم الله) فقال له النبي ﷺ قل «بسم الله الرحمن الرحيم»^٣

ومن أجل رفع سوء الفهم والنوهم أصدر النبي ﷺ أن يجهر بالبسملة في كثير من الصلوات، تقول عائشة: «إن رسول الله ﷺ كان يجهر بسم الله الرحمن الرحيم»^٤

وفي حديث آخر يقول أحد أصحاب النبي ﷺ: كنت أصلي حلف النبي ﷺ وكان

١ سنن البيهقي، ج ٢، ص ٤٣-٤٧

٢ راجع كتب الخلاف للشيخ الطوسي، ج ١، ص ١٠٢ مسألة ٨٢؛ سنن البيهقي ج ٢ ص ٤٤-٤٥-٤٦ تفسير در

المثنور، ج ١، ص ٧-٨ البيان في تفسير القرآن، ص ٥٥٢

٣ تفسير در المثنور، ج ١، ص ٨

٤ المصدر السابق.

يجهر بيسم الله في صلوات المغرب والعشاء والصبح وصلوة الجمعة خاصة^١.
 والملفت للنظر ما رواه البيهقي من أن معاوية صلى بأهل المدينة فتلاً بسم الله الرحمن
 الرحيم في أول سورة الحمد. ولكن لم يقرأ بسم الله لسورة التي بعدها ولم يكبر حتى ذهب
 للركوع، فعندما سلم للصلاة اعترض عليه جماعة من المهاجرين وقالوا: أسرقت من الصلاة
 أم نسيت؟ فكان معاوية بعد ذلك يقرأ بسم الله لسورة بعد الحمد أيضاً^٢.
 ولكن مع ذلك فإن جماعة من علماء السنة لا يوافقون البسلة في الصلاة وحتى في
 سورة الحمد أو يقرأونها احفاناً. ومما يلفت النظر أن الفهر الرازي ذكر في تفسيره تسعة
 عشر دليلاً على إثبات أن بسم الله الرحمن الرحيم جزء من سورة الحمد وأكثرها روايات
 عن النبي الأكرم ﷺ.

الأكوسي معتر القرآن المعروف ناقش هذه الأدلة في تفسيره (روح البیان)، ولكنه
 يصرح بأن البسلة آية مستقلة في القرآن وإن كانت ليست جزء من سورة الحمد^٣.
 فهو يعترف بأن السسلة جزء من القرآن، لكن لا يعلم لماذا يصر على أنها آية مستقلة
 وليست جزء من سورة الحمد.

ومهما كان فلا يعنى أن السسلة موجودة في جميع المصاحف طوال التاريخ الإسلامي
 في بداية جميع السور إلا سورة البراءة، ومن المسلم أن هذا يأمر من النبي ﷺ ولا يمكن أن
 يعقل أن النبي ﷺ أمر أن يكتب في القرآن شيء ليس منه، وعلى هذا فلا حاجة لنا إذا فصلنا
 البسلة من السور لأن هذا نوع من أنواع لتحريف للقرآن الكريم.
 ولهذا يقول الإمام الباقر عليه السلام في مثل هؤلاء: «سرقوا أكرم آية في كتاب الله: بسم الله
 الرحمن الرحيم»^٤.

١ تفسير در المنثور، ج ١، ص ٨.

٢ ذكر «الحاكم» هذه الرواية في المستدرج، ج ١ ص ٢٣٣ واعتد بسدها، وورد نفس هذا المضمون بتفاوت

ضئيل في تفسير در المنثور، ج ١، ص ١٨ وتفسير روح المعاني، ج ١، ص ٣٩.

٣ تفسير روح المعاني، ج ١، ص ٣٧.

٤ تفسير البرهان، ج ١، ص ٤٢، ح ١٥.

ويصيف الإمام الصادق عليه السلام: «ما لهم قاتلهم الله صعدوا إلى أعظم آية في كتاب الله فزعموا أنها بدعة إذا أظهروها وهي بسم الله الرحمن الرحيم»^١

ولهذا فقد ورد عن الأئمة عليهم السلام الإصرار على لجهر بسم الله الرحمن الرحيم خاصة وفي جميع الصلوات الليلية والنهارية لأجل القضاء على هذه البدعة الموروثية

وخلاصة الكلام أن أهمية البسملة بين آيات القرآن أوضح من أن تحتاج إلى البحث ولذلك يحب أن يعطى أهمية كبيرة، ومن المؤسف أن البعض من صاقدى الذوق لسليم وحشية من أن تقع كتاباتهم بأيدي الأفراد غير المتوصفين أو أن تُداس بالأقدام أو تقع في الأرقعة والأسواق، يمتنعون من كتابة لبسملة في رسائلهم وكتاباتهم، ويضعون محلها عدداً من النقاط عاقلين عن أن سمته ترك بسم الله أشد بكثير من هذه المساويء.

بعض مأمورون بأن يكتبوها، وأن تسعى من أجل المحافظة عليها واحترامها، وقد لم يراع الآخرون الحرمة اللازمة فلسفاً ومسؤولين عن أعمالهم، ولا ينبغي لنا أن نترك البسملة لهذا المذنب لأن الضرر الذي يصيبنا سيكون أكبر.

لذلك نفعل لنا التاريخ أن أول سكة ضربت في الإسلام كانت في زمان «عبد الملك بن مروان» وبأمر من الإمام الباقر عليه السلام «كتب على أحد وجهيها «لا إله إلا الله» وعلى لوجه الآخر «محمد رسول الله» عليه السلام. ومن الواضح أن هذه السكة تقع في أيدي عامة الناس حتى غير المسلمين الذين كانوا يعيشون في محيط للإسلام، فلم تكن مراعاة هذا الأمر مأمرة من ضرب السكة والشعارات الإسلامية الحية ولا ينبغي لها أن تكون^٢.

❦❦❦

٣- لماذا لم تذكر بسم الله في بداية سورة براء؟

الجواب على هذا السؤال ورد صريحاً في حديث روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لم تنزل بسم الله الرحمن الرحيم على رأس سورة براء» لأن بسم الله للأمان والرحمة، ونزلت

١ تفسير البرهان، ج ١، ص ٤٢.

٢ تاريخ المدن الإسلامي، جرجي زيدان، ج ١، ص ١٤٣.

برامة لرفع الأمان وبالسيف^١ يصي رفع الأمان عن الكفار الناكثين لليهود.
ويعتقد جماعة بأن هذه السورة تنمى لسورة الأنفال لأن سورة الأنفال تتكلم عن اليهود
ولهذا لم يذكر بينهما «بسم الله الرحمن الرحيم».
وهذا المعنى ذكر في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام «الأنفال والبرامة واحدة»^٢.
واحتمل أيضاً أن الله سبحانه ومن أحل أن يبيّن حقيقة أن البسملة جزء في جميع سور
القرآن لم يذكرها في بداية هذه السورة
والجمع بين هذه الأقوال الثلاثة ممكن.
وهناك آيات متعددة حول البسملة في قرآن وخصوصاً في مورد دبح الحيوانات ،
والكلام عنها ينبغي أن يكون في محل آخر.

٤ - لا تقرنوا اسم الله باسم غيره^٣

إن القادر المطلق والرحيم الحقيقي هو الذات الإلهية المقدسة سبحانه وتعالى.
وما عالم الوجود إلا مائده من مائدة أحسانه. وكل ما لدينا منه فبحسب طلب الحاجة
والعون منه والابتداء باسمه. والآيات المتعينة «بسم الله» والروايات الواردة في هذا المجال
كلها تؤكد على هذا المعنى.

ولهذا فإن الذين يقرنون مع اسم الله اسم غيره كالطواغيت الذين يصنعون أسماء
السلطين المتعبرين والمنكبرين إن جنب اسمه سبحانه ويعتصمون بها ويبدأون بها، أو
الأشخاص الذين يبدأون أعمالهم باسم (الله) «و الشص» ، كل هؤلاء في الحقيقة مصابون
ببوع من الشرك، وحتى اسم النبي ﷺ لا ينبغي أن يقرن إلى جنب اسم الله في هذا المجال
فلا يقال بسم الله وبنيته.

ففي حديث ورد في تفسير الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) «إن رسول الله ﷺ كان

١ تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢ وهذا الحديث ذكره الطبري عن ابن عباس عن علي عليه السلام مع اختلاف
يسير وقال عليه السلام: لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان وهذه السورة نزلت بالسيف وبهد اليهود وليس فيها أمان.

٢، تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ١

جالساً يوماً مع أمير المؤمنين علي عليه السلام فسمعا شخصاً يقول « ما شاء الله و شاء محمد » وآخر يقول « ما شاء الله و شاء علي ».

فقال رسول الله ﷺ « لا تقرنوا محمداً ولا علياً بالله عز وجل ».

ثم اضاف : « ولكن إذا أردتم قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد ، ما شاء الله ثم شاء علي » ،
يعني اعلموا أن مشيئة الله قاهرة وعالية على كل شيء فليس لها في الوجود من مساوٍ أو
نظير أو قرين ، وما محمد في دين الله وأمام قدرة الله إلا كطير يحلق في فضاء هذا الكون
الواسع وكذلك علي ١.

❦❦❦

١ (إنها الهداية ج ٧، ص ٤٨٢، ح ٧٩) مع قليل من التصحيح)



نظرية المعرفة

تمهيد:

إن أول قضية تواجه الإنسان هي بعائته انعمية هي فسيه المعرفة. وأول سُئلة تنقدح في ذهن الإنسان هي:

١- هل هناك عالم موجود خارج وجودنا؟ ما سمعه ليس لاكاروياً ولا أحلام التي مراها في منامنا وأن ما وراء الطبيعة ما هو إلا وهم وحيال؟

٢- إذا كان هناك عالم ما وراء الطبيعة فهل بإمكاننا إدراكه ومعرفة؟

٣- إذا وجد عالم في الخارج وأمكننا معرفته، فما هي الطرق التي يجب أن سنلتكها للوصول إلى معرفته وما هي مصادر معرفته؟

هل أن طرق الاستدلالات العقلية كاف لذلك، أم عن طريق التجربة والعلوم التجريبية الطبيعية؟

أم عن طريق الوحي أو بواسطة طرق أخرى؟ وفي هذه الطرق أفضل وأكثر اعتماداً؟

٤- أصف إني ذلك ما هي الوسائل التي نستطيع بها معرفة لعالم؟

٥- وبعد قبول المسائل المذكورة بطرح هذه السؤال وهو ما هي الأمور التي تؤدي إلى تقوية وتوسيع مجالات وآفاق المعرفة عند الإنسان، وتحمل روحه وقلبه أكثر استعداداً لتلقي المعارف؟

وما هي الموانع والعقبات التي تعف حائلاً بين الإنسان والمعارف الحقيقية لعالم لوجوده، وتجبره إلى العيرة والصلال؟

هل هناك عالم خارج لأذهاننا؟

حول هذه المسألة الأولى انقسم الفلاسفة إلى قسمين

١- «الواقعيون» (رئاليسم).

٢- «المشككون أو المثاليون أو التصوريون» (أيدياليسم).

والقسم الثاني في الواقع هم فرع من السوفسطائيين المنكرين للحقائق بل إن البعض يعتقد أن السوفسطائيين هم أنفسهم المثاليين الذين يعترفون بوجود أنفسهم وأذهانهم ويعتبرون ما سواه وهماً وحيالاً، وبلا فكيف يمكن لعقل أن ينكر كل شيء حتى وجود نفسه إلا أن يكون مصاباً بخلل عقلي.

وعلى أية حال فإن أفضل الطرق لإدراك ما وراء الطبيعة هو ايكال الأمر إلى الوجدان. الوجدان العام لكل الناس ولجميع العقلاء، بن حنى وجدان المثاليين أنفسهم شاهد على هذا المدعى.

لأن كل المخلوقات عندما تشعر بالعطش تقوم بالبحث عن الماء، فالمعش والماء وبأثير الماء في رفع العطش أمور يدرّكها حتى الأطفال والحيوانات، والسوفسطائيون أيضاً لا يحتفلون في عملهم عن الآخرين. فعندما يرى الإنسان أن يعبر شارعاً مزدحماً يقف بجانب الشارع قبل كل شيء وينظر يميناً وشمالاً، وينظر حتى يخلو الشارع من السيارات فيعبر الشارع مع الاحتياط، خشية أن تدهسه سيارة فيصاب بأذى أو جراح.

هذا العمل يتساوى فيه الواقعيون والمثاليون فانكل يعترف بوجود الشارع والسيارات وخطر الدهس والاصطدام والأمور الأخرى، وكثهم يعبرون الشارع مع الحيطة والتحفظ. وهكذا عندما يمرض الإنسان ويرى الآثار غير العادية للمرض في نفسه، فيراجع الطبيب فيأمره الطبيب بأن يجري له التحليل وبعد ذلك يكتب له الطبيب وصفة الدواء، ويحدد له الغذاء المناسب وأوقات تناول الدواء والغذاء ومقاديره، فيرى المريض نفسه مكلفاً بأن يمثل لهذه الأوامر كي يستعيد صحته السابقة.

وفي كل ذلك لا فرق بين الواقعيين والمثاليين، فالكمل يستجيبون للمرض بواسطة

ادراكهم الوجداني ويعترفون بالمشكلات من الحقائق العينية، من آثار المرض إلى وجود الطب والطبيب والمختبرات والدواء والغذاء.

وبهذا الدليل نقول «إن المثاليين في الحقيقة رقييون»^١

وإن المشككين عندما يردون مبدأ الحياة يتناسون كلامهم ويرون أنفسهم أمام الواقع العيني فيتعاملون معه وفق ما يقتضيه.

وقد أيد القرآن الكريم في آياته لكريمه صحة هذا معنى فكل آيات القرآن تحير عن الحقائق والواقع العيني الخارجي، من سموات وأرض وملائكة وبشر وعالم الطبيعة وما وراءه والديا والآخرة.

وإن هذا الأمر في القرآن بدرجة من الوضوح والحلاء بحيث لا يحتاج إلى بحث أكثر، لذلك نهى هذه المسألة وشتغل إلى مسألة إمكان المعرفة^٢

❦❦❦

١ تؤكد هنا مرة أخرى بأن هذا في جميع مباحث هذا الكتاب ليس متبعية لأراء الفلسفية أو التاريخية أو بل هدفنا في الأصل التفسير الموضوعي يعني متبعية البحث من نظر القرآن ومدى انعكاس الموضوع في الآيات المختلفة وإذا وجدت ضرورة للبحوث الفلسفية وغيرها فستعدها بحوثاً منفصلة بعضون توضيحات في الخاتمة.

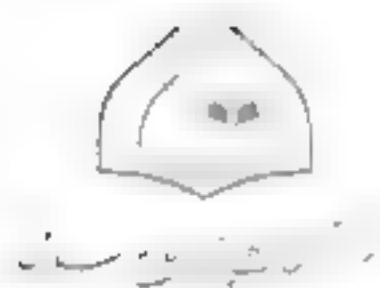


القرآن

و ضرورة المعرفة



٤٠ ملاحظة قرآنية حول أهمية العلم والمعرفة



القرآن وضرورة المعرفة

تجهيز:

لم يعتبر لقراء القرآن الكريم مسألة معرفة الإنسان لما وراء الطبيعة أمراً ممكناً فحسب بل اعتبرها من أهم الضرورات.

فالقرآن يدعو إلى معرفة أسرار عالم الوجود وحل رموز الكون والمعنويات، ويستخدم القرآن في دعوته لأتباعه **المرود بالعلم الأساليب الصريحة والظاهرة المباشرة وغير المباشرة**

والبحث فيما صرح به القرآن في هذا المجال بفتح أنما أعيناً أفعاً جديداً، ويرينا أن أمر المعرفة من الواجبات المؤكدة وبمستوى عال جداً من الأهمية.

والطريف إن هذه الدعوة قد جاءت في زمان ومكان كانت قد عطت الأفق فيه سحب الجهل الظلماء، حقاً إن عمق وسعة ماورد في نمرآن يدل قبل كل شيء على عظمة لقراء وصدق المبعوث به.

ومن أجل ذلك نطالع آيات القرآن ونبحث عن ماورد من تعابير مختلفة في هذا المجال هذه الدعوة لها وجوه متنوعة وبشكل كمن، وقد جمعنا (أربعين أمودجاً) من الآيات المختلفة وكل واحد منها يطر إلى هذه المسألة المصيرية من زاوية خاصة

وفي الصمن ذكرنا في الحواشي الروايات معتبرة متناسبة مع الآيات، ليتضح التسبيق والسنخية الكاملة بين الكتاب والسنة

١- وجوب تحصيل العلم

وردت في (٢٧) آية من القرآن المجيد دعوة صريحة للترود بالعلم، والاستفادة من جملة «اعلموا» إليكم نماذج منها

- ١- «وَعَلِّمُوا أَنْ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (البقرة / ٢٠٩)
- ٢- «وَعَلِّمُوا أَنْ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» (البقرة / ٢٣١)
- ٣- «وَعَلِّمُوا أَنْ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» (البقرة / ٢٣٣)
- ٤- «وَعَلِّمُوا أَنْ اللَّهَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» (الحديد / ١٧)
- ٥- «وَعَلِّمُوا أَنْكُمْ إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ» (البقرة / ٢٠٣)
- ٦- «وَعَلِّمُوا أَنَّ عَلَى رُسُوكَ الْبَلَاغُ الْبَيِّنُ» (المائدة / ٩٢)
- ٧- «وَعَلِّمُوا أَنَّكُمْ غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُسْنَهُ وَلِلرَّسُولِ» (الأفعال / ٤١)
- ٨- «وَعَلِّمُوا أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ» (الحديد / ٢٠)

❦❦❦

الآيات الأولى والثانية والثالثة ^{التي} ^{تدبر} ^{إلى} ^{نداب} ^{إلهية} ^{المعدسة} ^{وإلى} صفاته الأعم من «صفات الذات» و«صفات الفعل»

الآية الرابعة تشير إلى الحياة والخلق

الآية الخامسة تتحدث عن القيامة والحشر

الآية السادسة تتكلم عن النبوة وسالة النبي ﷺ .

الآية السابعة تبين الأحكام العملية الإسلامية

والآية الثامنة ترينا الوجه الحقيقي للدين وتظهر لنا تماهتها، كأسلوب للدعوة إلى الهدى

والتقوى والنحاة من حب الدنيا وما يترتب عليه من ذنوب.

وبهذا نستنتج أن كل ما يرتبط بالعقائد ولأعمال ومنهج الحياة قد ورد مشفوعاً بكلمة

(اعلموا) وهي تنص دعوة للتسلح بالوعي و معرفة في كل هذه المجالات^١

١ ورد أيضاً التأكيد الكثير في الروايات لاسلامية على حب العلم والعلم والعلم فريضة على

٢ - التأكيد المتواصل على عدم تركه للتفكير

تارة يقول سبحانه «أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ» (الأنعام / ٥٠)
وتارة يقول بعد بيان الآيات الإلهية المحنفة الأعم من التكوينية والتشريعية. «وَلَعَلَّكُمْ
تَتَذَكَّرُونَ» «وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ». (المرء / ٢١٩) و(الاعراف / ١٧٦)
وأحياناً يقول. «أَوَلَمْ يَتَذَكَّرُوا». (الروم / ٨)
كل هذه الآيات تدل على ضرورة التفكير، وهذه لضرورة من التفكير تدل على إمكان
المعرفة^١.



٣ - التأكيد على لزوم التعليم والتعلم

حاء في سورة النوبة:

«فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا
إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ» (النوبة ١٢٢)

هذه الآية الكريمة لا تؤكد على تعلم الدين الإلهي فحسب بل تحت على تعليمه وشره
بعد تعلمه أيضاً.

و لتعبير بـ (نفر) تطلق على الخروج إلى ميدان الجهاد وقد استعمل في الآيات القرآنية
الأخرى بهذا المعنى وعلى هذا فإن أفراد الأمة لإسلاميه في غير لحالات الضرورية لا
يجوز لهم الخروج بأجمعهم إلى ساحة القتال، بل يسقى على مجموعة منهم أن يبقى في
المدينة لتتعليم الأحكام الإلهية وتعلمها بالآخرين بعد رجوعهم

١ كل مسلم ومسلمة (المروي عن النبي ﷺ شاهد واضح على هذا المعنى، بعد الأسوار، ج ٦، ص ١١٧،
والإمام الصادق عليه السلام «طلب العلم فرصة على كل حال»، ج ٢، ص ١٧٢

١ جاء في حديث عن النبي ﷺ «أعدوا عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ولا تكن العامس» المسجدة، ج ١،
ص ٢٢

والتفسير الآخر للآية هو أن المسلمين يجب أن ينقسموا إلى قسمين: قسم يبقى في المدينة لمحافظة عليها، وقسم يذهب إلى ميدان الجهاد ليُشاهد آثار العظمة الإلهية والمعجزات والامدادات العينية وانصر الإلهي، ثم بعد رجوعهم يُخبروا سائر الناس بذلك. وهناك احتمال ثالث هي تفسير الآية وهو ضرورة تغير بعض سكان ضواحي المدينة إليها ليتقوها في أحكام الدين وتبليغها للآخرين عند الرجوع. ومكث البعض الآخر في تلك المناطق لحفظ نظام الحياة هناك^١

ولكل تفسير مهزة لا توجد في التفسير الآخر^٢.

ولكن بعض النظر عن الاختلاف في التفسير، فإن ما نسمى لإثباته - وهو وجوب التعلم والتعليم - ثابت بلا منازع، وتأكيده لقرآن عني هذين الواجبين دليل واضح على إمكان ضرورة المعرفة^٣.

XXXX

٤ - العلم والمعرفة هما للهدف من خلق للعالم

«اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَفِي الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا».

(الطلاق / ١٢)

لقد شرحنا المراد من السماوات السبع ولأرضين ما فيه الكفاية في التفسير «الأمثل»^١

١ تفسير الكبير، ج ١٦، ص ٢٢٥، تفسير الميزان، ج ٩، ص ٤٢٧، تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٨٣.

٢ في التفسير الأول مرجع الضمير في جملة (اليتقون، واليذرو) اسم محذوف والتقدير هو «وتبقى طائفة»، وهذا فيه حذف والحذف يضر خلاف الظاهر يساً (بمعنى) جاء بمعنى المحارها، هذه نقطة قوة التفسير الأول في التفسير الثاني مرجع الضمير مذكور وهو (طائفة)، لكن شامي ضعف لأن ميدان الجهاد ليس محلاً للتعلم إلا بالتوجه الذي ذكر، وفي التفسير الثالث بقدر المحذوف، نكتة يتفق مع الروايات التي تفسر التفسير (بالهجرة للتعلم في الدين)، «ذكر في تفسير الثقلين ٩ روايات في هذا المعنى».

٣. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لو ددت أن صحابي صرحت رؤوسهم بالسياط حتى يتقوها» (أصول الكافي ج ١، ص ٣٦).

٤. بالنسبة لسماوات السبع يرجع إلى، ديل الآية ٢٩ من سورة البقرة وبالنسبة للأرضين السبع إلى ديل الآية ١٢ من سورة الطلاق.

وكيفما كان فإن الآية تبين بوضوح حقيقة أن أحد أهداف لحلق هو العلم والمعرفة، وتعريف الإنسان بعلم الله وقدرته وصفاته وذاته، وهذه الآية صريحة في بيان إمكان المعرفة إلى حد بعيد^١.



٥ - الهدف من بعثة الأنبياء، هو التعليم والتربية

إن القرآن الكريم ذكر هذه المسألة بشأن الرسول الكريم ﷺ عدة مرات، من حملتها ما جاء في سورة البقرة

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾
(البقرة / ١٥١)

وقد جاء هذا المعنى في كل من الآيات ١٢٩ من سورة البقرة و ١٦٤ من سورة آل عمران و ٢ من سورة الجمعة

فإذا كانت المعرفة غير ممكنة، فكيف أمكن أن تكون المعرفة أحد الأهداف المهمة لبعثة الرسول الأكرم ﷺ؟



٦ - التفكير والتدبر هو الهدف من نزول القرآن

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾
(سورة محمد / ٢٤)

١ جاء في حديث أن الإمام الحسين بن علي عليه السلام قال: «أيتها الناس إن الله جلّ ذكره ما خلق العبد إلا ليعرفه، فإذا عرفه عبده، فإذا عبده استعبر بهادته عن عبادة ما سواه» (بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٣١٢).

٢ يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «كفى بالعلم شرفاً أن يدعى من لا يحسنه ويخرج إذ سب إليه وكفى بالجهل ذلاً أن يبرأ منه من هو فيه» (بحار الأنوار، ج ١، ص ١٨٥).

مادتها (قبر) وتعني ظهر الشيء، ومن ثم استعملت بمعنى التفكير والتفكير بعواقب الأمور، وذلك لأن عواقب الأمور ونتائجها تتضح بالتفكير
 إن الآية الأولى أوضحت أن التدبير هو هدف نزول القرآن كي لا يفتن الناس بقراءة الآيات ككلمات مقدسة فحسب ويسوا الهدف الأخير منها
 والاية الثانية اعتبرت ترك التدبير دليلاً على أفعال القلوب وتعطيل الحس.
 وعلى أي فإن هاتين الآيتين دعوة عامة للتدبر، دعوة تثبت بوضوح إمكانية المعرفة^١
 ﴿٢٨﴾

٧- المعرفة هي الهدف من المعراج

«سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»
 (الاسراء / ١)
 ونفس معنى الاية هذه ورد في سورة الحج، حيث تحدثت عن المعراج بأسلوب آخر، والاية هي:

«لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى»
 (الحج / ١٨)
 تبين هاتان الآيتان - على الأقل - أحد لأهداف المهمة لمعراج النبي ﷺ وهي نصيبه رؤية آيات الحق الكبرى، الرؤية التي تعتبر لهم مصادر المعرفة^٢

٨- الدعوة للإسلام بدأت بالدعوة للعلم

«اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ • خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ • اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ • الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ • عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»
 (العلق / ١ - ٥)
 إن هذه الآيات التي تعتبر أول أنوار الوحي التي شغقت في قلب لرسول الطاهر ﷺ في

١ يقول الإمام الكاظم عليه السلام لهشام بن الحكم: «ما بعث الله أنبياء إلى عباده إلا ليعتبروا عن الله فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة» (أصول الكافي ج ١، ص ١٦).

٢ للتفصيل راجع التصير الأمثل دبل الاية ١٨ من سورة النجم

غار «حراء» في جبل «ثور»، بدأت بقضية المعرفة وحثمت بها.
 استهلّت الآيات بحث الرسول الأعظم ﷺ عن الفراءة التي هي إحدى وسائل المعرفة،
 وحثمت بالبحث عن المعلم الأعظم ليكون أي الله الذي يُعتبر الإنسان تلميذه المُبتدئ.
 أليست هذه كلها دلائل واضحة على إمكانية معرفة؟



٩- تعلم نور وفيما.

«قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ» (الرعد / ١٦)
 «وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ • وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ • وَلَا الظُّلُ وَلَا
 الْحَرُورُ».

إن هذه الآيات جعلت الظلمات في عدد د العي، والنور في عدد د البصر، وهي إشارة إلى
 أن العلم نور وصياء، والجهل يساوي العمى وهي من أجمل التعابير لتشجيع على المعرفة.



١٠- إدر الله أسرار الوجود خاص بالعلماء.

«وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
 لِّلْعَالَمِينَ» (الروم / ٢٢)

«وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ» (العنكبوت / ٤٣)
 في الآية الأولى عدد إدراك أسرار كذب التكوين خاصاً بالعلماء وفي الثانية عدد فهم
 كتاب التدوين خاصاً بهم كذلك.

وهذا تشجيع لطلب العلم والمعرفة من جهة ودليل على مسألة المعرفة من جهة أخرى.



١ يقول الرسول الأكرم ﷺ «العلم نور يقدّمه الله في قلب من يريد أن يهديه» (النوافي، ج ١ ص ٧)

١١ - لَئِلاَّ نُولَ مَعْلَم

(البقرة / ٣١)

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾.

(الرحمن / ١ - ٤)

﴿الرَّحْمَنُ • عَلَّمَ الْقُرْآنَ • خَلَقَ الْإِنْسَانَ • عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾.

(العلق / ٤)

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾.

(العلق / ٥)

﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

إنَّ معلم الكون العظيم مائة يعلم آدم الأسماء، وتارة أخرى يعلم الإنسان ما يحتاجه وما لم يعلمه (بواسطة التكوين والتشريع).

وتارة يوعز للإنسان بساؤل القلم لتعلم الكتابة، وتارة أخرى يجري على لسانه حرفاً أو حرفين ويعلمه الكلام، وهذا يكشف عن إحدى صفاته عز وجل هي تعليم العباد، التعليم الذي هو وسيلة للمعرفة

XXXX



١٢ - بِالْعِلْمِ يَتَمَيَّزُ الْإِنْسَانُ عَنِ الْمَوْجُودَاتِ الْآخَرَى

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبِ

(البقرة / ٣٣)

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

إنَّ هذا الخطاب الذي ورد في الآية كان موجهاً للملائكة بعد أن أمرهم بأن يسجدوا ويحضروا لحليعته (آدم) عندما خلقه، لكي يوتروا بعد علمهم بمكانته ونموه عليهم، وقد فهم الملائكة أهلية آدم ﷺ لخلافه لله سبحانه وتعالى في الأرض بعد أن وجدوا فيه القابلية والاستعداد لتقبل العلم والمعرفة بأقصى درجاتها، كما أعربوا عن شديد أسفهم وسدومهم حيال ما ساورهم من تردد أو استفسار عن أهلية للمخلوقة الإلهية في بادئ الأمر^١

XXXX

١ يقول الرسول الأكرم ﷺ «أكثر الناس قيمة أكثرهم علماً وأقل الناس قيمة أقلهم علماً». (بحار الأنوار، ج ١،

١٣ - درجاته للقرب من الله تتناسب مع درجات المعرفة

﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة / ١١)

بدأت الآية بالحديث عن الأصول لأخلاقية في آداب المجلس، ثم عن درجات العلماء والمؤمنين بعنوان النتيجة والجراء لعلمهم بهذه الأصول لأخلاقية

«الدرجات» جمع «درجة» وهي تستعمل بسبب عندما يرتفع إلى الأعلى، تقابلها «الدركات» جمع «دركة» التي تستعمل لسبب السقوط عندما يزل إلى الأسفل كسقوط السرداب (الطابق الأسفل).

إن استعمال «درجات» مكررة إبقاء إلى عظمة تلك الدرجات، واستعمالها جمعاً لا مفرداً يمكنه أن يكون إشارة إلى اختلاف درجات العلماء.

بالطبع أن الرفع هنا لم يقصد به الرفع المكاني، بل السمو في طريق القرب من لسانه الربانيه

استخرج العلامة الطباطبائي رحمته الله في تفسير (المؤمن) أن المؤمنين قسمان:

قسم (المؤمنون العالمون) وقسم (المؤمنون غير عالمين)، والمؤمنون العالمون أفضل درجة من المؤمنين غير العالمين ثم استدلل بالآية «قُلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَخْلَعُونَ وَالَّذِينَ لَا يَخْلَعُونَ» (الزمر / ٩).

ويحتمل أن الآية تشير إلى علاقة الإيمان بالعلم^١، وستشير إلى هذه الآية تفصيلاً إن شاء

الله^٢



١٤ - الأنبياء يطالبون بعلم أكثر

﴿قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه / ١١٤)

١. تفسير الميراث ج ١٩، ص ٢١٦

٢. جاء في حديث الإمام الصادق عليه السلام «لَنْ تُوَابَ بِقَدْرِ الْعِلْمِ» (بحار الأنوار، ج ١، ص ١٨٤)

إِنَّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ تَحَاطَبُ الرُّسُولَ الْأَعْظَمَ ﷺ وَدَعَا إِلَى طَلَبِ الْعِلْمِ بِالرَّعْمِ مِنْ أَنَّ
الرُّسُولَ الْأَعْظَمَ ﷺ يَحْضُرُ بِمَقَامٍ عِلْمِي شَامِحٍ وَعَظِيمٍ. وَهَذَا يَكْشِفُ عَنِ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا
تَقْتَصِرُ عَمَلِيَّةُ طَلَبِهِ لِلْعِلْمِ عَلَى مَرَحَلَةٍ مِنَ الْمَرَاهِلِ، بَلْ إِنَّ طَرِيقَ الْعِلْمِ مُسْتَمِرٌّ وَلَيْسَ لَهُ نَقْطَةٌ
أَنْتَهَاءٌ.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ بِمَا عَلَّمْتُ وَشِدًّا﴾ (الكهف / ٦٦)
مُوسَى ﷺ بِالرَّعْمِ مِنْ أَنَّهُ مِنْ دُولِي الْعَرَمِ وَبِالرَّعْمِ مِنْ إِشْرَاحِ صَدْرِهِ بِمَقْتَضَى الْآيَةِ:
﴿وَبِإِشْرَاحِي صَدْرِي﴾. (طه / ٢٥)
وَبِمَقْتَضَى الْآيَةِ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى نَبَّأَهُ خُبْرًا وَعِلْمًا﴾ (القصص / ١٤)
وَبِالرَّعْمِ مِنْ هَذَا الْمَقَامِ الْعِلْمِيِّ لَرَفِيعٍ، لِأَنَّهُ كَانَ مُطَالِبًا أَنْ يَخْصَعَ أَمَامَ «الْحَصْرِ»
وَيَتَعَلَّمَ مِنْهُ كَالْتَلْمِيزِ.

وَعَلَى أَيِّ حَالٍ، فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ دَلَّةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى إِمْكَانِيَّةِ وَصَرُورَةِ طَلَبِ الْعِلْمِ.
وَالسَّعْيِ الْمُسْتَمِرِّ فِي طَرِيقِ التَّعَلُّمِ وَالْمَعْرِفَةِ

١٥ - للمعرفة مفتاح نهضة الإنسان

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقْرُمُوا لِلَّهِ مَنَاقِبَ وَفَرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾. (سبا / ٤٦)
إِنَّ حِطَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُوجَّهٌ لِأَعْدَائِهِ الْمَعْمُوسِينَ فِي الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ،
وَمُخْتَلَفٌ أَنْوَاعِ الْفَسَادِ الْأَخْلَاقِيِّ
وَقَدْ يَبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ مِفْتَاحَ نَجَاتِهِمْ مِنْ هَذَا الْمُسْتَقْبَعِ الْحَطَرِ هُوَ التَّفَكُّرُ وَالْعِلْمُ الَّذِي هُوَ طَرِيقُ
وَسَبِيلِ الْمَعْرِفَةِ.

وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ بِالْإِمْكَانِ مَعْرِفَةُ جَدْوَرِ نَبِيِّ ثَوْرَةٍ وَأَيِّ تَحْوِيلٍ أُسَاسِيٍّ فِي الْمَجْتَمَعَاتِ
الْبَشَرِيَّةِ مِنْ حِلَالِ مَعْرِفَةِ ثَوْرَاتِهِمُ الْعَكْرِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ.

١ يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) «العلم ميراث الأنبياء، والعال ميراث الفراعنة» (بحار الأنوار، ج ١، ص ١٨٥).

فلو كانت المعرفة غير ممكنة فلماذا التفكير؟ بالخصوص بعد حصر الموعظة بالتفكير وذلك باستعمال «المنام» التي تعيد الحصر، وهذا يشبه أن مفتاح البحار هو المعرفة فقط! لكن هذا التفكير سواء أكان جماعياً أو فردياً - يعني أن يكون مترامياً مع القيام لله وفي سبيله، ولهذا يقول «أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ» أي بعهد عن التعصب والعداء، والهوى البشري الذي سيأتي شرحه في موانع المعرفة إن شاء الله.

وقد أكد النبي يوسف عليه السلام على هذا الموضع، وقال عند جلوسه على عرش السلطنة في

مصر

«رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَطَرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَجْعَلْنِي بِالصَّالِحِينَ» (يوسف ١٠١)

من الملفت للنظر هنا هو أن علم تعبير المنام من العلوم ذات الأهمية القليلة، وبالرغم من ذلك فإن قصة يوسف عليه السلام في القرآن تكشف بوضوح عن أن علمه بتفسير الرؤيا أدى إلى إنقاذه من سجن عرير مصر، كما أدى إلى إنقاذه من مصر من القحط والمجاعة، لأن العرير رأى مناماً عجيباً عجز المصريون عن تأويله إلا أن «جد السحباء» الذين قد أطلق سراحهم وسق ليوسف أن فسّر رؤياه في السجن فكان حاصره في البلاط بذلك فقال: «يَا أَعْرَفُ مِنْ بَشَرٍ بِالرُّؤْيَا جِيداً، وَعِنْدَمَا فَسَّرَ يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ مَا رَأَى فِي مَنَامِهِ الَّذِي يَتَمَلَّقُ بِالْأُمُورِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ لِسَبْعِ سَوَابٍ مُبْتَلَا، طُلِقَ سَرَاحَهُ وَتَهَيَّأَتْ مَقْدِمَاتُ حُكُومَتِهِ مِنْ جِهَةٍ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى اسْتَطَاعَ أَنْ يَصْعَ بَرْنَامِجاً دَقِيقاً لَانْقَادِ أَهْلِ مِصْرَ مِنَ الْمَجَاعَةِ حُلَالَ سَنَوَاتِ الْقَحْطِ الْمُقْبِلَةِ إِنَّ الْآيَةَ السَّابِقَةَ الَّتِي تَحْدُثُ عَنْ عِلْمِ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ (فِي الْمَنَامِ) بَعْدَ حَدِيثِهَا عَنْ مَلِكِ يَوْسُفَ (حُكُومَتِهِ)، يُمْكِنُ أَنَّهَا تُشِيرُ إِلَى الْعِلَاقَةِ بَيْنَ هَذَيْنِ الْاَتْنَيْنِ. وَكَيْفَمَا كَانَ فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تُوحِي بِأَنَّ مَفْتَاحَ لِحَاةِ هُوَ الْعِلْمُ وَالْمَعْرِفَةُ، وَحَتَّى أَنَّ أَسْطَ الْعِلْمِ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ سَبَباً لَانْقَادِ دَوْلَةٍ».

❦❦❦

١ يقول الإمام عبيد بن جراح: «يا كميل ما من حركة إلا وأنت محتاج فيها إلى معرفة» (تجريد القول،

١٦ - العلم فخر بجميع لشكاله

«وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَذَلَّا لَهُمُ الدِّينَ الَّذِي قَضَيْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ
 الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنَطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِمَّنْ كُلِّ
 شَيْءٍ إِن هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ»
 (النمل / ١٥ و ١٦)

بالرغم من ملك وعظمة «سليمان» و«دود» اللذين لم يكن لهما مثيل بل ويحتمل عدم
 قيام حكومة كحكومتها على مر التاريخ كما في الآية ٣٥ من سورة (ص) «وَهَبْ لِي مَلَكًا
 لَا يَتَّبِعُنِي لِأَخَذٍ مِّنْ بَقِيَّتِي» خصوصاً وأن حكومتها لم تحصى الأسس، بل امتدت حتى
 شملت الجن والحيوانات وحتى القوى الطبيعية كالريح، مع هذا كله فاقه عندما يهب نعمة
 إلى الوالد وولده، يبدأ بعمه العلم والمعرفة، بدأ كما يشكرانه لما قصدهما على كثير من عباد
 (يحصل أن يكون الشكر بهذا الأسلوب) «عسى كثير من عباد» لا غير لأنه كان هناك من أنوا
 علماً أوهر مما أوتى سليمان ودود، والحديث بالذكر هو أن (سليمان) بالرغم من ملكه
 العظيم «بحيث إن كل من شك في ذلك جعلك عسى عقله الطيور والأسماك»، رغم هذا،
 فانه كان يفترح معلوم قليلة الأهمية مثل معرفته بلغة الطيور قبل اصحابه بملكه وحكومته
 ومواهبه الإلهية الأخرى.

إن هذه النصوص الجميلة تبرز عظمة مقام العلم بجميع أبعاده، وهو نفسه دليل واضح
 على إمكانية وضرورة المعرفة^١.

١٧ - المعرفة شرط أساسي للادارة والقيادة

عندما اقترح على يوسف التصدي لمسؤلية مهمة في حكومة مصر، قال
 «وَأَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي خَفِيفٌ غَلِيمٌ»
 (يوسف / ٥٥)
 عندما أعلن بنو اسرائيل عن استعدادهم لمقارعة الملك الظالم آنداك «جالوت» الذي
 شردهم، طالبوا بينهم بأن يعين لهم قائداً كي يحاهدوا «جالوت» الظالم، تحت رايته، قال
 لهم النبي:

١. جاء في حديث للإمام الصادق عليه السلام «العلم أصل كل حال سي ومنتهى كل مرتبة رفيعة» (المحجة البيضاء،

ج ١، ص ٦٨).

«إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

(البقرة / ٢٤٧)

والجدير بالذكر إن «طالوت» الذي كُلِّفَ بمهمة قيادة بني إسرائيل بمقارعة الملك القوي والظالم، كان قروياً مجهولاً يعيش في إحدى تفرق الساحلية وكان يرعى موشى أبيه ويزرع.

لكنه كان ذا قلب وبع، وجسم قوي، ومعرفة دقيقة وعميقة بكثير مما يجري حوله، ولهذا عندما رآه السبي «اشموئيل» عيَّنه قائداً على بني إسرائيل ولم يعأ باعتراضاتهم على تعيينه، تلك الاعتراضات الناشئة عن معايير وهمية في انتخاب القائد كامتلاك الثروة والأموال الطائلة والسمعة والتقاليد الموروثة من الآباء، حيث كانوا يعترضون بأنه مع ما عدنا من أشخاص ذوي سمعة وثروة، وهم أجدر من طورت لهذه المسؤولية، فكان يجيبهم لبي إن هذا لاختيار هو انتخاب الهي، والكل يحب أن يستلم لأمره.

إن هاتين الآيتين تدلان بوضوح على أن المعرفة علم من عناصر القيادة والإدارة، وتؤكد أن ما قلناه عن المعرفة حتى الآن.

٢٠٠٣

١٨ - العلم متبع الإيمان

«وَنَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنزَلَ إِلَيْنَا فِي الْمَقَالِدِ الْحَقُّ وَنَسْتَدِينُ إِلَى صِرَاطٍ الْقَرِينِ الْحَمِيدِ».

(سبا / ٦)

«إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا».

(الاسراء / ١٠٧ - ١٠٨)

«قَالُوا السَّحَرَةُ سَجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى».

(طه / ٧٠)

«وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ».

(الحج / ٥٤)

﴿... وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابِ ٧﴾
(آل عمران ٧)

إن الآية الأخيرة تلقي الأضواء على العلاقة الوثيقة بين العلم والإيمان، وتبين بأن المطلع والمتبحر هو الراسخ في الإيمان وتسلّم^١

إن هذه الآيات تبين بوضوح أن لمعرفة هي إحدى السبل المؤدية إلى الإيمان، والإيمان الذي ينبع منها سيكون راسخاً قوياً ومتجذراً إلى مستوى بحيث نقرأ في قصة موسى ﷺ السحرة في عصر فرعون، أن إيمانهم بموسى ﷺ كان بسبب معرفتهم بأن ما جاء به موسى ﷺ لم يكن سحراً، فما كان من فرعون إلا أن هددهم بشدة قائلاً لهم «آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ؟!» فالطاعة يريدون التحكيم حتى يقول الناس وإيمانهم القلبي ومهمهم ولا يتصرف أحد بأي شيء إلا بأذن منهم. وقد جاء في تهديد فرعون لهم أنه قال

﴿فَلَا تَقْطَعْنَ أَيِّدِيكُمْ وَأَزْجُلِكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَا تَصْلُبْكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ..﴾ (طه / ٧١)

لكنهم كانوا بدرجة من الصمود بحيث كانوا يقولون له

﴿لَنْ نُؤْمِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْوَحْيِ وَالَّذِي قَطَعْنَا قَافِي مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ (طه / ٧٢)

وفعلًا فقد نفذ فرعون وعبيده الذي قطعه على نفسه بالانتقام من السحرة المؤمنين، واستشهدوا من أهل المعتقد الذي دبو عليه عشاءً وبألوا مبتعاهم الاسمى وهو الشهادة يقول المفسر الكبير المرحوم الطبرسي بهم «كانوا في أول النهار كفاراً سحرة وفي آخر النهار شهداء بررة».

إن ثمرات العلم له تنحصر بالإيمان وحسب بل تشمل الإستقامة والصمود أيضاً^٢.

١ ما ذكرناه حقيقة لا تنكر سواء قلنا بأن كلمة «الراسخون» معطوفة على «آمنّا» أو قلنا بأنها مبتدأ وخبرها الجملة اللاحقة، لأنه على كلا الغرضين، التضمير في «يقولون» يرجع إلى «الراسخون في العلم» وبه نتضح العلاقة بين الإيمان والعلم في الآية.

٢ يعتقد البعض أن «العلم» والإيمان شيء واحد فإن كل علم بأن هناك خالقاً لهذا العالم وهو قادر وعالم، ففهم هذا العلم إيمان به، لكن المحققين يقولون بفصل الإيمان عن العلم لأن الإيمان يمكن أن يكون ثمرة من ثمار العلم (وليس الثمرة الضرورية والدائمة) لكنه ليس عين قطرة والإيمان التسليم القلبي والقبول والاعتراف الرسمي، سيما

١٩- العلم منشأ تقوى الله وخشيته

(فاطر / ٢٨)

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

يقول الرابع في معرّداته «الخشية هي الخوف الذي يكون متراماً مع اتعظيم، وعالياً ما ينشأ عن العلم».

(البقرة / ١٩٧)

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾

إد لم تكن هناك علفة بين «العلم» و«التقوى» لم يحاطب الله سبحانه وتعالى «أولو الألباب» داعيهم للتقوى في الآية، وهذا الخطاب دليل على هذه العلفة المباركة.

(المائدة / ١٠٠)

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

(البقرة / ١٨٧)

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

إن هذا التعبير في الآية الأخيرة يدل بوضوح على أن الله تعالى يبين الآيات كمقدمة لإيجاد الوعي لدى الناس، والوعي يكون أحد سبل التقوى

ماطلع ليس كلما كان العلم كانت التقوى لأن هناك علماء غير عاملين، لكن المتيقن أن العلم معدمة وأرضية حصه لتقوى، ويصير من المصادر الأساسية للتقوى، والتقوى عالياً ما يكون قرينة العلم، العلم الذي يكون مقروناً بالإيمان سيكون منشأً للتقوى كذلك والمكس بالعكس، فالجهل عالياً ما يؤدي إلى هي التقوى والورع^١

❦❦❦

٢٠- العلم منشأ الزهد

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيُؤْتِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلْقَاهُ إِلَّا

(القصص / ٨٠)

الصَّابِرُونَ﴾

كثيراً ما يحصل أن يعتقد الإنسان بشيء، ولم يسلّم به كما يحكي القرآن عن القصص في سورة النمل الآية ١٤ ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهَا وَابْنَهُ كَمِثْلَيْ شَرِّ الْحَبْلِ قَلِيباً فَمُتُوا﴾

٣ يقول الرسول الأكرم ﷺ «العلم حياة الإسلام وعمد لإيمان» (أكرم الصدوق ج ١، ص ١٨١).

٤ يقول أمير المؤمنين عليه السلام «أعظم الناس علماً أشدهم حرصاً من الله» (غرر الحكم، الحكمة ٣٢٦).

أشارت هذه الآية التي جاءت في أواخر سورة القصص إلى قصة (قارون) وسفلت نصيحة علماء بني إسرائيل لكافة الناس، الذين تمنوا متلاك ثروة قارون عند استعراضه لثروته.

فعندما شاهد أهل الورع من علماء بني إسرائيل تعلّق الناس بالدنيا وحبهم الشديد لها وارتباطهم الوثيق بها حاطبهم قائلين، ويلكم يا عبدة الدنيا لا تخذعكم الثروة وبها رجع الدنيا، فالجزاء الإلهي حير لكم في الدنيا والآخرة إن عملتم صالحاً وكنتم مؤمنين، لكن لا ينال هذا الثواب الإلهي إلا الصابرون الرافضون الظلم والاغراءات المادية

إنّ عبارة (أو تروا العلم) تدل بوضوح على وجود علاقة بين (الورع والزهد) من جهة والعلم والمعرفة من جهة أخرى. وأنّ العالمين بروال الدنيا وحقارة الثروات المادية في قبال الجزاء الإلهي وخلود الآخرة، فإنهم لا يبتعدون بالماديات ولم يتمنوا ثروة قارون^١.

❦❦❦❦



٢١- التطور للمادي مهون بالعلم

(القصص ٧٨)

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ حِيتِي﴾.

الكلام الذي ورد في الآية الكريمة قاله قارون العني والمغرور والأناني عندما نصحه علماء قوم موسى، أن يستثمر ثروته في مجال صافع لعباد ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن لعباد الله كما أحسن الله اليك ولا تتحد ثروتك وسيلة للفساد.

لكنه أجاب قائلاً: إنني جمعت هذه الثروة بفصل علمي ومعرفتي.

والذي ينبغي ذكره هنا هو أنّ الله لم ينف دُعاه هدا.

بل يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَخْلُقْنَا أَنَّا قَدْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِ مِن الْقُرُونِ مَن هُوَ أَشَدُّ مِنهُ قُوَّةً

(القصص / ٧٨)

وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾.

١ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ من خاطب الله به موسى بن عمران قال: إنّ عبادي الصالحين زهدوا فيها بقدر علمهم بي» (معارج الأنوار ج ١٨، ص ٣٣٩).

إن هذا التأييد العممي يكشف أن القارون عندما تمكن بوسطته أن يجمع ثروته الطهية (سواء كان ذلك العلم هو علم الكيمياء - كما يدعي بعض المصريين أو كان معرفته لقوعد وفنون التجارة والأعمال).

إن المسلم به هو أن ادعاء قارون لم يصلح حجة لرفع الناس بثروته، وذلك أن الإنسان مهما كانت لديه من مؤهلات وقبليات، لا يمكنه لوحده أن يكسب ثروة بهذا الحجم فلا بد أنه قد استفاد من الآخرين في سبل تحصيلها، لذا فهو مدين للمجتمع ولتعاونهم معه.

وعلى أي حال، فإن ما تبينه هذه الآية هو وجود علاقة بين «العلم المادي» والتطور المادي، وهذا ما نشاهده بوضوح في عصرنا بحاضرنا، حيث إن قواماً تقدموا مادياً في مجال الصناعة والحضارة المادية وذلك بفضل علومهم وتقنياتهم وصاعاتهم^١.

﴿٢٢﴾

٢٢ - للعلم مصدر للقوة أو (العلم قوة)

«قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ إِنِّي آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِي رَبِّي» (الممل / ٤٠)

هذه الآية لها علاقة بقصة سليمان وملكه سبأ، فعندما أراد سليمان أن يأتي بعرشها، تعهد عهريث من رعاء الجن بأن يأتي به قبل أن يقوم سليمان من مجلسه، لكن وزير سليمان «أصف بن برخيا» الذي كان عنده علم من الكتاب، والذي كان عنده يمكنه من القيام بأعمال خارقة للعادة قال لسليمان، إنني أستطيع أن آتي به قبل أن يرتد إليك طرفك وفعل ما قال، فشكر سليمان ربه على الفهم الذي آتاه إياه من الأنصار والأعوان والأصدقاء.

وهذه الآية وإن جاءت في مورد خاص، لكنها تكشف بوضوح عن لعلاقة الموجودة بين العلم والقوة، وترغب وتشجع على كسب العلم^٢.

١ يقول الإمام علي عليه السلام «لا غنى لأحبيب من العقل ولا فقر لأخط من الحق» (اصول الكافي، ج ١، ص ٢٩).

٢ يقول الإمام الصادق عليه السلام «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوبس» (اصول الكافي، ج ١، ص ١٢٩٠).

٢٣- العلم والتزكية

«وَبَشِّرْهُم بِرُسُلِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْكَ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»
(البقرة / ١٢٩)

ما ورد في الآية الكريمة الذي يعد بمثابة دعاءٍ دعا به «إبراهيم» و«إسماعيل» عليهما السلام في ضمن أدعية دعيا بها الله، يكشف بوضوح عن العلاقة الوثيقة بين «العلم والحكمة» من جهة، و«التركية والتربية» من جهة أخرى وقد تقدم العلم هنا على التركية

لكن في الايتين التاليتين وليس تناوت مهج الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بعد البشارة، تقدمت التركية على العلم فيهما، حيث يقول الله تعالى هناك:

«لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَقِيَ فِيهِمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَى ضَلَالٍ مُّبِينٍ»
(آل عمران / ١٦٤)

كما أن الآية الثانية من سورة الجمعة تشبه الآية المتقدمه مصححاً.

الظاهر أن الاختلاف في التعبير حين يقدم العلم على التركية نارة والتركية على العلم نارة أخرى ناشئة من التأثير المتبادل بين هذين الاثنين، فإن العلم مصدر التربية الأخلاقية، والتربية الأخلاقية تصلح لأن تكون في بعض مراحلها - مصدراً للعلم وعلى هذا، فكل منهما يهيئ الأرضية للآخر. وهذا هو معنى التأثير المتبادل للعلم والتركبة (وسياتي شرح هذا الموضوع في بحث مؤهلات المعرفة إن شاء الله)^١



٢٤- علاقة العلم بالصبر

«وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا أَمْ تُحِيطُ بِهِ خَيْرًا»
(الكهف / ٦٨)

هذا الحديث طلق به العالم الرباعي (الحصر) محاطياً به موسى بن عمران، عندما سأله أن

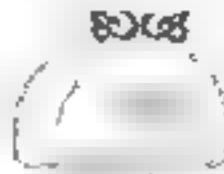
١ يقول أمير المؤمنين في حديث له حول العلم «ومن ثمراته القوى، واجتباب الهوى ومجانبة الدنوب»
(بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٦٦).

يعلمه من علومه، فاجابه الخضر إنك لم تحط بأسراري وأعمالِي، ولن تتحملها وذلك لقلة احاطتك ومعرفتك.

وهذا التعبير يبين بوضوح أن عدم العلم والمعرفة يؤدي إلى بقاء صبر الإنسان. بالطبع أن الصبر قد يكون مصدر لريادة العلم والمعرفة، وعليه فهذان الإنسان بينهما تأثير متبادل كما يصرح بذلك القرآن في عدد من الآيات «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ».

(إبراهيم / ٥، القمان / ٣١)، (سبا / ١٩)، (أنشوري / ٣٣)

ومن الواضح أن طريق العلم والمعرفة طريق صعب مليء بالمعصبات، ولا يمكن أن يدرك العلم إلا بالصبر والجمل والصمود، وأن العلماء والمحررين والمكتشفين لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بالمثابرة والصبر.



٢٥ - العلم والمعرفة غير كثير

«يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا» (البقرة / ٢٦٩)
وكلمة «الحكمة» مشتقة من مادة «حَكَمَ» عني وزن (حَتَم) وتعني الصِدْقُ والسمع بهدف الإصلاح ولهذا يقال لزام الحيوان «حَكَمَتُهُ» عني وزن (شَجَرَةُ)، وبما أن العلم والمعرفة يعول دون اتخاذ الإنسان سلوكاً مشيئاً، فلها سميت «حكمة».

كما أن «العقل» يعني الامساك والاحتفاظ، ولهذا قيل للعقل الذي تربط به رجلا الجمل «عقال»، فالعقل قيل له عقلاً لأنه يصون الإنسان من الانحراف عن عادة الصواب وعلى أية حال، فإن القرآن الكريم وصف نعم بأبلغ وأجمل توصيف حيث قال (حيراً كثيراً)، وهذا التعبير يشمل جميع النعم والمواهب الإلهية المادية منها والمعنوية.

إن المستخلص من خمسة وعشرين عنواً ذكر حتى الآن حقيقة بيّنة واضحة وهي: إن القرآن وبالإسعانة بعبارات شيقة وطائف البيان يحث الإنسان على طلب العلم والمعرفة

وبعدهما أفضل موهبة ونعمة إلهية. ويستعد من التعبيرات السابقة بالدلالة الالتزامية أن طريق العلم مفتوح للجميع. ولا شيء أنفع منه، وهذا هو الشيء الذي نحن بصدد^١ والآن نتقل إلى عناوين أخرى تدور حول محور «الجهل» وبملاحظة آثاره السلبية والمدمرة، شق طريقنا نحو العلم والمعرفة وما ينتج عنهما من آثار إيجابية وحيوية

❦❦❦

٢٦ - أصحاب السعير هم الجاهلون

«وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَلَّ لَأَنقَامٍ بَلْ هُمْ أَصْلٌ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ» (الاعراف / ١٧٩)

إن كلمة «فر» مأخوذة من مادة ذر-عنى ورن (ارزح) ونعني الحلق. لكن المستخلص من «مقاييس اللغة» أن أصلها يعني (نثر البذور) ويحصل لهذا السبب ذكر الراعب هي «مفرداته» أي معناها الأصلي هو «الاطهار والايصاح». بينما قال الحص كما في «الحقيق في كلمات القرآن»: «إن معناها الأصلي هو «النثر والنثر».

فإذا أريد بها الحلق فيكون معنى الآية. إن أولئك الذين وهب الله لهم السمع والبصر والعواد... (وسائل المعرفة) ولم يستفيدوا منها لا مصير لهم غير جهنم. وإذا كانت «فر» بمعنى النثر والنثر، فالآية تشير إلى أن أشخاصاً كهؤلاء سينثرون في جهنم. وعلى أية حال فهذه الحقيقة تكشف عن عاقبة الجهل وتمطيل وسائل المعرفة ليست سوى نار جهنم

«وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ» (الملك / ١٠ و ١١)

١ يقول الإمام علي عليه السلام «لاكثر أنفع من العلم» (بحار أنوار، ج ١ ص ١٨٣)

نعم إنَّ ذنبيهم العظيم هو أنَّهم لم يستفيدوا من عقولهم وعطلوها عن النهوض بمهامها، ولم يصفوا لقول الحق وبهذا أغلقوا أبواب المعرفة ولعلم، وفتحوا أبواب جهنم ليدخلوها داخرين.

إنَّ سياق الآية الثانية التي تسبب الإثم إلى أصحاب السمع وهم يعترفون بأنَّ مصيرهم ما كان هذالو أنهم استفادوا من عقولهم، وهذا لا عترف لكاشف عن الدم، دليل على أنَّ سلوكهم لهذا الطريق كان باختيارهم، وإذا رعم بعض المعشرين كالمحر الرازي عند تفسيره للآية الأولى أنَّها دليل على الجبر، فإنَّ لثانية تنفي مراعاة وتصيح لأن تكون مفسرةً للأولى لأنَّ «القرآن يفسر بعضه بعضاً».

وعلى آية حال فإنَّ العلاقة بين «جهنم» و«جهل» لا جدال فيها في القرآن وسوف تتضح في الأبحاث القادمة أكثر^١.

٢٧ - الجهل مصدر انحطاط للبشر

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ، إِلَهُكُمُ الَّذِينَ لَا يَحْكُمُونَ﴾ (الأنفال / ٢٢)

إنَّ هذه الآية والتي قبلها تُشيران إلى موضوع واحد لكنَّ الأخيرة تشير له صراحةً والسابقة تلميحاً، والموضوع هو إنَّ الإنسان متى ما ترك الاستعانة بوسائل المعرفة التي منحها الله له فإنه سينحط ويسقط إلى مستوى يجعله أصل من جميع الدواب التي على وجه الأرض، ولم لا يكون كذلك مَنْ بإمكانه أن يصل إلى أعلى عليين في جوار ربِّ العالمين، وأن يصل إلى مقام «لا يرى به إلَّا الله»، ولكن بتركه جميع المواهب واليمنح الإلهية فإنه سيسقط إلى أسفل سافلين.

إضافةً إلى هذا، فإنَّ الإنسان الذي لا يسير في جادة لخير والهداية، فإنه ربَّما يستخدم تلقائياً جميع المواهب والقابليات الإلهية في طريق الشر، وسيرتكب جرائم مفعمة ويحترع

١ في حديث للرسول ﷺ يقول فيه «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ مَنْ سَلَكَ مَسْطَكاً يَطْلُبُ فِيهِ الْعِلْمَ سَهَّلَتْ لَهُ طَرِيقُ الْجَنَّةِ». (بهار الأنوار، ج ١، ص ١٧٣).

وسائل رهبة لم يدن إلى مستوى وحشيته أي من الحيوانات المفترسة، كما شاهد نماذج في عصرنا الحاضر عند أناس بعيدين عن الله والبشرية^١

❦❦❦

٢٨ - للجهل عمن

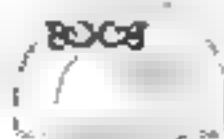
﴿أَلَمْ يَلْمُ أَفْئِدَةً لِّلَّهِ أَنُزِّلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَتَبَ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

(الرعد / ١٩)

تصح الآية الكريمة العلماء ودوى الفكر في مقابل العمى والتعابل هذا يكشف عن أن العمى والجهل سواء، وقد جاء هذا المعنى في آيات أخرى بأسلوب آخر:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ • وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ • وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُورُ • وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَاءُ وَلَا الْأَفْوَاحُ...﴾^٢.

(فاطر / ١٩ - ٢٢)



٢٩ - الحياة مع الجهل هي لؤذال للصبر

﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى لُؤْذَالٍ الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَقْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا...﴾. (الحج / ٥)

وقد جاء في سورة البحل الآية ٧٠ نفس ما جاء في هذه الآية من معنى مع اختلاف صيغ.

إن كلمة «لؤذال» مشتقة من مادة «رذل» وتعني الموجد الصال، كما في كثير من معاجم اللغة مثل «العقاييس» و«صحاح النعم» و«المفردات» وغيرها، وتعبر آخر الشيء الذي لا يعتنى به أو لا قيمة له.

١. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الجهل مطية شمس من ركبها رل ومن صحب صل». (غرد الحكم ج ١، ص ٨٥).

٢. يقول الرسول الأكرم عليه السلام: «من لم يهر على دل لتعلم سادة بقي في دل الجهل أبدًا». (بحار الأنوار ج ١، ص ١٧٧).

وعليه فالمرء من «أرذل العمر» أيام وساعات من العمر التي تقل قيمة عن بقية أيام العمر، وقد نعت القرآن الأيام الأخيرة من الشيخوخة التي تترامس مع نسيان العلوم وفقدانها بـ «أرذل العمر»، وعليه فأفضل أيام العمر وساعاته هي الأيام والساعات التي تكون مقرونة بالعلم والمعرفة^١.

٣٠- للجهل مصدر الكفر

﴿وَجَاوِزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْهَمْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَفْكُثُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾
(الأعراف / ١٣٨)

إن ما يشير العجب هو أن بني إسرائيل شاهدوا بأعينهم لإعجاز والعظمة الإلهية في غرق الفراعنة، وبعثهم عندما عبروا النيل، وبرزهم من دند كنه يقترحون على موسى أن يجعل لهم صنماً يعبدونه.

لكن موسى أجابهم أن جهلكم دعاكم إلى عبادة الأصنام. وهي الحقيقة أن عبادة الأصنام دائماً تنشأ عن الجهل، ولا فكيف يمكن للإنسان أن يعبد ما يصنع بيده؟ وكيف له أن يطلب حل المعضلات والمشاكل الكبرى التي تعترى حياته من قطعة من خشب أو معدن؟!

إن تاريخ عبادة الأصنام يكشف عن أن هذا العمل القبيح نما وتطور تحت ظل من الحرفات والأوهام، وكلما تقدمت الشعوب في مجال العلوم والتفكير كلما تراجع الشرك وعبادة الأصنام وازدادت أنوار التوحيد ضياءً:

إن نبي العظيم «هود» كان يصرح لقوم «عاد» بهذا الأمر إلا أنه عندما شاهد فيهم الإصرار على عبادة الأصنام طلب من الله سبحانه أن يرسل العذاب عليهم قال:

﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

(لاحقاً / ٢٣)

١ يقول الإمام علي عليه السلام: «الجهل في الإنسان أضرم من الأكمة في الأبدان» (عرد الحكم).

إن التعبير بـ «تجهلون» أي بصيغة المصارع أدى عادة ما يدل على الاستمرار، يوضح أن «الجهل المستمر» كان مبيع الشرك وعبادة الأصنام، وفي الحقيقة إن تعاصد ثلاثة أنواع من الجهل ولدت هذه الحالة الاجتماعية، وهي الجهل بالله وبأنه لا كفو ولا مثيل له، والجهل بمقام الإنسان وأنه أشرف المخلوقات، والجهل بالطبيعة وأنه لا قيمة للحمادات في قبال موجود كالإنسان.

تري! كيف سمح الإنسان لنفسه أن يجعل قطعة من الحجر اقتطعت من الجبل تارة في درحات السلم في منزلة يسحقها بأقدامه، وتارة يصنع منها صنماً يركع ويسجد له ويطلب منها حل مشكلاته الكبرى!، يهدون هذا جهلاً؟

❦❦❦

٣١ - الجهل السويبي الأساسي للفشل

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ خُذْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ تَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا بِأَتْبَنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾. (الأنفال / ٦٥)

الظاهر أن الآية ناظرة إلى معركة «بدر» وهم تساوي عدد المشركين والمؤمنين فيها، وهي تنفي أسطورة توارث القوي، كإيمان إسلامي إلهي تأمر الآية بعدم التراجع في المعركة حتى لو كان عدد جنود الإسلام عشر جنود يهود! لكن الذي يسد النقص الكمي في القوات الإسلامية - كما نصح الآية - هو شينان - أول هو الصبر والاستقامة والثبات عند المؤمنين، والثاني هو جهل وحماقة الأعداء.

وهذا يدل بوضوح على أن الاستقامة وصبر هما الطريق للنصر، وأن الجهل هو سبب الخسران والفشل.

الجهل بالقابليات والطاقات الإلهية المودعة في ذات الإنسان

١. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «البحار لا يرتدع، وبسراعه لا يستنقع» (عبر الحكم، ج ١، ص ٦٨). ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «ليس بين الإيمان والكفر إلا قنعة نعل» (أصول الكافي، ج ١، ص ٢٨).

الجهل بقدرة الله عز وجل وعظمته
الجهل بتقنيات وقواعد المعركة، وأنواع أخرى من الجهالة^١.



٣٢- الجهل مصدر لاشاعة للفساد

«أَتَيْتُكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ». (النمل / ٥٥)
إنهم قوم لا يؤمنون بالله يجهلون بهذب الحلق وقوايسه، ويجهلون الآثار السيئة لهذا الإثم
والعار يعني «للواط»

إن هذا الحديث الذي نطق به النبي العظيم «بوط» يشير بوضوح إلى أن ميل أولئك لقوم
إلى هذا العمل البشع والقبیح (للواط) نشأ عن الجهل وعدم المعرفة.

والنبي يوسف عليه السلام يُشير إلى هذا المعنى بأسلوب آخر
«قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَمْشِي عَوْنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنِ
وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ» (يوسف / ٣٣)

إن ذكر النساء بصيغة الجمع يدل على أن نساء مصر كنَّ يُردن أن يُحرجن يوسف عن
حادثة العفاف وليس امرأة عزيز مصر (رليخا) فقط، ويوسف عليه السلام كان مستمداً لتقبل اسجن
برعاية صدر على الابتلاء بحب نساء مصر له.

إن الجملة الأخيرة من الآية السابقة تُشير إلى أن العشق الملوّث بالإثم والانحرافات
الجنسية (على الأقل في كثير من المورِد) ناشيء عن الجهل، الجهل بالقيم، المجبول عليها
الإنسان، الجهل بالآثار القيمة للعفاف والطهارة والمراعاة، والجهل بمردودات الإثم، وأخيراً
الجهل بالأوامر والنواهي الإلهية.

وكما نرى في قصة يوسف بوضوح أن السبب الأساسي في ارتكاب الجريمة من قِبَلِ

١ يقول الرسول الأكرم عليه السلام «من عمل على غير علم كان ما يُفْسِدُ أكثر مما يَصْلِحُ» (مشكاة الأنوار، ص

إخوانه هو الجهل وعدم معرفتهم:

«قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا قَتَلْتُمْ يَٰيُوشَعَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ»
 نعم أنتم الذين عذبتم أحاكم أولاً، ثم ألقبتموه في لعب عن جهل ثانياً أنتم الذين كذبتم
 على أبيكم ذلك الشيخ العجور وأدمنتم قلبه عندما أحسبتم إيمانه عنه، وفي النهاية بيعه بعدة
 دراهم بحصة كما يُباع الرق ولم تعلموا بهدكم. لدي عاهدتم به أباكم تجاه الآخر
 «بنيامين» عندما اتهمتم بالسرقه فتركتموه وحيداً.
 وجهلكم هو وحده مشأ جميع هذه الأفعال.^١

❦❦❦

٣٣- الجهل أسامى للتعصب والعناد

«إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكَبَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ
 وَعَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ..»
 (الفتح / ٢٦)

إن كلمة «حمية» مشتقة من مادة «حسي» على وزن «حمْد»، وكما يذكر الراجح في
 «مفرداته» أن معناها الأولي هو الحرارة الناشئة من أشياء مثل النار والشمس والنفوس
 الباطية في جسم الإنسان (الحرارة لذاتية وباطنية للأشياء)، ولهذا يقال لارتفاع درجة
 حراره المريض (حَقِي) على وزن (كثُرِي)، وبما أن التعصب والعصب يولدان حرارة وحرقة
 في باطن الإنسان قبل «حمية»، وقد جاء في كتاب «التحقيق في كلمات القرآن الكريم» أن
 «الحمية» هي شدة الحرارة والعلاقة والتعصب في الدفاع عن النفس.^٢

إن هذه الآية برلت في حوادث صلح الحديبية وتوصيع قصة سبب النزول: أن لرسول
 الأعظم ﷺ قصد مكة للحج في السنة السادسة من الهجرة، إلا أن المشركين منعوا
 المسلمين من دخول مكة تعصباً لجاهليتهم، مع أن السماح بزيارة مكة كان مباحاً للجميع

١ يقول الرسول الأكرم ﷺ «فيه واحد أشد على إيس من ألف عابده» (بحار الأنوار ج ١، ص ١٧٧).

٢ «هي شدة الحرارة، والعلاقة والتعصب في الدفاع عن نفسه ويتعصب والرفع» (مادة حسي).

حسب فوائدهم وفسدهم المتعارفة، فهم بهذا ينهكو، حرمة الحرم الإلهي، ونقضوا سنتهم، إضافة إلى أنهم وضعوا حائلاً ضخماً بين لحقائق

إن إضافة «الحمية» إلى «الجاهلية» من قبيل إضافة «السب» إلى «مسيه»، التعصب والعباد والعضب ينشأ عن الجهل دائماً، لأنَّ جهل لا يسمح للإنسان أن يفكر بعواقب أعماله، ولا يسمح له قبول أن فكرته قد تكون خاطئة، وأن هناك علماً أوسع وأكبر من علمه، ولهذا نرى أن شدة عباد وتعصب الأقوام لجاهلة أكثر منها في الأقوام لأخرى، ولهذا السبب نجد أن الأنبياء والرسل عندما يبعثون في قوم بالرسالات والأنوار الإلهية الساطعة، يواجهون مقاومة عنيفة، ويتهمون بمختلف النهم، وقد ورد لقرآن الكريم مودجاً من ذلك ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ • أَجَعَلَ الْآلِهَةُ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ • وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ • مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِهَةٍ إِلَّا خِزْيَةٌ لَنَا وَلِلنَّاسِ وَلَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ بِدَلِيلٍ مِنْ رَبِّكَ فَذَرْهُمْ •﴾ (ص / ٤ - ٧)

حيث نرى أن حدتهم معلوم، بالعباد، الناشئة عن جهل والعمور

XXXX

٣٤ - الجهل مصدر لاختلاق الحجاج

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنْزِيلًا آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ •﴾ (البقرة / ١١٨)

هناك قضية تتكرر دائماً في تاريخ الأنبياء والرسل وهي أن لجاهلين والمعادين يحتلقون الحجاج الوهمية من أجل الهروب من الإيمان بالأنبياء والرسل والتسليم للحق الذي يرويه بأم أعينهم من خلال المعاصر الإلهية ووسائل الاقتناع التي يأتي بها الرسل فتراهم تارة يقولون لِمَ يبعث الله بشراً رسولاً؟ لِمَ لَمْ يأت ملك محله؟

١ يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «العلم أصل كل خير والجهل أصل كل شر». (غرر الحكم، ص ٢ و ٢١).

وتارة يقولون: لِمَ لم ينزل علينا كتاباً نقرأه؟
 وأخرى يقولون: لن يؤمن ما لَمْ يَرَلَقْهُ و سَلَانِكُهُ جَهْرَةً.
 وتارة أخرى يقولون لن تؤمن لك حتى تعجر لنا من الأرض يسوعاً أو تكون لك جنة من
 نخيل وعنب وتعجر الأنهار حلالها تفجيراً، كما في سورة (الإسراء) في الآيات ٩٠، ٩٣.
 كما أن هناك أمثلة وسادح أخرى ذكرت في القرآن الكريم
 في الحقيقة أن ذوي العلم يكفون بدليل منطقي واحد، وإذا تعددت الأدلة عندهم
 ازدادوا رسوخاً وإيماناً
 لكن المتعصين والجاهلين المعادين غير مستعدين للتخلي عن عقائدهم وخرافاتهم،
 فيتمسكون كل يوم بحجة في سبيل الهرب من الحقيقة، وإذا ما دُجِصَتْ حجبتهم تركوها
 وتمسكوا بحجة أخرى، ذلك لأن هدفهم ليس طلب حقيقة بل التملص منها^١.

8068



٣٥ - الجهل هو سبب التقليد الأعمى

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ تَعْبُدُونَ • قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا هَا
 عَابِدِينَ • قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾
 (الأنبياء / ٥٢ - ٥٤)
 إن كلمة «التماثيل» جمع «التمثال» والتي تعني الموجود الذي له وجه، وتطلق على
 التماثيل المسحوتة والرسوم

وكلمة «عاكفون» مشتقة من مادة «عكوف» وتعني التوجه المستمر نحو شيءٍ والمعترامن
 مع التعظيم، واصطلاح «اعتكاف» يطلق على العبادة لحاصة المعروفة التي تقام في
 المسجد وهي مشتقة من نفس المادة.

نعم، إن عبدة الأصنام لم يكن لهم دليل منطقي على عملهم القبيح هذا، وغالباً ما كانوا

١. يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) «الجاهل صغير وإن كان شيخاً كبيراً والعالم كبير وإن كان حدثاً» (بحار الأنوار، ج ١، ص ١٨٣).

يَقْتَنِعُونَ بِتَقْلِيدِهِمُ الْأَعْمَى، وَلِهَذَا نَعْتَهُمُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّهُمْ وَآبَاءُهُمْ فِي صَلَاحٍ مُبِينٍ.
 إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي بَيْعَةِ مَحَاكِمَتِهِ التَّارِيخِيَةِ لِعِبْدَةِ الْأَصْنَامِ فِي بَابِلَ يَقُولُ: «أَفْتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ» ١٢ ثُمَّ يَضِيفُ: «أَمْ لَكُمْ وَلَئِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ».
 (الأنبياء / ٦٦ - ٦٧)

يعني أن هـ التقليد الأعمى ناشيء عن عدم لتفعل و لتأمل وهو تابع من الجهل، ودليله واضح، فإن ذوي العلم يتمتعون باستقلال فكري، واستقلالهم لمكري هذا لا يسمح لهم بالتقليد الأعمى، بينما الجاهلون تراهم مرتبطون بهذا ودالك وبشكل أعمى فيتبعون الآخرين على غير بصيرة

2068

٣٦- الجهل عامل للخلاف والفرقة

﴿لَا يَفْقَهُوْنَكُمْ بَعِيْداً اِلَّا بِقُرْبَى مُّخْتَلِفَةٍ اَوْ مِنْ وَّرَآءِ حُجْرٍ اَنْتُمْ بِاَنْفُسِكُمْ شَدِيْدٌ مِّنْهُمْ﴾
﴿بَعِيْداً وَمَلُوءُهُمْ شَقٌّ ذٰلِكَ بِاَنْفُسِكُمْ فَرَمَ لَا يَفْقَهُوْنَ﴾ (الحشر / ١٤)

من كلمة «قرى» تعني جمع «قرية» ومعناها الأماكن المعمورة أعم من الأرياف والمدن، وقد تطلق على مجموعة يسكنون في مكان ما، و«قرى محصنة» تعني المناطق الآمنة من العدو بسور أو أبراج أو خنادق أو غيرها.

يُ هَذِهِ لآيَةٌ تَتَحَدَّثُ عَنْ طَائِفَةٍ «بِىِ الْبَصِيرَةِ» (إِحْدَى ثَلَاثِ طَوَائِفِ يَهُودِيَّةٍ تَقَطُّ
الْمَدِينَةَ) حَيْثُ تَكْشِفُ عَنْ عَرْعِهِمْ وَحُفَّتِهِمْ أَبْطَاطِيَّ وَاحْتِلَافِهِمْ وَمَرْقَتِهِمْ، فَتَصْرَحُ لآيَةٌ
لِلْمُسْلِمِينَ، إِنَّكُمْ تَحْسِبُونَهُمْ جَمِيعاً وَمُتَّحِدِينَ لَكِنَّ الْوَاقِعَ أَنَّ شَعْلَهُمْ مَتَرَّقٍ بِسَبَبِ جَهْلِهِمْ
وَعَدَمِ مَعْرِفَتِهِمْ.

إن الاختلاف يشأ عن الجهل، والاتحاد يشأ عن المعرفة دائماً، فالجاهلون لا يجهلون الأخطار الجسيمة للفرقة، ولا يجهلون فوائد الاتحاد وبركاته فحسب، بل يجهلون أسس التعايش السلمي، وأسلوب التعاون وشروط نشاطات المشتركة، وهذه المسألة أدت بهم إلى الاختلاف والفرقة

إنَّ المتعصبين والمعاندين والمكبرين ولحاقدين والسفهاء، لا يعكفهم الاتحاد مع الآخرين، لأنَّ كلاً من هذه الصفات تكون ماعاً كبيراً مام الوحدة. ويجب أن تعلم بأن مشأ جميع هذه الرذائل هو الجهل^١



٣٧- الجهل هو سبب سوء الظن بالآخرين

﴿مُ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَفْعَى طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾
(آل عمران / ١٥٤)

تحدثت هذه الآية عن اللبلة المضطربة و سمنهبة التي عاشها المسلمون بعد معركة أحد، حيث احتمل بعض المسلمين هجوم قريش في تلك الليلة مرة أخرى لتدمير آخر ما نبهى من معاومة المسلمين بعد ما أنهكوا في المعركة بهاراً

في هذه الأثناء أرسل الله على المؤمنين معاساً مهدناً لهم، إلا أن ضعفى الإيمان قد تاهوا في أفكار رهيبة مما استطاعوا النوم امذاك، وكانوا يتساءلون: يا ربى هل أن وعود الرسول حقة؟ هل أننا سننصر في انتهاء مع ما حصل لنا في أحد؟ هل سننجو من هذه المهلكة؟ أو أن كل ما قيل لنا كان كدياً؟ وما إلى ذلك من الوسواس وإساءة الظن الجاهلى، لكن الحوادث التي حصلت فيما بعد بيست لهم حطأهم الفاحش، وأن كافة الوعود الإلهية حقة، ولو أنهم انفصلوا عن أفكار الجاهلية تماماً لما أساءوا الظن بالله ورسوله.

والتمبير في الآية يوحى بأن الجهل هو أحد أسباب إساءة الظن، وأن عدم قدرتهم على التحليل الصحيح للحوادث جعلهم يسيئون ظن، ولو كانت لهم القدرة الكافية على تحليل الحوادث وفهمها لما وقعوا في شباك سوء الظن.



١ يقول الإمام علي عليه السلام: «لو سكنت الجاهل ما اختلف لدي» (بحار الأنوار، ج ٧٨ ص ٨١).

٣٨- سوء الأدب ينشأ عن الجهل

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَأَدُّونَكَ مِنْ وِزَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (الحجرات / ٤)
 كان البعض يصابق الرسول الأكرم ﷺ حيث كانوا يقفون عند باب بيته منادين بصوت عالٍ «يا محمدا» «يا محمدا اخرج إلينا» فكر رسول الله ﷺ يأدى من أسلوبهم هذا، ولكنه كان يكظم عيظه وذلك لما كان ينصف به من حنقٍ عظيم، إلى أن نزلت هذه الآية، فعلمتهم أدب الحديث مع الرسول ومحاطبته (في سورة الحجرات).

والتعبير بـ «أكثرهم لا يعقلون» إشارة جعينة إلى أن سوء الأدب غالباً ما ينشأ عن الجهل فكما فُقد العلم حل سوء الأدب مكانه وكلما توجد العلم تواجد الأدب معه

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُذَبَّحُوا بِقَرَّةٍ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤاً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (البقرة ٦٧)

إن الآية تتعلق بقصة قتل حدثت في بني إسرائيل كادت أن نجر إلى معارك كبيرة بين قبائل بني إسرائيل لجهلهم بانفعال فأمر الله أن يذبحوا بقرة ويصروا هسماً منها المقتول كي يطلق ويبرهم قاتله.

وبما أن هذه القصة كانت معجزة ومدهشة للغاية بالنسبة لبني إسرائيل، فقد قالوا لموسى ابتداءً: «أتتخذنا هزواً؟»

فأجاب موسى ﷺ: «أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين أي أن الاستهزاء من معالم لجهل ودليل على العجب والتكبر والغرور، فإن الذين يتمتعون بهذه الصفات يتحدون الآخرين هزواً كي يحقروهم، ونعلم أن التكبر والعجب ينشأ عن الجهل حتى أن كثيراً من الجاهلين يستهزئون بالعلماء».

٣٩- للجهل سبب النعم والمشاكل الاجتماعية

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ فَبَيِّنْهُ فَبَيِّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ

١ يقول أمير المؤمنين ﷺ «العلماء غريباء لكثرة الجهل بهم» بحار الأنوار، ج ٧٨ ص ٨١.

مَا قَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۖ

(الحجرات / ٦)

إن هذه الآية تمثل قاعدة أساسية تأمر المسلمين بأن يشيئوا ويتأكدوا من كون الرواة ناقلين الأخبار من الثقات ويحققوا في الخبر بذي وصلهم من فاسق أو شخص لا يعتمد عليه فلا يستعجلوا باتخاذ الإجراءات على صوء ما يُقَالُ لهم من خبر، لأنه قد يوجب لهم كثيراً من الندم والمشاكل والمصائب الاجتماعية.

فمن البديهي أن الجاهل لا يُمكنه أن يتخذ موقفاً صحيحاً تجاه مختلف القضايا. وعدم معرفته هذه يؤدي به إلى كثير من أماسي ومشاكل الاجتماعية والتي يهايتها الندم.



٤٠ - للجهل وتبدل القيم

«كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۖ»
(البقرة / ٢١٦)

إن نشاطات الإنسان وفعالياته ليسهم دائماً مع القيم التي يعتمد بها، ومعرفة هذه القيم لها دور أساسي في تبلور وتوجيه نشاطات الإنسان وفعالياته.

فالجهل وعدم المعرفة قد يؤدي به إلى الوقوع في الخطأ عند التعبير بين (القيم) وبين (أضدادها)، أي أن شخص ما هي القيم التي يكون سبباً في التقدم والحير والبركة، ويفرق بينها وبين ما هو عامل الشر والشفاء والانحطاط.

إن الآية السابقة تقول إن للجهاد في سبيل الله قيمة - فهو سبب للمرة وصيانة ماء الوجه والفخر والعوقية - لكنكم تكرهونه لجهلكم وعدم معرفتكم بآثاره، وتعتبرون القعود وترك الجهاد قيمة وعاملاً للسلامة والسعادة، لكنه عامل وسبب لشقائكم.

وعلى هذا فالجهل هو سبب الخطأ في التعبير القيم، وهو عامل اتخاذ المواقف غير الصحيحة وغير المدروسة تجاه القضايا المجتمعية والحوادث المتنوعة التي تحدث في الحياة اليومية وعامل للانحطاط والتفريط^١.

١ يقول الإمام علي عليه السلام: «لا ترى الجاهل إلا مغرطاً أو مفرطاً» (مجموع البلاغة والكلمات القصار، الكلمة ٧٠).

الخلاصة والنتيجة:

إن المستخلص من البحوث القرآنية السابقة والتي دُرِجت تحت أربعين عنواناً، ولربما تكون أكثر حيث (لا ندعي تحديدًا بهذه العاشرين أبداً) والتي تحثُ على طلب العلم والمعرفة، تمثل اهتمام القرآن البالغ بمسألة المعرفة في جميع المجالات، سواء في مجال معرفة الذات والصفات الإلهية، أو في مجال معرفة الكون والسموات والأرض وجميع الكائنات والإطّلاع على أسرار المخلوقات الأرضية والسموية الطبيعية أو ما وراء الطبيعة، ومعرفة النفس والألأم بمختلف العلوم

ومن خلال البحث في الآيات السابقة نستخلص بوضوح الأمور التالية

- ١- إن طريق العلم والمعرفة ميسر للناس كافة، وكل حسب استعداده وسعيه يستطيع أن يطوي ما أمكنه منه، وبدون ذلك فالدعوة للعلم والتأكيد على أهميته لا معنى لها.
- ٢- إن قيمة الإنسان لها علاقة مباشرة بمقدار معرفته وقدر أسرار عالم الوجود
- ٣- إن أكبر مصغرة وموهنة للإنسان هو قائلته، واستعداده لتقبل المعارف سالوعم من صغره الجسماني.

٤- إن طلب العلم هو طريق الانتصار والغلبة على مختلف المشاكل وهو طريق تركيه النفس.

٥- من أجل مواجهة الشقاء ومختلف المفاسد يحتاج إلى العلم والمعرفة قبل أي شيء آخر.

يؤكد أن هذه الآيات نزلت في زمان غيمت فيه عبوم الجهل لسوداء، وغطت أفق المنطقة بل لعالم ظلاماً، في حين أن شمس العلم قد عابت وعرق الناس في أمواج الجهل. حقاً إنه لشيء عجيب أن تكون مثل هذه البيئة مهداً لهذه الرسالة ذات التعاليم السامية أن يكون إنساناً أمياً رسولاً لمثل هذه المدرسة لطبيعة مدرسة الإسلام الحالد وهذا دليل حي على حقانية القرآن.

إن الملفت للنظر هو احصاء سبعمائة آية من قبل بعض المحققين تتحدث عن العلم

والمعرفة وأرصياتها ومصادرها، وبالمقاييس إلى آيات الأحكام والتي تقدر بخصخصة آية، نستطيع أن نستنتج أن القرآن أوى أهمية كبرى للمعلم والمعرفة فاقته الأهمية التي أولاها للأحكام الشرعية.



توضيحات

١- إمكانية المعرفة من وجهة نظر فلسفية

إن وجود عالم خارج الدهن أمر مسلم وبديهى لا يحتاج إلى برهان، ويعترف بهذا عملياً حتى السوفسطائيون أو المثاليون الذين ينكرون وجود الأعيان الخارجية. لكن البحث ينصب في هل من سبيل إلى معرفة هذه الواقعات؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب فما هي سُبل المعرفة ووسائلها؟



ما هي شروط الوصول إلى المعرفة؟

وبتعبير آخر، هل يمكن تبديل الواقعات الخارجية إلى حقائق ذهنية، أي انعكاس صورة ما في الخارج عيماً في الدهن أم لا؟ إن جميع تعاريف المعرفة والاختلافات الحاصلة حول ذلك ترجع إلى هذا الموضوع^١، ومن جهة أخرى فإن جذور جميع العلوم وسماري البشرية تكمن في الإجابة عن هذا السؤال.

وبالرغم من أن أغلب الفلاسفة (سواء الماديين منهم أو الإلهيين) يؤيدون إمكانية معرفة الواقعات الخارجية، إلا أن البعض منهم لا يعتقد بإمكانيتها، وقد ذكرت أربعة أدلة لإثبات مرادهم:

١، وعلى هذا يكون تعريف المعرفة عبارة عن تبديل الواقعات الخارجية إلى حقائق ذهنية وانعكاسها في مرآة الدهن كما هي

١- إنَّ الحواس هي أهم وسائل المعرفة، والبصر يقع في الدرجة الأولى من حيث الأهمية، لكننا نجد الكثير من الأخطاء تصدر عن هذه الحاسة!

فالشهاب المشتعل في السماء نراه كخط من لنور اممتد، بينما هو عبارة عن نقطة ضوئية متحركة لا أكثر!

وإذا كنا نمشي في شارع مُشجر الطرفين، وابتعدنا عن الأشجار رأيناها تقترب من بعضنا البعض، وتصل وتشكل زاوية في نقطة بعيدة عنا بينما الأشجار لم تلتقي على طول الطريق ولم تُشكل أية زاوية، والفاصلة بينها متساوية في جميع نقاط الشارع.

ورداً كانت إحدى يديك باردة والأخرى حارة ووضعتهما في ماء دافئ، فأنتك تشعر بالحرارة باليد الباردة، وبالبرودة باليد الحارة، فيرسم في انذهن إحساسان متضادان اتجاه الماء هي أن واحد.

ولدينا الكثير من الأمثلة عن عدم إمكان الاعتماد على حاسة البصر وبقية الحواس (اللامسة وغيرها)

ومع وجود هذا النقص فكيف يعتمد على حواسنا؟ بل إنَّ عالم الخارج يمكن أن يكون وهماً أو أصغات أحلام ولا غير، وهل أن الذي نراه في الرؤيا وبعتبره حقيقة في ذلك الحين، يُمثل الحقيقة؟

٢- لا نكاد نرى اثنين من العلماء والمفكرين في هذا العالم يتفقان في جميع المسائل، وما هذه الاختلافات بين العلماء إلا دليلاً على فقدان الطريق الذي يهديننا إلى معرفة الحقائق

فالذي رآه واقعاً عيباً قد يكون برأي الآخرين وهماً وحيالاً لا أكثر والعكس صحيح، وحتى الإنسان الواحد قد تتغير رؤيته وأفكاره تجاه قضية معينة تحت ظروف مختلفة، وهذا يزلزل أسس قضية المعرفة

٣- إنَّ الموجودات في العالم كلها في حركة مستمرة، وينتج عن هذه الحركة تحول أوضاع الموجودات وحتى أفكارنا ومعارفنا وعلومنا خاضعة بهذه الحركة، فكيف يمكن

أن تحصل لنا معرفة حقيقية لهذه الموجودات والعلاقات بينها، مع أن المعرفة تستدعي الاستعانة بأمر ثابت.

٤- نعلم أن العالم يُمثل نظاماً موحداً ومتربطاً، ومعرفة جزء منه تستدعي معرفة الكل، وعليه، فإن فقدان حلقة من السلسلة المترتبة للعالم يُحلّ بمعرفتنا ويحول دون معرفة أي جزء منه.

ومن جهة أخرى فإن الواقعيات التي لا يمكن للبشر إدراكها كثيرة ولا يحصى عددها بالقياس إلى حجم المعلومات البسيطة.

وعلى هذا، فكيف يمكن لنا أن نعد معرفة للعالم أمراً متيسراً؟ إذن يجب الاعتراف بأن ما في أذهاننا مجرد تصورات لها قيمة علمية فقط، وليست لها أية قيمة واقعية.

❦❦❦

للجواب:

يمكن الإجابة على هذه الاستدلالات بثلاث طرق:

١- إن جميع الذين يقولون بعدم إمكان المعرفة الواقعية، يؤمنون بالكثير من المسائل الواقعية، فهم يمسكون بأقلامهم ليرهبوا ويستدلوا في مؤلفاتهم على صحة ما ذهبوا إليه وخطأ محالهم، ومن خلال إنكارهم عاينهم عرفوا السمات من المسائل الواقعية، ومن خلال هذه المعرفة دقوا طبول الحرب ضد محالهم واستندوا في حربهم هذه من الكثير من الأمور الواقعية مثل، القلم، والورق، الحطوط، الكلمات، الجمل والعبارات، الكتب، دور الطبع والنشر والمكتبات، المخالفين أنفسهم، لمحاطبين، الأمواج الأثيرية، النور وغيرها، كل ذلك يمثل أموراً واقعية استمدادوا منها في معرفتهم ليثبتوا بها حرباً على المعرفة، فلقد استعانوا بالمعرفة ضد المعرفة وهو خطأ فاضح يستدعي الدقة والتأمل.

٢- إن خطأهم الكبير هو عدم تمييزهم بين مسألة كون معرفة الإنسان محدودة وبين أصل مسألة المعرفة، فإن استدلالاتهم لا تعني إمكانية المعرفة مطلقاً، غاية الأمر أنها تثبت

أن معرفة الإنسان محدودة أو مقرونة بالخطأ أحياناً.

أجل، لا يمكنهم إنكار وجود «الشهاب» بل إن ما يقولونه في هذا المجال هو أن الخط التوراتي الذي رآه ليس خطأ توراتياً بل نقطة توراتية، والتصور العاطفي هذا نشأ عن خطأ في حاسة البصر، إذ ليس الخطأ في وجود نفس شهاب بل في تصور خط ممتد ملتهب. كما أن الخطأ ليس في نفس وجود الشارع ولأشجار على طريقه بل الخطأ في أن الأشجار كلما ابتعدنا عنها اقتربت من بعضها لبعض في أبصارنا، وكذا الأمر بالنسبة للماء الدافئ، فليس الخطأ في نفس وجود الماء ودرجة حرارته المعينة، بل في تمييز درجة الحرارة.

ولكننا - كما سبقت الإشارة - لا ندعي إدراك لجميع صفات الوجود، كما لا ندعي أن معرفتنا مرهنة على أي خطأ، بل ما نريد إثباته هو إمكانية المعرفة على سبيل القضية الحرثية، وهذا نشأ خطأ أصحاب الرأي القائل بعدم إمكان المعرفة من ادعائهم انقطاع المعارف بعد وجود المعرفة.

والمفقت للنظر هو أن ما ذكره مخالفو إمكانية المعرفة من أدله يمكن أن يستخدم كدليل صدهم، لأنهم عندما يبحثون مسألة خطأ الحواس، فإن مفهوم ادعائهم أن هذه الحقيقة اكتشمتها بحواس الأخرى أو بطرق عقلية، فنذكر خطأ الحاسة المعينة في ذلك المورد، وهذا اعتراف صارخ بصحة بعض المعارف.

وعندما نقول مثلاً إن الخط الملتهب الممتد يدي راء عند ظهور الشهاب في السماء خطأ، فذلك بسبب أننا لاحظنا بحواسنا الأخرى أن شهاب قطعة حجر تحترق عند وصولها إلى الأرض وذلك لسرعتها واحسكاها بطبقة نهواء، وعندما تبدو لنا كالقطعة البيرة، وبما أنها تتحرك بسرعة هائلة فتخطأ العين في التعبير وسراء خطأ مستنداً وملتهباً، مستقيماً منحنيماً.

كذلك الأمر بالنسبة للخططين المتوربين عندما يراها متقاطعين من بعيد، بينما رأياهما من قريب متوازيين فصد مقارنة المعلومات التي حصلنا عليها من بعيد ومن قريب نعرف بخطأ أبصارنا من بعيد.

إذن يجب القول بأن أي حكم بخطأ بعض المعلومات، دليل على معرفة كثير من الحقائق (دقق الطرف في ذلك).

٣- إنهم في الحقيقة لم يميزوا جيداً بين «البدهيّات» و«الظريّات» ولا بين «المعرفة الإجمالية» و«المعرفة التفصيلية» ولا بين «لأُمور المطلقة» و«لأُمور النسبية»، ولأجل عدم معرفتهم الدقيقة وتمييزهم لهذه الموصيحات الثلاثة وقعوا فيما وقعوا فيه من خطأ.

❦❦❦

إيضاح:

إنّ هناك حقائق لا يشك بها أحد إلا السوفسطائيون وكما قلنا سابقاً أنّهم يسكرون الحقائق بالسنتهم ويعتقدون بها في قلوبهم وهي الحقائق التي لا حاجة إلى التفكير في إثباتها، فكل يعرف مثلاً أنّ اثنين رنداً اثنين يساوي أربعة، وأنّه لا يمكن أن يحصل الليل والنهار أو الصيف والشتاء في آن واحد، وأنّ مكاناً واحداً أو شخصاً واحداً يكون في مكة والمدينة في آن واحد وحسب أولئك الذين يعدّون اجتماع النقيضين أو الصديين ممكناً، فإنّهم يتلاعبون بالألفاظ فقط، ويدعون لهذه الحقائق قنبيلاً، فمثلاً بالنسبة لـ «اجتماع الصدين» يقولون بإمكان أن يكون الجو ممطراً في ساعة ومشمساً في ساعة أخرى، إذن اجتماع الصدين أمر ممكن، أمّا إذا سألناهم هل يمكن أن يكون الجو ممطراً ومشمساً في ساعة ومكان واحد؟ فيسبحون: لا.

وفي مقابل هذه المعلومات البديهة هناك قسم آخر من المعلومات وهي «المعلومات النظرية» التي تحمل الخطأ والردة، وما ذكره المسكرون من عدم إمكانية المعرفة فإنّه يتعلق بهذا النمط من المعلومات.

كما أنّ هناك مجموعة من الحقائق مطلقة ولا نسبية فيها كالأمثلة السابقة (العلاقات الرياضية بين الأعداد وامتناع اجتماع النقيضين والصدين)

ولكن لا يمكن إنكار أنّ هناك مجموعة من المفاهيم النسبية التي تتغير بتغير الظروف،

فمثلاً الحرارة والبرودة أمران سبيلان، فكل شيء حرارته أكثر من حرارة جسم الإنسان فهو حار، وكل شيء حرارته أقل من حرارة جسم الإنسان فهو بارد، فإذا ما تغيرت درجة حرارة أجسامنا تتغير مفاهيم الحرارة والبرودة عندها، ولهذا قد يجلس شخصان في غرفة يشعر أحدهما بالبرودة فيطلب تشغيل المدفئة والآخر يشعر بالحرارة فيطلب فتح الأبواب.

بالطبع، في هذا المجال توجد حقيقتان وهما درجة حرارة الجسم ودرجة حرارة لمرءة وتصورنا عن الحرارة والبرودة يشأ عن المقارنة بين هاتين الحقيقتين فيختلف الحكم تجاه المسألة.

كما أن في العالم هناك حقائق ثابتة وحقائق متغيرة، والأمثلة التي ذكرناها سابقاً وما شابهها تدخل تحت عنوان الحقائق الثابتة، وحتى الماركسيون القائلون بتغير وتبدل لحقائق في العالم يستشون حقيقة التحول والتغير كما هو ثابت، ويعتقدون أن كل ما في لعالم في تحول وتغير مستمر إلا نفس قانون التحول والتغير فإنه ثابت دائماً (بالطبع هناك مجموعة أخرى من القوانين برصون ثباتها إضافة إلى هذا القانون).

وإذا تجاوزنا الأمر السابق فإن هناك «معرفة إجمالية» ومعرفة تفصيلية» هناك حقائق لا نعرف عنها إلا شيئاً إجمالياً، فلا معرفة بتفاصيلها وعلاقاتها بالأمور الأخرى في العالم تفصيلاً، لكن عدم معرفتنا التفصيلية عنها لا يعنى نفي المعرفة لإجمالية عنها.

فمثلاً العين جزء من الجسم، وما لم نعرف نجسم بجميع أعضائه جيداً لا يتمكن من معرفة علاقة العين بأعضاء الجسم الأخرى، لكن عدم معرفتنا للعين تفصيلاً لا يمنع من معرفتنا لها إجمالياً وأنها تقع في الرأس وتحت نجبين، ولها سبع طبقات، وكل طبقة مهمة خاصة بها، وفائدتها رؤية المآظر والنقطات المتنوعة.

وبالنظر لما تقدم يتضح أن أدلة المخالفين بطلية المعرفة بدأت من عدم دقتهم في التقسيمات السابقة، فعندما يقولون إن العالم كنه واحد، وعدم معرفتنا لمفردة من مردياته يفقدنا المعرفة بأي جزء منه، فيقولهم هذا خطأ في الحقيقة بين المعرفة التفصيلية والإجمالية، لأننا إذا أردنا معرفة جزء ما في العام بجميع علاقاته بباقي أجزاء العالم يجب

علينا معرفة جميع أجزاء العالم بدقة، فهذه معرفة تفصيلية، بينما المعرفة الإجمالية لا تستدعي ذلك كله، ومعرفة الأرض والسماء وأفراد البشر والكائنات التي من حولنا هي كلها من هذا القبيل من المعرفة^١.

وهناك ايضاحات أكثر في هذا المجال سعرض لها في الفصل اللاحق إن شاء الله تعالى.



٢- العلم البشري للمحدود

١- ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

(الاسراء / ٨٥)

٢- ﴿... وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾

(لقمان / ٣٤)

٣- ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الاسراء / ٤٤)

٤- ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ

يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة / ٢١٦)

٥- ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(عافر / ٥٧)

٦- ﴿... لَا تَذَرِي لِقَلٍّ اللَّهُ يُخْبِرُكَ بِغَدِ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ (الطلاق / ١)

٧- ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ

لَا سَكُنْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ...﴾ (الاعراف / ١٨٨)

٨- ﴿... أَنَاثُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَلَهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا...﴾ (النساء / ١١)

٩- ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ

كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان / ٢٧)

١. قد يقال إن مكري المعرفة لا يكرها كذباً، وعلى هذا فالتراع بهم ومن الصلدين لنظرية المعرفة يكون راعاً نظرياً

شرح المفردات:

إن كلمة «روح» - وكما جاء في قواميس اللغة - هي الأصل اشتقت من مادة «ريح» ويطلق على التنفس كذلك، وبما أن هناك علاقة وثيقة بين التنفس وبقاء الحياة ونفس الإنسان استعملت الروح بمعنى النفس، ومن ثم بمعنى تلك الحقيقة المجردة التي يتوقف بقاء الإنسان عليها.

إن «رفح» على وزن (كُفِح) تعني أسيم البارد وكذلك اللطف والرحمة. ومنه شُفِّت كلمة «الرائحة» و«المروحة»

وإن كلمة «تفهون» مشتقة من مادة «فقه» وقد جاءت - كما في لسان العرب - بمعنى الاطلاع على شيء وفهمه، لكنها تطلق إطلاقاً خاصاً على علم الدين (أو علم الأحكام)، وذلك لرفعة وأهمية هذا العلم، والراغب في مفرداته يقول «الفقه يعني الاطلاع على شيء حمي بواسطة الاطلاع على أمر ظاهر ومكتشف» وعلى هذا مفهومه أحص من مفهوم العلم ومضى كلمة «نفس» - وكما جاء على ابن منظور في لسان العرب - هو «الشك» ويطلق على كل شيء حمي عمله عن الإنسان، (ولعل ذلك بسبب أن الأشياء الحميه غالباً ما تقع محالاً للشك)

يقول الراغب عند تفسيره لعملة «يؤمنون بالغيب» إن الغيب شيء خارج عن دائرة الحس والعقل الابتدائي ويعرف بواسطة إخبار الأنبياء.

وكلمة «نفدت» أخذت من مادة «نَفَدَ» على وزن (حَسَدَ)، «والنفاد» كما يستخلص من المعردات ولسان العرب - يعني الفناء والدمار، و«نُفِدَ» تطلق على الشخص القوي لنعاية في استدلالاته بحيث يدحض جميع حجج خصمه، و«نفاد» جاءت بمعنى تصوب ماء لئلا

جمع الآيات وتفسيرها

كان عدد من المشركين أو أهل الكتب يسألون النبي ﷺ عن «الروح»، فأمر الله سبحانه الرسول الأعظم ﷺ وكما جاء ذلك في الآية الأولى - أن يجيبهم بأن «الروح» من أمر ربي

ويضيف لهم بأنهم ما أوتوا من العلم إلا قليلاً ولهم فلا قابلية لهم لإدراك حقيقة «الروح»^١ وفي هذه الآية إشارة واضحة إلى كون العلم البشري محدوداً (وذلك لأن الروح المقصودة فيها هي روح الإنسان) وهي أقرب شيء إلى الإنسان وذلك لأن الإنسان ما استطاع الاطاعة علماً بجوهر روحه التي هي أقرب إليه من الحقائق والموجودات في الكون، وأن ما يعرفه عنها هو معرفة سطحية وإحصائية، فكيف يمكنه معرفة حقائق العالم الأخرى؟!



أما الآية الثانية والتي هي آخر آية من سورة لقمان، تكشف عن علوم خاصة بالله تعالى وأشارت إلى خمسة منها: قيام الساعة، رزق المطر، الجنين الذي في رحم الأم، الحوادث المستقبلية التي تتعلق بأعمال الإنسان وانكسار الذي يموت فيه الإنسان، وقد أشير إلى هذه العلوم الخمسة في الروايات تحت عنوان «مفاتيح العبد الخمسة» التي لا يعرف عنها أحد إلا الله^٢

وقد يعلم الإنسان علماً إحصائياً عن هذه الأمور الخمسة بالاستعانة بالفرائض، إلا أن الجزئيات لا تتصح لأحد أبداً، فلا يعلم - مثلاً - ما هي قابليات الجنين الجسمية والروحية وهل هو جميل أم قبيح وأنه سليم أم سقيم، وحتى خمسة (المذكر والمؤنث) لا يمكنه معرفته إلى مراحل متأخرة من حياته هي الرحم.

إن القرآن يعاطب الإنسان في هذه الآية ويقول يا أيها الإنسان أنك لا تعلم عن عدك شيئاً ولا تعلم في أي أرض يموت، وعليه فكيف تتوقع أن تعرف عن جميع ما في العالم وعلمك محدود؟!

١. إن جملة «ما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» فُسر من قبل أغلب المفسرين بكونكم أوتيتم قليلاً من العلم، إلا أن البعض فسرها بأن قليلاً منكم أوتي علماً، إلا أن هذا التفسير الأخير يتنافى مع ظاهر الآية التي تجعل المشركين وأهل الكتاب السائلين عن الروح مخاطباً بها فتأمل

٢. تفسير مجمع البيان، ج ٨، ديل الآية ٢٤ من سورة لقمان

وقد تحدثت الآية الثالثة عن تسبيح وحمد جميع الكائنات لله، فجميعها - بلسان حالها وبالنظام الدقيق والمعجب الذي يهيم عليها - نحمد وتشي على الله وتشهد بنزاهته عن أي نقص وعيب، وتملأ العالم بلسان حالها - أو بقولها إضافة إلى لسان حالها - بهممة التسبيح والتحميد، وكل ذرة في هذا العالم بلا استثناء لها عقل وعرفان وشعور خاص بها، تحمد الله وتشى عليه بمعرفة، وقد شرحنا هذين لرأين في التفسير الأمثل^١

وعلى أية حال، فنحن لا نستطيع فهم لسان حال الموجودات لأننا لا نعرف كل شيء عن أسرار هذا العالم ونظامه، كما لا نستطيع فهم ما تقول أيضاً ومن هنا يتضح أن العالم مليء بالهممة والأحسان الإلهية ونحن عاجلون عن ذلك لأننا لم نحط به حبراً، وهذا دليل واضح على كون علم البشري محدود



وتحدثت الآية الرابعة عن «الجهاد» ^(وقول للمبدي) يكرهون الجهاد أستم تجهلون «الخير» و«الشر» ولا تميزون بينهما فأنكم أحباباً ما تكونون في حرب مع مصالحكم وقد تتقدمون نحو الشر حباً ورغبة فيه، وهذا دليل واضح على علمكم لمحدود حيث إنكم لا تميزون أحباباً بين ما هو شر لكم وما هو خير لكم، إلا أن الله يعلم ذلك وقد أوضح بواسطة الوحي (الذي هو أحد مصادر المعرفة) وبين لكم ما فيه خير وما فيه شر

إن الآية الخامسة مع إشارتها إلى عظمة خلق السموات والأرض أشارت إلى حقيقة أن خلقهما أعظم وأهم من خلق الإنسان وأشارت أيضاً إلى عدم معرفة أكثر الناس لهذه القصة، هذا في الوقت الذي كانت فيه معلومات الإنسان بصورة عامة وفي الحمار بصورة خاصة محدودة تجاه خلق السموات والأرض، ولعلهم كانوا يتصورون النجوم آنذاك مسامير فضية في كبد السماء، واليوم حيث توسعت معلوماتنا تجاه خلق السموات والأرض، فأنها لا زالت محدودة.

١. التفسير الأمثل، ديل الآية ٤٤ من سورة الاسراء.

والآية السادسة بعد أن أشارت إلى قصية لطلاق والعدة وضرورة بقاء المطلقة في بيت الزوج عند إعتدائها بالعدة الرجعية، تقول قد يحدث لقه أمراً جديداً في هذه الأثناء أي أثناء محاورتها لزوجها السابق، الأمر الذي قد يؤدي إلى الصلح بينهما والملفت للنظر هنا هو أن مخاطب الآية نفس الرسول الأعظم ﷺ فإذا كان الرسول ﷺ مع علمه الواسع يُخاطَب بحطاب كهذا فما حال باقي أفراد البشر؟ وهذا دليل على قصور العلم البشري في مستوى بحيث لا يستطيعون أن يعلموا بمستجدات يومهم اللاحق



وفي الآية السابعة يؤمر الرسول الأعظم ﷺ بأن يقول إني لا أملك نفسي نعماً ولا صراً، وأن يعترف

إني لا أعلم الغيب (إلا ما علمني الله) وإني لو كُنت أعلم الغيب لاستكثرت ورددت من الحير لنفسي وما مسني ضرر وما حصل لي مشكلة.

إن هذا الحديث قاله الرسول ﷺ عندما كان أهل مكة يسألونه عما إذا كان يوحى إليه فلم لا يعلم ما سيؤول إليه أمر ارتفاع وانخفاض أسعار السلع أو الحفاف وهطول العيث في المناطق المحيطة كي يستريد من الحير ويشفع أكثر، فأجابهم إن عالم الغيب هو الله وهو صاحب العلم غير المحدود

عندما يعترف الرسول ﷺ مع علمه الواسع حيث يقول الله تعالى فيه ﴿... وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ...﴾ (النساء / ١١٣)

بأنني لا أعلم من الغيب (وهو الأمر الخارج عن الحس) إلا ما علمني الله فكيف حال بقية البشر؟



والآية الثامنة بعد أن بيئت أحكام رث الأولاد والأب والأم في حالات مختلفة ذكرت: حتى أنفسكم لا تعلمون أيّاً من الأب والأم أو لأولاد أئمتكم؟ وأنهم أحق بأموالكم كي يخصص له سهم أكثر

نعم، لستم على بينة بمصالحكم الشخصية، بهذا السبب لا تستطيعون أن تستنوا قوانين دقيقة تليق بمقام الارث وغيره، إنّ المُقَسَّ يجب أن يكون لهاً محيطاً بكل أسرار الوجود، نعم، إنّ قصور علم البشر بدرجة لا يستطيع أن يس قوايس تحافظ على مصالحه، ولهد نرى أنّ القوانين البشرية في حالة تعبير دني، فإذا كان الإنسان يجهل مصيره إلى هذا الحد، فكيف به تجاه الموجودات الأخرى الموجودة في الكون؟

وأخيراً، فإنّ الآية التاسعة والأخيرة في نبحث هذا تحدثت عن لعلم الإلهي اللامتناهي، وصوّرت الانهائية في الأذهان بحيث يستطيع حتى الذي لم يمل من العلم إلاّ العليل بل وحتى الأمي أن يرسم في ذهنه صورة عنها، بالرغم من صعوبة تصور الانهائية حتى للعلماء، حيث قالت لو أنّ ما فوق الأرض من شجر بصير أقلاماً رعم أنّ الأشجار قد يصل عددها إلى طلمات (بل قد تُصنع الملايين من الأقلام من شجرة واحدة وبالرغم من أنّ حوصاً صغيراً قد يملأ الملايين من الدواة فكيف بالمحيطات والبحار، وإضافة إلى هذا كله، لو استعملت الملائكة وكتاب الانس ولعن على أن يكتبوا بهذه الأقلام وهذا الحبر كلمات الله وعلمه ما استطاعوا وسوف يصرم لأقلام وينتهي الحبر وما زالت كلمات الله حلّ جلاله وعلومه في بداية الدفتر، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فأننا نعلم أنّ انمراد من كلمات الله هو الكائنات الموجودة في العالم، وعلى هذا فالآية دليل واضح على سعة العالم وقصور علم البشر.



نتيجة البحث:

إنّ ما يستخلص من الآيات السابقة هو أنّ معرفة الإنسان وعلومه رغم سعتها بحدّ ذاتها

ورغم أن علوم ومعارف البشر في حالة ازدياد في كل يوم بل كل ساعة ولحظة، ورغم امتلاء الدنيا بالمدارس والجامعات والمكتبات ومراكز التحقيق، رغم هذا كله فإن هذه المعلومات بالقياس إلى المجهولات كالقطرة بالنسبة للبحر.

إذا لم يكن الإنسان عارفاً بخيره وشره ونعمه وصره ولا بكثير روحه التي هي أقرب إليه من أي شيء آخر، ولا بالحوادث لمقبلة عليه، ولا ساعة موته، فكيف يمكنه أن يعرف ما يدور في الكواكب البعيدة في العالم اللامتناهي

ومما لا شك فيه أن جهل الإنسان بهذه الأمور لا يعجزه بل لسعة الكون. وقد يكون انكار البعض لطرية إمكان المعرفة تشأ من حلقهم بين هذه المسألة ومسألة قصور العلم البشري واقترائه بالخطأ.

إن القرآن كما يدعو إلى العلم والمعرفة ويؤكد على أن باب العلم مفتوح للجميع، يصرح بقصور العلم البشري، هذا القصر والتقصير اللذان يدعوانه إلى الاعتراف بعظمة الكون وخالفه وبمحاخته إلى الرسل وأصحاب الوحي
ويحتم هذا الحديث بمقطع من دعاء الإمام الحسين عليه السلام المعروف بدعاء يوم عرفة، حيث يقول:

«إلهي أنا الفقير في غناي، فكيف لا أكون فقيراً في فقرتي، إلهي أنا البهايل في علمي، فكيف لا أكون جهولاً في جهلي».



٣- الفلاسفة والعلماء يشهدون بقصور العلم البشري

إن كون علم البشر محدوداً أمر مسلم به ويدهي ولا يحتاج إلى دليل أو برهان لإثباته، إلا أنه بالالتفات إلى النقاط التالية يتضح لنا لأمر أكثر

١- إن قدرة حواس الإنسان محدودة، فالعين رغم أنها أهم وسيلة للمعرفة في الأمور الحسية فهي لا تستطيع رؤية شيء من بعيد، إضافة إلى أن عدد الألوان التي يشاهدها

الإنسان محدودٌ جداً لأنَّ الألوُس ما فوق البفسفسفس وما تحت الحمراء بالرغم من كثرتها فلا قدرة للعفن على رؤفئها.

كذلك بالنسبة للاذن فإنها لا تسمع كل شفس من تسمع أمواجاً صوتفة محدودة، وبمجرد ارتفاع أو هبوط درجة تردد الأمواج فسوف لا تسمع شفساً، وكذا الحال في بقفة الحواس. إننا بالعفن المجرّدة نستطفع رؤفة عدة آلاف من المجوم في السماء فقط، بينما هناك المليارات من النجوم موجودة في السماء.

صحيح أن الوسائل العلمية ضاعفت من قدرة الحواس، إلا أنها هي بدورها محدودة القدرة أيضاً

٢- إن قدرة إدراكنا وأفكارنا محدودة وما وراءها فهو مجهول عندما على الاطلاق، وهذا الأمر يصدق حتى بالنسبة إلى أكثر الناس علماً وذكاءً فإن قدرة فكره وإدراكه تكون محدودة أيضاً

٣- من جهة أخرى فإن أنعام واسع بدرجة لا يمكن استيعابه، وستطعم أن يقول إن علمنا كلما إزداد، إزدادت عظمة العالم في آلهتنا.

ولإدراك عظمة هذا العالم (إلى المستوى الذي يصل إليه فكرنا) يكفي أن نعرف أن المنظومة الشمسية والنجوم التي مشاهدنا حولنا جزء من المجرة التي تسمى بدرب التبانة (المجرات أو مدن النجوم مجموعة ضخمة من نجوم لنف تشكل عالماً خاصاً بحد ذاتها) وفي هذه المجرة - على ما يقول العلماء - يوجد أكثر من مائة مليار نجمة والنفس بالرغم من عظمتها وبورائيتها فإنها تعتبر من النجوم المتوسطة الحجم في هذه المجرة. ونفس هؤلاء العلماء يقولون - وبلاستعانه بالتلسكوب والحسابات الكسبفوترفة - أن هناك مليار مجرة في هذا العالم تقريباً^١

١ جاء في كتاب (هل وكيف ولماذا) أن الفلكلف يعتقدون بوجود عدد كبير وهائل من المجرات قرب مجرتنا وبعضها أكبر والبعض الآخر أصغر حجماً وقد كشفت التلسكوبات القوية والحاسوبات القادفة للنجوم عن وجود مليار مجرة تقريباً في هذا العالم.

إن ذكر هذه الأرقام سهل على اللسان لكن ما أصعب تصورها؟! وينبغي أن لا ننسى أن معلوماتنا عن هذه المجرات والسحوم الهائلة تدور حول محور الأرض فكيف بنا إذا تجاوزنا هذا المحور؟!

٤- ومن جهة ثانية فإن عالمنا هذا له بداية وبهاية فلا يعلم أحد عن المليار سنة العاصية ولا عن المستقبل شيئاً، فهو كالسلسلة بدايتها الأزل وتمتد إلى عمق الأبد، وما نعرفه هو حلقة واحدة من هذه السلسلة وهي الحلقة التي نعيش فيها، وما ماضيها أو مستقبلها إلا كشبح مرسوم في أذهاننا

صحيح أن الإنسان - ويدفع من قطره - في سعي مستمر لتحصيل علم أكمل وأشمل عن نفسه وعن العالم، وأنه قد جمع خلال آلاف السنين العاصية معلومات كثيرة ادخرها في حرائن مكتبات العالم الكبيرة والصغيرة

وصحيح أن بعض المكتبات كبيرة إلى مستوى بحيث يصل مجموع طول رفوف الكتب فيها إلى مائة كيلومتر (كما هو الحال بالنسبة لمكتبة المتحف الانجليري)!! وقد يصل عدد الكتب في بعضها إلى ستة ملايين كتاباً (كما هو الحال بالنسبة لمكتبة باريس)، بل قد يصل عدد الكتب في بعضها إلى خمسة وعشرين مليوناً (كما هو الحال بالنسبة للمكتبة الأمريكية المعروفة)، وقد تصل فهارس الكتب فيها إلى حجم مكتبة كبيرة، وقد يصل الأمر ببعض أن يستعمل وسائل النقل للتنقل فيها من مكان إلى آخر! لكن بالرغم من كل هذه المعلومات عن العالم وأسواره، فإن مجموعها لا يشكل إلا قطرة من محيط كبير للغاية

ونحن

ولا بأس أن نشير هنا إلى شهادات بعض علماء في هذا المجال كي يعرف القارئ أن ما ذهبنا إليه معترف به عند الجميع.

١- يقول «كريس موريس» الطبيب والعام النفسي في كتابه «سر خلق الإنسان»: «عندما تفكر بالفضاء اللامتناهي، أو الزمان سرمدي، أو الطاقة العجيبة المودعة في

الذرة، أو بالعوالم غير المحدودة والتي تسبح فيها كواكب كثيرة، أو بقدرة تشعشع بعض الكواكب، أو بقوة جاذبية الأرض، أو بالقوانين لأخرى التي يرتبط قوام العالم بها، عندما تفكر بهذه تدرك مدى ضعفنا ونقصان علمنا^١.

٢- ويذكر الدكتور «الكسيس كارل» في كتابه «الإنسان ذلك المجهول»:
«إن المساعي التي بذلت في العلوم التي اطمع عليها الإنسان لم تصل إلى نتيجة مطلوبة، ومعرفتنا لأنفسنا ما زالت ناقصة إلى حد كبير»^٢
ولهذا السبب جعل «الإنسان ذلك المجهول» عنواناً لكتابه القيم، فإذا كانت معرفة الإنسان عن نفسه محدودة إلى هذه الدرجة، فواضح حال معرفته عن الأكلون والعوالم الأخرى.

٣- ويقول العالم المعروف «وليام جيمس»:
«علمنا قطرة، وحملنا بحر عظيم»
٤- ويقول الفيلسوف المعروف «ملا بارزون»:
«أستطيع أن أهيبه أسئلة ولعدة عشر سنوات عن مجهولات لا تستطيعون الإجابة عليها»^٣

٥- ويصيف في كلام آخر له:
«نحن نمكر لكن ما هو فكرنا؟ ونسني، لكن ما هو عملنا لعقلي هذا؟ لا أحد يعلم بذلك.

أرى أن إرادتي قدرة غير مادية، لكنني عندما أريد أن أرفع يدي أرى أن الإرادة غير المادية تحرك يدي والتي هي عضو مادي، كيف يحصل هذا؟ وما هي الوساطة التي تحول

١. سر خلق الإنسان، ص ٨٧ (بالفارسية)

٢. الإنسان ذلك المجهول، ص ٥

٣. على اطلال المذهب المادي، ص ١٣٨

الطاقة غير المادية إلى مادية؟ لا يوجد من يعيب على هذا السؤال»^١.

إذا كانت معلوماتنا تجاه أوضح وأبسط لأُمور العادية هكذا، فما هو الحال بالنسبة للقضايا المعقدة أو البعيدة عن متناول أيدينا زمانياً ومكانياً.

٦- يقول (النشأين) الرياضي المعروف واكتشف للنظرية النسبية والبعد الرابع، في أحد كتبه.

«لقد علمنا كتاب الطبيعة الذي نقرأه الكثير من الأمور وقد عَرَفْنَا أُسُسَ لغة الطبيعة ... لكن رغم قراءتنا للمجلدات وفهمنا بها فَبِتَ مارلنا بعيدين عن كشف أسرار الطبيعة»^٢ ويسفيها اضافة هذه الجملة على الشهادات السابقة

من العجيب حقاً أن كل اكتشاف جديد يحصل في هذا العالم يريد من مجهولات الإنسان، وبعبارة أخرى إنَّ اكتشافات العلماء في مختلف المجالات كالاكتشاف مكتبة جديدة، أو اكتشاف كنز هيم في غاطس مختلفة من الأرض

ويدهي فإبنا إذا اطلعنا على وجود مكتبة في إحدى المدن، أو كنز قيم في حربة فقد أزلنا الغاب عن مجهول واحد، لكن الآلاف من المجهول تكشف عن نفسها من خلال هذا الاكتشاف، مثل عدد الكتب ومحتواها وكتّابها وشخصياتهم وقضايا أخرى من هذا القبيل. كذا الحال بالنسبة بلكر فإذا اطلعنا على وجوده تبلورت في أذهاننا مجهول أخرى عنه مثل نوعيته ومحتواه

ولا يذهب بعيداً، فإنَّ عالم الكائنات المجهرية (مكروبيات والبكتريا والفايروسات) كان في يوم ما مجهولاً كلياً، وعندما خطا (باستور) الخطوة الأولى عند كشفه لبعض من هذه الكائنات بجلى أمامه عالم كبير من المجهولات

إنَّ اكتشاف الكواكب «أوريوس» و«بيور» و«بلوتون» في المطومة الشمسية وكذا كشف المجرات الجديدة كلها من قبل كشف (باستور) لعالم الكائنات المجهرية، ومن هنا

١ على اطلال المذهب المادي، ص ١٣٨

٢ خلاصة الفلسفة النسبية

يجب الإذعان والاعتراف بأن العلوم ابشيرية كمور شمعية وإن حقائق هذا العالم العظيم كنور الشمس بل أعظم من ذلك!

ومن هنا يسفي القول: «سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا» (البقرة / ٣٢)
وبحتم هذا الحديث بكلام عظيم لمتكلم عظيم ألا وهو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، حيث يقول في خطبة الأشباح:

«واعلم أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السند المضروبة دون الغيوب، الأقرار بهجمة ما جهلوا تفسيره من العيب المحجوب، فمدح الله - تعالى - اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً، فاقصر على ذلك ولا تُعْتَدِ عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين»^١.



تذكير:

إن الالتفات إلى كون علم البشر محدوداً له آثار ونواتج إيجابية بناءة. نذكرها هنا
١ - الحد من الغرور العلمي: نعم أن البشر قد واجه مصائب كثيرة من جراء العرور العلمي، ومثاله ما ظهر في حدود القرن الثامن عشر الميلادي في أوروبا فعندما حصص قمره في العلوم الطبيعية آذاك، تصور بعض العلماء أن جميع ألغاز الكون قد حلت وأن أسرارها قد كشفت، ولهذا أنكروا كل شيء يكمن وراء معلوماتهم، بل سحروا من جميع الأمور التي لا تدخل في إطار معلوماتهم، وقد وصل نكارهم إلى حد سحروا من وجود الروح حيث قال بعضهم: لا يؤمن بوجود الروح ما لم شاهدها تحت سكاكين الجراحة في غرفة العمليات، أو بما أن الله لا يدرك بالحس فلا وجود له!

إن هذا النوع من العرور خلق مشاكل كثيرة، والأمر الوحيد الذي يمكنه أن يحطم هذا

الغرور العلمي هو الالتفات إلى صالة العنوم البشرية بالقياس إلى المجهولات، طبقاً للأدلة التي ذكرت سابقاً.

إن الالتفات إلى هذه الحقيقة هو الذي جعل العناء المتعمقين يعترفون بما قاله أحدهم: «إن علمي وصل إلى مستوى يأتي أعلم، أي لا أعلم» و«معلوماتي صفر والمجهولات بالقياس لها غير متناهية».

٢ - الحركة العلمية الأسرع: إن الالتفات إلى هذه الحقيقة يسوق الإنسان نحو السعي العثيث والجهد المخلص والمتواصل لحل أمار عام الوجود، خاصة وأنه يرى أن أبواب العلم مفتوحة أمامه، ولا يبيأس من الحصول على علوم أكثر

ومن الواضح أن الإنسان لا يسمي وراء الكمال مالم يشعر بالنقص، ولا يبحث عن الدواء مالم يحس بألم المرض، ولهذا يقال إن لاحتساس بالألم إحدى نعم الله العظيمة، وإن أسوء الأمراض هي تلك التي لا يصحبها ألم لأن المريض لا يطلع على المرض إلا بعد أن ينقص عليه ويهلكه

إن الالتفات إلى طناله العلم البشري يخلق عند الإنسان رد فعل إيجابي يدفعه نحو التحقيق والتقصص أكثر ما أكثر، وقد يكون هذا الأمر هو أحد أهداف القرآن الكريم عند تأكيده على نقصان العلم البشري.

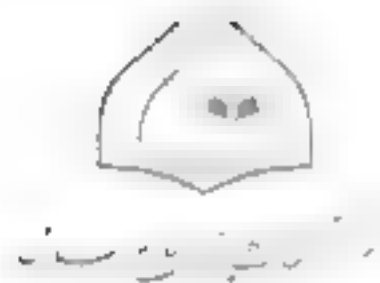
٣ - الالتفات إلى مبدأ أسس من الآثار الإيجابية التي يتركها الاحتساس بالنقص العلمي عند كل فرد هو أن الإنسان شاء أم أبى يعد نفسه بحاجة إلى مبدأ أعظم تكون عنده جميع أسرار العالم مكشوفة، وأماره محلولة. إن هذه القضية تهيب الأرضية لقبول دعوة الأنبياء، وتفتح أمامه سبلاً بلاهتتمام بالمصادر والطرق العلمية التي تفوق علم البشر على أية حال، إن الالتفات إلى كون علم بشر محدوداً مع عص النظر عن كونه حقيقة، له آثار تربوية وإيجابية جمّة.

مصادر وسبل المعرفة

(مصادر المعرفة الستة)



- الحس والتجربة
- العقل والتحليل المنطقي
- التاريخ و الآثار التاريخية
- الفطرة والوجدان
- الوحي السماوي
- الكشف والشهود



تمهيد:

بعد ما ثبت لنا إمكان المعرفة وإمكانية الوصول إليها إجمالاً، جاء الدور للبحث عن سبل المعرفة، وتصوير آخر عن مصادرها ومناهجها التي تمكننا من معرفة الحقائق الموجودة في العالم، لأننا بالاستعانة بهذه السبل يمكننا تبديل «الواقعيات» إلى «حقائق»، بواسطة هذه المعالم وذلك لأن كلّا من هذه السبل معلّم وهادٍ يرفع المعانيب عن أسرار العالم ومجهولاته وقبل كلّ شيء، ينبغي معرفة رأي القرآن في هذه المسألة، لأنّ محور دراستنا هذه هو التفسير الموضوعي والتحقيق حول تعليمات نيران الكريم

وقد وصدا بالتحقيق والتبع الدقيق في 'آيات المحتفة ومنتشرة في القرآن الكريم إلى هذه النتيجة وهي أنّ طرق المعرفة ومصادرها في لقرآن الكريم تتلخص في ستة أمور:

١- الحس والتحرية (الطبيعة)

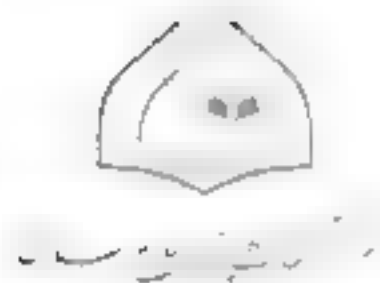
٢- العقل والتحليل المنطقي.

٣- التاريخ والآثار التاريخية.

٤- الفطرة والوجدان.

٥- الوحي السماوي

٦- الكشف والشهود.



١- الحسن والتجربة

ننسى النظر خاشعين في البداية إلى الآيات الكريمة التالية:

١- «أَقْلَمُ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بُنِيَهَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا مِنْ قُرْجٍ» (ق/٧)

٢- «أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ

(الاعراف / ١٨٥)

شئ...

٣- «أَقْلَمُ يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ • وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ • وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ

(العاشية / ١٧ - ٢٠)

نُصِبَتْ • وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ»

٤- «فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ الْأَرْضَ بِغَدِّ هَوْنِهَا...» (الروم / ٥٠)

(الطارق / ٥ - ٦)

٥- «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ • خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ»

٦- «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ • أَلَمْ يَكُنْ مِنْ مَاءٍ صَافٍ • ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا •

(عبس / ٢٤ - ٢٨)

فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا • وَعَبَبْنَا وَنَضْبًا»

٧- «أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ» (الشعراء / ٧)

٨- «أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَ

(السجدة / ٢٧)

أَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ»

٩- «سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ...» (فصلت / ٥٣)

١٠- «أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافًى وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْنُ إِنَّهُ يَكُلُّ

(الملك / ١٩)

شئٍ بَصِيرٌ»

١١- «وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُتَوَكِّلِينَ • وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ»

(الذاريات / ٢٠ - ٢١)

١٢- «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

(النحل / ٧٨)



إن الآيات الواردة في هذا المحال كثيرة جداً، وما ذكرها ساذج وأصحه في مجالات مختلفة^١

شرح المفردات:

إن كلمة «ملكوت» - على ما يفوله العرب في مرادته - مصدر «مَلَك» وقد أُصيقت لها الناء، وتستعمل في الإشارة إلى (ملك آله) فقط دون غيره، بينما جاء في «مجمع البحرين» و«لسان العرب» أن المَلُوكُ يعني «العمة والسلطنة»، ويقول البعض: إنها اشتقت من «مَلِك» على وزن «حُكْم» وتعني «الحكومة والمملكة»، وأصيقت لها الناء والواو للمبالغة وكلمة «قَصَب» على وزن (جَدَب) - وكما جاء في لسان العرب - هي الأصل بمعنى «قطع» بحث قال بعض المفسرين: إنها تعني المحفروحات التي تُحصد في فصول مختلفة^٢ وكلمة «جُرُز» تعني الأرض الفاقدة للنباتات، أو الأرض التي لا يسبت فيها نبات، و«جُرُز» على وزن (مَرَص) وتعني القُطْع وبمعنى صاحب «لسان العرب» عن بعض أئمة اللغة أن الأرض الجُرُز تطلق على الأرض التي قلع نباتها أو انقطع عنها المطر

١ يمكن الرجوع إلى الآيات التالية لأعراف: ١٨٥، يوسف: ١٠٩، الروم: ٩، غافر: ٦، النحل: ١٧٩، الشعراء: ١٧، الاحقاف: ٣٣، الملك: ١٩، يس: ٧٧، الأنعام: ٦، النحل: ٧٨، المؤمنون: ٧٨، ق: ٣٧، الاحقاف: ٢٦، هود: ٢٤، غافر: ٢١، محمد: ١٠.

٢ تفسير الميراث، ج ٢، ص ٣١٦؛ تفسير مجمع البحرين، ج ١٠، ص ٤٤٠. نقل عن أبي عباس أن المراد من «القضب» في الآية هو «الرطب» الذي يقتطف من النخيل لكن بالنظر إلى الآية الأخرى التي أشارت إلى معنى الكلمة فإن هذا التفسير بعيد. وقال البعض: يحتمل أن يكون المراد منه هو فواكه الشجيرات مثل الصبار والرقى، أو جذور بعض المرووعات مثل الجرر والبطاطس

وأما كلمة «فؤاد» جمع «فؤاد» وتعني القلب - كما يقول الرابع - إلا أن الفؤاد يطلق على القلب الذي له حالة إنارة وإضاءة، وهذا أمر ملتبس بطر حيث يعد الله القلب لمشور والمسير من مواعيد، وجدير بالذكر أن صاحب «نسان العرب» ذكر أن أصلها جاء من «فؤاد» على وزن (قَوْعَد) ويعني المشوي، وعلى هذا تكون كلمة «فؤاد» إشارة إلى العقول التي تتحلل بالأفكار الباضجة!



جمع الآيات وتفسيرها

في الآية الأولى بدعوا الله الإنسان إلى الانعفات بين السموات والأرض وجمالهما وكيفية سبيلهما والنظام الذي يتحكم بهما وإحكامهما واتقاهما وخلقهما من العيب، وفي الآية الثانية بدعوا الله الناس إلى مشاهدة نظم السموات والأرض والكائنات، وذلك لإيقاظ القلوب للسير في طريق (التوحيد) **ومعرفة** لخالق والاية الثالثة تلقي طرة من السماء إلى الأرض حيث بعثت نطفة الإنسان إلى شسطين: أحدهما خلق الإبل وعجائب هذا العلق (بالخصوص) لأناس يعيشون في محل سرور (القرآن)

والأخر تسطيح الأرض بحيث تصلح الحياة عليها، ويعتبر القرآن المشاهدة في جميع هذه المراحل متبعاً مهماً للمعرفة.

وفي الآية الرابعة والتي يعاطب الله فيها رسول الأعظم ﷺ يلفت نظره إلى مسألة نزول العيث وإحياء الأرض بعد موتها ويقول له «فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها»

وفي الآية الخامسة يشير الله إلى مبدأ خلق الإنسان وأنه يحب أن ينظر من أي شيء خُلِق؟ قد خلق من ماء دافق، ويذكر بمشاهدة هنا كوسيلة للمعرفة كذلك، وفي الآية السادسة يأمر الله الإنسان بأن ينظر إلى عدته وطعامه كيف يبت وشق لأرض

وخرج البيت من التربة بواسطة نزول المطر فصارت الجيوب والمواكيد والخضروات، فإذا نظرنا إليها ودققنا في كل ورقة من أوراقها لوحدناها كتاباً وسقرأ يحكي لك عن معرفة الله.

﴿٥٥﴾

والآيات الست السابقة تدعو إلى «النظر» بينما لايات الخمس التي بعدها ندعو إلى «الرؤية» بالرغم من أن كلاً من هذين الاصطلاحين في كثير من الأحيان يستعملان بمعنى واحد، إلا أنه كما يستفاد من قواميس اللغة المعروفة - يطلق «النظر» على حركة العين والتفحص والدقة في مشاهدة شيء، بينما تطلق «الرؤية» على نفس المشاهدة، بالطبع أن كلا المفردتين تستعملان بمعنى المشاهدة بحسب دارة وبمعنى المشاهدة الذهنية والفكرية تارة أخرى. إلا أنه ينبغي الالتفات إلى أن لمعنى الأولي لهما هو المشاهدة الحسية

وعلى أية حال، فإن الآية السابعة تدعو للمشركين لمشاهدة مختلف النباتات التي تبت أزواجاً أزواجاً في أرجاء المصورة ()
والآية الثامنة تدعو المشركين كذلك إلى رؤية مياه البحار ومصدرها تلك القطرات العالقة في القيوم وهطولها منها على الأرض اليابسة وخروج الررع الذي يستفيدون منه هم وأنعامهم.

وقد أشارت الآية التاسعة إلى جميع آيات «الآفاق» و«الأنفس»، وهي آيات الله في هذا العالم العظيم وفي العالم الصمير وهو وجود لإسان، وقالت نحن نريكم آيات الآفاق والأنفس كي يتبين لكم الحق ويتضح.

والآية العاشرة دعت إلى مشاهدة الطيور وكيفية طيرانها في السماء، فتارة صافيات اجنحتها وتارة أخرى قابصات. وهذا الأمر هو الذي يجعلها تطير في السماء خلافاً لجاذبية الأرض، كما أن طيرانها بسرعة تارة بصف الأجحة وأخرى بقبصها، وكأن هناك قدرة خفية تدفعها إلى الأمام، ولكل من الطيور شكلها لحس بها والوسائل الضرورية لحياتها

١ يراجع مفردات الراغب وإسان العرب مادة «نظر».

والآية الحادية عشرة نفتت لأنظار إلى مسألة خلق لأرض ومن ثم خلق الإنسان اندي يعتبر خلقه عالماً عظيماً مليئاً بالصحيح رغم صغر حجمه، وأثبت الدين لا يبصرون رغم أنهم قادرون على الإبصار بحطاب «أفلا يبصرون».

(بغني الالتفات إلى أن «البصيرة» جاءت من مادة «بصر» الذي يعني «العين» إن «بصر العين»، ورغم استعمالها بمعنى «النظر» و«الرؤية» إلا أنها تختلف عنهما بالتأكيد على عضو البصر وقوته، لكنها كالمعردتين السابقتين قد تستعمل بمعنى المشاهدة الباطنية والفكر). وأخيراً، فإن الآية الثانية عشرة تؤكد على لأعضاء ثلاثة أي الأذن والعين والقلب والتي تعتبر ثلاثة أعضاء أساسية للمعرفة وهذا دليل واضح على اعتبار المشاهدة والحس من المصادر الأساسية للمعرفة

BOG

النتيجة:

إن الآيات السابقة والتي عالياً ما تحدثت عن قضية لتوحيد ومعرفة الله، أمرت الناس بأن يفتحوا أعينهم أثناء سلوك طريق المعرفة والتوحيد من أجل الوصول إلى الهدف، عندها سيرون اسم «الله» على جبين كل موحود في هذا العالم، ويشاهدون الأنظمة الدقيقة والعريضة التي تتحكم بالعالم، ومن ثم يصلون - بواسطة برهان النظم - لا إلى معرفة ذات الله بحسب، بل صفاته وتوحيده وبيده وقدرته وعدمه اللامتناهي

وبالنظر إلى أن أهم مسألة في الإسلام هي مسألة لتوحيد ومعرفة الله، وأن أهم دليل في القرآن على المعرفة هو برهان النظم، وأهم منبع لبرهان لنظم هو الطبيعة والمخلوقات فمن هنا تتضح أهمية الحس والمشاهدة والتجربة من وجهة نظر القرآن الكريم

وقد استعان القرآن كثيراً بـ «المشاهدة الحسية» ليس في مسألة التوحيد بحسب بل في مسألة المعاد أي ثاني أهم مسألة في الإسلام بوضاً، وقد صور لنا لقطات من المعاد بالاستعانة بنفس الطبيعة المشهودة لنا، كما جاء ذلك في سورة (ق) حيث يقول تعالى:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَخَبَّ الْحَصِيدُ • ... وَأَخْبَتْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾. أي في يوم القيامة.

كما - والله - لكشف عن عاقبة الظلم والظلم وأهلهما - دعاء الله الناس لمشاهدة ما خلف هؤلاء من آثار ومشاهدة مديهم الحرية.

هذا كله تأكيد من القرآن على ضرورة الاستعانة بـ «الحس والمشاهدة» كمصدر للمعرفة

﴿١١٩﴾

توضيح

الفلاسفة ومصدر الحس:

هناك اختلاف كبير في وجهات نظر الفلاسفة فيما يخص قضية اطلاعنا على العالم اندي يحيط بنا وما هي المراحل التي سطو بها للوصول إلى هذه المعرفة؟ ومن أي مصدر تصل أدهاننا؟ إن أكثر الفلاسفة عدوا الحس أحد مصادر المعرفة رغم ظهور قطبين على طرفي الإفراط والتعريط في هذا المجال.

١ - «الحسبون» حيث يعتبرون الحس طريق الوحيد للمعرفة وينكرون المصادر الأخرى كالمعل.

«إن هؤلاء الذين ظهوروا في القرن السابع عشر أنكروا قيمة البرهان القياسي العقلي، واعتبروا أسلوب التجربة أسلوب لوحي وسليم والمعتمد عليه في هذا المجال، وتعتقد هذه المجموعة بعدم أصالة وتجدر الفلسفة انظرية العقلية المستقلة عن العلوم التجريبية، ويعدون العلم ثمرة الحواس فقط، والحواس لا تتعلق بالآب ظاهر وعوارض الطبيعة، إذن لا اعتبار للمسائل الفلسفية الأولية، وذلك لأنها بطرية وعقلية بحنة وتعلق بالأمور غير المحسوسة، ولا يدرك الإنسان هذه المسائل نبياً أو نبياً»^١

١ أصول الفلسفة والسهج الواقعي للشيخ المطهري، ج ١ ص ٦ (مع لمحيص قبل)

إنَّ الماديين ومن ضمنهم أتباع المذهب « ديبالكتيكي » من المتحمسين لهذه النظرية،
فهم يقولون.

« إذا انقطعت جميع قنوات التأثير لحارجي عن حسنا، فهذا يعني أننا سوف لا نعرف شيئاً، وسيعجز الدهن عن جميع مشاطنه، وتبقى معرفة لواقعيات أمراً معالاً، وعلى هذا فالحس مشأ المعرفة ومبنى أحكامه اتجاهه، فينبغي القول أن الحس منبع المعرفة بل منبعها الوحيد»^١

٢ - المجموعة الأخرى هي التي تقع في طرف المقابل للمجموعة الأولى تماماً وهي التي لا تولي أي أهمية للحس في مجال المعرفة

يقول «ديكارت»: «لا نستطيع ان نوق بانفسهيم لتي وصلت من الحارج بواسطة الحواس الخمسة بأن لها مصداقاً خارجياً أم لا، وبدا كان لها مصداق فلا يقين لنا بتطابقه مع الواقع»^٢.

مسار الحكمه في اوربا « يعتقد (ديكارت) أن المحسوسات الإنسان لا تتطابق مع الواقع، وأن الحس هو وسيلة ارتباط بين جسم الإنسان والحارج، ويرسم لنا صورة كاديه عن العالم، فهو يعتقد أن المفاهيم النظرية هي أسلم للعلم الواقعي»^٣

ولخلاصة: أن هذه المجموعة تعتقد أن لمعقولات فقط لها قيمة علمية يقيسية، أمّا المحسوسات فلها قيمة علمية غير يقيسية^٤

إنَّ المجموعة الأولى تستند إلى خطأ «مقل الطري والاحلاف الفاحش بين لعلماء في لمسائل العقلية، بينما تستند المجموعة ثمانية إلى أخطاء الحواس، حيث يدكرون أعداداً لا تحصى من أخطاء حاسة البصر التي تعتبر أهم وأوسع حس بالإنسان.

١ المادية الديالكتيكية «بيك أنس»، ص ٢٠٢، (ملخص) - بالمارسية -

٢ مسار الحكمه في اوربا، ج ١، ص ١٧٢ (مع تلخيص) - بالمارسية -

٣. المصدر السابق.

٤ اصول الفلسفة، المقالة الرابعة (قيسة المعلومات).

لكن ممّا لا شك فيه أنّ كلّتا المجموعتين حاطّتان، ونوضح ما ندعيه بصورة مركّزة فنقول:

بالنسبة للحسين يمكن حصر أهم إشكالاتهم في النقاط التالية.

١- إنّ كلّ إنسان عند مشاهدته للموجودات الخارجية يواجه مجموعة من الحوادث والقضايا الجزئية لا يمكن الاستعادة منها للاستدلال، لأنّ كلّ استدلال يجب أن يستند إلى قضية كلية.

ومن هنا تبدأ مسؤولية العقل، حيث يقوم بصياغة قضايا كلية من هذه الجزئيات، فمثلاً نلاحظ أنّ قطعه الحجر تكسر الزجاج المادي في ظروف مختلفة، فهذه الحوادث الجزئية الحاصلة بالحس تنتقل إلى العقل، يصوغ العقل قاعدة كلية تجاه هذه المسألة، وكذلك الأمر بالنسبة للتجربة في الظروف والارتماء والأكمة المختلفة التي تكشف عن أنّ الصوت ينشر بصورة خط مستقيم، فالعقل يصوغ قاعدة كلية من هذه الحوادث الجزئية لا وجود لها في الخارج والموحود في الخارج هي مصاديقها لا تمّ نها وعلمه فالإدراكات الحسية كالمواد الخام التي قد «تتحلل» وقد تتركب في مختبر العقل، ومن خلال هاتين العمليتين يحصل على المعاهيم الكلية التي يستعاد منها في المطلق والاستدلال

٢- ممّا لا شك فيه أنّه يسعى للاستعادة من لعل لإصلاح الأخطاء الناشئة من خطأ الحواس، فعندما نقول:

فإذا أخطأ البصر في رؤية الأشجار المتوالية متقاطعة من بعيد فإنّ المعيار في تشخيص وإدراك الخطأ هذا هو العقل.

صحيح أنّ تمييزنا لهذا الخطأ يسند إلى بحس أيضاً حيث إنّنا ندرك خطأ بصرنا من بعيد لأننا طويلاً الشارع من أوله إلى آخره عدة مرّات وشاهدنا الأشجار في طول الشارع متوازية ولم تلتقي في مكان، لكن هذا الاستدلال الذي يستند إلى الحس يقوى عندما يقول لنا العقل إنّ اجتماع النقيضين محال، ويقول «متعاً أن تكون الأشجار متوازية ثم تلتقي في

نقطة واحدة، فاستدلنا بهذا الشكل يثبت لنا خطأ ما نشاهده من بعيد. في الحقيقة إن قصيدة امتناع اجتماع النقيضين التي تدرك بالعقل تشكل حجر الأساس لجميع الاستدلالات، وعليه فلا يؤخذ بالدليل الحسي دون الاستناد إليها.

٣- فضلاً عما سبق، فإن ما ندركه بالحس هو طاهر الأشياء، وما يرى من الجسم بالحس مجرد مظهره لا شيء آخر، وعليه فيدون تدخل الإدراكات العقلية لا نستطيع معرفة حقيقة الجسم.

قد يقال: إن الحواس لا دور لها لوحدها بل يجب الاستعانة بالإدراكات العقلية حتى في العلوم التجريبية، لكن ينبغي الادعاء إلى هذه حقيقة - وهي أن جميع الإدراكات العقلية حصلت بواسطة الحواس وكما يقول «جان لوك» لفيلسوف الانجليزي المعروف: «لا شيء في العقل لم يوجد قبله في الحس».

إن هذه الجملة التي أصبحت متلاً ومقرباً ذكرى منه تدل على أن ذهن كان كاللوحه البيضاء في البداية وقد يتعش عليها بعد ذلك بواسطة الحواس، وأن لا وطعة للعقل غير «المحرىد» و«النعيم» أو «التحليل» و«التركيب» لمدرجات الحواس.

لكن هذا خطأ عظيم، وذلك لأن علمنا بأنفسنا (الذي هو علم حصوري) لم يحصل بواسطة الحواس، كذلك علمنا بوجود حواس، وعلمنا باستحالة اجتماع النقيضين لم يحصل عن طريق الحواس، فمن ندرك محالة أن يكون موجودين ومعدومين في آن واحد وإن لم نملك حواساً، كذا الأمر بالنسبة لمصايب أخرى لا حاجة فيها إلى الحواس.

وتوجد أبحاث كثيرة في هذا المجال لو أسهبنا فيها لا يتعدنا عن هدف هذا الكتاب، ونظراً لبعضها هنا كان بهدف توضيح نظريتي «حسيين» و«عقليين» الذين حصروا سبل لمعرفة في بُعد واحد، وأن نظريتهما سقيمتان وأن كلا من «الحس» و«العقل» يشكلان مبعأ ومصدراً للإدراك، كما انعكس ذلك في القرن المجيد



٢- العقل و التحليل المنطقي

تمهيد:

في القرآن الكريم تعابير كثيرة استعملت للإشارة إلى هذا المصدر كما يشاهد الكثير من الايات التي تدعو الناس إلى المعرفة بالاستعانة بـ «التفكير».

وبذكرها بعض تلك التعابير التي استعملت للإشارة إلى هذا المصدر المهم للمعرفة

١- العقل.

٢- القلب (وجمعها ألباب)

٣- القواد.

٤- القلب.

٥- الثمن.

٦- الصدر.

٧- الروح.

٨- النفس.

كما أن هناك تعابير استعملت في القرآن لبيان مهمة العقل مثل

٩- الذكر.

١٠- الفكر.

١١- الفقه.

١٢- الشعور.

١٣- البصيرة.

١٤- الدراية.

والآن نبحث كلاً من العاوين السابقة في مس بحثنا عن الآيات التي وردت فيها تلك التعابير^١.



لنمن خاشعين أولاً في الآيات التالية

١- ﴿كَذَلِكَ يبينُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. (البقرة / ٢٤٢)

٢- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

(آل عمران / ١٩٠)

٣- ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. (النحل / ٧٨)

٤- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ *

إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾. (ق / ٣٦-٣٧)

٥- ﴿كُلُوا وَارْزُقُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النَّهْيِ﴾. (طه / ٥٤)

٦- ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾.

(الأنبياء / ٤٩)

٧- ﴿فَإِذَا سُوِّقَتْهُ وَتَفَقَّحَتْ فِيهِ مِنْ رُوحٍ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾.

(الحجر / ٢٩) و(ص / ٧٢)

١. إضافة إلى العاوين والتعابير السابقة التي أُشير إليها هناك تدبير استعملت في القرآن. وأريد بها مراحل الإدراك مثل: الظن والزعيم والحسيان واليقين، وعلم اليقين وعين اليقين، والتي تبدأ بمرحلة هشة ومتزلزلة من الإدراك وتنتهي باليقين الذي هو أعلى مراحل الإدراك ولا يتصور درجة ومرحلة أعلى منه

- ٨- «وَتَقْسِ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» (الشمس / ٧-٨)
 ٩- «... وَبَيِّنْ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (البقرة / ٢٢١)
 ١٠- «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ» (الأنعام / ٥٠)
 ١١- «أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ» (الأنعام / ٦٥)
 ١٢- «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أحياءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ» (البقرة / ١٥٤)
 ١٣- «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُنْصَرِفُونَ» (الاعراف / ٢٠١)
 ١٤- «وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ» (القمان / ٣١)



شرح للمفردات:

«العقل» كما جاء في لسان العرب ومفردات راعب - من أفعال أي الحيل الذي يشد به ساق الصير لمنعه من الحركة وبما أن لعقل يردع الإنسان عن القيام بالأعمال المشيئة اطلقت هذه المفردات عليه.

وقد ذكر صاحب الصحاح أنها تعني «المختبر» «لمع» بينما قال البعض كصاحب القاموس. إنها تعني «العلم بصفات الأشياء كالحسن والقبح والكمال والنقص»، أمّا صاحب مجمع البحرين فقد فسر العاقل بأنه «لدي يستطيع أن يسيطر على نفسه ويتغلب على أهوائه وميوله».

ويظهر أن معناه الأولي هو الصمد والمنتع ولهذا يقال لمن امتنع لسانه عن النطق «اعتقل لسانه» كما يقال «للدية» «عقل» لأنها تحول دون إهراق دماغ أكثر، ويقال للمرأة العفيفة والمحجبة والطاهرة «عقيلة»

يقول «الحليل بن أحمد» في كتابه «العبر»: إنَّ لعقل يطلق على القلعة والحصن أيضاً. كما ملاحظ هنا فإنَّ مفهوم الحمر والسمع متصِّفٌ لجميع هذه المعاني، وعليه فإنَّ أصله يعني المنع.

أمَّا كلمة «اللب» وجمعها «اللباب» - كما يقول كثير من أهل اللغة - يعني الحاصل والصفوة من كلِّ شيء، ولهذا يطلق على المرحلة الرفيعة من العقل «اللب»، فإنَّ كلَّ لب عقل لكن ليس كل عقل لباً، لأنَّ لللب هو العقل في مراحل الرفيعة والحالصة. ولهذا لسبب سبَّحتُ أمور القرآن الكريم إلى «أولي الألباب» لا تدرك إلا بالمراحل الرفيعة من العقل، كما يطلق اللب على باطل كثير من العواكف لأنَّه حائل من القشر^١

وإنَّ كلمة «العزاد» - كما أشرنا سابقاً - من مادة «أذ» على وزن (وَعَد) وفي الأصل معناه وضع الحبر على الرماد أو الحصى بحارة، كي يُعبر جهداً. كما يطلق على طبع وشوي اللحم^٢.

وعلى هذا فالعقل عندما يصحح يطلق عليه «عزاد» وجمعه «أعزدة»

ويصيغ الرابع في معردياته إنَّ «العزاد» يعني نقب مع زيادة وهي الإنارة واللمعان. إنَّ «القلب» - كما جاء في القاموس والمعجمات ولسان العرب - في الأصل يعني تفرير الشيء وتحوله، وغالباً ما يستعمل بمصيغ، فتارة يطلق على العصور الذي يتكامل به صبح الدم إلى جميع أعضاء البدن، وتارة أخرى يستعمل فيراد به الروح والعقل والعلم والفهم والشعور، وجاء هذا الإطلاق من حيث إنَّ لقلب الجسماني والقلب الروحي في حركة وتغير مستمرين، وكما يقول بعض أهل اللغة:

ما سمي القلب إلا من تقلبه والرأي يصرف بالإنسان أطواراً

كما أنَّ كلمة «القلب» تطلق على مركز كل شيء مثل: قلب لسكر، لأنَّ القلب مركز جسم وروح الإنسان، وقد جاء في القاموس أنَّ حاص كل شيء يُقال له «قلب»

١. لسان العرب والمعجمات ومجمع البحرين

٢. لسان العرب وقاموس المعرديات والرابع

وكلمة «**العقل**» تعني «**العقل**» ومن مادة «**نهي**» على وزن (سغى) ويعني المنع من شيء مأخوذ، وقد صرح كثير من أئمة اللغة (كصاحب المفردات ومعجم البحرين ولسان العرب وشرح القاموس) أن هذه التسمية جاءت من حيث إن العقل يهوى عن الأعمال المشيئة

و«**الصدر**» في الأصل يعني القسم الأمامي الذي تحت الرأس (أي الجسم) ومن ثم اطلق على القسم الأعلى والمقدم لأي شيء، مثل صدر المجلس أي أعلاه، وصدر الكلام أي بدايته، وصدر النهار أي أوله (كما جاء ذلك في مفردات ولسان العرب)

إلا أنه قد يستفاد من بعض الكلمات معنى بقدمية وليدة لكل شيء، وعلى كل حال، بما أن العقل عضو مهم ويقع في الجزء الأعلى من بدن تطلق عليه صدر، خاصة وأن القلب الجسماني يقع في وسط الصدر (العضو المعروف من البدن)، وسنذكر فيما بعد أن هناك علاقة وثيقة بين انقلاب القلب العضوي والانقلابات العقيدة

أما كلمة «**الروح**» في الأصل تعني لنفس، وبما أن هناك علاقة وثيقة بين انفس وبقاء الحياة، استعملت بمعنى النفس ومركز العقل وفهم الإنسان وقد صرح البعض أن كلمتي «**الروح**» و«**الريح**» اشتقتا من أصل واحد، وإذا سميت الروح - التي هي وجود مجرد ومستقل - روحاً فذلك من حيث إن الروح كالريح بوحده الحيوية والحركة من دون أن تُرى

وكلمة «**النفس**» - وكما يقول الرابع وصاحب القاموس ولسان العرب وكتاب العين - تعني الروح التي هي مركز إدراكات الإنسان، إلا أن القرآن الكريم ذكر مراحل النفس: «**النفس الامارة**» هي النفس التي تأمر الإنسان بالمعاصي وترغبه بها، و«**النفس اللوامة**» وهي التي تنذم على المعاصي التي ارتكبها الإنسان وتوجهه عليها، و«**النفس المطمئنة**» وهي التي تتحكم بجميع الشهوات والميول وقد وصلت إلى مرحلة الاطمئنان

من مجموع ما سبق، يتبين لنا أن القرآن المجيد استعمل مفردات كثيرة للإشارة إلى العقل، وكل من هذه المفردات تشير إلى جانب من جوانب هذا الوجود النفساني، وبتعبير أحر كل منها يتعلق ببعض من أبعاد العقل.

وبما أن هذه القدرة العامصة تردع لإسناد عن لأعمال المشيئة وتمنعه عنها قيل لها عقل ونهى.

وبما أنه في حال انقلاب وتحول دائم قيل له «قلب»، وبما أنه في القسم الأعلى من بدن الإنسان قيل له «الصدر».

وبما أن هناك علاقة وثيقة بينه وبين الحياة قيل به «روح» و«نفس»، وعندما يصل إلى مرحلة الإخلاص ويصفو من الشوائب يقال له «لُبّ»، وأخيراً عندما تنصح أفكاره يطلق عليه «قوادة».

يستتج من هذا البيان أن استعمال هذه مفردات المشووعة في القرآن لم يكن اعتباطاً بل كان مسجماً ومتماشياً مع الموضوع الذي في الآتية، وهذا من عجائب القرآن التي يدركها الإنسان عند تتبعه لآيات القرآن وتفسيره لها موضوعياً.

❦❦❦



أفعال العقل:

إن «الذكر» يمثل الاصطلاح المقابل للنسيان، وكما يقول الرابع إنّه حاله في الإنسان تمكنه من حفظ ما أدرك واستحضاره في ذهن عند الحاجة، وهذا المعنى قد يتم بالقلب وقد يحصل باللسان.

وإن «المكر» يعني فعالية العقل، وعلى ما يفوله الرابع إنّه قوة تسوق العلم إلى المعلومات، ويمتد بعض الفلاسفة أن حقيقة «فكر» تتركب من حركتين: حركة نحو المقدمات، ثم حركة من المقدمات إلى النتيجة، ومجموع هاتين الحركتين اللتين تؤدّيان إلى العلم والمعرفة يقال لهما «العكر».

و«الفقه» يعني «الفهم» بصورة عامة - كما جاء ذلك في لسان العرب - إلا أن الرغب في مفرداته يقول: إنّه بمعنى الاطلاع على أمر حمى بالاستعانة بأمر ظاهر وجلي، وعليه فالعلم علم يحصل بالأدلة (بالطبع إن العلم المصطلح معيلاً هو علم الأحكام الإسلامية)

أما «الشعور» فيعني العلم والمعرفة - كما يفوله بعض من أثقة اللغة كصاحب القاموس ولسان العرب ومقاييس اللغة وغيرهم - إلا أن راعب قال في معرفته - يعني «الاحساس» ، وإذا كان المقصود هو الاحساس الباطني فلا اختلاف مهم بين ما قاله الرابع وما قاله الآخرون في شرح معنى الشعور، وقد جاء الشعور في كثير من آيات القرآن وأريد به (العلم)، إلا أنه استعمل في موضع آخر وقصد به الاحساس الخارجي.

إن كلمة «البصيرة» اشتقت من البصر، وقد جاءت - كما يقول الرابع - بثلاثة معانٍ بمعنى العين، وبمعنى قوة العين، وبمعنى قوة الإدراك والعلم. وقد قال الهمض: إن معناها في الأصل هو العلم سواء حصل بالمشاهدة الحسية أو بالعقل^١.

وتستعمل مرادة «البصيرة» بالخصوص في «لإدراك قلبي والعلم»، ولهذا جاء في لسان العرب أنها تعني الاعتقاد القلبي، وقد عسرها بعض بالدكاء الذهني

وقد استعملت بالمعنى الأخير في القرآن الكريم حيث يقول: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ﴾^٢ (يوسف / ١٠٨)

وكلمة «الدراية» تعني العلم والخبرة بصورة عامة، أو العلم والخبرة في الأمور الجمية والمستترة، كما قد جاءت بمعنى «الكياسة»، كما يستفاد من قواميس اللغة أنها في الأصل تعني الالتفات إلى شيء ثم استعملت وأريد منها لحيرة بشيء، وقد استعملت في القرآن الكريم مراراً وقصد بها مفهوم «العلم»، ويستخلص من هذا القسم من بحثنا أن الألفاظ التي استعملت للتعبير عن العقل وأريد منها مفهوم نعلم والإدراك ألفاظ متنوعة، وكل منها تُعبّر عن بُعد وجانب من أبعاد وجوانب العقل، وقد استعملت كل في مواردها!

فعند البحث عن الخبرة مع الدقة استعملت «دراية»، وعند البحث عن التحليل والعقل

١ التحقيق في كلمات القرآن الكريم مادة (بصر)

٢ وقد جاءت في آيات أخرى وأريد منها نفس المعنى كما في الآيات: القامة ١٤، والأنعام ١٠٤، الأعراف ٢٠٣،

الاسراء ١٠٢.

استعمل «الفكر»، وعند البحث عن أمر خفي ومعرفته بالاستعانة بأمر محسوس استعمل «الفقه»، وعند البحث عن العبرة «مقتربة بالحفظ والحضور بالبال استعمل «الذكر»، وعلى هذا السياق تستعمل كل مفردة في محلها وكل لفظ في مقامه وينبغي الالتفات هنا إلى هذه اللفظة وهي أن لتعبيرات التي استعملت في القرآن لبيان مهام العقل لها مراحل ورتب، تبدأ بـ «الشعور» ويراد منه الإدراك البسيط، ثم مرحلة «الفقه» والذي يعني إدراك المسائل الحفية من المسائل الجلية، وبعدها تأتي مرحلة «الفكر» ويراد منه التحليل العقلي، ثم تأتي مرحلة «الذكر» أي الحفظ في الذهن والحضور في البال، ثم مرحلة «الشمى» التي تعني الإدراك العميق بحقائق الأمور، وتنتهي هذه المراحل بمرحلة «البصرة» التي تعني النظر الذهني العميق.

وهذا هو معنى البلاغة والفصاحة!

❦❦❦

جمع الآيات وتفسيرها

قيمه العقل في مقياس القرآن:

إن أول آية تناولناها بالبحث هنا تؤكد ما نهدف من نزول الآيات هو العقل والتفكير لدى الإنسان، وكشف عن هذه الحقيقة بالتعبير بـ (عقل) التي تعيد بيان الهدف في موارد كهذا المورد

وقد أكدت بعض الآيات على هذا الموضوع وذهبت إلى بعد من ذلك حيث وثقت الناس على عدم تفكيرهم وعقلهم وأحدثهم عبارة كهذه: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ»^١.

وقد تكرر هذا المضمون بصيغة حملة شرطية، حيث يقول تعالى: «قَدْ يَسَّأَلُكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ».

(آل عمران / ١١٨)

١ آل عمران، ٦٥؛ الأنعام، ٣٢؛ الأعراف، ١٦٩؛ يونس، ٦٦؛ هود، ٥١؛ يوسف، ١٠٩؛ الأنبياء، ١٠ و٦٧؛

المؤمنون، ٨٠؛ القصص، ٩٠؛ الصافات، ١٣٨.

إن هذه التعابير المختلفة: «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ» تكشف بوضوح عن هذه الحقيقة وهي: إنَّ الله وهب الإنسان العقل كي يستعين بقدرته على إدراك الحقائق وفهمها، ويستحق اللوم والتوبيخ إذا ترك الانتفاع بهذه القدرة، والآية الثانية ومن خلال اشارتها إلى آيات الله في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار صرحت: إنَّ إدراك هذه الآيات أمر يسير لأولي الألباب. وكما أشرنا سابقاً، فإنَّ (أولي الألباب) هم علماء الدين حُصص عقولهم من جميع ترسبات الأوهام، فهم يدركون وقائع نظام الخلق، ويرون جمال الخالق من خلال المخلوقات، وهذا يكشف عن أهمية العقل كطريق لمعرفة الحق جل وعلا.



أمَّا الآية الثالثة، فبعد أن أشارت إلى خروج الإنسان من بطن أمه لا يعلم شيئاً شرحت وسائل المعرفة، وبدأت بحاسة «السمع» الذي تُعرف علومه بـ «العلوم العلية»، من خلال الاصغاء إلى أقوال الآخرين، ثم ذكرت «البصر» الذي تميز به الأشياء بعد مشاهدتها ثم حتمت بـ «الحواد» الذي يُدرك به الحقائق غير المحسوسة، وقد قلنا سابقاً إنَّ الحواد هو العقل عند نصوصه، فهو أعلى درجة من العقل.



والآية الرابعة بعد إشارتها إلى الأفوام السابعة المعقدة والتي أيبدت وأهلكت بسبب، وقد أهنكوا لطغيانهم وفسادهم، ولم يستطيعوا لفرار والسجاة، قالت: «إِنْ فِي ذَلِكَ (فِي) سِيَادَتِهِمْ ثُمَّ إِيَادَتِهِمْ لَنَذَكَّرَ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ (أَي عقل) أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ (أَي بصعي للمصائح)» ١

والآية الخامسة بعد الإشارة إلى إحياء الأرض الميتة ونبات الررع فيها الذي يمثل غذاء لإنسان ودوابه، صرحت: إنَّ هذه الأمور آيات يدركها أصحاب البهي، وكنا قد أشرنا إلى أنَّ النهي هو العقل بما هو باء عن فعل الأفعال القبيحة



أما الآية السادسة فبعد أن أشارت إلى الآيات لعظمة والبيّة للقرآن، قالت: إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي صُدُورِ (قلوب) الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ، وَكَمَا يَتَنَبَّأُ مِنْ قَبْلِ قَائِنِ الصُّدْرِ يَعْنِي الْجُزْءَ الْمَقْدَمَ وَالْأَعْلَى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَهَذَا يَبَيِّنُ أَنَّ الْعَقْلَ الَّذِي يُعْتَبَرُ مِنَ الْمَصَادِرِ الْمُهِمَّةِ لِلْمَعْرِفَةِ، يَشْكُلُ أَشْرَفَ جُزْءٍ فِي الْإِنْسَانِ.

والآية السابعة بعد أن ذكرت قصة خلق آدم ﷺ حاظبت الملائكة بالقول: ﴿قَدْ آدَمُ صَوْنُهُ وَتَقَفْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾. (٢٩ / حجر) و (ص / ٧٢)

وهذه (الروح الإلهية) هي (جوهر العقل) وقد اصبفت إلى الله لأهميتها (ويقال لهذه الإضافة إضافة تشريعية) لأن الله لا روح له ولا جسم. ولأجل هذه الروح الإلهية سجد جميع الملائكة المقربين لآدم ﷺ، ولأفاضين والتراب لقيمة لهما، وهذا تأكيد شديد على أهمية وقيمة العقل.

❦❦❦



والآية الثامنة تشير إلى خلق (النفس) أي الروح والعقل، وتُقسم بخلق النفس، ثم تضيف: إِنَّ اللَّهَ أَلْهَمَ وَكَشَفَ لِلنَّاسِ طَرِيقِي الْفُجُورِ وَالتَّقْوَى بعد أن أوضح لها هذين الطريقين، وهذا تلميح جميل إلى الإدراكات لفظية التي حبل عليها الإنسان منذ أن بدأ حياته.

كان هذا مجموع العناوين والمفردات شمانية التي استعملت في القرآن وأريد بها الإشارة في كل مفردة منها إلى جانب واحد من جوانب وأبعاد جوهر العقل، وقد بينت هذه العناوين الأبعاد المختلفة لهذا المصدر المهم للمعرفة

❦❦❦

إن ما ذكره سلفاً كان بحثاً في جوهر العقل، أما بالنسبة لنشاط ووظيفة العقل، فهناك تعابير عديدة في القرآن كانت قد اختصت بهذا الموضوع وكل منها تبين جانباً من جوانب وأبعاد نشاط العقل، وهي كالتالي

الآية التاسعة بحثت التذكر واعتبرته الهدف من بيان آيات الله، والتذكر هو الحفظ والخطور في الذهن وهو أحد أهم وظائف العقل، وإذا لم يكن التذكر حاصلًا عند الإنسان ما استفاد الإنسان من علومه شيئاً.

وفي هذا المجال نرى تعبيرات مختلفة في القرآن، فقد يذكر الموضوع الاستعانة بالأداة (لعل) التي تفيد بيان الهدف في موارد كهذا المورد، وتارة أخرى يعبر عن الموضوع بأسلوب التوبيخ واللوم مثل «أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ»^١

وقد يبين الموضوع بأسلوب التوبيخ لأولئك الذين لا يستمعون بالعقل والفكر، فلا يحفظون الحقائق ولا يتذكرونها، كما هو الأمر في: «قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ».

(الاعراف / ٣) و (النمل / ٦٢).



وقد تحدثت الآية العاشرة عن (التفكير) بعد استلزام استنكاري «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ؟» وقد وجهت اللوم بقولها: «أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ»، وكما أشرنا سابقاً إلى أن التفكير يعني تحليل وتجزئة المسائل للوصول إلى حقائقها، وهو سبيل للعلم الأكثر والأفضل.

وقد تنوعت تعبيرات القرآن في هذا المجال، فتارة يكون الأسلوب هكذا «لَقَدْ كُنْتُمْ تَتَفَكَّرُونَ».

وتارة يكون: «لَقَوْمٌ يَنْتَفِكِرُونَ» (يونس / ٢٤)، و (الرعد / ٣)، و (الحمل / ١١)

وتارة أخرى يكون «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ» (الروم / ٨)



وتحدثت الآية الحادية عشرة عن «العقده» لدى يعني لفهم العميق، حيث قالت: «انظر

١ كما في سور الأنعام: ٨٠ هود: ٢٤، النمل: ٩٠، المؤمنون: ٨٥، الصافات: ١٥٥

كيف نصرف الآيات» بأنواع من لبيات «لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ» فقهاً عميقاً.

وقد جاءت العبارة هنا بصيغة «لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ» (الأنعام / ٦٥)

كما قد جاءت في مكان آخر بصيغة «لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ». (الأنعام / ٩٨)

وفي آية أخرى بأسلوب «لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ». (التوبة / ٨١)

وفي أخرى: «بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً» (الفتح / ١٥)

وكلها تبين الأهمية القصوى لفهم والإدراك العقلي

وكما قلنا سابقاً، فإن كلمة «العلم» تعني إدراك الأمور الخفية بالاستعانة بمشاهدة الأمور

الجلية، وهذا الإدراك هو أحد أبعاد الإدراك العقلي

وتحدثت الآية الثانية عشرة عن «الشعور»، فبعد أن نهت المؤمنين عن نعت الشهداء

بالأموات قالت: إِنَّهُمْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ أَيَّ لَا تَدْرِكُونَ.

وقد يراد بالشعور هنا معنى الاحساس الظاهري، أو الاحساس الباطني، وقد استعمل

بكلا المعنيين في القرآن المحيد

وقد دم القرآن في موارد محسوسة، أولئك الذين لا يشعرون ولا يستخدمون شعورهم^١.

مركز بحوث القرآن

وقد تحدثت الآية الثالثة عشرة عن «البصرة» بعد ما أشارت إلى المتقين، حيث قالت:

إِنَّ الْمُتَّقِينَ إِذَا مَا ابْتَلاُوا بِوَسْوَاسِ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَهُوَ وَأَبْصَرُوا وَادْرَكُوا الْحَقِيقَةَ فَسَجَدُوا مِنْ

شِبَاكِ الشَّيَاطِينِ.

إن «البصرة» و«الأبصار» هو الرؤية وقد تتم الرؤية بواسطة العين الظاهرة فيكون بصرًا

حسيًا، وقد تتم بواسطة العين الباطنية أي العمل فذلك «الإدراك العقلي»، وليراد من

البصرة في هذه الآية هو المعنى لثاني

١. كما في الآيات الآتية، الشعراء: ١١٣، المعنرات: ٢، البقرة: ٩، آل عمران: ١٦٩، الأنعام: ٣٦ و١٢٣،

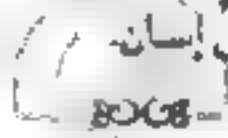
المؤمنون: ٥٦.

إِنَّ الْإِنْسَانَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ: ﴿يَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (القيامة / ١٤)
والرسول وأتباعه على بصيرة فيما يدعون إليه ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ
بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ﴾. (يوسف / ١٠٨)
وقد استعملت البصيرة في جميع هذه الموارد بمعنى المعرفة الحاصلة عن طريق العقل
قطعاً.



وقد تحدثت الآية الرابعة عشرة ولأخيرة عن «الدراية» التي سمي الذكاء والحسيرة
والاحاطة بالمسائل الخفية أو غير المحسوسة. حيث قاست ﴿وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ
غَدًا وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾. (الناس / ٣٤)

وهذا استعملت الدراية في القرآن بصح السلب دائماً، وبعدد في هذا أن الدراية مرحلة
عسفة من الفهم والإدراك لا نحصل لكل إنسان.



ستتبع من الآيات السابقة التنازع الآتية

- ١- إن القرآن يعتبر العقل من المصادر الأصيلة للعلم والمعرفة. وقد أولاه أهمية قصوى.
- ٢- القرآن يدعو الجميع للعقل ولتفكير في جميع الأمور
- ٣- ألهمت القرآن التفاتاً خاصاً إلى ماهية لروح الإنسانية وأبعادها المختلفة، وأكد على
كل من هذه الأبعاد.

- ٤- عبر القرآن عن مشاطات الروح في مجال إدراك الواقعيات تعبيرات مختلفة، وقد
استخدم واستعاد من كل تعبير في محله
- إلا أن القرآن ذكر موانع عديدة تحول دون الإدراك الصحيح للعقل. سبحثها في فصل
(حجب المعرفة) إن شاء الله.



توضيحات

١ - الإدراكات العقلية برؤية فلسفية

بالرغم من أن أغلب الفلاسفة يعتبرون لإدراك عقلي أحد المصادر المهيمة للمعلم والمعرفة، إلا أن الفلاسفة الحسيين يحالون هذا الأمر، ولا يعيرون للإدراكات العقلية أهمية واعتباراً - كما أشرنا إلى ذلك سابقاً - ويحصرّون طرق المعرفة بالتحارب الحسية متدرّعين بالحجج الواهية الآتية

- ١ - اختلاف الفلاسفة في المسائل العقلية، فإن كل طائفة منهم قدّمت أدلة ظاهرها يوحي بأنها مطلقة لإثبات مدعاه
- ٢ - وقوع كثير من العلماء بأخطاء معتقدتهم بحيث يضطر البعض في مواقع عديدة للاعتراف بخطئهم ويسمى لتصحيحه

٣ - كما يجب إضافة أمر آخر إلى الأمرين السابقين وهو إن التقدم والتطور السريع للعلوم الطبيعية في القرون الأخيرة جعل الكثير من أعلام العالم وسراره عن طريق التجربة الحسية، وهذا الأمر قوّى فكرة الاستناد إلى التجربة الحسية (في مجال المعرفة) فقط، وألغى بقية الطرق

وتقرأ في «تاريخ الفلسفة»: إن موضوعاً كهذا الموضوع سبب انكار الحقائق (الحسية وغير الحسية) من قبل السومطانيين في اليونان القديمة، فمن جهة نظروا إلى اختلاف الفلاسفة، ومن جهة أخرى نظروا إلى عوام الناس، فبعضهم يؤيدون ادعاء وكيلي المسارعين في المحكمة، ويعطون الحق لكل من الطرفين وكأن كلا الطرفين على حق، ولهذا قويت عندهم فكرة أن لا حقيقة واقعة.

وهنا ينبغي الالتفات إلى عدة أمور لرفع هذه الالتباسات:

الأمر الأول: هو وجوب فصل «الإدراكات البديهية» عن «النظرية» عند التحقيق في مسألة الإدراكات العقلية، وذلك لأن الأخطاء لا تحصل في البديهيات، فلا يشك أحد في أن الاثنين نصف الأربعة، أو أن شيئاً لا يمكن أن يكون موجوداً ومعدوماً في آن واحد ومكان

واحد، وإذا شاهدنا أشخاصاً يشككون في هذا الأمر أو يعتقدون، بخلاف ما هو بديهي فهم في الواقع يتلاعبون بالألفاظ لا أكثر، فيسرون (لنقيضين) أو «الصدّين» بمعانٍ غير تلك المعاني المتعارف عليها، والآ فلا خلاف في أصل الموضوع

الأمر الثاني: لا يخطأ الاستدلال إذا استند إلى مقياس دقيق، فانهطاً يشأ عندما يستند الدليل إلى مقاييس غير دقيقة، ولهذا لا نشاهد حتماً في مسائل الرياضيات وقواصيه، لأنها تعتمد على أسس دقيقة، ونمتلك معايير واضحة لمعرفة صحة أو خطأ النتيجة لأي مسألة، والنتائج تكون قطعية كذلك

الأمر الثالث إن قولنا بوجود أخطاء في الإدراكات العقلية، دليل على قبولنا للإدراكات العقلية لا على نفيها، وذلك لأن مفهوم حديثنا عن الأخطاء في الإدراكات هو أنها تقبض بعض الحقائق ويحطّيء عقائد الآخرين على أساس تلك الحقائق المقبولة لديها

مثلاً عندما حكمنا بصحة أحد آراء الفلاسفة المحتججين، قلنا نعلم أن صحة اعتقادات مصادرنا محال، وهذا إدراك عقلي بديهي، وقضيه القائلين «إنّ الحس لا اعتسار له لأنه يحطّيء» تماثل هذه القضية، وكما ذكرنا سابقاً، فإن تحطّلتنا للباصرة في إدراكها لحط دائري ممتد ناشئة عن معرفتنا بأن هذا الخط نقطة بؤرائية متحركة، وبما أنّ «المقطة» نصاد «الحط» حكمنا بخطأ الباصرة في إدراكها للخط نمتد، وهذا اعتراف صمني بوجود حقائق وإمكانية إدراكها.

وآخر الحديث، نقول: هي الحقيقة إن جميع سكرين للإدراكات العقلية يريدون إثبات مدعاهم بنفس الإدراكات، أي أنهم ينقصون مدعاهم عملياً، وقد هبوا لحرب الإدراكات العقلية بواسطة الإدراكات العقلية



٢ - منزلة العقل في الروايات الإسلامية

أكدت الروايات الإسلامية على أن عقل أهمية قصوى أكثر مما هو متوقع، وأشادت به

بمناوين مختلفة مثل: أساس الدين، وأكبر عنى، وفضل رأس، وأعلى قضية، وأفضل صديق، وأخيراً المقياس والمعيار للتقرب إلى الله وبين الثواب الإلهي. ونكتفي هنا بذكر اثني عشرة رواية فقط من بين عشرات بل مئات الروايات الماثورة والمنقولة عن الرسول الأعظم ﷺ، والأنفة ﷺ. وفي هذا المجال.

- ١- قال الرسول الأعظم ﷺ «قوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له»^١.
- ٢- قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا غنى كالعقل ولا فقر كالجهل»^٢.
- ٣- وقال في حديث آخر «إن الله تبارك وتعالى يحاسب الناس على قدر عقولهم»^٣.
- ٤- وجاء في حديث للإمام الصادق عليه السلام «إن الثواب على قدر العقل»^٤.
- ٥- كما جاء في حديث للرسول ﷺ: «ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل.. وما أدنى العبد فرائض الله حتى عقل عنه، ولا يبلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما يبلغ العاقل»^٥.
- ٦- وجاء في حديث أن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حاطب هشام بن الحكم قائلاً «يا هشام! ما بعث الله أنبياءه ورسله إلى عباده إلا ليحفظوا عن الله، فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً، وأكملهم عقلاً أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة»^٦.
- ٧- وقال الرسول ﷺ في حديث آخر «لكل شيء آلة وعدة، وآلة المؤمن وعدة العقل، ولكل شيء مطية ومطية المرء العقل، ولكل شيء غاية وغاية العبادة العقل»^٧.

١. بحار الأنوار، ج ١، ص ٩٤، ح ١٩.

٢. نهج البلاغة للكلمات القصار، الكلمة ٥٤.

٣. بحار الأنوار، ج ١، ص ١٠٦، ح ٢.

٤. أصول الكافي، ج ١، ص ١٢، ح ٨ (كتاب العقل والجهل).

٥. المصدر السابق، ص ١٢، ح ١١.

٦. المصدر السابق، ص ١٦.

٧. بحار الأنوار، ج ١، ص ٩٥، ح ٣٤.

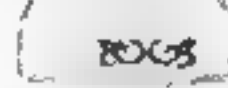
٨- وجاء في حديث للإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّمَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَزِيلَ مِنْ عَبْدٍ نِعْمَةً كَانَ أَوَّلُ مَا يَغِيرُ مِنْهُ عَقْلُهُ»^١.

٩- ويقول الإمام علي عليه السلام في هـد المجال «العقل صاحب جيش الرحمن، والهوى قائد جيش الشيطان، والنفس متجاذبة بينهما، فأتيهما غلب كان في حيزه»^٢.

١٠- ويقول في حديث آخر «العقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة القلوب، والقلوب أئمة الحواس، والحواس أئمة الأعضاء»^٣. (وبهذا فإن عصاء الإنسان تسد إلى حواسه وحواسه تستعين بهواطفه، وتعتمد عواطفه على أفكاره، وأفكاره على عقله).

١١- وجاء في حديث للرسول صلى الله عليه وسلم «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ وَمِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ، وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَا يُجْزَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا عَلَى قَدَرِ عَقْلِهِ»^٤.

١٢- وقال الإمام الباقر عليه السلام «لَا مَصِيْبَةَ كَعْدَمِ الْعَقْلِ»^٥



٣- للمخالفون لتعظيم العقل

إن لهذا الجوهر الإنساني (العقل) شأناً رفيعاً وصفات إيجابية كثيرة جداً، والملفت للنظر حقاً أنه بالرغم من انصاف العقل بهذه الصفات وامتلاكه هذه المكانة المرموقة نجد مَنْ يذمونه وَمَنْ يتأسعون لأنهم عقلاء، والأغرب من ذلك أنهم يمتلكون الحجج - حسب زعمهم - على ادعاءاتهم الجوفاء!

١. بحار الأنوار، ج ١، ص ٩٢٠، ح ٢٠

٢. غرر الحكم.

٣. بحار الأنوار، ج ١، ص ٩٦، ح ٤٠

٤. تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٢٢٤

٥. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٦٥

فتارة يقولون: إنَّ العقل يحد من تصرفات الإنسان ويسلبه حرَّيته، حيث يجعل أمامه موانع تحول بينه وبين ما يريد أن يقوم به من عمل حراماً كان أو حلالاً حسباً أو قبيحاً خيراً أو شراً، فلو لم تكن لنا عقول لكنا أحراراً.

وتارة يقولون: إنَّه يسلب راحة الإنسان حيث يرى المعلاء والأدكياء من الناس لا راحة لهم، إلَّا أن البسطاء من الناس مرحون وسعداء دائماً لانعدام تأثير العقل عليهم.

وإذا قرأنا أشعاراً معادها ذمُّ العقل أو الانتقاص منه أو الاستهانة به فمن الواضح كونها مزاحاً أو سفسطة أو كناية عن معاهيم أخرى ويستبعد أن يكون مرادهم ذمُّ العقل، بل إنَّهم يقصدون أن هناك أموراً مؤلمة تعبطهم، وليس في غفلة عنها

أو أن قصدهم من الجنون المذكور في بعض الأشعار كصفة للعقل، هو الجنون العرفاني والمراد منه العشق الإلهي، والتصحية بكل شيء في سبيله.

وعلى أية حال، صحيح أن العقل يقيّد حرية الإنسان وبعض تصرفاته.

إلَّا أن هذا لمحرِّمه، لأنَّه يرشده نحو التكامل. **إنَّ هذا الادِّعاء يُشبهُ ادِّعاء من قال: «إنَّ الاحاطة بعلم الطب يحد من انزعاج الإنسان لأنواع الأطعمة ومن أمور أخرى»، وهل هذا نقص؟ أم أنه ينقد الإنسان من الإصابة بالأمراض وفي بعض الأحيان من التسمم انماتل.**

أمَّا القول بأن العقل يريد من هموم الإنسان وأحزانه، فهذا يرفع من مرتبة الإنسان، العاقل من يتحمس آلام المضطَّهدين واسطُلمومين ويتألم من سلوك المعاندين وبالتالي فهو دليل على الكمال، وكما جاء في المثل (بما أن يكون صعباً ونحيباً كسقراط في رده أو سعيماً وديناً كالحزير).

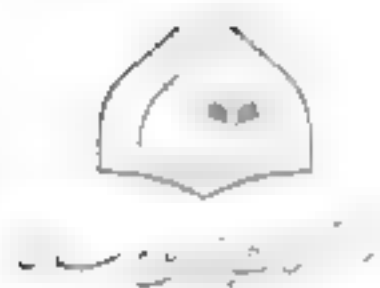
نعم، إذا غفلنا عن مسألة التكامل الإنساني واعتبرنا الأصل في الحياة هو الدِّعة المادية، فإن ما يتفوه به بعض المؤيدين لأصالة الدِّعة مادية صحيح، لكن هذا الحديث مضحك ولا قيمة له من وجهة نظر الإنسان الموحد الذي يؤمن بالرسالة والهدف وتكامل الإنسان.

إضافة إلى هذا، فإنَّ المؤيدين لأصالة دِّعة مضطرون لأنَّ يسلموا ويخضعوا لكثير من القوانين الاجتماعية العادية من حرياتهم وتصرفاتهم، وأن يفرضوا على أنفسهم العناية من

هذه الساحة، ومن هنا ندرك كيف أنَّ لإنسان يسقط في الهاوية عند اعتياده عن تعاليم الوحي والأنبياء

إلى هنا ننتهي البحث عن المصدر الثاني من مصادر المعرفة (العقل) ونستقل إلى المصدر الثالث بالرغم من بقاء بحوث كثيرة لم تطرح في هذا الفصل

❦❦❦



٣. التاريخ والآثار التاريخية

تمهيد:

تعرض القرآن للقضايا التاريخية بأسلوبين

- ١- الأسلوب المدون، أي أن القرآن المجيد يرد للمسلمين بعض الحوادث التاريخية للأقوام السالفة بألفاظ وعبارات شيقة ودقيقة، ويسين الأمور العاصمة والمشرقة من تاريخهم، ويشير إلى عواقب أعمالهم، وذلك لتوعية المسلمين وتزويدهم بالقضايا المختلفة، ولكي يرى الناس حقائق من حياتهم في حرواة تدريخ المسلمين
- ٢- الأسلوب النامى، التكويني، أي يكشف للقارئ عن الآثار التاريخية التي حللها لأقوام العابرة، الآثار الصامتة ظاهراً والتي تمثل عالماً صاحباً ومثيراً، الآثار التي يمكنها أن تصور لنا التاريخ الغابر، الآثار التي تعتبر مرآة أمام الإنسان يرى فيها وجه حياته في لعاصر والمستقبل.

❦❦❦

نبدأ أولاً بقراءة نماذج من كلا القسمين في الآيات التالية:

- ١- «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ» (يوسف / ١١١)
- ٢- «فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (الاعرف / ١٧٦)
- ٣- «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَدْ أَنْتَمُ وَحَصِيدٌ» (هود / ١٠٠)
- ٤- «غَفْنَ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ

(يوسف / ٣)

لَيْنَ الْغَافِلِينَ ﴿

٥- ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ • إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿

(النارعات / ٢٥-٢٦)

٦- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا...﴾.

(الحج / ٤٦)

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ
وَالْكَافِرِينَ أَفْنَانًا﴾.

(محمد / ١٠)

٨- ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾.

(آل عمران / ١٣٧)

٩- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ

(المنكوت / ٢٠)

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

١٠- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ جَاءَ إِلَهُكُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّنْ أَن آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾

(البقرة / ٢٥٨)

١١- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ • يَوْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾.

(الحجر / ٦-٧)

١٢- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾

(النبيل / ١)



شرح المفردات:

١- إن كلمة «قصص» تعني السبع لآثار شيء ما^١، وقد سُميت القصة قصة لأن فيها تتبعاً للأخبار والحوادث المختلفة، وعليه فانقصه لا تعني الرواية بحسب، بل تعني - لمعياً - السبع لآثار الأشياء.

كما تطلق «القصص» على كل شيء متتابع ومتسلسل.

١ يسبق الالتفات إلى أن (قصص) كما هي مصدر لقص يقص، هي جمع (قصة). والمراد منها في سورة يوسف في الآيتين ٣ و١١ هو المعنى الثاني

وبما أن (المَقْصَصَ) يقص الشعر على التوالي قيل له (مَقْصَصٌ)، والقَصَّةُ، على وزن «عَصَّة» وتعني مجموعة الشعر الإمامي^١.

٢- أما كلمة «عبرة» فاشتقت من مادة (عبور) و(عبر) ويعني الانتقال من حالة إلى حالة أخرى، و«العبور» في الأصل - يعني عبور الماء سباحة أو بالزورق أو على الجسر وأمثال ذلك، وقد استعملت هذه المفردة بمعنى أوسع وهو الانتقال من حالة إلى حالة أخرى، ويقال لقسم من الحديث (عبارة) لأنها تمثل العبور من لسان المتكلم إلى اذن السامع.

أما (العبرة) فهي الحالة التي يتوصل بها من معرفة «مُشَاهِدٍ إلى ما ليس بِمُشَاهِدٍ»^٢. وقد ذكر البعض أن «العبرة» تعني الدلالة التي توصل الإنسان إلى مراده^٣. كما جاءت هذه المفردة بمعنى التعجب^٤ (وقد يكون هذا الإطلاق الأخير لأن كثيرًا من الأمور التي يكتشفها الإنسان عن طريق الحوادث المهمة ولعلية تثير العجب).

٣- كلمة «المسير» تعني الحركة على الأرض، ويد قيل (سبروا في الأرض) فإن القيد الأخير تأكيد للمسير، وقد قال الراغب (في معرفته) دَكَّرَ معسان بالمسير في الأرض أحدهما الحركة الحسمانية على الأرض (ومشاهدة الكائنات وانوارها المختلفة)، والثاني هو الحركة الفكرية ودراسة الكائنات، وقد صرح البعض أَنَّ السِّرَّ يعني العبور المستمر في جهة واحدة^٥.

أما كلمة «المسيرة» فتعني لطريقة والأسلوب، واستعمالها إشارة إلى تاريخ حياة الأشخاص، وقد أخذت من هذا المعنى.

٤- أما «الرؤية» فقد جاءت بمعنىين، أحدهما المشاهدة بالعين، والآخر العلم والمعرفة

١ لسان العرب، ومفردات الراغب، ومجمع البحرين.

٢ مفردات الراغب.

٣ تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٧١.

٤ لسان العرب.

٥ تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٦٨.

أو المشاهدة الباطنية^١، وقد استعملت في قرآن الكريم في موارد كثيرة بالمعنى الثاني أي بمعنى العلم والاطلاع، وأما «الرأي» فيسمى لا اعتقاد القلبى والنظرية سواء كان اعتقاداً يقينياً أو طلياً، وأما «الرؤية» و«التروى» فيعبان التفكير أو اسمى والبحث للحصول على النظرية.

٥ - كلمة «نظر» في الأصل تعني دور العين أو حركة الفكر لإدراك أمر ما، أو مشاهدته، وجاء أيضاً بمعنى البحث والتفحص وتارة جاء بمعنى المعرفة الحاصلة بعد الفحص، وقد ذكر صاحب مجمع البحرين ثلاثة معاني للنظر ١ - مشاهدة الشيء، ٢ - التدقيق في الشيء بواسطة العين، ٣ - التفكير للحصول على العلم أو الفطن^٢.

أما صاحب لسان العرب فقد شرح النظر بأنه مشاهدة بالعين والثاني المشاهدة بالقلب، والمفيد أنه استشهد بعد ذلك بحديث للرسول ﷺ حيث قال فيه: «النظر إلى وجه علي عبادته»، وفي تفسير هذا الحديث يعمل على إثبات الأثر أنه قال: معنى الحديث هو أن الناس حينما كانت أعينهم تقع على علي عليه السلام كانوا يقولون: «لا إله إلا الله ما أشرف هذا النبي لا إله إلا الله ما أعلم هذا النبي...»^٣

❦❦❦

جمع الآيات وتفسيرها

بعد أن أشارت الآية الأولى إلى المصير تمولم لبعض الأمم السالفة قالت: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ» فالتفكير في مصير هؤلاء يُعد الأسلوب الأمثل لأولي الأبواب لمعرفة عوامل السعادة والشقاء، وتسير طريق الهلاك عن طريق النجاة.

❦❦❦

١ وصلها يتعدى لمفعول واحد على المعنى الأول، ومفعولها على معنى الثاني (لسان العرب والمفردات).

٢ مفردات الراغب مادة (نظر).

٣ لسان العرب، مادة (نظر).

والآية الثانية خاطبت الرسول قائدة ذكرهم بتاريخ ومصير الأمم السالفة من أجل أن تبعث فيهم روح التفكير والتأمل ﴿فَذُكِّرْهُمْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ وهذا يدل على أن البيان الصحيح لتاريخ السالفين موجب لصحوة لأفكار ومصدراً للمعرفة.

❦❦❦

والآية الثالثة بعد أن بيّنت مصير بعض الأقوم السالفة مثل قوم نوح وشعيب وفرعون ولوط وعاد وثمود، قالت: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (أي من القرى من هو باقٍ لحد الآن ومنها من رآه وفسى) ﴿مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.

ثم خاتمت في النهاية ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَشِيَ الْعَذَابَ الْآخِرَةَ﴾. (هود / ١٠٣)

❦❦❦

والآية الرابعة التي جاءت في بداية سورة يوسف كآيات أذهان المحاطين في البدايه لتلقى وإدراك ما سيُعال لهم فقالت: ﴿لَقَدْ نَحْنُ نَخْشَى عَلَىكَ إِخْشَى الْقِصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾

(يوسف / ٣)

فقد استندت الآيات الأربع إلى موضوع « قصة » و « القصص » كوسيلة للمعرفة.

❦❦❦

والآية الخامسة بعد اشارتها إلى تعذيب فرعون قالت: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾.

إن هذه الآية ذكرت (العبرة) التي تعني الانتقال ولعبور من حالة قابلة للمشاهدة إلى حقائق غير قابلة للمشاهدة واعتبرتها وسيلة لمعرفة.

❦❦❦

وقد أكدت الآية السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة على مسألة «السير في الأرض»، ودعت الناس إليه بأساليب خطابية مختلفة، فمره خاطبتهم بـ «أَقْلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» مرة، «فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ» بعد ما ذمهم لعدم سيرهم في الأرض.

وفي آيات أخر حُوِّطَ جميع الناس أو المسلمين بالقول: «قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ».

وفي آية أخرى هناك دعوة للناس لأن يسيروا في الأرض للبحث عن بدء الخلق والاستفادة من ذلك للعلم بكيفية النشأة الآخرة.



وقد أكدت الآيات العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة على مسألة المشاهدة «الرؤية» ليس بالعين الناصرة، بل بالعقل والحواس. إن الخطاب في الآيات الثلاث في الظاهر موجه إلى رسول الله ﷺ إلا أن المراد بها جميع المؤمنين، بل الناس كافة، والخطاب بصيغة استنهام تفريري، حيث خاطبه الله تارة بالحو الآتي:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي (أي نمرود ذلك السلطان لطاعي المعرور) حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ، وَإِلَى أَيِّ هَيْأَةٍ انْتَهَى بِهِ الْمَطَافُ؟ وتارة يخاطبه بهد الخطاب: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِزْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ».

وخاطبه تارة أخرى بسحو آخر قائلاً له: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ»، مذكراً بقصة أصحاب الفيل الذين قدموا من اليمن لهدم الكعبة فانزل الله عليهم طيوراً - بالرغم من ضعفها - ترميهم بحجارة من سجيل تحملها بساقيرها فهلكوا بهذه الأحجار الصغيرة.

ومن المسلم به أنه لا الرسول ولا غيره من المسلمين رأى إبراهيم ونمرود وسمع

محاجتهما، وكذا الأمر بالنسبة لقوم عاد، فلم يروهم ولم يروا مدنهم العامرة يومذاك، وحتى بالنسبة لأصحاب الفيل فإن الرسول ﷺ ولّد في السنة التي هجم فيها (ابرهة) طبقاً للرواية المشهورة، فلم يز شيئاً من الحداث وكذا أكثر المسلمين، وعلى هذا فالمراد من الرؤية هو لتدقيق في تاريخهم.

إن ما يلفت النظر هنا هو أن الآيات لحسن لأولى ركزت بحثها على التاريخ المدون أي ما جاء في صفحات الكتب التاريخية بينما ركزت الآيات الأربع الأخيرة بحثها على التاريخ التكويني الحي أي الآثار الباقية عن الأقوام العابرة في بقاع مختلفة من العالم من الممكن أن تكون الآيات الثلاث الأخيرة فيها إشارة إلى التاريخ المدون أو التاريخ الخارجي أو كليهما، ويتضح من مجموع هذه الآيات (ومثالها في القرآن الكريم) الأهمية القصوى التي أولاها القرآن لقسمي التاريخ كمصدر للمعرفة والعلم.

إن الله عز وجل يدعو الناس تارة لأن يشاهدوا بأم أعينهم قصور القراعة وآثار دمار مدن عاد وثمود وقصور نمروذ وأعوانه (البلاد التي جعل عاليها سافلها التابعة لقوم لوط لكي يعرفوا أن مصير المسخرين سيؤول إلى هذه النهاية

وتارة تجد القرآن نفسه يشرح بدقة هذه العوالم ويصف الأشخاص عليها وبعد العبر بعد العبر دأراً عاقبة (المكذبين) و(الظالمين) و(الكافرين) و(المفسدين) في ضمن بحوثه التاريخية هذه.

في الحقيقة إن القرآن تارة يأخذ بأيدي الناس إلى «مصر» ويريهم الآثار التاريخية ويصور لهم الراقدين تحت التراب ويضع أمام أعينهم العروش التي عصفت بها الرياح، وتارة أخرى يرهم الذين أركسوا في المذاب وهُذمت عروشهم، والحلاصة فإن القرآن يرهم ما خفي عن العيان من قصص الأسلاف.

إنه يحضي بهم إلى المدن المخربة كمدينة (سدوم) مركز قوم لوط ليشاهدوا عن كثب ما حلّ بها ومن هناك إلى حنة شداد، وبلاد بابل، (مركز حكومة نمروذ)، ومناطق أخرى. إنه يجعل من أيوان كسرى في المدائن وزخارف كل قصر عبرة لمن اعتبر ونصيحة

والخلاصة: إن القرآن يستند كثيراً في مجال التعليم والتربية والتوعية إلى التاريخ المدون في الكتب، وما موجود على وجه الأرض، وهذه مسألة جديرة بالاهتمام كثيراً.

❦❦❦

توضيحات

١- مرآة التاريخ

إن أهم ما يحصل عليه الإنسان في حياته هو تجاربه الشخصية، التجارب التي تفتح له بها آفاق جديدة وواسعة من أجل حياة أفضل وجهاد أكثر ليعمل جاهداً للوصول إلى التكامل الأمثل

لكن ما هو مقدار التجارب التي يستطيع الإنسان الحصول عليها خلال عمره القصير البالغ مثلاً عشرين سنة أو خمسين أو ثمانين؟

هذا إذا قضى عمره في ميادين **الحرية** ولم يقصه على وثيرة واحدة

إننا لو استطعنا أن نجمع تجارب جميع من عاش في عصر واحد، أو تجارب جميع من عاش في العصور العاصية، لخصصنا على تجارب كثيرة، وستكون تلك التجارب مصدراً مهماً لمعرفةنا وخيرتنا

إن التاريخ - إذا تم تدوينه بالطريقة الصحيحة و لكاملة - فسوف يقدم للباحثين والدارسين تجارب البشر على مر العصور، وحتى إذا كان ناقصاً فإنه يصمم بعض تجارب العصور الغابرة.

ومن هنا تبدو أهمية التاريخ حيث إن ما يحدث الآن قد تكرر نموذج أو نماذج منه في التاريخ سابقاً، وما يقال عن التاريخ من أنه «يعيد نفسه» حقيقة لا تنكر وقد تستثنى موارد منه إلا أن أكثر الحوادث داخلية في إطار هذا لقانون

وقد أشار الإمام علي عليه السلام لهذا الموضوع بوصوح في خطبة له، حيث قال فيها: «صناديق الله

إِنَّ الدَّهْرَ يَجْرِي بِالْبَاقِينَ كَجَرِيهِ بِالْمَاضِينَ»^١.

وقد جاء في حديث شريف أن ما يجري في الأمة الإسلامية قد جرى مثله في بني إسرائيل.

ومن هنا تتضح أهمية ودور التاريخ في مجال المعرفة والفكر، وسطيع القول بتحدى^٢ إنه بالتحليل والدراسة الدقيقة لتاريخ البشر نجد:

عوامل الفشل والسقوط.

وعوامل الانتصار والعمور

وعوامل إردهار الحصارات.

وعوامل سقوط وتقرض لحكومات (الدول).

وعاقبة الظلم والاستبداد

وعاقبة العدل والانصاف

ونائج وحدة الكلمة والحركة والسعي

ودور العلم والمعرفة.

وعواقب الجهل والبطر والكسل. كلها قد انعكست في مرآة التاريخ

وإن أراد أحد أن يمنحه الله حياة ثانية فحري بنا أن نقول له: إنك إذا درست التاريخ بدقة

لوجدت إنك لم تمنع حياة ثانية فحسب، بل وَهَبْتَ الآلاف المضاعفة.

وما أجمل ما خاطب به الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وندة الأكرام الإمام الحسن عليه السلام عاي بني

أبي وإن لم أكن عثرتُ عصر من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم، وفكرت في أخبارهم،

وسرت في آثارهم، حتى عذت كأحدكم، بل كأي بما انتهى إلى من أمورهم قد عثرتُ مع

أولهم إلى آخرهم»^٢.

ومع أننا لا سكر النواقص والإشكالات على اتاريخ المتداول بين أيدينا، ولكن رغم

هذه لنواقص - التي سشير إليها فيما بعد - فهو غني بالعلم والمعرفة.

١. نهج البلاغة، المحطة ١٥٧.

٢. نهج البلاغة، وصيته للإمام الحسن المجتبي عليه السلام.

٢- جاذبية التاريخ

لِمَ كان التاريخ معلماً؟ الإجابة عن هذا السؤال ليست صعبة، وذلك لإمكانية تشبيه التاريخ بالمختبر الكبير الذي نعص فيه قصص حياة الإنسان المختلفة للتحليل. وعلى هذا الأساس، فكما أنَّ العلوم التحصيلية حلت الكثير من مسائلها وقدمت الكثير من البراهين الحجة لإثبات الواقعيات بالاحتبار، كذلك التاريخ ذلك المختبر العظيم حيث تختبر فيه الكثير من القضايا والمسائل، حيث يميز فيه الذهب الخالص من الذهب غير الواقعي، وبه تزول الأوهام عن الأذهان.

إذا حللت ظواهر الأحسام أو تركيباتها في مختبرات الكيمياء والفيزياء، فإنك في مختبر التاريخ تحلل أسرار انتصار وفشل الأقوام السالفة، وسبب سيادة وتطور أو انحطاط الحضارات، وردود الفعل وصمات ومصوبات الأقوام والأشخاص، وأسلوب عملهم بحاذية وجمال فائق.

وبذلك يكون التاريخ وسيلة مناسبة لدراسة عوامل السعادة وشقاء البشر. وإذا شاهدنا في القرآن الكريم تأليفاً على تاريخ الأمم السالفة، وشاهدنا فيه من السور الدالة على المباحث التاريخية حتى أنَّ بعض السور تدور معظم آياتها أو كلها حول تاريخ الأقوام السالفة فذلك كله ناشيء من هذه الملاحظة التي أشرنا إليها.

وقد يكر المعاندون بعض المسائل الطرية، إلا أنه لا يمكنهم انكار واقعيات التاريخ القطعية، وبالأخص الحوادث التي أشار إليها القرآن حيث يراه يأخذ بأيدي الناس إلى ما خلّفته الأقوام العابرة، ويروي قصصهم على قبورهم وقمم مديهم الخربة.

إنَّ التاريخ - في الحقيقة - فرع من المسائل التجريبية، وتعبير آخر يمكن ادغامه في مصدر «الحس والتجربة» إلا أنه يختلف عن الحس والتجربة اختلافاً طفيفاً فالحس والتجربة يتعلقان بالحاضر لكن التاريخ يتعلق بالماضي، وأنَّ الحس والتجربة قد يتعلقان بادات الفرد فقط بينما التاريخ يتعلق بجميع ذوات البشر.

ولكن الأهمية العاتقة لهذا الفرع من التجربة تفرض علينا دراسته كمصدر مستقل

للمعرفة.

٣ - شوائب التاريخ

بالرغم من أن التاريخ مرآة كبيرة وجميلة تعكس الواقعيات إلا أن المؤسف فيه هو وجود أباد ملوثة سمّت وتسعى دائماً لتعير وتشويه الوجه الناصح لهذه المرأة، ولهذا السبب فإن هناك كثيراً من الشوائب في التاريخ تحول دون معرفتنا للحقيقة ودون تمييزنا الصادق من الكاذب منه.

إن سبب التشويه واضح، حيث لم يكن المؤرخون محايدين دائماً، بل كثيراً ما يؤرخون التاريخ بالشكل الذي يتناسب مع دولتهم الشخصية ولشوية. هد من جهة، ومن جهة أخرى فإن جبايرة كل عصر سعوا لإغراء المؤرخين وجذبهم ليكونوا تحت سيطرتهم وفوذهم، ليملوا عليهم ما يحلو لهم فيكتبوا ما يريد هؤلاء الجبايرة.

وبالرغم من المساعي التي تبذل بعد زوال كل من الجبايرة والطالعين وتوفر أجواء حرة أكثر في سبيل إصلاح الأخطاء، وتصحيح ما لحق بالتاريخ من فساد، إلا أن المؤرخين قد لا يوفقون في هذا المجال لإصلاح الخطأ أو نكحوا إصلاحاتهم غير كافية

والملاحظ للنظر أن قصايا التاريخ تبذل كلما تبدلت الحكومات المستبدّة ذات الميول والاتجاهات المتصارعة، فـ «بؤ أمية» مثلاً جبروا التاريخ الإسلامي بشكل، و«العباسيون» حرّوه بشكل آخر، كما أن الدين خففوا العباسيين صاعوه بشكل آخر.

إن (السالين) كتب في زمن ما تاريخ الثورة الشيوعية في روسيا بشكل، وقد دُرّس هذا التاريخ في جميع المدارس آنذاك، ولدين حنفوه كانوا يعتبرونه جلاداً مصاصاً للدماء فجمعوا تلك الكتب ودوّنوا تاريخ الثورة بصيغة أخرى، وهكذا فعل كل من خلف الحكومة في الاتحاد السوفيتي فكتب التاريخ بما يتناسب مع ميوله الشخصي والمذهبي

ولهذا السبب، فإن البعض أساء الظن بالتاريخ وقال فيه - مبالغة - هذه لعبارة. «إن التاريخ مجموعة حوادث لم تحدث بدأ، وأقوله بم يوجد أبدأ»!!

إلا أن الانصاف يفرض علينا أن بعد التاريخ أحد مصادر المعرفة بالرغم من الغبار الذي غطاه، وذلك لأن التاريخ كأني خبر آخر منه «متواتر» ومنه «اسوثوق» ومنه «الضعيف» ومنه «المجهول».

ولا يمكن انكار ما تواتر في التاريخ عن جُند المعول وجيش هتلر والحوادث المفجعة في «الاندلس»، والمئات من هذه الحوادث، والذي يصلح للنفي والإثبات والإشكال هو جزئيات التاريخ، وهي بدورها إذا ثبتت بحبار الثقات أصبحت صالحة للاعتماد عليها. بالطبع فإن الأحبار الضعيفة في هذا المجال ليست ميلة وهذا حكم عادل بحق التاريخ، فيسمي عدم الأحد بكل ما جاء في التاريخ، كما لا ينبغي به كل ما ورد فيه.

وقد سلّم قسماً من التواريخ من أي تحريف وتلوّث وهما التواريخ التي ظلت في صورة آثار مكوبية في الحارج. فلا يمكن تحريفها ببساطة. وقد أكد القرآن المجيد على هذا القسم كثيراً، وآيات «السير في الأرض» بهدف التعرف على تاريخ الأمم السالفة ناطرة إلى هذا القسم منه.

والأكثر من ذلك التواريخ التي وصلت عن طريق «الوحي» مثل تواريخ القرآن التي تعتبر أصيلة وحالصة من جميع الرعيات والزعاجات، فكما أن الله عز وجل أفضل مقس فهو أفضل مؤرخ كذلك، لأنه خبير بجميع الجزئيات ومسره عن الإتجاهات الفردية والجماعية، ومع توفر هذين الشرطين فهو أفضل مؤرخ روي للتواريخ.

وقد يتعجب البعض ويسأل: لماذا يمد الله تعالى قصة نوح أو موسى أو فرعون أو مواجهة الأنبياء للمستكبرين والجبابرة عدة مرّات؟

لقد غفلوا عن أن كل حكاية ناطرة إلى لحادث من راوية واحدة فقد يكون لكل حدث تاريخي زوايا وجوانب متعددة، فقد ينظر - مثلاً - إلى تاريخ بني اسرائيل من حيث مواجهتهم لطاعوت زمانهم. وقد ينظر لتاريخهم من حيث عبادهم لأسيانهم، وقد ينظر لتاريخهم من حيث عواقب الاختلاف والنشنت وعدم الاتحاد، أو من حيث آثار ونتاج تكران النعم، والحلاصة، إن كثيراً من الحوادث التاريخية كالمرآة ذات الأبعاد المختلفة، يسلط كل بعد من أبعادها الأضواء على جانب من الجوانب (وسياتي شرح هذا بالتفصيل في بحث تواريخ القرآن).

٤ - فلسفة للتاريخ

إنَّ لهم في التاريخ هو العنود على «جذور» و«نتائج» الحوادث التاريخية فإذا حصلت ثورة في بقعة ما من العالم - مثلاً - يسمى أولاً دراسة العوامل التي أدت هذه الثورة والتحقق منها بدقة

ثانياً النظر في نتائج هذه الثورة، وهذا لأمران هما للذات يحرمان التاريخ عن كونه مجرد حكايات مسلية، ويبدلانه إلى مصدر مهم للمعرفة لكن يؤسفنا أن يكتب المؤرخون بذكر أحداث تاريخية، في مرحلة تبلورها فقط، وقلما يتجهون نحو جذور وعلل الحوادث ونتائجها، ولم يتركوا في مجال تحليل القضايا التاريخية آثاراً تذكر

إلا أن القرآن قرن تدوين الحوادث مع البحث عن أصولها ونتائجها فتارة بعد ذكره لنقطع تاريخي يقول:

﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (آل عمران / ١٣٧)

ومارة يقول: ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الاعراف / ٨٦)

وتارة يقول: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الملك / ٦٩)

وتارة يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد / ١١)

ولجدير بالذكر أن للتاريخ مروجاً عديدة أهمها تاريخ الإنسان والمجتمعات البشرية، وتاريخ الحضارات، وتاريخ العلوم والفنون البشرية، وهي تواريخ محورها الأساس ومحرك عجلتها هو الإنسان.

يألهم من بسطاء أولئك الذين يطمون أن التاريخ - بالرغم من كل مروجته وتشعباته - نتاج قسري للقضايا الاقتصادية وخاصة وسائل الانتاج، أي أن التاريخ خلقته وسائل الانتاج واجهته التي صنعها الإنسان بنفسه

وعلى هذا الأساس يمكننا القول إنَّ هؤلاء بتصورهم الحاطي، وتعكيرهم الشاذ لم يعرفوا الإنسان ولا التاريخ أبداً.

٥ - للتاريخ «النقلي» و«العلمي» و«فلسفة التاريخ»

قسم أحد العلماء المعاصرين لتاريخ - من وجهة نظر وزاوية خاصة - إلى ثلاثة أقسام.

١ - التاريخ النقلي، وهو عبارة عن مجموعة من الحوادث الجزئية المعينة التي حدثت في الماضي، وهو أشبه ما يكون بالقدم الذي يصور حادثة أو حوادث، لهذا فإنه جزئي دائماً وليس كلياً، ويتحدث عما كان لا عما يكون، ويتعلق بالماضي لا بالحاضر، ونقلي لا عقلي وهذا الفرع من التاريخ يمكنه - عن طريق المحاكمات - أن يكون معلماً مفيداً، وعبرة من أناس ذلك الزمان، وهو أشبه بتأثر الإنسان بعليسه، وأشبه بالأسوة التي يذكرها القرآن للناس ليعتبروا منها ويقتدوا بها.

٢ - التاريخ العلمي وهو التاريخ الذي يتحدث عن قواعد وبنى الأمم السالفة التي تستنبط من دراسة وتحليل حوادث العصور السابقة، وفي الحقيقة فإن التاريخ النقلي كالمادة الخام لهذا التاريخ.

ومن ميرات هذه السنن هي إمكانية تعميمها، وكونها علمية، وإمكانية جعلها مصادر للمعرفة، وإحاطة الإنسان - عن طريقها - بالمستقبل.

وبالرغم من أن هذا النوع من التاريخ كلي وعقلي، فإنه علم بما كان لا بما يكون.

٣ - فلسفة التاريخ، وهو علم يتحدث عن تحول المجتمعات من مرحلة إلى أخرى، أو بتعبير آخر: هو علم بما يكون لا بما كان.

ويمكن توضيح هذا بالمثال الآتي:

إن «علم الأحياء» علم يبحث عن القواعد الكلية التي تحكم حياة الموجودات الحية، إلا أن نظرية «تكامُل الأنواع» إذا قلنا بها - تبحث عن كيفية تحول وتبدل نوع من الحيوانات إلى نوع آخر، إذن، موضوع البحث في فلسفة التاريخ هو كيفية حركة وتكامُل التاريخ، إن هذا الفرع من التاريخ يتسم بجانب كلي وعقلي، ورغم ذلك فإنه ناظر إلى مجريات التاريخ من الماضي إلى المستقبل وفائدة هذا النوع من التاريخ لا تخفى على أحد^١

١. ملخص من كتاب فلسفة التاريخ تأليف الشهيد المطهري

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ما ذكرناه في شروحنا للأقسام الثلاثة كان صحيحاً وإن لم يتفق شيئاً ما مع الاستعمالات المعصرية لمفردتي «العلم» و«المنفعة» وأن المراد كان يصل المفهوم إلى أذهان القراء فقط.

فضلاً عما ذكر سابقاً نضيف هنا القول بامسكية ادغام القسم الثاني والثالث في قسم واحد، ذلك لأن القوانين الكلية التي رسمت التاريخ وتسترع وتشتبط من التاريخ النقلي، تارة تكون ناظرة إلى الوضع الراهن للمجتمعات، وتارة أخرى تكون ناظرة إلى تحول وتكامل المجتمعات.

والمهم هنا هو أن القرآن المجيد لم يقتنع بالسرد المجرد لحوادث التاريخ بل أشار أيضاً إلى السن والقوانين الكلية التي حكمت المجتمعات، القوانين التي يحكمها أن تزيل القناع عما كان ويكون، أو عن أي تمر وتحول تاريخي كأي تقدم أو سقوط أو فشل حصل للمجتمعات

يشير القرآن - مثلاً - إلى هذه السمة ﴿فَإِنَّكُمْ لَم تَكُنْ مُعَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمْنَا عَلَى قَوْمٍ حَقًّا يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الأطفال / ٥٣)

ويسفي الالتفات إلى أن القرآن ذكر هذه السمة بعد ما أشار إلى قصة قوم فرعون وعذابيهم بسبب ذنوبهم

ويقول في آيات آخر (بعد اشارته إلى تاريخ الأقوام لقوية التي أهلكت بسبب تكديهم الرسل وشركهم وذنوبهم وظلمهم) ﴿فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا سُبَّتِ الْإِلَهِ الَّتِي قَدْ خَلَقَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ (المؤمن / ٨٥)

نعم تبقي الوقاية قبل العلاج، وهذا قانون كلي، لأن الإنسان لو ابتلي بعراء أعماله فلا فرصة حينئذ لجبران الماضي.

الإجابة على إشكال:

قد يقال إن قبول وجود قانون كلي في تاريخ الإنسان يجسد مفهوم الجبر في تاريخ

البشر ولا ينسجم وحرية الإرادة والاختيار.

لكن الالتفات إلى نقطة في هذا السجال يرفع الإشكال بالكامل والنقطة هي: إن قولنا بوجود قوانين وبنى كلية معناه أن أعمال البشر الاختيارية (سواء الفردية منها أو الجماعية) لها مردودات وانعكاسات فهرية، فمصير الأمم انصامدة والعارقة والمتابرة - مثلاً - هو النصر، ومصير الأمم المشتتة والجاهلة هو لسقوط والشلل. هذه سنة تاريخية، فهل أن مفهوم هذا القانون الكلي هو أن الإنسان مجبور، أم إنه تأكيد لتأثير ونفوذ إرادة الإنسان في تعيين مصيره؟ وهذا الأمر أشبه ما يكون بقولنا: إن الإنسان يموت إذا تناول سُمًّا، وهذا المردود مهري ولا يتنافى واختيار الإنسان وأصل إرادته.



٦ - التاريخ في نهج البلاغة والروايات الإسلامية

بما أن نهج البلاغة كتاب عظيم دأب محتوي برؤي غني جدًّا، وبما أن الترييه بلا معرفة، والمعرفة بلا ترييه أمر محال، فقد أكد هذا الكتاب على القصايا التاريخية كثيرًا. إن أمير المؤمنين عليه السلام عند حديثه عن الحوادث التاريخية يصورها وكأنه يأخذ بأيدي الناس إلى مكان الحدث ويريهم مرعون وجنوده يقتلون آثار مستصحفي بني إسرائيل ومن ثم يشاهدون غرقهم في نهر النيل.

إنه يصور قوم نوح وقوم عاد وثمود تحت تأثير لدمار الشامل الذي خلفه الطوفان والصواعق والزلازل والحجر الذي أمطروا به، والناس يشاهدون أخذ هذه الأمم الطاعية واللاهية مع قصورهم ومدنهم وطفليتهم وهلاكهم في طرفة عين بحيث لم يبق إلا آثار الحراب والصمت القاتل المهيمن عليها، وكل من سأل في نهج البلاغة مرَّ بهم ورجع بكثرة هائل من العلم والمعرفة والخبرة، إن قدرة نهج البلاغة في تصوير الحوادث قدرة عجيبة حقًّا، وكذا الأمر عند بيان فلسفة التاريخ.

وقد شرحنا سابقاً كلام الإمام علي عليه السلام للإمام الحسن عليه السلام حول تأثير التاريخ على طول عمر الإنسان، طول يمتد بامتداد أعمار جميع البشر من حيث المعرفة والتحرية وهناك عبارات جميلة له عليه السلام حول جريان السن التاريخية حيث يقول «عباد الله إن الدهر يجري بالبقين كجريه بالفضين، يعود ما قد وكنى منه، ولا يستقي سمرماً ما فيه، آخر فعالة كأوله، متشابهة أصوره، متظاهرة أعلامه»^١ وفي تفسيره للإيمان باعتباره ذا أربعة أعمدة لصبر واليقين والعدل والجهاد، يقول «اليقين منها على أربع شئب، على تبصرة الفطنة وتناول الحكمة، وموعظة العبرة وسنة الأولين»^٢.

ويقول عليه السلام في موضع آخر:

«واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى قبلكم، ممن كان أطول منكم أعماراً، وأعمر دياراً، وأبعد آثاراً، أصبحت أصواتهم هامدة، ورياحهم راكدة، وأجسادهم بالية، وديارهم خالصة وآفارهم كاهمة، فاستبدلوا بالتصور المشيدة، والتمازق الممهدة، الصغور والأحجار المسندة، والقبور اللاطئة الملتحدة التي بُني على الغرب فناؤها وثبتت بالتراب بناؤها»^٣.

ويقول في خطبة أخرى:

«فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم، من بأس الله وحولاته ووقائعه ومثلاته، واتعظوا بما سوى حدودهم ومصارع جنوبيهم»^٤.

كما يقول في نفس الخطبة:

«فانظرو كيف كانوا حيث كانت الأولاد مجتمعة والأهواء مؤتلفة، والقلوب مهتدة.

١ نهج البلاغة، الخطبة ١٥٧

٢ المصدر السابق، الكلمات القصار، الكلمة ٣١

٣ المصدر السابق، الخطبة ٢٢٦

٤ المصدر السابق، الخطبة ١٩٢، (الخطبة القاصصة)

والأيدي مترادفة، والسيوف متناصرة، والبصائر سفذة والفرائم واحدة، ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضين؟ وملوكاً على رقاب العالمين؟ فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أمورهم، حين وقعت الفرقة، وتشئت الألفة، واختلفت الكلمة، والافتدة، وتشعبوا مختلفين، وتفرقوا متحاربين، قد خلع الله عنهم لباس كرامته، وسلبهم غضارة نعمته، وبقي قصص أخبارهم فيكم عبراً للمعتبرين»^١

ويقول في خطبة أخرى:

«وإن لكم في القرون السالفة لعبدة أين الصالحة وابناء الصالحة أين الفراعنة وابناء الفراعنة أين أصحاب مدائن الرس^٢ الذين قتلوا السييين، واطفئوا سنن المرسلين، وأحياوا سنن الجبارين؟ أين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا الأكوف، وعسكروا العساكر ومذنبوا المدائن؟»^٣

كما أن الروايات الإسلامية أوتت رعاية كبيرة بهذه المسألة، واعتبرتها أحد المصادر المهمة للمعرفة وبالأخص للمسائل الأخلاقية وتهدب النفوس، والاتفات إلى واقعات الحياة

وقد جاء في روايه أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عندما كان في طريقه مع عسكره إلى صفين وصل إلى مدينة (ساياط) ثم إلى مدينة (بهر سير)^٤ (المناطق التي كانت مركزاً لحكومة الساسانيين) التفت أحد صحابته فحأه إلى اثار كسرى (والملك الساساني

١ نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢، (الخطبة القاصصة)

٢ السالفة أقوام قوية ومتمكنة وجبارة وظالمة كانوا في شمال العراق، وقد فتحوا مصر، وحكموها لفترة في عهد الفراعنة.

٣ يعتقد الكثير أن أصحاب الرس قوم سكنوا اليمامة جنوب الحضر، وكان لهم سي باسم حنظلة، وقال البعض أنهم قوم شعيب، ويعتقد بعض آخر أن مدتهم كانت بين الث- والعجار (يراجع التفسير الأمثل، ديل الآية ٣٨ من سورة الفرقان).

٤ نهج البلاغة، الخطبة ١٨٢

٥ يقول البعض إنها مشتقة من الأصل الفارسي أي (نورد شير، و (دهار شير)، وهي إحدى المدائن السبعة التي كانت تقع غرب نهر دجلة (معجم البلدان، ج ١، ص ٥١٥).

المعروف) وأنشد البيت:

جرت الرياح على مكان ديارهم فكأنهم كانوا على صياد
فقال الإمام عليه السلام: «لستم تعلمون، هذه الآيات: ﴿كَمْ تَزَكَّوْا مِنْ جَنَاتٍ وَعُثُوبٍ وَذُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاعْبِهِنَّ كَذَلِكَ وَأَوْزِنْتُ مَا قَوْمًا آخِرِينَ قُلْنَا نَكْتُمُ عَلَيْهِمُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾»^١.

وقد جاء في حديث الإمام الصادق عليه السلام: «لقد ولدني خرج من المدينة وهو يقرأ (الزبور)، وما من جبل أو حجر أو طير أو حيوان وحشي إلا ويقرأ معه، وهو مستمر في طريقه حتى وصل إلى جبل، يعيش على قمته بهي عابد اسمه (حزقيل)، أدرك مجيء داود عندما سمع ترنيل الجبال والطيور والوحوش، وعندما سأل داود النبي: هل تأذن لي بالصعود إليك؟ فأجابه النبي العابد: لا، فهكى داود، فأوحى الله إلى (حزقيل) بأن لا يمتنع داود، وأن يطلب من الله تعالى حسن العاقبة، فقام حزقيل وأخذ بيد داود وجاء به إلى محله.

فسأله داود: هل عزمت على الذنوب يوماً؟
فاجاب: لا.

ثم سأل: هل حصل عندك الفروخ والعجب لكثرة عبادتك؟

أجابه: لا، ثم سأله: هل رغبت في الدنيا وهل أحببت شهواتها ولذاتها؟

أجاب: نعم، نعم قد يخطر هذا في قلبي.

فسأله: ماذا تفعل آنذاك؟ أجاب: أدخل في هذا الوادي واعتبر بالذي فيه

فدخل داود الوادي، فرأى أريكة من حديد وعليها جمجمة متأكلة وعظاماً رمية

ولوحة مكتوبة، فعرف داود، أن ذلك يتعلق بملك مقتدر حكم سنين طويلة وبني عدناً كثيرة.

وقد بلغ به الأمر إلى ما تراه...»^٢.

❦❦❦

١. بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٢٢٧

٢. المصدر السابق، ج ١٤، ص ٢٢ (مختصر الحديث)

آخر الحديث حول التاريخ للمعلم:

إن ما ذكرناه عن التاريخ كمصدر للمعرفة والعلم مشروط بالأمر الآتي:

أولاً: أن لا يدرس الإنسان التاريخ للتسلية

ثانياً: أن يدرس العلاقة الحقيقية بين القصايا التاريخية وأعمال الإنسان، ولا يحلل القصايا التاريخية على أساس التبريرات وهمية كالحظ والصدفة، أو المصير المحتوم أو القضاء والقدر (على التفسير الذي يعتقد به جاهلون، والذي تُسلب على أساسه قدرة الإنسان في الاختيار).

ثالثاً: أن يستبطن القواميس التاريخية الكمية من الحوادث الجبرية، وأن يحقق في أصول ونتائج كل حادثه ثم يجعل نفسه مصداقاً لهذه القواميس ويخرج بالنتيجة

رابعاً: أن لا يسمي لجبرت الحوادث (تي جربت قبله) بنفسه، وذلك لكي لا يكون مصداقاً لهذا الحديث « من حرب المحرّبت حلت به لدامة »

خامساً: أن يكون ناقداً للحوادث التاريخية وصميراً للمسلمات من المشكوكات والأساطير من الواقعيات.

وحلاصه الحديث هو أن يتلصق التاريخ كمصدر ملهم للمعرفة والحيرة في حياته، وليس بشكله المعروف

٤- الفطرة والوجدان

تمهيد:

عندما يصل الإنسان إلى سن الرشد، يتعرف على بعض الحقائق من دون الحاجة إلى معلم كاستحالة اجتماع الضدين أو استقيص حيث تكون واضحة عنده.

ويدرك حسن وقيح كثير من الأمور، مثل: قبح الظلم وحسن العدل والاحسان، وعندما يقوم بعمل مشين، يناديه صوت الوجدان الردع الباطني بؤبه على عمله. وعندما يأتي بعمل حسن يشعر بالطمأنينة والرضا النفسي يستأنس بالجمال ويحب العلم والمعرفة

يحبس في باطنه ارتباطاً بعبداً مقدس، ويتميز آخر إن في باطنه ما يجزه ويجده إلى الله عز وجل.

وهذا يكشف عن وجود مصدر للمعرفة في باطن الإنسان غير المصادر التي قرأنا عنها سابقاً، يطلق عليه «الفطرة»، وتارة «الوجدان» وأخرى «الشعور الباطني».

ولتعيين حدود العقل وحدود الفطرة نتأمل لا بصاحات الآتية إن روح الإنسان تمثل ظاهرة عجيبة ذات جوانب وأبعاد متعددة، ندرك بعضها، ونجهل الآخر، كما أن لها نشاطات مختلفة بمحاداة جوبها المختلفة.

وبن العقل يشكل قسماً من الروح، ووطئته التفكير، كما أن هناك قسماً آخر وهو الحافظة ووظيفتها حفظ المعلومات وتخزينها وتقسيمها وتسويها واستخراج المراد والمطلوب منها - بشكل ماهر - من بين الملايين من المفاهيم والحوادث والذكريات.

والقسم الآخر هو العواطف أو مركز الحب والعشق والعداء والخصومة والبغضاء.
والقسم الآخر هو الأعمال الباطنية كالاختيار والإرادة والعزم والتصميم.
والخلاصة بسفي القول إن الروح بحر عظيم ملؤه العجائب والعرائب، وإن القوانين التي
تحكمها قوانين متنوعة ومعقدة للغاية
إلا أنه يمكن تقسيم الروح إلى قسمين كليين.

١- القسم الذي يتعلق بالتفكير والإدراكات النظرية، أي ما يكتسبه الإنسان عن طريق
الاستدلال.

٢- القسم الذي يتعلق بالإدراكات البديهية الضرورية، أي ما هو حصوري ومعلوم عند
الإنسان بلا دليل أو برهان.

وكلما تحدثنا عن العطرة والوجدان، فإن مرادنا هو القسم الأخير من الإدراكات
«العطرة»: وهي الخلفة الأولى، أي خلق الروح وسمي ممرحة مع مجموعة من
المعلومات النظرية.

و«الوجدان»: ما يبعده الإنسان في نفسه من دون حاجة لتعلمه

و«الشعور الباطني»: الإدراك الباطني للإنسان الذي يستلهم منه الإنسان، وعلى أية
حال، فإن ما لا شك فيه أن هذا الشعور أحد مصادر لعلم ومعرفة الحقائق، الذي قد يعبر
عنه بـ «القلب» وهو يختلف بوصف عن «العقل» الذي هو مركز الإدراكات النظرية بالرغم
من أنهما فروع لشجرة واحدة وثمرتان لروح الإنسان (فتأمل)

بالطبع، ليس كل ما قيل هنا متفق عليه من قبل الفلاسفة جميعهم، بل أردنا الإشارة إلى
هذا الموضوع، وسعيد الإشارة إليه مرة أخرى بشكل استدلالتي إن شاء الله.

وبعد الالتفات إلى هذه الملاحظة، نتأمل في القرآن نرى كيف يكشف لنا عن هذا
المصدر.

نقرأ لولا الآيات الآتية:

- ١- ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا • فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا •﴾ (الشمس / ٧-٨)
- ٢- ﴿فَرَجَعْنَاهَا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ •﴾ (الأنبياء / ٦٤)
- ٣- ﴿وَلَيْتَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ •﴾ (لقمان / ٢٥)
- ٤- ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ تَخْلُصِينَا لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ •﴾ (العنكبوت / ٦٥)
- ٥- ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ •﴾ (البقرة / ١٣٨)
- ٦- ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ • عَلَّمَهُ الْيَقِينَ •﴾ (الرحمن / ٣-٤)
- ٧- ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ •﴾ (العلق / ٥)
- ٨- ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ •﴾ (الروم / ٣٠)



معاني المقترنة:

إن كلمة «الهمها» مأخوذة من مادة «الإلهام» أي - كما يصرح به كبار أهل اللغة - الشيء الذي يقع في قلب الإنسان، ويقول الراغب في معرثاته: «الإلهام إلقاء الشيء في الروح ويعتص ذلك بما كان من جهة الله ووجهه الملائ الأعلى»، والروح يعني القلب، أمّا الرُّوح فيعني الخوف والانبهار

ثم استشهد بالآية «فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» كدليل على ما قاله. وقد جاء في لسان العرب أنها من مادة (ألهم) وتعني البلع، والإلهام يعني التلقيح الإلهي، وهو نوع من أنواع الوحي (الوحي بمعنى العام). ومع الالتفات إلى أصل هذه الكلمة يمكن عبثور على سبب الإطلاق، وكأن الروح تفتح فم الإنسان وتلقي فيه حقيقة بواسطة التعميم لإلهي فيمصنها فمه.

«الفطرة»: جاءت من مادة فَطَرَ، ويعتقد البعض أنها في الأصل تعني «البَقَر» وهو الشق^١، بينما يعتقد البعض الآخر أنها تعني انشق طويلاً، ثم استعملت بمعنى الخلق، وكأن ستار العدم يُبْقَر ويُمَرَّق فتخرج منه الموجودات الحية، كما يقال بلعمل السافي للصوم كتناول الطعام (إفطار)، فيقال: إن ذلك بسبب بَقَر شيء ممتد ومتصل

ويقال للنبات الذي يطر الأرض ويقرها «فطر» لأنه يقر الأرض ويخرج منها، وقد يطلق على حلب الشدي بالأصابع «فطر».

كما أن العجيز إذا احتمر وصُيِّرَ حبراً أطلق عليه «فطر»^٢

وعلى كل حال، فإن المراد من هذه المفردة في الآيات هو الحلقة الإلهية الأولى، والهداية التكوينية نحو حقائق مودعة في روح الإنسان وهو محبول عليها.

وأما كلمة «النفس» - وكما أشرنا سابقاً - فتعني «الروح» وقد يطلق على دات الشيء «نفس الشيء» كما جاء ذلك في القرآن الكريم (وَنفْسُكَمُ أَنْفُسُهُمْ) كما قد جاء هذه المفردة بمعنى «الدم» و«العين» و«الشخص»^٣

كما أنها قد تطلق إطلاقاً خاصاً على «النفس الأمارة» إلا أنها جاءت في الآيات هنا بمعنى «الوجدان» الذي يشكل مسماً من روح الإنسان^٤

وكلمة «صِبْغَة» مشتقة من مادة «صَبَغَ» أي طلى لونا، ويطلق على نتيجة العمل «صبغة»، و«صَبَغ» يعني الطعام الذي يؤكل مع الحبر بحيث يكون الحيز كالصبغة لذلك الطعام، وادعى البعض أنه يعني ريت الريتون الذي يعمس فيه الحيز ويؤكل

ويقول الراغب: إن «الصبغة» المذكورة في الآية إشارة إلى العقل الذي جُسِلَ عليه الإنسان وميَّزَه عن الدواب، وهو كالفطرة^٥.

١. لسان العرب.

٢. كتاب العين، ولسان العرب، ومفردات الراغب

٣. مجمع البحرين الطبري، مادة (نفس)، ومفردات الراغب

٤. مفردات الراغب، مادة (صبغ)

إن التعبير بالصيغة، كما يقول عدد من أئمة سبعة - قد يكون بسبب أن «السَّارِي» يتسلون الوليد بعد اليوم السابع بماء مروج بماء صفراء تلون (علل التعميد) معتمدين أن هذا الصبغ يظهره ويترهه، والقرآن يصرح لهم بـ صبغة الإسلام والتوحيد أحسن من هذه الصبغة وأشرف.

وعلى هذا، فالتعبير بالصيغة يتناسب كثيراً مع لطرة والخلقة الأولى، خاصة وأن بعض الروايات فسرت الصبغة بـ «الإسلام والولاية»^١

❦❦❦

جمع الآيات وتفسيرها

في الآية الأولى بعد أن أقسم الله بالنفس وببذئ سواها وما فيها من قابليات، أشار إلى المصدر المثلهم للمعرفة وهو «الوجدان الإحلاقي»، وقال: إن الله ألهم الإنسان المعرفة في مجال التعوي والفحور.

وقد جاء في آية أخرى ما يماثل معاد هذه الآية، فبعد إشارته إلى خلق الإنسان قال: وهديناه النجدين.

ويسفي الالتفات هنا إلى أن «مجدد» - في الأصل - لمكان المرتفع ويقابله «تَهَامَة» أي الأرض المنخفضة، إلا أن المجدد هنا - بقرينة ما قبل وما بعد الآية، وبقرينة بعض الروايات التي فسرت النجد - كناية عن الخير والشر وعو مل السعادة والشقاء^٢.

كما أن الآية: «إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ لِمَا شَاكِرًا وَلِمَا كَفُورًا» (الإنسان / ٣)

قد تشير إلى نفس المعنى، أو على الأقل تدرج «الهداية العظمية» في المفهوم العام للهداية التي جاءت في هذه الآية.

❦❦❦

١. تفسير البرهان ج ١، ص ١٦٧ - ١٥٨

٢. تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٧١٥٥؛ تفسير مجمع البيان ج ١٠، ص ٤٩٤

والآية الثانية ناظرة إلى تعظيم الأصنام من قبل بطل التوحيد إبراهيم الخليل عليه السلام. ومحاكمة عبدة الأصنام له في بابل. فعندما سُئل: «أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِأَهْلَيْتَنَا يَا إِبْرَاهِيمُ؟» (الأنبياء / ٦٢)

اجابهم عليه السلام: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَشَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ» (الأنبياء / ٦٣) ثم قالت الآية: «فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ» أي ظالمون لأنفسهم ولمجتمعهم ودينهم وحالتهم الذي يعقد عليهم النعم. يعتقد بعض المفسرين: أن عبارة «فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ» تعني لوم أحدهم الآخر، إلا أن هذا خلاف ظاهر الآية، فالتفسير الأول أصح.

نعم، إنه الصمير الذي يجعل عبدة الأصنام، المفرورين يلومون أنفسهم ويوتخونها. إن التعبير بـ «النفس اللوامة» في الآية شريفة: «وَلَا تُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللُّوَامَةِ» (القيامة / ٢) حاصة وأن الله قرنها بيوم القيامة، إشارة واضحة إلى هذه المحكمة الباطنية والوجدان العطري.

والآية الثالثة تشير إلى أمر المشركين، حيث يرضون عن اتباع آيات الله عندما يُدعون إليها ويصرون على اتباع ما كان عليه آباؤهم، فيقول الله في هذا المجال: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ»، وبالرغم من ذلك لم يحصروا الله تعالى، بل لأصنامهم التي صنعوها بأيديهم لجهلهم: «الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» (القمان / ٢٥)

وجوابهم على هذا السؤال عن خلق السموات والأرض، يمكن أن يكون ساهياً عن «الفطرة»، ويوضح حقيقة أن الأنوار الإلهية متأصلة في الإنسان منذ تكوينه فطرياً ولكن الناس عاقلون عن هذا الحكم العطري، فيدهبون عنه شططاً



وتشير الآية الرابعة إلى نفس المعاد الذي جاء في الآية الثالثة، فقد وضحت التوحيد العطري الذي يتجلى في باطن الإنسان عندما يمرُّ بالأزمات والشدائد، ومثال ذلك أن الناس

عند ركوبهم السفينة ومواجهتهم الأمواج المتلاطمة والرابع والعواصف يذكرون الله، لأنهم لا يجدون أحداً يستطيع اتقاذهم آنذاك من الشدائد غير الله.
فصداً ترفع ستائر التقاليد الخرافية والأوهام والتعاليم الخاطئة وتتجلى فطرة البشر عن الله، يذكرونه ويدعونه بإخلاص كامل.

وما أن يهدأ البحر أو يصلوا إلى الساحل، حتى تساورهم الأفكار الملوثة بالشرك مرة أخرى وتستعيد الأصنام وجودها في قلوبهم ويسدل ستاراً على فطرتهم مرة ثانية؟

✠✠✠

والآية الحامسة، بعد ما عُدَّت التوحيد دهن وملة إبراهيم وأنبياء عظام آخرين كإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى عليه السلام قالت: «صِبْغَةُ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَتَحْنُّ لَهُ عَابِدُونَ»

إنَّ النصارى الذين يعتقدون بالتثليث، ويسمون أولادهم بغسل التعميد، ويصفون - أحياناً - مادة صفراء إلى الماء الذي يغسل به، ويقرنون عملهم هذا باسم «الأب» و«الابن» و«روح القدس» يعتبرون هذا العمل مطهراً لهم من الذنوب التي ورثوها من آدم عليه السلام ^١

إنَّ القرآن أنزل هذه الأفكار جميعها وصرح، إنَّ صبغة الله أحسن من هذه الصبغ الخرافية، فسلموا لهذه الصبغة لتطهر رواحكم من كل شرك وإثم وعبادة للأصنام.

وقد جاء في الروايات - كما قلنا سابقاً - أنَّ المراد من الصبغة هو الإسلام والولاية ^٢، وهذا تأكيد على وجود إلهامات فطرية في ذات الإنسان.

✠✠✠

١ لقد جاء في قاموس الكتاب المقدس، أنَّ غسل التعميد أحد القواعد المقدسة التي كانت معروفة قبل ظهور المسيح عليه السلام، وهو من فرائض الكنيسة، ويستعملون فيه ماء ويتثنون عليه، ويعتبرونه مطهراً من النجاسات ويعتقد الكثير من المسيحيين أنَّ الغسل هنا وجب على أولاد مؤمنين (القاموس، ص ٢٥٧-٢٥٨)

٢ تفسير الميراث، ج ١، ص ٣١٦؛ تفسير الدر المنثور، ج ١، ص ١٤١

والآية السادسة والسابعة تحدثنا بعد لإشارة إلى خلق الإنسان عن تعليمه البيان وما لم يعلم.

«الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ».

(العلق / ٤)

وعلى هذا فهو معلم البيان كما هو معلم بالقلم، وهو معلم الإنسان ما لم يعلم، وهذه التعاليم قد تكون تلميحاً إلى التعاليم النظرية المودعة في باطن الإنسان بشكل معلومات ملخصة وأولية، وقد تكون تلميحاً للوسائل والأسباب والمقدمات التي جعلها الله في الإنسان، والتي تمكنه من اختراع الدعة والحده واكتشاف واقعيات الكون الأخرى.

وعلى المعنى الأول تكون الآيات شاهداً على بحثنا.



أما الآية الثامنة في البحث فقد تحدثت عن دين الفطرة وأمرت الرسول بأن: «أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ».

الحاصل هنا أن القرآن لم يذكر كون معرفة الله فطرية فحسب، بل إن الدين بجميع أبعاده وجوانبه فطري.

والأمر كذلك بالضرورة، وذلك لتسويق الوجود بين جهاز «التكوين» وجهاز «التشريع» أي أن ما جاء مفصلاً في عالم التشريع، جاء بصورة محملة في عالم التكوين، وعندما يتفق بناء الفطرة مع بناء الأنبياء والشرعة، فإن هذا الاتفاق يجعل الإنسان في طريق الهدى وسحوص تفصيلاً في هذا الموضوع عند بحثنا في التوحيد الفطري في المجلد الثاني إن شاء الله.



النتيجة:

طبقاً لما قرأناه، فإن القرآن المجيد يعتبر «فطرة» أو «الوجدان» مصدراً غنياً للمعرفة، وقد دعا الجميع -بتعابير مختلفة- للانتعاش إلى هذا المصدر لأهميته البالغة.

توضيحات

١ - فروع الفطرة والوجدان

إنَّ المعلومات الفطرية والوجدانية لها فروع مختلفة وأهمها الصروع الأربعة التالية، والملفت للنظر أنَّ كل آية من الآيات التي جاءت في أوَّل البحث أشارت إلى فرع من هذه الفروع، وهي:

١ - إدراك الحسَن والقبح - أي الأخلاق التي يطبق عليها - أحياناً - «الوجدان الأخلاقي»، وتعني أن الإنسان ومن دون الحاجة إلى استاذ أو معلم يعتبر كثيراً من الصفات حسنة مثل «الاحسان» و«العدل» و«الشجاعة» و«لا يثار» و«الصبر» و«الصدق» و«الأمانة» وغير ذلك من الصفات.

وفي مقابل هذه الصفات، صفات فبيحة مثل «الظلم و الجور» و«البخل» و«الحسد» و«الضغينة» و«الكذب» و«الخيانة» وأمثالها.

والآية «فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» تشير إلى هذا اسوع من التعاليم الفطرية

٢ - إدراك البديهيات العقلية، التي تعتبر أسس الاستدلالات النظرية، ولا يمكن إقامة البرهان في أي موضوع من دون الاستئالة إليها.

وتوضيح ذلك: أنَّ في الرياضيات مجموعة من القضايا البديهية تنتهي إليها جميع الاستدلالات الرياضية وهي وجدانية، مثل (الكل أكبر من الجزء)، وإذا تساوى أحد شيئين متساويين مع شيء آخر، تساوى كلُّ منهما مع ذلك الشيء، أو إذا نقصا مقدارين متساويين من شيئين متساويين أو أضفنا ذلك المقدار إلى كلِّ منهما فالنتيجة تساويهما كذلك.

وكذلك الأمر بالنسبة للاستدلالات العقلية الفلسفية، فلا يمكن الاستدلال من دون الاستناد إلى قضية استحالة اجتماع اثنين أو تقيضين وغير ذلك.

ويستخدم القرآن - أحياناً - هذه لاصول لمسلّم بها لاثبات قضايا مهمة، كما في قوله:

«قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» (الزمر / ٩)

ويقول في آية أخرى: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ

وَالنُّورُ». (الرعد / ١٦)

٣- الفطرة المذهبية - أن الإنسان يتعلم بعض القضايا والمسائل العقائدية من دون الاستعانة بمعلم أو استاذ كمسألة معرفة الله والمعاد وقضايا عقائدية أخرى يأتي شرحها في المجلد الثاني إن شاء الله.

والآية: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُمُ الدِّينَ﴾ تشير إلى هذا القسم من المعرفة الفطرية

ولهذا السبب نرى الإيمان بمبدأ مقدس موجوداً على مرّ العصور، كما أن لديها قرائن تثبت تجدد هذا الإيمان عند الإنسان البدئي كذلك ولا يمكن اتساع هذا المعتقد واستمراره عند البشر عبر مرّ العصور إلا إذا كان متأصلاً في فطرة الإنسان

٤- محكمة الوجدان: توجد في باطن الإنسان محكمة عجيبة يمكن تسميتها «القيامة الصغرى»، تحاكم الإنسان على أعماله، فتشجعه على الحسنات، وتوبخه على السيئات، ويجد هذه التشجيعات والعقوبات في باطنه جميعاً (بالطبع مع وجود اختلاف)، وهي نفسها التي نقول عنها تارة: (إن صميرنا راحس)، وتارة: (إن صميرنا يؤبس)، إلى حدٍّ حيث يسلب ما التوم، بل قد يؤدي - أحياناً إلى نتائج مأساوية - مثل الانتحار والجور والابتلاء بأمراسي نصية، والآية: ﴿فَرَجِعُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ تشير إلى هذا القسم.

﴿فَرَجِعُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ﴾

٢- هل توجد معرفة فطرية؟

بالرغم من أن الجميع يشعرون بشكل عام بوجود هذا المصدر في ذاتهم، أي يشعرون بوجود مجموعة من الخطابات والالهامات، أو بتعبير آخر وجود إدراكات لا تحتاج معلماً أو استاذاً، إلا أن بعضاً من الفلاسفة شكك في هذا المصدر، وعلى العموم توجد ثلاث نظريات في هذا المجال:

١/ نظرية الدين يعتقدون أن كل ما لدى الإنسان من معلومات موجود في باطنه، وما يتعلمه في الدنيا، يتذكره في الحقيقة، لأنه يتعلمه من جديدها هذا ما نقل عن افلاطون واتباعه^١.

١ يقول افلاطون: إن الروح قبل حلولها في البدن ودخولها في العالم المجاري كانت في عالم العقوليات

ب) نظرية أولئك الذين يدّعون أنّ المعرفة بجميع أقسامها عند الإنسان فطرية، بالرغم من ادعائهم لقابلية الإنسان على إدراك قصايا لمحتلفة، ويتصورون أنّ إدراكه الفطري انعكاس لتجاربه وحاجاته والضرورات الاجتماعية.

اعتبر «فرويد» عالم النفس المعروف «الوجدان الأخلاقي» مجموعة من النواهي الاجتماعية والميول المكتوتة في ضمير الإنسان، يقول: إنّ «الوجدان الأخلاقي» لا يمثل سلوكاً ذاتياً وعميقاً لروح الإنسان، بل إنّ رؤية باطنية بسيطة للنواهي الاجتماعية، ولا يوجد في تاريخ المجتمع ولا تاريخ أفراد تصورات بدئية عن حسن الأشياء وقبحها، وقد تولدت هذه التصورات من البيئة الاجتماعية وتشعبت عنها^١

وقد فسر أتباع المذهب المادي (لديالكيند) الإدراكات الفطرية على أساس مقولتهم المعروفة «كل شيء وليد الظروف والامّاض» فانكروا وجودها.

ج) نظرية أولئك الذين يرون أنّ قسماً من معلوماتنا فطرية والقسم الآخر مكتسب، والمعلومات المكتسبة تنتهي إلى تلك المعلومات الفطرية وهي أساسها وقد أثبتت الأدلة المطلقية العقلية، والأدلة العقلية من الآيات والروايات هذه النظرية وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: أننا نعتقد بوجود قصايا بديهية مُسلم بها في الرياضيات وبدون تلك البديهيات لا يمكن إثبات أية قضية رياضية، كذلك الأمر بالنسبة للقصايا الاستدلالية الأخرى، فلا بد من اعتمادها على قصايا بديهية مسلم بها نكون لأساس لكل استدلال.

وبعبارة أخرى: لو أنكرنا القصايا الفطرية بأكملها لأنكرنا جميع معارفنا، لأنّ جميع القضايا العقلية ستكون مرفوضة، وسننقض في نهاية في وأدّي الفسطة.

والمجردات والمثل، أي أنّها أدركت الحقائق وسيتم مجرد دحوها في عالم الكون والفساد، إلّا أنّها لم تنسج عنها بالكمال، فالإنسان كالأطفال والشيوخ هو في «فئتن» يتذكّر مجرد الالتفات إليه، فكسب العلم والمعرفة تذكر في الحقيقة، وإذا كان الإنسان جاهلاً منذ انبده فلا يمكنه تحصيل العلم (مسر الحكمة في أرواح ج ١ ص ٢٢ - نظريات أفلاطون).

١. أفكار فرويد، ص ٥-١٠، ومجموعة ما أعدم - للأمراض بحر الروحية - ص ٦٤ (بالعربية).

وإذا أثبتنا - مثلاً - بالحس وتحريه أو بدليل عقلي وجود أمر ما، فإذا كنا غير واثقين بقضية «استحالة اجتماع المقيضين» التي تعتبر من القضايا البديهية جداً، فعندئذٍ يحكمنا التشكيك بالأمر، والقول بإمكانية عدم وجود الأمر الذي أثبتنا وجوده!

وإذا أردنا إثبات هذه الأصول البديهية بتجربة والاستدلال فسيتهي الأمر بنا إلى الدور والتسلسل ولا تعفى سلبيات هذا الأمر على أحد.

﴿٢٨﴾

ثانياً. فضلاً عما سبق، فكما نعرض على استغاثتين (الدين يسكرون كل شيء) وكذا المثاليين (الدين يسكرون العقائق لعارجية، ويعتقدون بالأمور الذهبية فقط) وبالأستناد إلى الوجدان نقول إن الوجدان يشهد بطلان مثل هذه العقائد، لأننا ندرك أنفسنا والمالم الخارجي الذي يحيط بنا بوضوح، فكذلك الأمر هنا، لأن هذه الضرورة الوجدانية دليل على وجود كثير من الإدراكات الباطنية

وكما أننا نحس بحاجات جسمية وروحية كثيرة (الحاجات الجسمية مثل الأكل والشرب والنوم، والروحية مثل الميل إلى العلم والاحسان والجمال والعبادة والقداسة) ويقول بعض علماء النفس، (إن هذه المقتضيات تشكل الأبعاد الأربعة لروح الإنسان).

فهذا الوجدان ذاته يصرح لنا بحس الاحسان والعدالة وقبح الظلم والاعتداء، وفي هذه الإدراكات لا يحتاج إلى مصدر اجتماعي أو اقتصادي أو غير ذلك بل يكفيننا الوجدان.

إن حجة أمثال «فرويد» و«ماركس» واضحة، حيث أنهم يعتقدون بأصل واحد وهو رجوع كل قضية اجتماعية وفكرية إلى الجنس أو الاقتصاد، ويصرون على توجيه كل شيء على ضوء هذا الأصل.

ثالثاً. إن الموضوع واضح من جهة نظر توحيدية، لأننا إذا سلمنا أن الإنسان حُلِقَ للتكامل على أساس سنة إلهية، فلا ينبغي الشك في أن وسائل ودوافع مثل هذا التكامل يجب أن تكون مهيئة في ذاته، وموجودة، وأن ما جاء به الأنبياء وما ورد في الكتب

السماوية متناسب وهيئة الإنسان التكوينية.

وعليه، فحاكم التكوين والحلقة متناسب وهي تناسق كامل مع عالم التشريع.
أو بتعبير آخر، فإن خلاصة هذه التعليمات مودعة في ذات الإنسان وأن ما جاء في
الشرع السماوية هو شرح مفصل لهذه الخلاصة من التعليمات.
ولهذا، فلا يمكن التشكيك في التعليم العظمية التي يؤيدها العقل والرؤية الكونية
التوحيدية.



سؤال:

لقد صرح القرآن بقوله عز من قائل ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا
وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ (الحج / ٧٨)
ألا يستفاد من هذه الآية أن لا وحو (المعلومات) العظمية أبداً؟

للجواب:

/ولاً: إن الإنسان في ساعات ولادته لا معه شيئاً قطعاً، وحتى المعلومات العظمية
ليست فعالة، وعندما يعرف نفسه ويصبح معيراً يتحسس المعلومات العظمية ويدركها بلا
معلم أو استناد أو حسي أو بحرية، وإلا فكيف يمكن القول بأن الإنسان يعلم كل شيء حتى
بوجوده الذاتي - بالتجربة وأمثالها^١.

ثانياً: ألم نقل بأن القرآن يفسر بعضه بعضاً؟

حيث إن آيات مثل ﴿فَنَنْهَاهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ و﴿نُفِطِرْتُ اللَّهَ أَلَيْسَ النَّاسُ عَلَيْهَا﴾

١ نقلت عبارة معروفة من (ديكارت) قال فيها «لا كنت شيئاً حتى هي نفسي»، ثم رأيت نفسي أفكر، فأدركت أنني
موجود، إنها عبارة مليئة بالأخطاء، لأن الذي يقول أن أفكر فإنه يعترف به (أنا)، قبل اعترافه بالتفكير لا أنه يعترف
بالتفكير قبل الآن.

التي جاءت في أول البحث تفسر الآية. «وَأَفْهَى أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً». فتكون المعلومات الفطرية مستنفاة من هذه الآية

❦❦❦❦

سؤال آخر:

وقد يطرح هنا سؤال آخر عكس السؤال الأول وهو: أن القرآن الكريم في الكثير من الآيات أطلق معرفة «التذكير» على علوم الإنسان، مثل: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَذَكَّرُونَ». (النحل / ١٣)

ويقول في آية أخرى «وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ». (آل عمران / ٧)

وفي أخرى أيضاً. «وَيُؤَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (البقرة / ٢٢١)

ألم يكن المراد من هذه الآيات وهو نفس ما ذهب إليه افلاطون، أي أن العلوم عبارة عن تذكير لما هو موجود في سريرة الإنسان، وحاصل هذه منذ القدم؟

❦❦❦❦

الجواب:

إن «التذكير» من مادة «ذكر» ومعناه الأولي - كما يقول أنفة اللمة - هو الحفظ، وكما يقول الراغب في معرذاته: الذكر قد يطلق على حادثة نفسية تعين الإنسان على حفظ العلوم والمعارف، وقد يقال لحضور الشيء في القلب، أو البيان، وما جاء في لسان العرب قريب لما جاء في المفردات، حيث قال: الذكر، يعنى يحفظ كما يعنى الموضوع الذي جرى على الألسن.

وعلى هذا، فالذكر والتذكر لا يعنى حضور الشيء في القلب بعد السيان أو استعادة الذكرى فقط، بل يشمل جميع المعلومات.

❦❦❦❦

٣- الفطرة والوجدان في الروايات الإسلامية

لقد أُشير في الروايات الإسلامية إلى هذا المصدر كثيراً ونذكر هنا نماذج من تلك الروايات:

١- قال رسول الله ﷺ في حديث معروف له «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه وينصرانه»^١.

يدل هذا الحديث بوضوح على أن التوحيد، بل حتى الأصول الأساسية للإسلام مودعة في فطرة الإنسان^٢.

٢- وقد جاء في حديث أن شخصاً سأل الإمام الصادق عليه السلام عن الآية «فَطَرْنَا النَّاسَ عَلَىٰ هَٰذَا» فأجاب الإمام عليه السلام: «التوحيد»^٣.

٣- وفي حديث آخر أحاب عن نفس السؤال بهذا الجواب: «هي الإسلام»^٤.

٤- وقد قال الإمام عليه السلام في حديث آخر في هذا المجال «فَطَرْنَاهُمْ عَلَىٰ الْمَعْرِقَةِ»^٥.

٥- وقد جاءت روايات عديدة على الإمام الصادق عليه السلام فسرت الآية «صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً» بالإسلام^٦.

٦- وقد جاء في حديث قدسي «خُلِقْتُ عِبْدِي حَقَّاءَ»، وقال صاحب مجمع البحرين بعد ذكره لهذا الحديث يعني مؤهلين لقبول الحمد، ثم اعتبر معنى الحديث نفس معنى الحديث المعروف «كل مولود يولد على الفطرة».

وهناك ملاحظة جديرة بالذكر وهي: إن الروايات الإسلامية عبرت عن الأعمال الحسنة

١ بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٨١.

٢ يأتي شرح هذا الحديث مفصلاً في المجلد الثاني من هذا التصغير.

٣ أصول الكافي، ج ٢، ص ١٢، باب فطرة الخلق على التوحيد، ح ١.

٤ المصدر السابق، ح ٢.

٥ المصدر السابق، ح ٤، والروايات التي جاءت في هذا التمهال كثيرة ويمكن الرجوع إلى المصادر التالية بحار

الأنوار، ج ٣، باب ١١ من أبواب التوحيد.

٦ بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٨٠.

بالمعروف وعن الأعمال السيئة والقيحة بالمسكر وتطلق هذه الممردة على الأمر المجهول، فقد يثبت هذا الاطلاق أن الأعمال الحسنة سلوكات تعرفها الروح وتستأنس بها وتسكن إليها أما الأعمال القبيحة والسيئة فهي ممارسات تنفر منها الروح، ومجهولة عندها.

❦❦❦

٥ - الوحي السماوي

تمهيد:

توجد آيات كثيرة في القرآن الكريم حول الوحي، بل إن بحثه طرح في جميع الكتب السماوية، وفي الحقيقة فإن أتباع الأديان السماوية يعتبرون «الوحي» أهم مصدر للمعرفة، لأنه ينهل من العلم الإلهي الواسع، في حين أن المصادر الأخرى تتعلق بالإنسان نفسه، وهي محدودة جداً بالنسبة لهذا المصدر.

إن الرؤية الكونية الإلهية تقول: إن الله عزّ وجلّ (ولأجل هداية البشر) أي بيان الطريق له) أوحى إلى رجال الوحي (أي الرسل العظام، بكل ما يحتاجه الناس في سبيل اختيار الطريق إلى التكامل والسعادة

وفي الحقيقة، إن العقل إذا كان سراحاً مشيراً قوماً فإنّ نعمة والوجدان والنهضة بمنزلة سراج من نوع آخر، و«الوحي» بمنزلة الشمس الساطعة، الأكبر والأعظم من السراجين المذكورين.

وعلى هذا فبعد الوحي - من وجهة نظر الإلهيين - هم وأعلى مصدر للمعرفة

والآن نقرأ حاشيئ الآيات الآتية

١- ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَخِيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُزِيلَ رُسُلًا

(الشورى / ٥١) ﴿فَيُوحِي بِأَذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ

٢- ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ

٣- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ

(النجم / ٣- ٤)

(فصلت / ٦)

- ٤- ﴿ذَلِكَ بِمَا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ...﴾ (الاسراء / ٣٩)
- ٥- ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾ (البقرة / ٩٧)
- ٦- ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل / ٨٩)
- ٧- ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى / ٥٢)
- ٨- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ (النحل / ٤٣)
- ٩- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾ (الحديد / ٢٥)
- ١٠- ﴿وَأَنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر / ٩)
- ١١- ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (ال عمران / ١١٨)
- ١٢- ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (النساء / ١٦٤)

❦❦❦

شرح المفردات:

١- «الوحي» أستعمل هذا الاصطلاح في قرآن والروايات والأدب العربي بمعان كثيرة، إلا أن المعنى الأولي للوحي - كما يقول الرعب في مردياته - هو «الإشارة السريعة»، ولذا يقال للأعمال السريعة «وحي»، كما يقال «وحي» للحديث الرمزي المتضمن كتابات، والذي يُتبادل بسرعة، والذي قد يحصل بالكتابة أو الإشارة، ثم أطلقت هذه المفردة على المعارف الإلهية التي تقذف في قلوب الأنبياء والأولياء.

وللوحي أشكال متعددة، فتارة يكون بمشاهدة ملك من الملائكة واستماع حديثه، كما هو الحال بالنسبة لجبرئيل عليه السلام حيث كان الله يوحى إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بواسطته.

وتارة باستماع صوته فقط دون مشاهدته كما كان يوحى إلى موسى عليه السلام.

وتارة يُوحى بالإنقاء بالقلب فقط.

وتارة يوحى الله بالالهام فقط كما هو الحال بالنسبة لأم موسى عليها السلام.

وتارة بالمتام (كالرؤيا الصادقة) ^١.

ذكر الخليل بن أحمد في كتاب العين: إن أصل معنى «الوحي» هو «الكتابة»، وقال ابن منظور في لسان العرب: إن الوحي يعني «الإشارة» و«الكتابة» و«الرسالة» و«الالهام» و«والحديث الخفي» و«كل خطاب يُلقى على شخص آخر»

ومن مجموع ما تقدم نستشف أن «وحي» في الأصل يعني الإشارة السريعة والحديث الرمزي والخطاب الخفي المتبادل بالرسائل أو لإشارات، وبما أن التعاليم الإلهية أُوحيَت إلى الأنبياء بشكل غامض، أُطلقت مرادة «الوحي» عليها، لأن الألفاظ التي نستعملها وصحت لمستزمات حياتنا اليومية، فإذا أردنا أن نستعملها في الأمور الخارجة عن مستزمات حياتنا اليومية، فيسبب توسيع معانيها، أو تحريكها أو استعمالها في مجالات خاصة.

يقول الشيخ المفيد رحمته الله في «شرح الاعتقادات»: إن أصل الوحي يعني الكلام الخفي، وقد أطلق على كل شيء - المقصد منه تفهيم المخاطب بشكل يخفى عن الآخرين، وإذا سبب الوحي إلى الله عز وجل فالمراد به التعاليم والأوامر الإلهية التي يُخاطب بها الأنبياء والرسل ^٢.

٢ - أما «الانزال» و«التنزيل» فاشتقتا من مادة «نزل» وتعني - في الأصل - الهبوط والمجيء من المكان العالي إلى المكان الدابي، ولفرقهما عن النزول أتتهما مصدران لفعليين متمدين في حين أن النزول مصدر لعل لازم.

وقد يكتسب الانزال معنىً حسياً مثل ما جاء في هذه الآية: «وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً».

١. مفردات الراغب مادة (وحي)

٢. سمية البهادر ج ٢، ص ٦٢٨

وقد يكون بمعنى موهبة توهب من صاحب مقام عالٍ إلى صاحب مقامٍ داني: «أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ». (الزمر / ٦)

وقد يكون الانزال بمعنى إلقاء لمعارف لإيهية من قِبَلِ الله، وقد استعمل هذا المعنى في القرآن كثيراً. وهناك بحث لأئمة اللغة في كون لانزال والتنزيل بمعنى واحد، أو أن لكل معنى يختص به، فبعض يقول: إنه لا اختلاف في المعنى بينهما غير أن التنزيل يفيد الكثرة فقط، بينما يعتقد بعض آخر: أن «تنزيل» يفيد التدريج، و«لانزال» يفيد التدريج والدفعي، واعتمد الراغب في تفرقه هذا على الآية

«وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذِكْرٌ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَتَظَرُ الْمُنْفِيَّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ». (محمد / ٢٠)

فالأية تحدثت أولاً عن طلب المؤمنين رسول آيات الجهاد تدريجياً، ثم أشارت إلى رسول حكم الجهاد بصورة قاطعة وجامعة، وعندها ينظر السافقون إلى الرسول بنظر المعشي عليه من الموت.



٣ - إن «تبين» اشتقت من مادة «بين» أي المسافة الفاصلة بين الشيئين، ثم جاءت بمعنى «الابضاح» و«العراق»، وذلك لأن الفصل بين الشيئين يستدعي هذين الأمرين، ثم استعملت بعد ذلك لكلٍ من المعنيين بصورة مستقلة، فتارة تعني «الفراق» وأخرى «الابضاح».

وقد جاء في «صحاح اللغة» أن «بين» تأتي بمعنيين متضادين هما: الفراق والآخر الاتصال، ويظهر أن معناهما في الأصل - كما جاء في غير صحاح اللغة - هو الفراق، إلا أن العراق قد يؤدي إلى الاتصال بشيء آخر فاستعملها في الاتصال لأنه يلزم العراق.

وعلى أية حال فإن مرده (تبين) جاء في كثير من آيات القرآن بمعنى الظهور والانكشاف والوصوح، ولهذا يقال للدليل أبو صبح وانكشف «بينة» سواء كان عقلياً أو محسوساً، فيطلق «اليينه» على الشاهدين المعادين (للدين يعتبران بينة محسوسة)، كما

١. وهذا رأي صاحب لسان العرب، حيث نقله عن أبي الحسن.

تطلق «البينة» على معاجر الأنبياء، و«البیان» يعني رفع ستار الأبهام عن شيء، سواء كان بالطلق أو بالكتابة أو بالإشارة.

٤ - «التكليم» و«تَكَلَّمَ» من مادة «كلم»، وفي الأصل - كما يقول الراجز - يعني التأثير الذي يُرى أو يُسمع، فالذي يُرى كتحريك الأحرف، والذي يُسمع فهو الحديث الذي يسمعه من الآخرين.

يذكر الخليل بن أحمد في كتابه «العين»، أن أصل التكليم يعني «الجرح»، وعلى هذا فإطلاقه على التلقين كان بسبب التأثير العميق الذي يتركه الحديث في قلوب المستمعين له، بل قد يكون تأثير الكلام أشد من تأثير السيف والحجر، وكما يقول الشاعر العربي المعروف:

جراحات اللسان لها التثام ولا يلتئم ما جرح اللسان

ويستعاد من بعض المبارات أن «التكليم» و«التكلم» لهما معنى واحد، وكلاهما بمعنى التلقين والحديث، ولهذا عدت «متكلم» إحدى صفات الله، في حين إذا أردنا التصديق بالآية «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا» بمعنى القول أن الله «مُكَلِّم»

ولا يستبعد احتمال استعمال مفرقة «التكلم» في توارث حيث يحدث شخص شخصاً آخر، إلا أن «التكليم» مثل «المكالمة» تطلق على الحديث المتبادل بين طرفين، وكلام الله مع موسى عليه السلام في جبل طور من هذا القبيل.

ومن هنا يطلق «علم الكلام» على علم العقائد، لأنه يذكر أن أول بحث بحث فيه بعد الإسلام هو كلام الله (القرآن)، حيث كان البعض يعتقد أنه أروى، والبعض الآخر أنه حادث وقد أدنى الخلاف في هذه المسألة في القرون الأولى من عهد الإسلام إلى شجار ونزاعات شديدة، حدثت بين المسلمين آنذاك^١.

وبعلم الآن أن ذلك النزاع لم يكن له أساس ولا نتيجة، لأنه إذا أريد من القرآن محتواه،

١ ذكر هذا الاحتمال في دائرة معارف القرون العشر كقول حنبل في مجال التسمية هذه، دائرة معارف القرون العشر، غريد وجدي، ج ٨ مادة (كلم).

فالمسلم أنه كان مع علم الله أزلياً، وإذا كان المراد منه أفاضله وكتابته ونزوله بواسطة الوحي، فهذا حادث في زمن بعثة الرسول الأكرم ﷺ بلا شك، وعلى أية حال، فالهدف من هذا الحديث كان بيان وجه تسمية «علم القائده» بـ «علم الكلام»

❦❦❦

شرح الآيات وتفسيرها

الوحي شمس مشرقه:

لقد انعكس صدق الوحي في القرآن الكريم بشكل واسع. حيث أشارت مئات الآيات إلى لوحي كمصدر عظيم للعلم والمعرفة، وأشارت بعضها إليه بهذا العنوان «الوحي» وبعضها بـ «التنزيل» و«الانزال» وبعضها بـ «تبيين الآيات الإلهية» وبعضها بـ «تكليم الله للرسل». وبمصطلحات أخرى. وأفضل تعبير يُذكر في هذا المجال أن يقال: إذا كان العقل في السطار القرآني بمثابة «مصباح» شديد الاضاءة لكونه مهيئاً للحقائق، فإن الوحي «كالشمس» الساطعة التي تصبى أرجاء المعمورة.

أشير في الآية الأولى إلى ثلاثة طرق من طرق اتصال الأنبياء بالله عز وجل، حيث قالت: «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ» فاسطريق الأول هو لايعاء، والثامى هو التكلم من وراء الحجاب كما تكلم الله مع موسى في جبل طور سيناء، واسطريق الثالث هو إرسال رسول لاىلاغ الخطاب الإلهى إلى النبى، كما كان يهبط جبرئيل ؑ على النبى ﷺ لاىلاغه الخطابات الإلهية.

وعلى هذا، فالإلهام القلبي وایجاد الأمواح لصوتية وهبوط ملك مكلف بنقل الوحي، ثلاثة طرق لاتصال الأنبياء بعالم ما وراء الطبيعة

والآية الثانية بعد أن أقسمت بالجسم قالت «وَمَا يَنْطَلِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ

يُوحَىٰ»

إن القسم (بالنجم إذا هوى) يعنى النجم في حالة الأفول قد يكون إشارة إلى غروب وأقول نور الإيمان والهداية عن الوجود في عصر الجاهلية، الغروب الذي كان مقدمة لطلوع آخر، أي طلوع شمس الوحي على لسان الرسول الأعظم ﷺ وعلى هذا الأساس، فالآية أدرجت كلام رسول ﷺ تحت أصل كلي ناتج عن الوحي والإرتباط العميق.



والآية الثالثة أمرت الرسول بأن يتخذ موقفاً تجاه طلبات بعض المشركين المعجبية وغير المألوفة، ويقول لهم: إني لست ملكاً من ملائكة الله ولا موجوداً على من البشر ولا بهن الله، ولا شريكه، «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ» وهذا (الإيعاء) هو الذي يمثل الاختلاف بيني وبينكم.

وعلى هذا، فالرسول يمتار عن بقاء البشر بميراث خاصة وهي اختصاصه بمصدر المعرفة هذا وهو (الوحي).



والآية الرابعة، بعد ما ذكرت ستة من أحكام لإسلام المهنة (حرمة قتل الأولاد وحرمة الرمي وقتل النفس والتصرف في مال لغيره ووجوب الوفاء بالعهد وإيفاء الكيل) خاطبت الرسول ﷺ قائلة: «ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ». وطبقاً لهذه الآية، فإن الأحكام لحرمة شأن أصول الدين والعقيدة توحى إلى الرسول ﷺ.



والآية الخامسة نزلت لتجيب على أولئك اليهود الذين قالوا: إن جبرئيل عدونا عندما سمعوا أنه يأتي الرسول بتعاليم الإسلام، حيث أمرته بأن يقول لهم: «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا

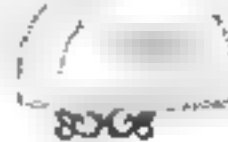
لَجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿

والتعبير في هذه الآية يكشف عن أن جبرئيل عليه السلام كان ينزل - أحياناً - آيات القرآن على قلب الرسول مباشرة في حين أن بعض الروايات تشير إلى أن جبرئيل كان يأتي للرسول ﷺ على هيئة إنسان أحياناً ويقوم بإبلاغه بخطاب الإلهي بهذا الطريق^١

﴿

والآية السادسة وضحت الحقيقة الآتية بأن القرآن الذي أنزلناه على الرسول فيه نبيان لكل شيء وحاملاً للهداية والرحمة والبشارة إلى جميع المسلمين، وعليه فإن جميع هذه المعارف تصدر عن هذا المصدر العظيم أي الوحي.

بديهي أن المراد من «كل شيء» هو جميع القضايا التي تتعلق بسعادة الإنسان، فتعلم أن أسس جميع هذه القضايا قد جاءت في القرآن (سواء لمادية منها أو المعنوية) في صورة قوانين كلية



وقد صرحت الآية السابعة بأن القرآن روح برئت على الرسول الأكرم ﷺ من قبل الله عز وجل، ولم يكن يدري ما الكتاب ولم يكن يدري ما الإيمان. وقد قيل للقرآن «روح» لأنه يبعث الحياة في قلوب المحتجم البشري، وهذا حديث يذهب إليه كثير من المفسرين^٢ والمراد به «ما كنت تدري ما الكتاب» هو أن الرسول لم يكن عارفاً بمحتوى الآيات قبل البعثة، وهناك شواهد تاريخية وروائية تكشف عن سبق معرفته بالله قبل البعثة.

١. أحسن الفخر الرازي على تأويل الآية بما يناسب مع ما ذهب إليه الروايات من أن جبرئيل عليه السلام كان يتمثل أمام الرسول ﷺ في صورة إنسان، وبما أن القلب هو مركز حفظ الآيات غير الله بعد التعبير «فإنه نزل على قلبك» (تفسير الكبير، ج ٣ ص ١٦٦)، لكنا لا نرى ضرورة أن تكون الآية بأشكال الذي قاله الفخر الرازي، بل يمكن القول بأن اتصال جبرئيل عليه السلام بالرسول كان يتم بطريقين: جسدي وروحي.
٢. يقول الراغب: «سُمي روحاً لكون القرآن سبباً للحياة الأخروية».

وعلى أية حال إن هذا تأكيد آخر على قبول «الوحي» كأهم مصدر للمعرفة، لأن القرآن عُدَّ هنا «روحاً» و«نوراً» و«هداية».

والآية الثامنة بعد ما تجاوزت نبوة لرسول ﷺ أشارت إلى الأنبياء من قبله وقالت ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ هُمْ عَلَى ارْتِبَاطٍ وَعَلِمَ بِمِصْرٍ الْمَعْرِفَةَ هَذَا﴾.



وتحدثت الآية التاسعة عن «البيئات» ونزول الكتب السماوية وقوانين الحق واعداله على الرسل، وقالت: إِنَّا أَنْزَلْنَا الرِّسْلَ وَزَوَّدْنَاهُمْ بِمَعَايِرٍ مِنْ حِجَّةٍ، وَبِكُتُبٍ وَقَوَانِينٍ حَقَّةٍ مِنْ حِجَّةٍ أُخْرَى لِكَيْ يَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَلَعَدُولٍ عَنِ الظُّلْمِ، وهذه كلها أمور مهمة من مصدر الوحي.



وقد تحدثت الآية العاشرة عن أنزل «الذكر» أي الآيات التي يكون سبباً لتذكر أساس ووعيدهم، في الوقت نفسه فإن الله بعد أساس في هذه الآية يحفظ هذا القرآن من أي نقص أو زيادة أو تلف أو تحريف، فالوحي - إذن - هو عامل يقطعه الناس، وبما أن الله له حافظ، فسيحفظه كمصدر مهم للمعرفة.



وتقول الآية الحادية عشرة ﴿قَدْ يَسِّرْنَا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وهذا دليل واضح على أن الآيات الإلهية سبب ليقطعه العقول وتبطلها.



وأخيراً، فقد تحدثت الآية الثانية عشرة عن تكليم الله لموسى عليه السلام، وقد كان الكلام هذا مصدراً لمعرفة موسى الإلهية، وهو نوع من الوحي.

هذه نماذج من آيات القرآن التي صرحت - رافعة لأي إيهام وشبهة - بأن الوحي مصدر وأساس للمعرفة.

هذا في وقت ينكر فيه العلاسمة الماديون هذا المصدر على الإطلاق، ويفسرونه بتفسيرات تقرأها في البحوث القادمة.

وبعدما اتضح أصل هذا المصدر يذهب إلى بحث قصايا مختلفة تحوم حوله

❦❦❦❦

توضيحات

١ - أقسام «الوحي» في القرآن المجيد

من خلال ملاحظتنا لآيات القرآن فقد استعملت مفردة «الوحي» في القرآن المجيد في عدة معانٍ، بعضها تكوينية وأخرى تشريعية، وبصورة عامة فإنها مستعملة في سبعة معانٍ.

١ - «الوحي التشريعي» وهو الذي يهبط على الرسل، وقد جاءت في أول البحث نماذج من الآيات التي استعملت فيها هذه المفردة بهذا المعنى.

٢ - «الإلهامات التي توحي لغير الأنبياء» كما هو الأمر بالسبب لأم موسى «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ» (الفصل ٧ / ١٧).

وهناك إلهام يماثل هذا إلا أنه يختلف عنه شكلياً، كالذي حدث لمریم، حيث تمثل لها الوحي ويشرها بولادة عيسى (مریم / ١٧ - ١٩).

٣ - «وحي الملائكة» أي الخطابات الإلهية التي توجه إليهم، كما جاء ذلك في قصة غرور بدر الكبرى في سورة الأنفال الآية ١٢: «إِذْ يُرِجَىٰ زُلْزَلَةٌ إِلَىٰ لِلْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّثُوا الَّذِينَ آمَنُوا»

٤ - «الخطاب مع الإشارة» كما جاء ذلك في قصة حديث زكريا مع قومه: «فَخَرَجَ عَلَىٰ

قَوْمِهِ مِنَ الْخُرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١ / مريم﴾
 ٥ - (اللقاءات الشيطانية الغامضة) كما جاء في الآية: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴿١١٢ / الأنعام﴾
 ٦ - (تقديم القوانين الإلهية في علم التكوين) كما في الآية: «وَأَوْحَى فِي كُلِّ صَبَاءٍ مُرَهَا ﴿١٢ / فصلت﴾

وما جاء في شهادة الأرض يوم القيامة: «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿١٢ / الزلزلة / ٤-٥﴾

قد يكون نلميحاً لهذا المعنى من الوحي.

وقد جاءت مفردة الوحي بمعنى «خلق الفرائد» كما في الآية «وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَغْرِشُونَ ﴿٦٨ / النحل﴾

ومن جهة أخرى فإن هبوط الوحي على الرسل جاء على أربع صور على الأقل. كما جاء ذلك في القرآن المجيد، وهي

١ - صورة ملك يشاهده الرسول -

٢ - وسماع صوت الوحي دون رؤيته.

٣ - وفي صورة إلهام قلبي.

٤ - وفي صورة رؤيا صادقة. كما جاء ذلك في قصة إبراهيم عليه السلام عندما أمره الله أن يذبح ابنه إسماعيل (الصافات / ١٠٢)، أو ما حصل برسول الله ﷺ عندما بشره الله - بالرؤيا - بدخول المسلمين الكعبة آمين (الفتح / ٢٧).

وقد جاء في رواية أن أحد الصحابة سأل الرسول ﷺ: كيف ينزل عليك الوحي؟ فأجابه الرسول ﷺ: «يأتيني أحياناً مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول»^١. وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال «الأنبياء والمرسلون على أربع طبقات:

فنبئ مثباً في نفسه لا يعدو غيرها، ونبي يرى في السوم ويسمع الصوت ولا يعاينه في اللحظة، ولم تبعث إلى أحد وعليه إمام مثل ما كان إبراهيم علي لوط عليه ونبي يرى في منامه ويسمع الصوت ويعاين الملك، وقد أرسل إلى طائفة قتلوا أو كثروا كسيونس عليه ... والذي يرى في نومه ويسمع الصوت ويعاين في اللحظة وهو إمام مثل أولي العزم وقد كان إبراهيم عليه نبياً وليس بإمام حتى قال الله ﴿إِن جَاءَكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ فقال الله: ﴿لَا يَمْلِكُ عَهْدِي الْمُطَّالِبِينَ﴾ من عبد صمّاً أو وثناً لا يكون إماماً^١. (البقرة / ١٢٤)

❦❦❦

٢- ماهي حقيقة الوحي؟

لقد قرأنا وسمعنا الكثير عن حقيقة الوحي، لكن رغم ذلك كله، فإن معرفتنا لحقيقته غير ممكنة، لعدم ارتباطنا بهذا العالم العاصم، وحتى لو مشرنا لنا الرسول بنفسه، فإنه لا يطبع شيء في أذهاننا عنه سوى شبح ومثل ذلك كمثل شخص بصير يريد أن يصف أشعة الشمس الجميلة، وأمواج البحر الهائجة وأجنحة الطاووس الملونة والمطر الحلاب بتورد وبراعم الحديقة، الحصراء. لشخص ولد أعمى، وقد تحصل صور مبهمه ومشوشة لهذه المخلوقات عند الأعمى، لأن إدراك صورها الحقيقية فهو أمر مستحيل.

لكنا نستطيع توصيح الوحي عن طريق آثاره وأهدافه وبنائحه، ونقول: إن الوحي هو اللقاء الإلهي الذي يتم بهدف تحقيق النبوة والتبشير والانتذار، أو نقول: إنه نور يهدي به الله من يشاء، أو نقول إنه وسيلة الارتباط بعالم الغيب وإدراك معارف ذلك العالم، ولهذا السبب يرى القرآن يتحدث عن آثار الوحي لا عن حقيقة.

وينبغي أن لا نعجب من هذا الأمر، وأن لا نتحدد عدم إدراك حقيقة الوحي دليلاً على عدم الوجود، أو تفسره بتفسير مادية جسمية، فإن في عالم الحيوانات التي نعدّها في مستوى

١ اصول الكافي ج ١، باب طبقات الأنبياء.

أدنى من مستوانا فضلاً عن عالم النبوة، تُشاهد آثار أحاسيس ودرجات يعجز البشر عن إدراكها، فبعض الحيوانات تصطرب قبل حدوث الزلزلة وتصرخ بصورة جماعية أحياناً، وتارة تحدث أصواتاً مروعة حاكية عن قرب وقوع حدث مفاجئ، هذا كله بسبب تعديها بحاسة تستطيع بواسطتها أن تكشف قرب وقوع زلزلة، الأمر الذي تعجز عن كشفه أحدث تكنولوجيا في عصر الحاضر.

أو أن بعض الحيوانات تتبأ بتغيرات الأحوال الجوية بالأشهر القادمة، فتنبئ بيوتها وفقاً لتلك الأحوال في الأشهر المقبلة عليها، وتعد لصعاب سدي يتناسب مع طول فصل المطر والشتاء، فإذا كان طويلاً - مثلاً - يختلف مقداره عما لو كان قصيراً!

كما أن بعض الطيور قادرة على الهجرة الجماعية من المناطق القطبية إلى الاستوائية أو بالعكس، وقد يتم ذلك في الليل وفي سماء مظلمة بالغبوم، مع أن الإنسان لا يمكنه السير في هذا الطريق ويصحح باجتيار واحد بالعائه منه، إلا بالاستعانة بالوسائل الدقيقة، وكذا الأمر بالنسبة لبعض الحيوانات حيث تطلب سبيلها في ظلام لليل الدامس، وأحياناً تحب أمواج المياه وغير ذلك من الأمثلة التي يصعب على الإنسان تصديقها، إلا أن العلم أثبت صحتها بن هذه الوقائع التي نشأت بالعلم وسحرته تكشف عن وجود إدراك وشعور خاص لتلك الحيوانات لا يوجد مثله عند الإنسان، يدفع إن لا اطلاع الكامل على عالم حواس الحيوانات العاوض أمر محال، إلا أنه لا يمكن إنكار هذه الحقائق^١

فبالرغم من أن حواس الحيوانات لها أبعاد مادية وطبيعية وهذا أمر طبيعي ولا يمثل جانباً غيبياً، إلا أننا لا نعرف حقيقة هذه الحواس، فكيف يمكن لنا أن ننكر عالم الوحي العاوض أو نشكك فيه بسبب عدم إدراكنا له؟

لم نقصد من حديثنا هذا الاستدلال على ثبوت مسألة الوحي، بل أردنا أن نرد على الذين ينكرون وجوده بسبب عدم إمكان إدراك حقيقته.

ولنا طرق وأصحة لإثبات قضية الوحي منها

١ - راجع كتاب عالم حواس الحيوانات الغرب (بالفارسية).

١- نشاهد من جهة رجالاً يدعون النبوة جاءوا بكتب وتعاليم تفوق قدرة البشر الفكرية، فالرسول الأمي - مثلاً - كيف أمكنه الاتيان بكتاب ذي محتوى مجيد بالرغم من كونه قد نشأ وترعرع في مجتمع الحجار المتأخر سبعة في عصر الجاهلية؟!
٢- ومن جهة أخرى فإن دعوة الرسل مقترنة دائماً مع معاجز تفوق قدرة البشر، وهذا يكشف عن ارتباطهم بعالم ما وراء الطبيعة.

٣- ومن جهة ثالثة، فإن الرواية الكونية لتوحيدية تقول لنا: إن الله خلقنا للتكامل والسير نحو داته المقدسة الأبدية، ويهدينا سلوك هذا الطريق أمر غير ممكن لكثرة مصاعبه وانعطافاته وتعرجاته ومشاكله وخطاره لأنها مشاهد عجز العقل وضعفه عن إدراك كثير من الحقائق، والدليل على ذلك، الاختلافات الكثيرة بين العلماء والمفكرين، وكذلك مصير الأمم التي وضعت قوانينها بالاعتماد على العقل والقوانين الوضعية وذلك لإدارة شؤون حياتهم المردية والاجتماعية

وعلى هذا، فإننا نقطع بأن الله لم يترك الإنسان ^{لحم حده} مع إصابته إلى عقله أمدته بقيادة يرتبطون بعالم الغيب، ويستقصون من بحر العلم الإلهي، وهذا هو الذي يحبه لاجتياز الطريق والوصول إلى الأهداف ^{المقصودة}

وبهذه القرائن الثلاث يمكننا إدراك العلاقة بين عالم الإنسانية وعالم ما وراء الطبيعة، وكذلك الإيمان بالوحي رغم أننا لم نتعرف على حقيقته وماهيته، وتعبير آخر، إن علماً بالوحي علم إجمالي وليس علماً تفصيلياً



٣- الوحي عند فلاسفة الشرق والغرب

سمى كثير من فلاسفة الشرق والغرب في العهد القديم والجديد إلى فتح الطريق أمامهم نحو أسرار عالم الوحي وسعوا إلى تفسيره بما يناسب مع مبانيهم الفلسفية، إلا أن دراسة بحوثهم في هذا المجال تكشف عن ضياعهم في مناهات الطريق، إلا البعض منهم، ولم

ينجلي لذلك البعض إلا شيع عن ذلك العالم.

يقول أحد العلماء:

كان الفلاسفة الغربيون - إلى القرن السادس عشر كجميع الأمم الأخرى - يؤمنون بالوحي، وذلك لأن كتبهم كانت حافلة بالاخبار عن الأنبياء، وعندما ازدهرت العلوم الجديدة «الطبيعية والتجريبية» واخذت تمسك كمن القضايا على أسس مادية، تراجع فلاسفة العرب عن آرائهم وأحدوا يكررون الوحي، وتجددوا إلى أن أعد من ذلك بأن اعتبروا الوحي مجموعة من الأساطير والخرافات التي عما عليها لندهر، وتبعاً لذلك فقد أنكروا وجود الله وعالم ماوراء الطبيعة والروح، وامتد بهم الأمر إلى أن يفسروا الوحي بمجموعة من التخييلات أو الأمراض العصبية

واستمر هذا التوجه حتى أواسط القرن التاسع عشر إلى أن تم اكتشاف عالم الأرواح بالطرق العلمية والتجريبية، وأصبح عالم ماوراء الطبيعة في قائمة القضايا التجريبية، وقد كسب حول ذلك المثبات بل الآلاف من المقالات (١) ومن هنا أخذت مسألة الوحي طابعاً جديداً لدى هؤلاء وحطوا خطوات جديدة في هذا المصمار، على الرغم من أنهم لم يفسروا هذه الظاهرة كما فسرنا الأديان الأخرى وبالأخص المسلمون من السائرين على خطى القرآن لمجيد، وبشكل عام فإن هناك نظريتين مختلفتين لدى مجموعة من الفلاسفة انقضاء والمتأخرين لتفسير ظاهرة الوحي، ولكن الفريقين لم يصلوا إلى حقيقة الوحي حسب ما ورد في القرآن الكريم، والنظريتان هما ١ - يعتقد عدد من الفلاسفة المتقدمين أن منشأ الوحي هو «العقل الفعّال»، والعقل الفعّال وجود روحي مستقل عن وجودنا، وهو قريبة، ومصدر لجميع علوم البشر ومعارفه، كما يعتقدون بأن الأنبياء كانت لهم علاقة وثيقة مع هذا العقل الفعّال، وكانوا يستلهمون منه، وما حقيقة الوحي إلا هذه العلاقة.

وفي الحقيقة، لا دليل لهؤلاء لإثبات مدعاهم القائل بأن الوحي هو عبارة عن الارتباط والعلاقة مع العقل الفعّال، إضافة إلى هذا، فإنه لا دليل على وجود ما يرعمون وجوده أي

«العقل الفعّال» كمصدر مستقل للعلوم، كما ذكر ذلك في المباحث الفلسفية.

وعلى هذا، فالنظرية المذكورة عبارة عن احتمال مبني على احتمال، وفرصة مستندة إلى فرضية، ولم تثبت أي من الفرضيتين، كما أنه لا حاجة لفرص «العقل الفعّال» بل يكفي القول بأن الوحي عبارة عن اتصال بعالم ما وراء الطبيعة والذات المنورة، أما كيف وبأي شكل يتم ذلك؟ فهذا لم يتصح لنا

نحن شاهدنا آثاره فأما بوجوده، دورٌ يُعرف حقيقته، وكثير من حقائق هذا العالم

حالتها كحال الوحي

٢- يعتمد عدد من الفلاسفة المعاصرين أن «الوحي» هو تجلّ «علم اللاشعور» أو العلاقة القائمة مع حقائق هذا العالم التي قد تنشأ من «سوع الباطني» تارة، وتارة أخرى من «الرياضة الروحية» وعن مساج من هذا نوع. وقد عدّ علماء النفس شخصيتين للإنسان: «الشخصية الظاهرة والإرادية» وهي جهاز الإدراك والتفكير والمعلومات الحاصلة بالحواس العادية، والشخصية الأخرى هي «الشخصية غير المرئية واللاإرادية» التي قد يعبر عنها بـ «الوحدان العمي» أو «تصميم الباطني» أو «علم اللاشعور» ويعتبر علماء النفس أن حلّ كثير من المشاكل الروحية كامن في هذه الشخصية إنهم يعتقدون أن مجالات فاعلية ونشاط الشخصية الثانية أوسع بكثير من مجالات نشاط وفاعلية الأولى.

وقد كتب أحد علماء النفس في هذا المجال:

يمكننا تشبيه الشخصية بقطعة نزع عائمة في الماء، وعادة ما يكون تُسْعُها خارج الماء، وهذا المقدار الخارج هو الشخصية الظاهرة أو عالم الشعور، ويقابلها الشخصية اللاإرادية إلى عالم اللاشعور، حيث إن القسم الأعظم من النشاط الذهني لم يُحط به علماً ويحصل بشكل غير إرادي، وهو بمثابة الأجزاء الخفية من قطعة الثلج تحت الماء^١.

لا شأن لنا ههنا بكشف الشخصية الثانية للإنسان، «فرويد» أم غيره، كما لا شأن لنا في أن

١ معرفة النفس ترجمة (الدكتور ساعدي، ص ٦ و ٧ مع يصح بسيط (بالفارسية)

كلام المتقدمين فيه إشارة إلى ما ذهب إليه المعاصرون، أم لا، المهم بالنسبة لنا هو أن كثيراً من علماء النفس، بعد اكتشاف عالم اللاشعور وحل بعض المحصلات الروحية عن طريق هذا الاكتشاف، سعى لتبرير ظاهرة الوحي بما يتناسب ويتفق مع هذا الاكتشاف، حيث ادعوا أن الوحي هو ترشحات عالم اللاشعور التي تظهر عند الأنبياء على شكل طهرات فكرية بالصدفة.

وقد ساعد الأنبياء في ذلك أحياناً - أمور - لأول النبوغ الفكري، ولثاني هو الترويض والتفكير المستمر.

وطبقاً لهذه الفرضية، فإن علاقة «الوحي» بعالم ما وراء الطبيعة ليست علاقة من نوع خاص ومعايرة للعلاقات الفكرية وعقلية لبقية أفراد البشر، وأن هذا لا يتم عن طريق وجود رוחي مستقل باسم «الوحي»، بل هو انعكاس لصمير الأنبياء الحفي، وهذه الفرضية كالسابقة الفاتنة بأن الوحي هو الاتصال بالعقل الفعال، تعتقد الدليل. وقد يكون المراد بهذا من هذا الكلام ليس إثبات حقيقة الوحي، بل يرادهم أن ظاهرة الوحي لا تتنافى مع العلوم الحديثة، ويمكن تجلّي عالم اللاشعور لدى الأنبياء.

وبعبارة أوضح، فإن العلماء يصرون على تفسير جميع ظواهر العالم طبقاً لقوانين الطبيعة والأصول العلمية التي اكتشفوها، ولهم فيهم بمحدد مشاهدتهم لظاهرة جديدة، يسعون إلى تحليلها في إطار لعلم الحديث، وقد اعتقدوا أن دليل في هذا المجال اكتشفوا بالفرضيات.

لكن تلقي ظواهر العالم بهذا الشكل ليس صحيحاً، وهذا هو خطأ العلماء الطبيعيين، مفهوم كلامهم هذا هو أننا فهمنا الأصول والقوانين الأساسية لعالم، ولا توجد ظاهرة خارجة عن أطر هذه القوانين والأصول.

وهذا ادّعاء محض ولا دليل له، بل لنا دليل على العكس، حيث شاهد يمرور الزمن اكتشاف أصول وقوانين جديدة لنظام هذا العالم، ولدينا قرائن تثبت أن نسبة ما نعلمه عن هذا العالم إلى ما لا نعلمه كنسبة القطرة إلى البحر.

لقد عجزنا عن المعرفة الدقيقة لحواس الحيوانات الغامضة، بل وحتى عن معرفة أسرار وجودنا، لذا لا يمكننا سوى ادعاء معرفة قسم من هذه الأسرار فقط.

فلماذا - إذن - هذا الاصرار كله على تبرير ظاهرة الوحي في أطُر القواسم العلمية المكتشفة، بل ينبغي القول: إنَّ الوحي حقيقةً شاهدنا آثارها ولم نطلع على ذاتها وحقيقتها.

§§§

٤ - فرضية كون الوحي فريزة

طرح بعض المفكرين الإسلاميين المتأثرين بأفكار العلماء الغربيين فرضية أخرى في مجال الوحي تختلف في الطاهر عن الفرضيتين السابقتين إلا أنها تتفق معهما جوهرياً. وقد بُنيت هذه الفرضية على الأصول الآتية:

١- إنَّ «الوحي» لغة يعني المعوى يهدو، واستعملت في القرآن بمعاهيم عدة تشمل أنواع الهدايات العامة، بدءاً بـ **هداية العماقات والبنات** وانتهاءً بـ **هداية الإنسان** عن طريق الوحي.

٢- إنَّ الوحي نوع من أنواع الفريزة، وهداية الوحي ليس إلا هداية غريزية.

٣- إنَّ الوحي هداية الإنسان من وجهة نظر جماعية، أي أنَّ المجتمع الإنساني بما هو كتلة واحدة، له مسير وقوانين وحركة، فيحتاج للهداية، ودور «النبي» هي هذا المجال كدور الجهار المتسلم الذي يتسلم ما يحتاجه نوع البشر بشكل غريزي.

٤- إنَّ الأحياء تهتدي في مراحلها الأولى بواسطة الفريزة، وكلما تكاملت وسما حس التصور والفكر عندها، كلما نقصت قدرة الحرية فيها، وفي الحقيقة فإنَّ الحس والتفكير يستخلفان الفريزة، وعلى هذا الأساس فالحشرات لها غرائز أكثر وأقوى، والإنسان أقل غرائزاً بالقياس إلى الحيوانات الأخرى.

٥- إنَّ المجتمعات البشرية (من وجهة نظر اجتماعية) تسير دائماً في طريق التكامل وتتجه نحوه، فكما أنَّ الحيوانات في مراحل حياتها الابتدائية كانت تستند إلى الهداية

الغريزة بالكامل ، ثم اعتادت تدريجياً على حواسها وتحيلها وأحياناً تفكيرها ، وعندما نما عندها التفكير والحواس تدريجياً ، استغللت الغريزة ، كذلك المجتمع البشري ، فينموه وتكامل عقله وضفت غريزة الوحي عنده.

٦- إنَّ للعالم البشري عهدين ، عهد هداية الوحي ، وعهد هداية العقل والتفكير في طبيعة التاريخ.

٧- إنَّ الرسول الأعظم ﷺ لذي حتمت به النبوة رسول للعهد القديم والحديث ، فإنه من حيث مصدر الإلهام الذي كان يستفهم منه (لا مصدر التجربة الطبيعية والتاريخ) فهو يتعلق بالعهد القديم ، ومن حيث روح تعاليمه التي تدعو إلى التفكير والعقل ودراسة الطبيعة والتاريخ (التي ينتهي عمل الوحي بسحبها) فهو يتعلق بالعصر الحديث^١

إنَّ المستخلص من هذه الفرضية أنَّ الوحي نوع معرفة لا إرادية تشبه الفرائز وهي دون المعرفة الإرادية التي يحصل عن طريق الحواس والتجربة والعقل. وتصنف هذه القدرة «الوحي» كلما تكامل جهاز العقل والمفكر. فيستحلب العقل حينئذٍ الوحي ، ومن هذا الباب ختمت النبوة.

بالرغم من أنَّ هذه الفرصة - صدرت عن مفكر إسلامي - إلا أنها أصعب في بعض جوانبها من الفرصات التي قدمها علماء وكتاب عربيون في هذا المجال ، على الرغم من التشابه من حيث فقدان الدليل ، ويمكن القول ، إنَّ هذه النظرية أسوأ نظرية طرحت في هذا المجال لحد الآن ، وذلك للأمور الآتية:

أولاً: إنَّ العلماء الغربيين عدوا الوحي شيئاً فوق الإدراك الحسي والعقلي للإنسان ، بينما عدُّ في هذه النظرية شيئاً دون ذلك ، وهذا تفكير عجائب

ثانياً: لم يعدَّ المفكرون العربيون الوحي نوعاً من أنواع الفرائز الحيوانية ، في حين عدُّ في هذه النظرية من هذا القبيل.

١ مقدمة في الرؤية العالمية الإسلامية ، للشهيد المطهري رحمه الله (وقد ذكر الشهيد المرحوم للنقاط السبع السابقة التي تمكس رأي أقبال اللاهوري في كتابه طالع ، المفكر الديني في الإسلام) بشكل ملخص وتقدمها.

سالك: إن أمر الوحي واضح بالكامل لمستم العلم بمعاني القرآن حيث يُعتبر نوعاً من الاتصال بالعالم الإلهي، وتلقي معارف عظيمة وجليلة للغاية من هذا العلم لم يستطع الإنسان أن يصل إليها بالعقل

إن الوحي من وجهة نظر القرآن الكريم هدية إرادية بالكامل وهو أسمى بكثير من «الهداية العقلية»، وكما قلنا سابقاً - فإنا إذا شبهنا العقل بسور مصباح نير فإن الوحي بمشابهة الشمس الساطعة

يخاطب القرآن الناس من جهة - قائلاً «وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» (الاسراء / ٨٥) ومن جهة أخرى يصف الله علمه ويقول «وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِذْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (القمان / ٢٧) هوحي النبوة ارتباط بهذا العلم الامتناهي، وهذا يصرح القرآن الكريم أن الله هو معلم الرسول الأكرم ﷺ

«وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ» (النساء / ١١٣) إن العقل والعلم البشري مهما تقدمتا وتكاملا أصعب من أن يعودا الإنسان إلى طريق السعادة من دون توحيه وإرشاد كوحي، والدليل السحي لهذا الكلام هو مذاهب الفلاسفة وانحرافاتهم العجيبة، والحقيقة أن اندس غرور كمفكرين إسلاميين هم مفكرون غربيون في واقع أمرهم، وأفكارهم اتخذت صبغة الأفكار الغربية، ولهذا سموا دائماً لذكر تبريرات طبيعية للأمور غير الطبيعية

إن الغربيين إذا اصرروا على ذكر تبريرات صيغية للأمور المعبية، فذلك لانكارهم عالم الغيب، فلا ينبغي لأي مسلم افتقاء أمرهم في ذكر تبرير طبيعي لمسألة كهذه.

من المؤسف أن الآثار السيئة لهذا، لتقليد نجدتها في كثير من كتب أولئك المفكرين الذين غالباً ما درسوا في الغرب، ومعلوماتهم عن الإسلام قليلة جداً

٥ - كيف تيقن الرسول بأن الوحي من الله؟

إن هذا السؤال من جملة الأسئلة التي طرحت حول مسألة الوحي، كيف علم الرسول بأن الوحي من الله وليس إلقاء شيطانياً؟ وبتعبير آخر، ما هو مصدر هذا العلم واليقين؟ إن الجواب عن هذا السؤال واضح، فإضافة إلى أن الفرق بين الالتقاءات الرحمانية والالتقاءات الشيطانية كالفرق بين السماء والأرض، فإن محتوى كل منهما يعرف نفسه، ويسمي القول، إن الرسول عندما يتصل بالوحي يدعى بحقيقته بالنظر الباطني، وأمره كالشمس الساطعة بهاراً، فلا يعتنى بالذي يشكك بوجودها ويقول: «يُحتمل أن تكون وهماً لا أكثر، وذلك لأن إحساسنا بها ظاهري ولا يقبل شك».

يقول العلامة الطباطبائي رحمه الله في تفسيره للآية: ﴿قُلْ إِنَّا نُوَدِّيْ يَاسُوءِي • إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ (طه / ١١ - ١٢)

وهذا حال النبي والرسول في أول ما يوحى به بالنبوة والرسالة، لم يحتلعه شك ولم يعتريه ريب في أن الذي يوحى إليه هو الله سبحانه من غير أن يحتاج إلى إيمان بظن أو التماس دليل، أو إقامة حجة، ولو افتر إلى شيء من ذلك كان كسباً بالقوة لتطرد لا تلقياً من العيب من غير واسطة^١

ومن هنا يتضح عدم صحة ما جاء في بعض روايات من أن الوحي عندما يرل لأول مرة على الرسول في عار «حرأ» ذهب إلى بيت حديجة وقص عليها ما جرى وأصاب إني أخاف على نفسي (أي أخاف أن تكون الأيحاء شيطانية لا إلهية) فطمأنته حديجة، ثم ذهبت به إلى ورقة بن نوفل (ابن عم حديجة) الذي كان يدين بالمسيحية في عهد الجاهلية، وكان يجيد القراءة والكتابة العربية والعبرية، فطلب من النبي أن يشرح ما جرى له. وبعد ما قص الرسول ﷺ ما جرى له، قال ورقة: إنه هو الوحي الذي كان يهبط على موسى عليه السلام وأصاب: ليتني أكون حياً كي أرى كيف يخرجك قومك من هذه المدينة^٢

١. تفسير الميرزا، ج ١٤، ص ١٢٨

٢. نقل هذا المصنف كثير من المحدثين والمفسرين من أهل السنة منهم «البخاري في صحيحه» و«مسلم» و«سيد قطب في تفسيره في ظلال القرآن في بدايه سورة الملق» كما ورد في «دائرة معارف القرن العشرين، مادة (وحي)».

وكون هذا الحديث محتلق أمر لا ريب ولا شك فيه، إذ كيف يحتاج الرسول الذي لربط بعالم الغيب وكل وجوده يشعر بهذه الرابطة، إلى ورقة من نوفل الكاهن النصراني؟ وكيف يمكن الاعتماد على مثل هذا الوحي؟

لماذا لم يشك به موسى بن عمران عندما نزل عليه أول مرة في طور سيناء؟ بالرغم من أن موسى سمع صوته فقط ولم يشاهده، أنيس هذا دليلاً على وجود أياد خفية تهدف من وراء تلفيق هذه الحرافات إلى النيل من الوحي والنبوة وتصعيب أسس الدين الإسلامي؟



٦- القرآن لغنى مصدر للمعرفة في الأحاديث الإسلامية

نستمر في بحثنا هذا مع الأخذ بخطر الاعتبار أن القرآن الكريم يمثل المصدق البارز للوحي طبق ماورد عن الأئمة الأطهار عليهم السلام، كي يكون تأكيداً لأصل وموقعية القرآن كمصدر عظيم للمعرفة، كما يكون جواباً لأولئك الذين يذهبون شططاً ويعدون الوحي من «الغرائز الحيوانية» وأدنى من الإدراكات العقلية، ويعتقدون أن الإنسان استغنى عن الوحي والمعارف التي شأ منه بعد تكامله العقلي ١

١- قال الرسول الأكرم ﷺ مخاطباً المسمعين «إِذَا تَهَيَّأْتُ عَلَيْكُمْ الْأُمُورَ فَتَقَطَّعَ اللَّيْلُ الظُّلُمُ فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ ... مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ، وَهُوَ أَوْضَحُ دَلِيلٍ إِلَى خَيْرٍ سَبِيلٍ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أَجَرَ، وَمَنْ حَكَّمَ بِهِ عَدَلَ» ٢

٢- ويقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في إحدى خطب بهج البلاغة «لَمْ أَنْزَلْ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُورًا لَا تَطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وَسِرَاجًا لَا يَخْبُو نُورُهُ، وَبَحْرًا لَا يَدْرِكُ قَعْرُهُ، وَمُسْتَهَاجًا لَا يَضِلُّ نَهْجُهُ، وَشِعَاعًا لَا يَفْظُمُ ضَوْؤُهُ، وَفِرْقَانًا لَا يَخْمَدُ بَرَهَانُهُ، وَتَبَيَّانًا لَا تُهْدِمُ أَرْكَانُهُ، وَشَفَاةً لَا تَخْشَى أَسْقَامَهُ، وَهَزْأً لَا تُهْزِمُ أَنْصَارُهُ، وَحَقًّا لَا تُغْذِلُ أَعْوَانُهُ».

١ نقل المرحوم العلامة المجلسي هذه الخطبة في بحار الأنوار ج ٧٤ ص ١٧٧ ص أبي سعيد الخدري من جملة حُطِّب الرسول التي نقلها.

«فهو معدن الإيمان ويحيو حته وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغمراته، وأنافي الإسلام وبتياته»^١.

٣- ويقول الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «سأل رجل الإمام الصادق عليه السلام: «ما بهاء القرآن لا يزاد على النشر والدرس إلا غضاضة؟ فقال الإمام: «لأن الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، فهو في كل زمان جديد، وعند كل قوم فضي إلى يوم القيامة»^٢.

والأحاديث الواردة في هذا المجال كثيرة في مصادر السنة والشيعة، وقد ذكرنا ثلاثة فقط، أحدها للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والآخر لأمير المؤمنين عليه السلام وحديثاً للإمام الصادق عليه السلام.



٧ - الوحي للخاص إلى غير الأنبياء (وحي الإلهام)

كما ذكرنا في بداية البحث أن للوحي معاني كثيرة، منها «وحي النبوة والرسالة»، وهناك قسم آخر من الوحي وهو «الإلهام» الذي يلقى في قلوب غير الأنبياء، أو خطاب يُبلغ به غير الأنبياء.

ومثاله ما جاء عن أم موسى حيث يقول لقرآن في هذا المجال: «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ قَالَتْ فِي بَيْتِهِ وَلَا تَحْزَنِي...» (التقصص / ٧) وقريب من هذا ما جاء عن الحواريين، حيث يقول الله تعالى: «وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَنُشْهِدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» (المائدة / ١١١) كما قال الله في يوسف قبل أن يبعثه سبياً، عندما أراد اخوته أن يلقوه في البئر: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لِيُنْبِتَهُمْ فَاغْرُقْهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» (يوسف / ١٥)

وهذا الوحي ليس هو نفس وحي النبوة، بل وحي إلهامي، بقرينة الآية ٢٢ من نفس

١. نهج البلاغة، المخطبة ١٩٨

٢. بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٥.

السورة ، حيث جاء فيها أن الله ألهم نبيّه (يوسف) كي يدرك بأنه ليس وحيداً بل الله يحفظه ويرزقه نصيباً من القدرة ويصل الأمر إلى أن يدم أخوته على فعلهم. وهذا الوحي هو الذي جعل الأمل ينبعث في قلب يوسف.

يذكر «الفهر ارارى» ستة احتمالات في ديل الآية (٣٨) من سورة طه، وأغلبها خلاف الظاهر ، لأنّ ظاهر الآية هو الالتقاء في القلب ، وسماع صوت ملك الوحي الذي يتناسب والمعنى اللغوي للوحي^١.

ومثال القسم الثاني هو الخطاب الذي أبعه أحد الملائكة لمريم والذي كان يتعلق بولادة عيسى عليه السلام. وقد حكى القرآن حوار مريم مع ملك الذي تمثل في صورة إسماعيل وسليم. وأوضح مثال للوحي الالهامي هو الذي كان يهدف في قلوب الأئمة المعصومين عليه السلام والذي أشير إليه كثيراً في الروايات

وعندما سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن مصدر علم الأئمة قال: «تنبّأ علمنا ثلاثة وجوه: ماضٍ ، وغابر ، وحادث. فأما الماضي فنُفُتِرَ وَأَمَّا الْغَابِرُ فَمُزِيدٌ ، وَأَمَّا الْحَادِثُ فَتُذَفُّ فِي الْقُلُوبِ ، وَتَقَرُّ فِي الْأَسْمَاعِ وَهُوَ أَضَلُّ عَلَمًا وَلَا نَبِيَّ بَعْدَ نَبِيِّنَا»^٢

وقد جاء في حديث آخر للإمام الرضا عليه السلام يقول فيه «وأما المكت في القلوب فهو الالهام وأما التقر في الأسماع محدث الملائكة، يسمع كلامهم ولا يرى أشخاصهم»^٣.

وبصورة عامة ، فإنّ علوم الأئمة عليهم السلام تحصل من عدة طرق : العلوم التي ورثوها عن الرسول والأئمة الذين سبقوا ، على شكل وصايا وقواعد مدوّنة توّسع في تناول أيديهم والتي قد يطلق عليها في بعض الأحيان «الحامّة». وعندما يحصل لهم أمر مستحدث لا وجود له في المصادر التي في أيديهم . يوحى الله إليهم إلهاماً قلبياً أو تقرأ في أسماعهم يسمعون به صوت الملائكة «كما هو الحال بالنسبة لمريم عليها السلام»

١ راجع الضمير الكبير، ج ٢٢، ص ٥١.

٢ بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٥٠.

٣ إرشاد المفيد، ج ٢، ص ٨٠ بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ١٨.

لكن المسلم به أن هذا الوحي لا علاقة له بوحي النبوة، وهو من قبيل وحي الحوار بين وأمثال ذلك، وفي الواقع، أن الاصطلاح لعصري لـوحي يطلق على وحي النبوة الذي يسمى «إلهاماً». وقد قال العلامة الطباطبائي في هذا المجال حديثاً لو أطلقنا عليه إلهاماً لأنه يتفق والأدب الديني^١.

يراجع - للتفصيل - المجلد ٢٦ من بحار الأنوار، باب علوم الأئمة عليهم السلام، كما يراجع المجلد الأول من أصول الكافي باب أن الأئمة عليهم السلام محدثون.

❦❦❦

٨ - كيفية نزول الوحي على الرسول الأعظم عليه السلام

كما قلنا سابقاً، إما لا ندرك حقيقة الوحي، وهي من المجهولات عندما، لأن إدراكها شيء خارج عن إطار الحس والعمل، بل ندرك آثاره الوحي فقط، والآخر يدل على المؤثر. وعلى هذا من العبث الدخول في عالم الوحي القاموس إلا أن الرسول الأكرم عليه السلام والأئمة عليهم السلام عندما كانوا يُسألون عن كيفية الإحاطة بجوهرها وأحياناً بحيث يرسم في الدهس عن الوحي تصوراً لا غيراً

ذكر الشيخ الصدوق رحمته الله في كتابه «الاعتقادات» حول نزول الوحي حديثاً لا بد أن استخلصه من الروايات حيث قال فيه

«اعتقادنا في ذلك أن بين عيني إسرافيل بوحاً، فإذا أراد الله عز وجل أن يتكلم بالوحي صرب اللوح جبين إسرافيل، فنظر فيه فقرأ ما فيه، فيلقيه إلى ميكايل عليه السلام، ويلقيه ميكايل عليه السلام إلى جبرائيل عليه السلام ويلقيه جبرائيل عليه السلام إلى الأنبياء عليهم السلام، وأما العشية التي كانت تأخذ النبي عليه السلام حتى يتقل ويعرق فإن ذلك كان يكون منه عند محاطة الله عز وجل بإياه فأما جبرائيل فإنه كان لا يدخل على النبي عليه السلام حتى يستأذنه إكراماً له، وكان يقعد بين يديه فعدة العبد^٢.

١ - تفسير الميرزا، ج ١٢، ص ٣١٢

٢ - اعتقادات الصدوق، ص ١٠٠

وقد جاء في الروايات مصموم هذا الحديث إجمالاً^١.
وتقرأ في حديث آخر أن الرسول الأكرم ﷺ عندما كان يوحى إليه يسمع صوتاً هادئاً
قرب وجهه.

وقد جاء في حديث آخر: إن الوحي عندما كان ينزل على الرسول ﷺ يبدأ جبينه
يتصبب عرقاً وإن كان الجو بارداً^٢.

وبصورة عامة فإن الوحي كان يهبط على رسول الله بأشكال مختلفة، ولكل شكل آثاره
الخاصة به.

كما يستفاد من الروايات أن جبرئيل كان يهبط على الرسول أحياناً - بشكله الحقيقي
الذي خلقه الله عليه، ويحتمل أنه هبط بهذا شكل مرتين فقط طوال عمر الرسول (كما أشير
إلى ذلك في بعض تفاسير سورة النجم)^٣. كما أنه قد يهبط متمثلاً في صورة «دحية
الكلبي»^٤.



٩- الاتهامات للفرزية

قلنا سابقاً أن للوحي مفهوماً واسعاً سواء في آيات القرآن أو في كتب اللغة، كما قلنا إن
أحد مصاديقه هو الإدراك الفرزي عند الحيوانات، ولا يمكن تحليله بأي تحليل مادي. بل
وجوده في الحيوانات دليل على وجود ذلك المصدر العني والعظيم للعلم والمعرفة فيما
وراء الطبيعة.

١. بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٥٤، ح ٩.

٢. بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٦١.

٣. في ظلال القرآن، ج ٧، ص ٣٠٦.

٤. بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٦٧، ح ٢٩.

٥. إن دحية بن خليفة الكلبي هو أخو الرسول الرضا ع، وكان من أجمل الناس أدراكاً، فكان يتمثل في صورته
جبرئيل عندما يريد الهبوط على الرسول الأكرم ﷺ (مجمع البحريين مادة وحي). وكان من مشاهير صحابة
الرسول ﷺ ويُعرف بحسن الوجه، أرسله الرسول ﷺ بمرسلة إلى قيصر الروم «هرقل» في السنة السادسة أو
السابعة من الهجرة، وكان حياً حتى خلافة عمر (قاموس دحيات بالفارسية).

وقد أشار القرآن المجيد إلى هذا الأمر العجيب بالنسبة للنحل في الآيات ٦٨ و ٦٩ من سورة النحل.

لقد اتضح لنا - بعد التحقيقات التي أُجريت على هذه الحشرة في العصر الحاضر - أن النحل يعيش حياة اجتماعية وتعدّماً عجيّباً يفوق تمدن الإنسان في بعض بواحيه، فالعمران والبناء يتمّ عنده بدقّة كاملة وطبقاً لمواصفات الهندسية، وكيفية تجميع العسل وتهيئته وادخاره وحفظه من التلوث، وكيفية تربية الصغار، والتعديّة الحاصّة للملكة، والتحقّق من عدم تلوث بعض النحل بالزهور الملوّنة، وكيفية الدفاع ضدّ العدو، وكيفية إخبار أعضائه المحليّة عن الزهور بواسطة النحل المكثّف بالبحث، وإعطاء المواصفات الدقيقة من حيث المسافة والامحراف وذلك للحركة الجماعية نحو ذلك المصدر، وغير ذلك من الأمور العجيبة التي لا يمكن تصورها إلا بالقول بأنّها إلهاماً عزيزاً.

ويقال إنّهُ سمّ النعر ف على ٤٥٠٠ نوع من أنواع هذه الحشرة، والعجيب في الأمر أنّ جميعها تتبع طريقة واحدة في كعبه البناء والقَصّ والتعديّة من الزهور. إنّ البحث يستدعي عدم الخروج عن صلب الموضوع كثيراً، وإلاّ فالحديث عن الحياة العامّة للنحل طويل، ويكفيها من الحديث عن بنائه بيت سداسي الاصلاع مع روايا هندسية دقيقة

يقول العلماء في هذا المجال، إنّ البيوت المبنية من قبل النحل بيت بدقّة وظرافة بحيث لا تحتاج إلى مواد أولية كثيرة للبناء، رغم سعة محتواها، بوجود ثلاثة أشكال فقط من بين الأشكال الهندسية المتعددة - يمكن بناء البيوت على أساسها من دون حصول فراغ بينها - والأشكال هي، المثلث متساوي الاصلاع والرباعي، والسداسي، وقد كشفت الدراسات الهندسية أنّ سداسي الاصلاع يتطلب مواد بناء أقلّ مع شدّة مقاومته، ولهذا السبب رجّحه النحل على الشكلين الآخرين.

من أين حصلت له هذه الالهامات العزيزة؟ وهي أي مدرسة تعلم هذه التعاليم؟

لا يقتصر هذا لإلهام العريزي على المحل محسوب، بل تجده في كثير من الحيوانات تفوق عجائب كل منها الأخرى، نذكر لذلك الأمثلة الآتية.

يقول أحد العلماء في كتاب له باسم «لبحر بيت العجائب»

«إن الحركات التي تقوم بها بعض الأسماك تعتبر من عرائب الطبيعة ولا أحد يستطيع أن يكشف أسرار هذا السلوك، فهناك نوع من الأسماك يسمى «اللقط» يعادر البحر المالح الأنهر العذبة وهي الأماكن التي ولدت فيها معها، وقد يقتضي ذلك أن تسير عكس اتجاه حركة المياه، أو تصعد الشلالات من أسفلها إلى أعلاها، وقد يبلغ عددها حداً بحيث تملأ النهر، وعندما تصل إلى المحل المقصود تصنع بيوضها ثم تموت»

يا ترى كيف تستطيع هذه الأسماك أن تختار اسماها المناسب لها؟ إنه أمر عجيب، والأعجب، لأنها تفتقد الحارطة، كما أن بصرها تحت الماء محدود، ولم يدلها أحد على الطريق، وبالرغم من ذلك فهي تصل إلى المكان المقصود والمناسب.

ويضيف في نفس الكتاب: «إن أعجب من ذلك هو سلوك الأسماك الانجليزية «سبك» يشبه الحيتة» فحين تبلغ ثمان سنوات تغادر سهر أو لمستقع الذي كانت تعيش فيه، وترجع ليلاً على الأعشاب المتسabee حتى تصل إلى شاطئ البحر، ثم تجتاز المحيط الأطلسي عرضاً حتى تصل إلى المياه القريبة من «برمودا» وتموص في المحيط آسداك وتصنع البيوض ثم تموت .. إن صفار هذه الأسماك تطمو على سطح البحر وتبدأ سمرها عائدة إلى وطنها، وتستغرق هذه السفرة سنين أو ثلاثاً حتى تصل إلى المحل الذي كان فيه أسلافها.

كيف وجدت هذه الأسماك طريقها رغم أنها لم تسلكه سابقاً؟ إنه سؤال لا يمكنك الإجابة عنه، كما لا يستطيع أعلم العلماء الإجابة عنه، إنه سر، ولا أحد يعرفه^(١)

- وكثير من الطيور المهاجرة تجتاز طرقاً ومسافات طويلة، وبعضها يجتاز طريق «أوربا» إلى «أفريقيا الجنوبية» دون خطأ في الاتجاه، ولم يكتشف كيفية اهتداء هذه الطيور إلى

١. البحر بيت العجائب، ص ١١٦ و ١١٧ (بالدراشة)

الطريق حتى فترة ليسب بعيدة

وقد أثبت بعض العلماء - بعد التحقيق والتحارب على هذه الطيور - أنها تهتدي الطريق بواسطة مواقع النجوم، وأثبتت التحارب أنها تعرف مواقع النجوم غريزياً، وتعلم نعيم مواقعها حسب فصول السنة، وحتى عندما تتبدل السماء بالغيوم، فإن وميض بعض من النجوم يكفيها للاهتمام إلى الطريق، كما أثبتت تحارب أخرى أنها ورثت معرفتها عن لفلك ومواقع النجوم، أي أنها تعلم كل شيء عن السماء ومواقع النجوم وبن لم نشاهد اسماء سابقاً، بالطبع لم تُكتشف كيفية اتصال هذه المعلومات التفصيلية لهذه الطيور بالورثة، خاصة وأن السماء تتغير أشكالها بمرور الزمان. ثم من أين حصل الجيل القديم على هذه المعلومات؟!^١

والنموذج الآخر لهذه الغريزة هو سلوك طير باسم «كسك لوب» عندما تضع البيوض، فيقول العالم الفرنسي «وارد» حول هذا الحيوان:

«إنني درست حالات هذه الطيور، (وجدت من) حيث نصفا أنها تموت بعد أن تبص، ولا ترى أفرانها بدأ، كما أن الأفران لا ترى مباتها، وعندما تفقس البيوض تخرج كالديدان بلا أحسحة ولا ريش، ولا قدره لها على بحصيل الطعام، ولا قدرة لها للدفاع عن نفسها من الحوادث والمخاطر التي تهدد حياتها، وبعد بضعي أن تبقى في مكان محفوظ فيه طعام يكفيها لمدة سنة، ومن بعدها تقوم الأم - عندما شعر أنها على وشك أن تبص - بالبحث عن قطعة من حشب ثم تنقبها نقياً عميقاً، ونجمع فيها المؤونة لكافية، فجمع أولاً أوراق الأشجار ما يكفي لفرخ واحد لمدة سنة وتلفها في نهاية الثقب العميق، ثم تضع عليها بيضة وتبني عليها سقفاً محكماً من عحيه خشبية، ثم تبدأ ثانياً في جمع مؤونة فرخ آخر لمدة سنة وبعد جمعها المؤونة ووضعها على سطح عرفة لأوئي، تضع بيضة ثانية عليها وسقفاً

١ - حيوانات العاصفة، تأليف أوبنوس دروغر، ترجمة لاله راري، ص ١٦٧ - ٧١ (ملخص)
«بالفرنسية»

آخر، وهكذا تبني الغرفة بعد الغرفة حتى تموت^١.

من الذي علم هذا الطير هذا الحجم من المعلومات رغم أنه لم ير أمه ولا أفراخه؟ لا جواب لأحد على هذا السؤال إلا القول، بأنه إلهامات غريزية من قبل الخالق العظيم.

❦❦❦

١- المطهرون بالفلسفة، ص ٢٢٩، «بالفارسية»

٦. الكشف والشهود

تمهيد:

القسم السادس والأخير من مصادر المعرفة هو «الشهود القلبي والمكاشفة». وقبل كل شيء، ينبغي تعريف هذا المصدر المجهول لدى أكثر الناس، كي يتضح الفرقه عن «الوحي» و«الالهام» و«الفطرة» و«الإدراكات عقلية»، ولكي لا يعمله غير المطلعين على «اتباع الظن».

ومن جهة أخرى، لكي نحول دون اشتغال هذا العنوان من قبل البعض، والنظر إليه نظرة تشاؤمية من قبل البعض الآخر،

إن الكائنات في هذا الوجود تنقسم إلى قسمين:

١- الكائنات التي يمكن إدراكها بالحواس وهي «العالم المحسوس».

٢- الكائنات غير المحسوسة وهي «عالم الغيب».

لكن الإنسان - أحياناً - يفتح أمامه طريق باتجاه عالم الغيب يمكنه من معرفة بعض الحقائق الغيبية (حسب قابليته)، ويعتبر آخر، تتكشف له بعض حقائق عالم الغيب فيشاهد تلك الحقائق كما يشاهد حقائق العالم المحسوس، بل أوضح وأوثق.

ويقال لهذه الحالة «المكاشفة» أو «الشهود الباطني».

وقد أشير إلى هذا العلم في الآيتين: «كَلَّا لَوْ تَفْلَحُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ

(التكاثر / ٥-٦)

الْجَحِيمَ»

وقد ورد في المصادر الإسلامية المختلفة، إن «المجرمين» و«المؤمنين» تحصل لديهم

هذه الحالة عند الاحتضار، فيشاهد المؤمنون عندها ملائكة الله أو الأرواح القدسية لأوليائه الله بينما يعجز الجالسون حولهم عن مشاهدة ذلك.

كما حصل هذا الأمر لرسول الله ﷺ في عروة العبد عندما صرب الرسول ﷺ الصخرة ثلاثاً وكان يظهر بريق في كل صربة وعند سؤال المسلمين عن هذا البريق قال: أصابت الحيرة وقصور كسرى في الأولى وفي الثانية أرض الشام والروم وفي الثالثة قصور صنعاء... وسيأتي تفصيل الحديث^١.

كما أنه قد حصل هذا لآمة أم سبي الأكرم ﷺ عندما كانت حاملة بالرسول ﷺ حيث قالت: رأيت نوراً خرج مني شاهدت به قصور بلاد «بصرى» في «الشام»، وهناك كثير من السامع جاء في الآيات والروايات نشر بها فما بعد، إن شاء الله، مهده كلها لا وحي ولا إلهام قلبي، بل نوع من المشاهدة والإدراك تحتلف عن المشاهدة والإدراك الحسي.

وعلى هذا، فانكشف والشهود -، حنبلاً - عبارة عن الدخول في عالم ما وراء الحس ومشاهدة حقائق ذلك العالم بالعين الباطنية. كالمشاهدة الحسية بل أقوى، أو سماع تلك الحقائق بأذن روحانية

بالطبع لا يمكن تصديق كل من يدعي أنه وصل إلى هذه الملكة، إلا أنه يسعى الادعاء بأصل وجود مصدر المعرفة وتتحدث أولاً عن هذا الأمر، ثم عن كيفية الوصول إليه، ثم طريق تمييز المدعين الصادقين من الكاذبين، وبعد هذا التمهيد، نحن حاشعين في الآيات التالية:

١- ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾.

(الأنعام / ٧٥)

٢- ﴿وَقُلْ اغْتَبِلُوا قِسْرِي اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتَرْثُونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيَسْأَلَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

(التوبة / ١٠٥)

٣- ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتَسْمُرُونَ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ *

١. الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ١٧٩

عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى». (النجم / ١١ - ١٤)

٤ - «كَلَّا لَوْ تَطْمَنُّونَ عِلْمَ الْيَقِينِ • تَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ»

(التكوير / ٥ - ٦)

٥ - «يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا».

(الفرقان / ٢٢)

٦ - «وَإِذْ زَيْنُ هُمُ الشَّيْطَانُ أَغْتَاهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ

لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْعِثَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي

(الأنفال / ٤٨)

أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

٧ - «وَلَمَّا فَصَلَ الْمِيرُ قَالِ أَبُوهُمُ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَعْتَدُونَ»

(يوسف / ٩٤)

٨ - «فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ رُوحَنَا فَمُتْنَلَّ لَهَا بِشَرًّا سَوِيًّا»

(مريم / ١٧)



شرح المفردات:

إن «ملكوت» اشتقت في الأصل من مادة «الملك» والتي تعني لملكه والحكومة،

وصيغت لها «الواو» و«الهاء» للتأكيد والمبالغة، أما ملكوة فتعني الحكومة والعزة

يقول الطريحي في «مجمع البحرين»: «إن ملكوت جاءت بمعنى العزة والسلطنة

وللمملكة، وادعى بعض أنفة اللغة أنها تعني «الحكومة المطيعة» وهو يتفق مع ما قاله

الراغب في مفرداته، ويقول صاحب «ميزان» «كان النهر في ملكوت الأشياء يهدي الإنسان

إلى التوحيد هداية قطعية»^١.

إن «مؤودة» - كما بينا معناه بالتفصيل سابقاً - تعني القلب ولروح عندما يضطربان

ويتكاملان، وهو مشتق من مادة «فأد» التي تعني النضج.

وإن «أجد» من مادة «وجود» ويعني الحصول، فقد يكون الحصول عن طريق إحدى

١. تفسير الميراث، ج ٧، ص ١٧١.

الحواس الظاهرية ، مثل الرؤية بالعين ، والسمع بالأذن ، أو بواسطة الحاسة الشامة ، وقد يحصل عن طريق الحواس الباطنية مثل الاحساس بالجوع أو الشبع والهم والغم ، وقد يحصل عن طريق العقل مثل وجدان الله بالاستدلال العقلي والبراهين المختلفة.

كلمة « تمثّل » من مادة « ثَمَل » ويعني لوقوف أمام شخص أو شيء ، ويقال مُثِّلَ بشخص أو شيء أي ظهر في صورة شخص أو شيء آخر ، وقد تكرّر موضوع التمثّل في الروايات الإسلامية والتواريخ ، منها ظهور إبليس في «دار الندوة» أمام المشركين وهم يخططون لقتل الرسول متعللاً في شكل رجل صالح وغيره.

ومنها تمثّل الدنيا في صورة امرأة جميلة وفاتنة أمام الإمام علي عليه السلام وعدم استطاعتها من الفوز في قلبه الطاهر وقصتها معروفة ، ومنها تمثّل أعمال الإنسان أمامه في القبر ويوم القيامة ، كلّ بشكله المناسب له حيث عبرت روايات الإسلام عن هذا الأمر بالتمثّل ، ومفهوم التمثّل في جميع هذه الموارد هو ظهور شخص أو شيء في صورة شخص أو شكل آخر من دون تعبير في باطنه وماهيته



جمع الآيات وتفسيرها

إنّ الآية الأولى بعد إشارتها إلى جهاد إبراهيم عليه السلام بطل التوحيد ضد الشرك وعبادة الأصنام ، تحدّثت عن المنزلة الرفيعة لإيمانه وبقائه ، وكما كافته لهذه المكانة فإنّ الله أراه ملكوت السموات والأرض ، فأصبح من أهل يقين أي وصل إلى درجة عين اليقين وحق اليقين ، جزاء لما عبّاه من جراء جهاده ضد الشرك وعبدة الأصنام ، ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ «السموات» تعيد الصوم هنا (لأنّها جاءت جمعاً لا مفرداً ومعرفة لا نكرة) ، نستنتج أنّ الله أطلع إبراهيم على سلطانه في السموات المتمثّل بانكسار كعب والحدود والمجرات وغيرها ، كذلك سلطانه على الأرض ما ظهر منها وما بطن ، وقد عبّر القرآن عن هذا الأمر بهذا التعبير لأتومي إبراهيم عليه السلام.

ومع الأخذ بنظر الاعتبار إلى أن الإنسان لا يمكنه رؤية هذه الحقائق بعينه الظاهرية واستدلالاته العقلية، ندرك أن الله أراه هذه الحقائق عن طريق الشهود الباطني وإزالة الحجب التي تحول دون مشاهدة الإنسان الحقائق العينية.

وقد ذكر الفخر الرازي احتمالين في تفسيره - «الإرائة»، أحدهما «أنها حية، والثاني: أنها إرائة عن طريق الاستدلال العقلي، ثم احتار الاحتمال الثاني، وذكر تسعة أدلة عليه^١. لكن - كما قلنا سابقاً - فالإنسان عاجز عن الاحاطة الكامنة بأسرار سلطان الله على العالم سواء كان عن طريق الحس أو عن طريق العقل، وتحتاج الاحاطة هذه إلى طريق إدراك آخر، وهو الشهود الباطني، ولهذا السبب يذكر صاحب تفسير «في ظلال القرآن»: «أن المراد من الآية إخبار إبراهيم عن أسرار الخلق العفوية ورفع الحجاب عن آيات كتاب الخلق التي شرت كي يصل إبراهيم إلى درجة اليقين الكامل»^٢.

وبتعبير آخر: إن إبراهيم اجتار مراحل التوحيد الطري والاستدلالي - هي البداية - من خلال مشاهدته لطلوع الشمس وعروبها وطلوع البهجوم وافولها، وجاهد المشركين واحتار درجات التوحيد في ظل هذا الجهاد العظيم، الواحد تدو الأخرى، إلى أن بلغ مرحلة كشف الله له فيها الحقائق، وهي مرحلة الشهود الباطني.

وهناك حديث للإمام الصادق عليه السلام في هذا المجال يشير فيه إلى هذا المعنى حيث يقول: «كُشِفَ لإبراهيم السموات السبع حتى نظر ما فوق العرش، وكُشِفَ له الأرضون السبع، وكُفِّلَ لمحمد ﷺ مثل ذلك...» هو الأئمة من بعده قد فعل بهم مثل ذلك»^٣.

وقد ذكر صاحب البرهان الكثير من الأحاديث في تفسيره، كلها تكشف أن الإدراك هذا ليس هو نفس الإدراك العقلي أو الحسي، بل - وكما صرح صاحب الميران وأشرنا إليه سابقاً - إن الملكوت هي مجموعة الأمور التي لها ارتباط بالذات المقدسة الإلهية من حيث

١ التفسير الكبير، ج ١٣، ص ٤٣.

٢ في ظلال القرآن، ج ٣٩، ص ٢٩١.

٣ تفسير البرهان، ج ١، ص ٥٣٦، ح ٢ (ومضمون الحديث ثالث والرابع قريب من مضمون هذا الحديث).

انتمائها إلى تلك الذات، وهذا ما شاهده إبراهيم وعن هذا الطريق استطاع أن يصل إلى التوحيد المعاصر^١.

وهناك روايتان ذكرت في تفسير «المر المثور» إحداهما عن الرسول الأكرم ﷺ والأخرى عن ابن عباس تبيان أن الله رفع الحجب عن إبراهيم وأراه ملكوت السموات والأرض أي أسرار قدرته، وحاكميته على يكون والوجود^٢.



والآية الثانية بعد ذكرها لأحكام «الركاة والصدقة والتوبة» حاطبت الرسول قائلة: «وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (توبه / ١٠٥)

ومتأ لا شك فيه أن المراد من رؤية الأعمال من قبل الله سبحانه وتعالى هو رؤية الله لجميع أعمال الناس سواء الصالحة منها أو غير الصالحة وما ظهر منها وما بطن «بقربة وحدة السياق» وببقي القول بأن مشاهدة الرسول مثل مشاهدة الله، لأن الآية مطلقة ولم يقيد بها شيء، وأما المؤمنون، فالمراد منهم حلقاء الرسول ﷺ المعصومون بحسب المراتب المختلفة «لا جميع المؤمنين»

ومع الالتفات إلى أنه لا يحكم مشاهدة أعمال كافة الناس مشاهدة حسية أو استدلالية عقلية، ببقي القول: إن الآية بينت حقيقة وهي أن الرسول ﷺ والأنبياء عليهم السلام بإمكانهم المشاهدة بشكل يختلف عن المشاهدة الحسية المتعارفة، يشاهدون بها جميع أعمال المؤمنين.

وقد ذهب الفقير الراي إلى أن المراد من الآية جميع المؤمنين لا الأنبياء، وعندما وقع في إشكال أن المؤمنين لا يطلع أحدهم على أعمال الآخر، أجاب: إن المراد أنهم يخبرون بها.

١ تفسير الميراث ج ٧، ص ١٧٨.

٢، المر المثور، ج ٢، ص ٢٤.

وهذا تكلف بلا نتيجة، وتبرير خلاف الظاهر

كما أنه نقلت روايات عديدة في دين هذه الآية يستلزم أعمال العباد تعرض كل صباح (بعض الروايات ليس فيها قيد الصباح) على رسول الله ﷺ والأنمة ﷺ فيرونها ويفرحون بها إن كانت طاعات، ويتألمون إن كانت معاصياً^١.

و يمثل هذا الحجم الكبير من الروايات في تفسير هذه الآية درس كبير لجميع سالكي طريق الحق والهداية، حيث إن هناك مراقبين جللاء يراقبون أعمالهم، والإيمان بهذه الحقيقة لها مردودات تربويه جمة، وقد نقل هذا المضمون في ضمن روايات كثيرة عن الإمام الصادق ﷺ حيث يقول في أحدها «إنا صار الأمر إليه جعل الله له عموداً من نور يضيئ به ما يعمل به أهل كل بلدة»^٢.

✽✽✽

والآية الثالثة إشارة إلى ما يعتده البعض من مشاهدة رسول الله ﷺ لجبرئيل ﷺ في شككه الحقيقي، وقد شاهدته بهذا النجم مرتين، المرة الأولى في بداية بعثته حيث ظهر (عليه السلام) في الأمان وعطى الشرى والعرب، وكان بدرجة من الحلاله والعظمه حيث اضطرب الرسول حينها اضطراباً شديداً، والمرة الثانية هي حين ظهر جبرئيل ﷺ، وقد أشر في سورة النجم لكلا للمائتين.

وهناك تفسير آخر وهو أن المراد من الرؤية في الآية هو حصول الشهود الباطني له، الشهود للذات الإلهية المقدسة، وهو شهود بأمين الباطنية لا لظاهريه، وهو مصداق واضح له «لقاء الله» في هذا العالم، وقد جاء شرح ذلك مفصلاً في تفسير الأمل في ذيل الآية ١٨ سورة النجم.

١. جاء في تفسير البرهان في دليل الآية المذكورة، وفي بحار الأنوار، ج ٣٣، ص ٣٢٦ وما بعد، عشرات الروايات المنقولة في هذا المجال، ويمكن القول إنها وصلت إلى مستوى التواتر، ومن أصول الكافي ج ١ باب «عصر من الأعمال» جاء ذلك مفصلاً.

٢. منهاج البراهنة في شرح هج البلاغة، ج ٥ ص ٢٠٠، وقد جمع في هذا الكتاب روايات عديدة بهذا المضمون، وقد ذكر بعضاً منها البحراني في تفسيره «البرهان».

وعلى أية حال فإن الآية تصرح إن ما رآه الرسول ﷺ يقلبه قد حدث بالفعل، وقلبه صادق بما شاهده وغير كاذب.

والتعبير هذا شاهد على مسألة الكشف ولشهود الباطني الذي يعتبر أحد مصادر المعرفة للإنسان، إنسان مثل الرسول الأعظم ﷺ، وقد جاء في تفسير العيزان:

ولا بدع في نسبة الرؤية وهي مشاهدة العيان إلى القواد فإن للإنسان نوعاً من الإدراك الشهودي وراء الإدراك باحدى الحواس الظاهرة والتحيل والتفكر بالقوى الباطنة كما أننا نشاهد من أنفسنا أننا نرى وليست هذه المشاهدة العيانية ابصاراً بالبصر ولا معلوماً بفكر، وكذا نرى من أنفسنا أننا نسمع ونشم ونذوق ولمس وشاهد أننا نتحيل ونفكر وليست هذه الرؤية ببصر أو شيء من الحواس الظاهرة أو الباطنة فإننا كما نشاهد مدركات كل واحدة من هذه القوى بنفس تلك القوة كذلك شاهد إدراك كل منها لمدرستها وليس هذه المشاهدة بنفس تلك القوة بل بأعضاء المعبر عنها بالقواد^١

وقد صرح المفسرون: إن المراد من الرؤية في الآية هو المشاهدة بالقلب.

وقد جاء في حديث أن سأل أحد صحابة الإمام أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام: هل رأى رسول الله ﷺ ربه عز وجل؟ فأجابته عليه السلام: «نعم بقلبه، أما سمعت الله عز وجل يقول: ما كذب القواد ما رأى، لم يره بالبصر ولكن رآه بالقواد»^٢

بديهي، أن المراد من «الرؤية القلبية» ليس هو الفكر والاستدلال العقلي، لأن هذا أمر لا يحتص بالرسول ﷺ بل يحصل لجميع المؤمنين والموحدين.



وقد خاطبت الآية الرابعة المؤمنين كافة قائلة: «كَلَّا لَوْ تَغْلَبُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ *».

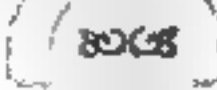
١. تفسير الميزان، ج ١٩، ص ٢٩

٢. تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ١٥٣، ح ٢٤

وهناك بحث بين المفسرين في أن الرؤية هذه تقع في الدنيا أم في الآخرة؟ أو أن الأولى في الدنيا والثانية في الآخرة؟ لكن ظاهر الآية يدل على أن الثانية تقع في الآخرة، بقرينة «ثُمَّ لَنُرَؤُنَهَا عَيْنَ الْيَتِيمِ» وذلك لأنه لا سؤال في الدنيا، وعلى هذا فالرؤية الأولى «رؤية الجحيم» تقع في الدنيا.

وقد جاء في تفسير الميزان إن ظاهر الآية يدل على وقوع رؤية الجحيم قبل يوم القيامة، بالطبع رؤية قلبية والتي تعد من ثمار الإيمان واليقين، كما هو الأمر في قصة إبراهيم ورؤيته لملكوت السموات والأرض.

وقد تقدم أن البعض يرى أن الرؤية هي كلا لموردين تتعلق بيوم القيامة، ولهذا تكلّموا كثيراً عند بيانهم للعرق بين الرؤيتين، كما يشاهد ذلك في كلام المفسر الفجر الرازي^١ وعلى أية حال، فإن الآية تأكيد في ظاهره على أن الإنسان - في بعض الحالات - تُرفع عن قلبه الحجب فيتمكن من رؤية بعض حقائق عالم العجب.



والآية الحامسة أشارت إلى طلب الكافرين سُلح، حيث كانوا يسألون: لِمَ لَمْ يُرْسَلْ عَلَيْنَا مَلَائِكَةٌ؟ أَوَلَمْ لَمْ يَرِ اللَّهُ جَهْرَةً؟^٢

ويحييهم القرآن «يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا».

وهناك خلاف بين المفسرين في المراد من «يوم» في الآية، فأبي يوم هو؟ يعتقد البعض أن المراد منه هو يوم القيامة لكن البعض يعتقد - مع الالتفات إلى الآيات التي تحدثت عن (ملائكة الموت) ومن ضمنها الآية التالية: «وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُم».

(٩٣ / الأنعام)

١. تفسیر الكبير، ج ٢٢، ص ٨٠.

٢. الفرقان، ٢١.

إن المراد منه هو لحظات الموت، أو بعد الموت وقبل يوم القيامة.

وقد نقل هذا الرأي عن ابن عباس^١، في حديث عن الإمام الباقر^{عليه السلام}: «فَإِذَا بَلَغْتَ الْحُلُومَ ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ وَجْهَهُ وَخَبَرَهُ (قِيلَ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ) وَذَلِكَ قَوْلُهُ «يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ»^٢

وطبقاً لهذا التفسير، فإن الإنسان عندما يكون على وشك الموت ترفع عن قلبه الحُجب، فتحصل له حالة الكشف والشهود، فيرى الملائكة.

ۛۛۛۛ

والآية السادسة تحدثت عن معركة بدر وأن الشيطان زوّج للمشركين أعمالهم وصورها لهم وكأنهم يحسنون صنعا، وذلك كي يكونوا أكثر تعاؤلا وأملأ بما يقومون به، ومن جهة أخرى فإن عدد وعدة جيش المشركين الذي بعدد بعدة أصناف المسلمين آنذاك اصطفوا أمام المسلمين، والشيطان يوسوس بهم ويشكل مستمر بانهم بهذا الجيش المجهر سوف ينتصرون ولا يستطيع أية قوة أن تعلبهم «لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنَّ جَارَ لَكُمْ».

وعندما اشتعلت الحرب وبرت الملائكة لنصرة المسلمين بأمر الله، تراجع الشيطان، وقال لهم: «إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ»^٣ لأنه رأى الامدادات العبيية وآثار رحمة الله.

وحول هذه الآية انقسم المفسرون إلى قسمين:

القسم الأول يرى أن الشيطان متجسم وصهر أمام هؤلاء بصورة إنسان وأخذ يوسوس

لهم.

١- تفسير الكبير، ج ٢٤، ص ٢٠.

٢- تفسير البرهان، ج ٣، ص ١٥٨، ح ١.

وأما القسم الثاني فإنهم يرون أن الشيطان نفذ في باطن المشركين كما هو المستعارف واحداث أثراً في قلوبهم.

وقد اختار كثير من المفسرين الرأي الأول، وهناك روايات معروفة تؤيد هذا الرأي، حيث قالت: إن الشيطان تمثل لهم في صورة «سرافة بن مالك» الذي يعتبر من أشراف «بنى كنانة» وقد حصل هذا الأمر «التمثل» عندما هجر الرسول الأعظم ﷺ، حيث اشترك الشيطان آنذاك في شوري المشركين في «دار سدوة» متمثلاً في صورة رجل كبير السن من أهالي «بجد» وليس محالاً أن يتمثل في صورة يسار، لأن هذا ممكن بالنسبة للملائكة (كما هو منقول في قصة ابراهيم ومريم).

والبحت الآخر هو هل أن الشيطان رأى للملائكة حقاً يساندون حشد الإسلام؟ أم عندما رأى آثار الانتصار غير المرتقب تيقن برول الملائكة والامدادات العيية؟ هناك طريقتان في هذا المجال:

يعتقد كثير من المفسرين أن المراد (أو منهم حقيقة) يؤيد ذلك طاهر الآيات اللاحقة التي تحدثت عن دخول الملائكة ساحة بدر

وعلى هذا، فما كان المؤمنون ولا المشركون يرون تواجد الملائكة في بدر، بينما كانت الحجب مرفوعة عن الشيطان، فكان يرى الملائكة

وهذا نوع من الكشف والشهود منحه الله للشيطان لأهداف معينة.

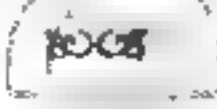


والآية السابعة أشارت إلى قصة يوسف ﷺ، فعندما خرج أولاد يعقوب ﷺ مع القافلة فرحين من مصر، وكانوا قد شاهدوا يوسف عمن عرش السلطة رجعوا حاملين قميص يوسف لتقر عين أبيهم وليرجع نظره إليه ثانية، وعندما تحركت القافلة من مصر، قال يعقوب لمن حوله في بلاد كنعان: «إني أشم رائحة يوسف، إذ لم ترموني بالكذب والجهل، إن ما قاله يعقوب كان صدقاً لأنه لم يشم الرائحة بالشامة الطبيعية التي يمتلكها جميع الناس ولهذا لم

يصدقه أحد ممن كان حوله فنسبوا الصلاة إلى الشيخ الكنعاني ذلك النبي العظيم حيث قالوا له: «تَأْتِيهِ إِنَّكَ لَبْنِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ» (يوسف / ٩٥)

وقد تبين صدق شيخ كنعان عند رجوع لاخته إلى كنعان. وقد عُذَّت المسافة بين مصر وكنعان بعشرة أيام في بعض الروايات. وبثمانية أيام في بعضها الآخر وفي روايات أخرى بثمانين فرسخاً^١. ولا دليل على حمل الآية على المعنى المجازي والقول بأن شم رائحة القميص كناية عن قرب لقائه بيوسف حيث ألهم الأب بذلك اللقاء (مثل قولنا شم رائحة انتصار المسلمين على الأعداء)، وذلك لأنه مع امكان حمل الألفاظ على الحقيقة لا يمكن الحمل على المجاز.

وفي النهاية نستنتج أن مكاشفة حصلت ليعقوب ورفعت عنه الحجب، وباحساس يوق الاحساس الظاهري استطاع أن يشم رائحة قميص ابنه من بعيد.



وقد تحدثت الآية الثامنة والأخيرة عن قصة تمثل الملك الإلهي لمريم حيث يقول القرآن في هذا المجال بصراحة

لقد انفصلت مريم عن أهلها في الصفة لشرقية من «بيت المقدس»، واتخذت حجاباً بينها وبين الناس (وهذا الحجاب إما أن يكون لأجل التفرغ للعبادة والنجوى أكثر، أو أن يكون لأجل التطهر والغسل)، وأيما كان فإنَّ الله أرسل إليها روحه، فتمثل لها بشراً وإنساناً سوياً أي كاملاً من دون عيب وداقمة ووجه جميل، فزعزت مريم في الوهلة الأولى، لكنها اطمأنت عندما قال لها: «إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا» (مريم / ١٩)

١. تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٦٢؛ تفسير الكبير، ج ١٨، ص ٢٠٧

واستمر الحديث بينهما طويلاً، وقد ذكر في سورة مريم^١،
وقد ادعى البعض أن الملك تمثل مريم في حبس الباصرة فقط، (وليس في الخارج)،
لكن هذا خلاف الظاهر ولا دليل عليه، والقرائن على أن هذا الشهود قد حصل لمريم فقط،
ويعتدل أنه إذا كان أحد معها ما كان قادراً على الرؤية، وعليه فالآية قربة أخرى على
مسألة إمكانية الشهود حتى لغير الأنبياء.

❦❦❦

النتيجة:

ستنتج مما تقدم أن هالك مصدراً للمعرفة غير المصادر التي قرأنا عنها إلى الآن، وهو
مصدر مبهم وغامض بالنسبة لنا، لن يستفاد وجوده من آيات القرآن بوضوح، وهو لا
يخص بالأنبياء والأنثى، بل قد يحصل لغيرهم أيضاً، وإذا شككنا في بعض الآيات في
محال استعادة هذا المصدر منها، فإن هذا المصدر يُستفاد من مجموع الآيات
بالطبع، إن هذا الحديث لا يعني فسخ المجال أمام كل من يدعي الكشف والشهود، بل إن
لهما علائم سنشير إليها فيما بعد إن شاء الله.

❦❦❦

توضيحات

١ - نماذج جميلة من الكشف والشهود في الأحاديث الإسلامية

إن الروايات التي كشفت عن مصدر المعرفة ليست بالقليلة وقد وصلت إلى حد
«الاستفاضة» حسب تعبير علماء الحديث، وقد أوردنا هنا نماذجاً من هذه الروايات:

١ - ذكر في تاريخ معركة الأحزاب أن المسلمين عند حفرهم للخندق حول المدينة
(كوسيلة دفاعية أمام العدو) خرجت عليهم صخرة كسرت المعول، فأعلموا النبي ﷺ،

١ راجع تفسير الأمل، ذيل الآية ١٩ من سورة مريم

فهبط إليها ومعه سلمان فأخذ المعول وحرب الصخرة صربة صدعها، وبرقت منها بركة
أضاءت ما بين لاهتي المدينة، فكبر رسول الله ﷺ والمسلمون، ثم الثانية كذلك، ثم الثالثة، ثم
خرج وقد صدعها، فسأله سلمان عما رأى من البرق، فقال رسول الله ﷺ: «أضاءت الحيرة
وقصور كسرى في البرقة الأولى، وأخبرني جبرئيل أن أمتي ظاهرة عليها، وأضاء لي في
الثانية القصور الحمر من أرض الشام والروم، وأخبرني أن أمتي ظاهرة عليها، وأضاء لي
في الثالثة قصور صنعا، وأخبرني أن أمتي ظاهرة عليها، فأبشروا، فاستبشر المسلمون»^١
لم يصدق المنافقون هذه البشارة التي ساقها الرسول الأكرم ﷺ وأخذوا يستهزئون
بقولهم: يا للعجب كيف رأى قصور الحيرة وقصور ملوك ايران وروم واليمن من المدينة
وكيف بشر بالانتصار على هؤلاء ونحن الآن محاصرين من قبل مجموعة من جيش اعراب
مكة؟ إن هذا الكلام لا أساس له ولا حقيقة.

إلا أن الحوادث المستعجلة أثبتت صحة ما قاله رسول الله ﷺ

وقد يحمل البعض الشهود هنا على معنى مجازي، لكن لا مبرر لهذا الحمل مع إمكان
الحمل على المعنى الحقيقي.

٢ - لقد ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام حول معركة مؤتة (التي وقعت بين
المسلمين والروم الشرقية في شمال الحيرة، «أن المسلمين عندما ذهبوا للقتال بقيادة
جعفر بن أبي طالب، فإن الرسول ﷺ كان يوماً في المسجد وقد تسطعت له الجبال
والارتفاعات فشاهد جعفرًا يقاتل الكافرين ثم قال: قتل جعفر»^٢.

وقد جاءت تفاصيل أخرى عن هذا الموضوع في روايات أخرى، حدث أن الرسول
الأكرم ﷺ ارتقى يوماً السير بعد صلاة الصبح، فصور للمسلمين ساحة المعركة في مؤتة
بدقة، وتحدث بالتفصيل عن شهادة «جعفر» و«زيد بن حارثة» و«عبدالله بن رواحة» وكأنه
يرى المعركة بأم عيسيه، والجدير بالذكر أن تنواريح المعروفة - عند إيرادها لهذه القصة -

١. المكمل في التاريخ، ج ٢، ص ١٧٩

٢. بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٥٨، ح ٩

نقلت هذا الحديث عن الرسول الأكرم ﷺ أنه قال: «إنَّ الشهداء الثلاثة تُحملوا إلى السماء على سرير من ذهب ورأيت نكصاً في سرير «عبد الله بن رواحة» قياساً لـ «سريري الشهداء» الآخرين، فيسئل عن سبب هذا؟ قال: مصيباً، وتردد بعض التردد ثم مضى»، والتعبير بالرؤية في الرواية له معنى عميق وهو نموذج من نماذج لشهود.

٣- وهناك حديث في تفسير الآية: «وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَفَ أَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أَنْزِلَ إِلَيْهِمْ».

يقول: إنَّ سبب نزول الآية هو النجاشي ملك الحبشة، فانه عندما توفي أخير جبرئيل الرسول بالأمر، فدعا الرسول المؤمنين لأنَّ يصنُّوا على أحد أحوالهم، فسألوا: من هو؟ أجاب: النجاشي.

ثم جاء الرسول إلى مقبرة البقيع، فتحدثت له بلاد الحبشة وتابوت النجاشي من المدينة، فصلَّى عليه^١.

٤- وقد جاء في تاريخ أم الرسول آمنة عليها السلام، أنَّها نزل عليها ملك عندما كان الرسول في رحمها وقال لها: إنَّ في رحمك سيد هذه الأمة فقولني عند ولادته: إني أعوذ بالله الأخذ من شر الحاسدين، وسَمَّيه «محمداً»، وقد ضاهاه عند حملها أنَّه خرج منها نور أضاء لها قصور بصرى من أرض الشام^٢.

وهذا الحديث يكشف عن إمكان حصول حالة لشهود لغير الأنبياء والأئمة

٥- وفي الحديث المعروف: أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام كان في بعض حيطان فدك وفي يده مسحاة فهجمت عليه امرأة من أحمل النساء فقالت: يا ابن أبي طالب إن تزوجتني أغضبك عن هذه المسحاة وأدلك على حرائر الأرض ويكون لك الملك ما بقيت، قال لها: «فمن أنتِ حتى أخطبك من أهلي؟».

قالت: أنا الدنيا، فقال عليه السلام: «ارجعي فاطمبي زوجاً غيري فليست من شاني فأقبل على مسحاته وأنشأ».

١ بحار الأنوار، ج ٨ ص ٤١١.

٢ سورة ابن هشام، ج ١، ص ١٦٦.

لقد خاب من غمرته دنيا دنية
استأ على زي العروس بشية
وما هي إن غرت قروناً بطائل
وريتها في مثل تلك الشوائل
... الخ^١

وقد حمل البعض الرواية على «التشبيه» و«التعميل» و«المجاز» لكننا إذا أردنا حفظ الظاهر، فمفهومها هو أن الدنيا تمثلت للإمام علي عليه السلام في عالم المكاشفة في صورة امرأة جميلة وأجابتها عليه السلام بالسلب.

وقد نقل تمثل الدنيا للمسيح عليه السلام كذلك في صورة امرأة معادعة مع اختلاف بسيط عما نقل عن الإمام علي عليه السلام^٢.

٦- وقد جاء في أحوال الإمام انسجاده عليه السلام (وعندما كانت فتنة عبدالله بن الزبير في الحجار مستمرة والكل كان يترقب بهاية الأمر، أن الإمام عليه السلام قال: «خرجت حتى انتهيت إلى هذا الحائط فاتكأت عليه فإذا رجل عليه ثوبان أبيضان ينظر في تجاء وجهي ثم قال: يا علي بن الحسين ما لي أراك كثيراً؟ أعلني الدنيا؟ فرزق الله حاضر للبر والفاجر، قلت: ما علي هذا أحزن وأنه لكما تقول، قال: فعلنى الآخرة؟ فوعده صادق يحكم فيه ملك قاهر - أو قال قادر - قلت: ما علي هذا أحزن وأنه لكما تقول، فقال: سم حزبك؟ قلت: متاً تشعوف عليه من فتنة ابن الزبير وما فيه الناس قال: فضحك ثم قال: يا علي بن الحسين هل رأيت أحداً دعا الله فلم يعبه؟ قلت: لا، قال: فهل رأيت أحداً توكل على الله فلم يكفه؟ قلت: لا، قال: فهل رأيت أحداً سأل الله فلم يعبه؟ قلت: لا، ثم غاب عني»^٣.

٧- وفي حديث آخر للإمام نفسه عليه السلام يقول فيه: «كأنني بالنصور وقد شهدت حول قبر الحسين عليه السلام وكأنني بالأسواق قد حلت حول قبره فلا تذهب الأيام والليالي حتى سار إليه

١. بحار الأنوار، ج ٤٠، ص ٣٢٨، ح ١٠.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٢٦، باب حب الدنيا ودمها، ح ١٢٠.

٣. أصول كافي، ج ٢، باب التوفيق إلى الله، ح ٢.

من الأفاق وذلك عند انتطاع ملك بني مروان^١

٨ - جاء في أمالي الصدوق عن أحوال الحر بن يزيد الرياحي.

لما خرجت من الكوفة نوديت أبشر يا حرّ بالجنة.

فقلت: ويلّ للحرّ يبشر بالجنة وهو يسير إلى حرب ابن بنت رسول الله ﷺ؟^٢

٩ - وقد جاء في حديث معروف دار بين أم سلمة زوجة الرسول ﷺ والإمام

الحسين ﷺ أن الإمام ﷺ أراها كربلاء ومحل شهادته^٣.

١٠ - وقد نقلت حکایات متعددة عن العلماء العظام والمتقين والمؤمنين الصادقين في

مجال المكاشفات وذكرها هنا يطيل بحثنا - إلا أنه ينبغي القول بأنها خرجت عن فحوى

الحر الواحد ووصلت إلى درجة الاستفاضة ويمكنها أن تكون مؤيداً جيداً لموضوعنا

٢ - كيف تُرفع الحجب؟

إضافة إلى الأحداث السابقة التي (مثل نماذج عملية لمسألة الكشف والشهود، هناك

تعبير في الروايات تدل على أن الإنسان كلما ازداد إيمانه وبقائه رالت عنه الحجب

والصعاب الذميمة (التي اصطعها الإنسان نفسه بدنيّة) عن قلبه وكشفت له حقائق أكثر

عن الكون إلى درجة تمكنه من النظر إلى ملكوت السموات والأرض كما نظر إبراهيم

الخليل.

إن قلب الإنسان وروحه كالمرآة التي حال عيار المعصية والصدأ الذي تراكم عليها من

انعكاس الحقائق، لكنها عندما تُجلى بماء التوبة، ويذول غبار المعاصي عنها، ويظهر القلب

جيداً، فإن الحقائق مستطعم فيها ويكون صاحبها أمين أسرار الله، فيسمع بداءاته التي لا

يسمعهما إلا من أوّتمن.

١ بهار الأنوار، ج ٩٨، ص ١١٤، كتاب الغرار، ج ٣٦.

٢. أمالي الصدوق، ص ٩٣، مجلس ٣٠.

٣. مدينة المعاجز، ص ٢٢٤.

ويمكن أن نجعل الأحاديث التالية شوهداً على ما قلناه:

١- يقول الرسول ﷺ في ضمن حديثه: «فلولا أنَّ الشياطين يهيمون إلى قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت»^١.

٢- وقد جاء في خير آخر عن الرسول لأكرم ﷺ أيضاً: «ليس العلم بكثرة التعلم، وإنما العلم نور يقدفه الله في قلب من يحب، فيفتح له، ويشاهد الغيب، وينشرح صدره فيتحمّل البلاء قيل: يا رسول الله هل لذلك من علامة؟ قال: التجافي عن دار الغرور والإتابة إلى دار الغلور، والاستعداد للموت قبل نزوله»^٢.

٣- وقد وصف بهج البلاغة خُصَّحَ الله على الناس في الأرض هكذا: «هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وياثروا روح اليقين، واستدانوا ما استعوره الثمترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها مُعلَّقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه»^٣.

٤- وقد جاء في حديث «دعهم أسعاني» العظيم السه الذي كان من صحابة الإمام علي عليه السلام: سأل الإمام يوماً هذا السؤال: «هل رأيك ربك يا أمير المؤمنين؟»^٤
أجاب الإمام: «أفأعبد ما لا أرى»^٥.

فقال: «وكيف تراه؟»

فقال الإمام: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان»^٦
ثم أضاف: «قريب من الأشياء غير ملابس، بعيد منها غير مباين»^٧.

ليس مراد الإمام من إدراك الله إدراك بالاسدلال بعقلي، وهذا واضح، لأن هذا الأمر حاصل لجميع الموحدين وحتى لتلك العجور صاحبة العزل المعروفة، فإنها تستدل على

١. بحار الأنوار، ج ٧٠ ص ٥٩، ح ٣٩، باب القلب وصلاحه.

٢. تفسير الصراط المستقيم، ج ١، ص ٢٦٧.

٣. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٤٧.

٤. نهج البلاغة، الخطبة ١٧٩.

وجود الله بحركة آلة العزل التي تحتاج إلى محرك، فكيف بالملك العظيم والسموات والأرضين.

فالمراد - إذن - إدراك الله يفوق الإدراك الطبيعي، أي الشهود الباطني، فإنه يرى الله به واضحاً بدرجة وكأنه يراه بعينه. (فدقق).

٥ - وقد جاء في حديث معروف بالإمام أمير المؤمنين عليه السلام «لو كشف لي الغطاء ما لزدتُ يقيناً»^١.

أي أنني أرى جميع الحقائق من وراء ستار غيب، أراها بالشهود الباطني، وبصيرتي تشق حاجز الغيب وتنفذ فيه.

٦ - قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام «ألا إن للعبد أربع أعين. عينان يُبصر بهما ديسه ودنياه، وعينان يُبصر بهما أمر آخرته، فإذا أراد الله بهد خيراً ففتح له العينين اللتين في قلبه، فأبصر بهما الغيب وأمر آخرته»^٢.

وقد جاءت روايات عن الشيعة الصادقين يشكك بعضهم فيها مضمون هذا الحديث^٣
٧ - ونقرأ في حديث الإمام الصادق عليه السلام «بأن الرسول صلى الله عليه وآله رأى يوماً الصحابي «حاتمة» فسأله عن حاله».

فأجابه حاتمة: «يا رسول الله مؤمن حقاً»!

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله «لكنك نفسي بـ حقيقة فما حقيقة قولك؟».

فأجابه حاتمة: «يا رسول الله عرفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظلمات هوانجري وكأني أنظر إلى عرش ربي وقد وضع للحساب وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون في الجنة وكأني أسمع عواء أهل النار في النار».

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله «عبد تور الله قلبه أبصرت فالتبت».

١ عرر الحكم.

٢ خصال الصدوق، ص ٢٦٥، ح ٩٠.

٣ بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٥٨، ح ٢٥.

فقال حارثة: «يا رسول الله ادعُ الله لي أن يرزُقني الشهادة معك».

فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ ارزُقْ حارثة الشهادة».

ولم تمضِ أيام كثيرة حتى أرسل الرسول فريقاً لاجدئ اعمارك وكان معهم حارثة

فقاتل وقتل ثمانية أو تسعة من الأعداء ثم قُتل شهيداً^١

٨- وقد جاء في حديث للرسول ﷺ نقل في كتب أهل السنة: «لولا تكثيري كلامكم وتسميعي قلوبكم لرأيتم ما أرى ولستمعتم ما أسمع»^٢.

إن هذه الأحاديث وأحاديث أخرى من هذا النوع، وضعت العلاقة بين الكشف

الروحاني والإيمان واليقين، وبين إمكانية حصول الإنسان - بالتكامل المعنوي - على هذا

الإدراك الذي لا يعلم عنه غير أنه موجود فعلى حسب

❦❦❦

٣- سبعة منامات صادقة في القرآن المبهم

تعتبر «الرؤيا الصادقة» إحدى مروج الشهود والكشف، والمانات الصادقة هي التي

تتحقق وخطاب الواقع، فتعد مماناً كيهده بوعده من الكشف.

إن الفلاسفة الروحيين - حلاماً للفلاسفة الماديين الذين يعتقدون بأن الرؤيا هي وليدة

النشاطات اليومية أو الآمال غير المتحققة أو المخوف من الأمور المختلفة - وهؤلاء يعتقدون

أن الرؤيا تنقسم إلى الأقسام التالية:

- ١- الرؤيا التي تتعلق بالذكريات والميول والآمال.
- ٢- الرؤيا غير المفهومة والمضطربة ويعبر عنها بـ «أصعاث أحلام» وهي نتيجة قوة
- الوهم والخيال.
- ٣- الرؤيا التي تتعلق بالمستقبل وترفع الستار عن بعض أسرار الإنسان، ويتعبّر آخر
- أنها شهود يحصل للإنسان وهو نائم

١ أصول الكافي، ج ٢ ص ٥٤ باب حقيقة الإنسان واليقين ح ٣.

٢ تفسير الميراث، ج ٢ ص ٢٩٢.

لا دليل للفلاسفة الماديين على في القسم الثالث، بل لدينا قرائن كثيرة تثبت واقعية هذا القسم من الرؤيا، وقد ذكرنا عدة مباحح حجة لا تقبل الخطأ والمناقشة في التفسير الأمثل^١. والجدير ذكره أن القرآن ذكر سبعة موارد على الأقل من موارد الرؤيا الصادقة، وذكرها هنا يناسب تفسيرنا الموضوعي:

١ - تحدث القرآن في سورة الفتح عن الرؤيا الصادقة للرسول، حيث رأى نفسه مع أصحابه يدخلون مكة لأداء مناسك العمرة وزيارة بيت الله الحرام، فأفصح الرسول عن منامه هذا للمسلمين ففرحوا، إلا أنهم تصوروا أن الرؤيا هذه تحققت في السنة السادسة عندما حصل صلح الحديبية، ولم يحصل الفتح يومذاك، إلا أن الرسول علم أنهم بأن الرؤيا صادقة وستحقق يوماً ما

وقد أجاب القرآن أولئك الذين شككوا في صدق رؤيا بقوله:

«لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُعَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَعَجَلْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحاً قَرِيباً».

(الفتح / ٢٧)

تحقق المنام بجزئياته في دي القعدة من السنة السابعة للهجرة، وقد عرفت العمرة في تلك السنة بـ «عمرة القضاء» لأن المسلمين كانوا قاصدين أداءها في السنة السادسة، لكن قرعش منعهم منها

رغم أن المسلمين دخلوا مكة (التي تعتبر مركزاً لقدرة المشركين وسلطانهم) من دون سلاح، إلا أن إهتهم كانت مشهودة للأعداء، وقد صدق عليهم تعبير «آمنين» و«لا تخافون» بالكامل فأدوا مراسم زيارة بيت الله وبه تحقق منام الرسول ﷺ بجميع خصوصياته رغم أن تخمين وقوع أمر كهذا كان شبه مستحيل، وهذا من عجائب تاريخ الإسلام.

٢ - وقد أشير في سورة الاسراء إلى رؤيا أخرى للرسول ﷺ إشارة عابرة وقصيرة حيث قال تعالى:

١ التفسير الأمثل، ذيل الآية ٦٠ من سورة الاسراء.

«وَمَا جَعَلَ الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَىٰ نَالَ إِلَّا نَبْأَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ وَتُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا» (الاسراء / ٦٠)

وقد نقل مفسرو الشيعة والسنة حديثاً معروفاً جاء فيه: أن الرسول الأعظم ﷺ رأى في المنام قروداً ترتقي منبره ورسول منه، فحرر رسول من جراه هذا الأمر، لأنه يحكي عن الحوادث المفاجئة في قيادة المسلمين بعد لرسول ﷺ (إن الكثير فسّر المنام بحكومة بني أمية، حيث خلفوا الرسول - ظلماً - واحداً بعد الآخر وأفسدوا في الخلافة، وكانوا فاقدون الشخصية واتبعوا ما كان عليه آباؤهم في الجاهلية)^١

وادعى البعض أن هذه الرؤيا هي نفس رؤيا دخول مكة، بينما سورة الاسراء سرت بمكة، والرؤيا كانت في المدينة وقل واقعة صبح الحديبية في السنة السادسة الهجرية. وقد رجح البعض مثل الفخر الرازي أن تكون الرؤيا بمعنى المشاهدة في حالة اليقظة، والآية تشير إلى مسألة المعراج^٢.

لكن هذا التفسير ضعيف لأن المعنى الأصلي والمعوي للرؤيا هو المشاهدة عند النوم لا في اليقظة، وعليه فالصحيح هو التفسير الأول

أما المراد من «الشجرة ملعونة»، فقد ادعى البعض أنها هي «شجرة الرقوم» التي تبث في قمر جهنم طبقاً للآية ٦٤ من سورة الصافات، وهي طعام الأنهم كالمهل يغلي في البطون طبقاً للآيات ٤٦ و ٤٧ من سورة الدخان

وادعى بعض آخر إنها كناية عن اليهود العصاة، فانهم كالشجرة مع ما فيها من عصون وأوراق إلا أنهم ملعونون عند الله

إلا أنها فسّرت في كثير من كتب الشيعة والسنة ببني أمية، وقد نقل الفخر الرازي هذا

١ تفسير الكبير، ج ٢٠، ص ٢٣٦

٢ جاءت هذه الرواية في تفسير القرطبي ومجمع البيان وهاشي الكبير، وقد قال الفيض الكاشاني: إنها من الروايات المشهورة عند العامة والخاصة

التفسير عن ابن عباس المعشر الإسلامي الكبير ، وهذا لتفسير يتفق مع رؤيا الرسول ﷺ
بالكامل

قد يقال، لِمَ لم يُشير القرآن إلى الشجرة الملعونة في القرآن المجيد؟ إلا أن هذا الإشكال
يُحلُّ بالالتفات إلى لحن المنافقين بشدة في سورة محمد ﷺ الآية ٢٣، وبسيامة من طلائع
النفاق في الإسلام.

إضافة إلى هذا، فإن تعبير القرآن «عَوْنُهُمْ لَمْ يَزِدْهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا» يصدق عليهم
بالكامل.

وقد جاء في رواية أن عدداً من صحابة الإمام الصادق ﷺ سألوه نفسه أو أباه ﷺ عن
المراد من الشجرة الملعونة في الآية، فأجابهم «بني أمية»^٢.

وقد نقل نفس المضمون عن أمير المؤمنين ﷺ وكذلك عن الإمام الباقر ﷺ. وقد ذكر
علي بن ابراهيم الروايات الثلاث في تفسيره^٣

وقد نقل السيوطي في تفسيره «الدر المنثور» روايات كثيرة عن الشجرة الملعونة، ورؤيا
الرسول ﷺ، حيث فسرت الشجرة الملعونة في بعضها ببني أمية وهي بعضها ببني الحكم
وبني العاص، وكلهم من شجرة خبيثة وأخذوا^٤

وعلى أية حال، فإن رؤيا الرسول ﷺ تحققت بعد رحيله، وحلفته الشجرة الملعونة
نسلاً بعد نسل، وكانوا بلاءً عظيماً على المسلمين، وامتحاناً كبيراً لهم.

٣ - والرؤيا الصادقة الأخرى هي رؤيا ابراهيم، الحليل ﷺ فيما يحصى دبح
اسماعيل ﷺ، فإنه كان محلاً لامتحان عظيم لتوصوله إلى مقام الإمامة وقيادة الأمة الرفيع،
فقد أمر بذبح ابنه العزيز «اسماعيل»، رغم أن الأمر أوحى إليه وهو نائم، أي أن الإيعاز كان

١ نقلها القرطبي عن ابن عباس في تفسيره، ج ٦ ص ٣٩٠، ومنها الفهر الراري عنه أيضاً في التفسير الكبير، ج ٢٠ ص ٢٣٧

٢ تفسير نورالتقنين، ج ٣، ص ١٨٠، ج ٢٧٨

٣ تفسير نورالتقنين، ج ٣، ص ١٨٠ و ١٨١، ج ٢٨٢ و ٢٨٣ و ٢٨٦

٤، تفسير الميزان، ج ١٣، ص ١٧٥.

مناماً لا شيئاً آخر، ولنقرأ ما يقوله القرآن في هذا المجال:

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَةَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات / ١٠٢)

إن التعبير بـ «/رعى» الذي هو فعل مضارع يفيد الاستمرار يدل على أن إبراهيم عليه السلام كان يرى الرؤيا كراراً، بحيث حصل له اطمئنان بأن الأمر من الله، ولهذا أجابه إسماعيل بهذا الجواب: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ ولهذا السبب نفسه جاء في الآيتين: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنِ يَا إِبْرَاهِيمُ • قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾.

(الصافات / ١٠٤ - ١٠٥)

والحادث هذا، دليل واضح لأولئك الذين يقولون بإمكانية عدد الرؤيا الصادقة نوعاً من أنواع الوحي للأنبياء والرسل، كما أنه قد جاء في بعض الروايات: «*إن الرؤيا الصادقة جزء من سهمين جزء من النبوة*»^١.

وقد شكك بعض الأصوليين في مسألة نسخ الحكم قبل العمل به إلا أن كلامهم - وكما ذكر في محله - يمتنع بالأوامر غير الامتناعية، أما في الامتناعية فهو غير صادق، والتعبير بـ «*قد صدقت الرؤيا*» دليل على أن إبراهيم عليه السلام قد أدى ما عليه بما جاء به من تهينة المقدمات لهذا الإيثار الكبير.

٤- ومن الرؤى الصادقة في القرآن، هي رؤيا يوسف في بيت أبيه، حيث أشارت إليها الآيات الأولى من سورة يوسف:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف / ٤)

تنبأ يعقوب مستقبل يوسف والحوادث المقبلة عليه فبشره: ﴿يَجْعَلُكَ رَبُّكَ ... وَنُسُوبُ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾.

يعتقد بعض المفسرين أن يوسف رأى هذا في المنام وهو في الثانية عشرة من عمره، وقد

تحقق منامه بعد أربعين سنة حيث جلس على عرش الحكومة في مصر، وجاءه أخوته مع أبيه خاضعين له، أو ساجدين لله شكراً، كما أُشير إلى ذلك في نهاية السورة:

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجُودًا وَقَالَ يَا أَيُّهَا هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾.
(يوسف / ١٠٠)

إن هذا الحديث يحكي بوضوح عن إمكانية تحقق أحلام صادقة انعكست من قلب طاهر قبل أربعين سنة رغم أنه لم يذكر العدد ٤٠ سنة في آيات القرآن، إلا أن الاستفادة من قرائن الآيات أن الفاصل بين المنام وتحقيقه كان طويلاً جداً

وجدير بالذكر هنا أن من ضمن البشائر التي بشر يعقوب بها يوسف هذه البشيرة: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.
(يوسف / ٦)

وهذه الجملة (سواء عت علم تعبير المنام كما يعتقد كثير من المفسرين أو عنت مفهوماً أوسع من ذلك ليشمل الخبرة والإحاطة بأصول وأسباب الحوادث وتناجحها)^١، فإنها على كل حال دليل واضح على إمكانية صدق بعض الرؤى وتحقيقها عساً وواقعاً في الخارج ٥ و ٦ - المنامان اللذان رآهما صاحباً يوسف في السجن عندما كان مسجوناً بدين طهارته، فيحكي الله قصتهما في نفس السورة ويقول:

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُعْطِي خُبْزًا رَأَيْتُ الطَّيْرَ مِنْهُ نَبَسًا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

(يوسف / ٣٦)

فدعاهما يوسف للتوحيد وعبادة الله قبل أن يأول ما رآيا، ثم قال للذي رأى أنه يعصر خمرأ أي عنباً: إنك تخرج من السجن، وقال للذي رأى فوق رأسه خبرأ يأكل منه الطير: إنك ستحكم بالإعدام وقد تحقق المسامان (من استعارف في بيئة فاسدة وحكومة جبارة مثل بيئة وحكومة مصر آنذاك حيث يحكم على يوسف بالسجن بدين العفة والطهارة، أن يطلق سراح الذي يسالم الحكومة ويحضر الحمر لطقاتها، أما الذين يتحلون بروح الدفاع

١. تفسير الميراث ج ١١، ص ٨٦

عن المستضعفين ويعطون حبراً للطيور فيحكم عليهم بالاعدام).

وعلى أية حال، فإن هاتين الرؤيتين المتين حكاهما القرآن بصراحة يكشفان عن إمكان اعتبار الرؤيا كمصدر للمعرفة، باطّبع لا كـ رؤيا ولا كـ ميمّر ومصر لها
٧- رؤيا سلطان مصر التي جاءت في نفس السورة، وهي نموذج واضح آخر للرؤيا الصادقة، يحكي القرآن هذه الرؤيا قائلاً

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (يوسف / ٤٣)
وبما أن حاشية الملك لم يكونوا خبراء بتعبير الرؤيا، قالوا له «أَضْفَاكُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ».

يحتمل أنهم أرادوا طمأنه سلطان مصر بعدتهم هذا (يبقى الالتفات إلى أن ملك مصر وفرعونها هو الحاكم العام لمصر، بينما عرير مصر هو - كما يقول بعض المصريين - وزير الخزينة، واسم فرعون المعاصر لهوسف هو هريان بن ويبده واسم عرير مصر «قطير عظيم»^١.

فذكر عندها ساقى الملك الذي أطلق سراحه عن السجن بعد أن رأى الرؤيا وأولها يوسف، فحكى لفصة للملك فبث الملك شعصاً إلى يوسف كي يأول المنام، فأوبه هكذا:
﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوْهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ • ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ شِدَادٌ يَأْكُلُ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُخْصِنُونَ﴾.

(يوسف / ٤٧-٤٨)

وقد تحقق المنام بعد ذلك. وعندما شاهدوا الصدق والمعرفة في يوسف ﷺ، أطلقوا سراحه، وقد أدى به الأمر أن أصبح عزيز مصر ووزير الخزينة، ثم من بعده أصبح ملك مصر كلها مع سمته وعمرانها.

١ نقل هذا المصنوع في التفسير الكبير للشيخ الرازي ج ١٨، ص ١٠٨ (ولم يصحح يراجع «أعلام القرآن»، ص ٦٧٢، كما قد صرح «أبو الفتوح الرازي» أن نهاية يوسف وصوبه إلى سلطة مصر» تفسير روح الجسد، ج ٦، ص ٤٠١.

النتيجة:

يستفاد من الآيات السابقة إمكانية كون بعض الرؤى مصدراً لإدراك بعض الحقائق، وتعبير آخر، فإن مسألة الكشف والشهود يمكنها أن تحصل في المنام كما تحصل في اليقظة، وهذه الرؤى على ثلاثة أقسام (طبقاً للآيات السابقة):

١ - بعض الرؤى تتحقق في الحارج عياً من دون أي تغيير، مثل رؤيا الرسول، زيارته مع الصحابة لبيت الله الحرام التي جاءت في سورة الفتح

٢ - منامات تتحقق وهي بحاجة إلى تفسير وتعبير، وتتحقق بتفسيرها لا بعينها، ولا يفسرها إلا الخبير بها، مثل المنامات لأربعة التي حصلت ليوسف ولصاحبه في السجن ولملك مصر، وقد ذكرت كلها في سورة يوسف.

٣ - الرؤيا التي فيها جانب حكم وإيعاز، وتعد نوعاً من الوحي يحصل عند النوم مثل رؤيا إبراهيم عليه السلام

بالطبع ليس مفهوم الكلام هذا أن كل منام يُعَدُّ كُشْفاً أو شهوداً، بل إن كثيراً من المنامات تُعدُّ أضغاث أحلام، وتفتقد لأي معنى، وهي رؤى ناتجة عن نشاط قوة الوهم، أو عن الحرمان والكبت والماسي وعدم الراحة والأذى.



سؤال:

قد يسأل البعض عن المنامات التي تتعلق بحدوث المستقبل، فهل هي نوع من العلم؟ أم هي (كما يعتقد فرويد العالم النفساني المعروف) لا شيء سوى رضاء للشهوات والمهول المكبوتة والحرمان الحاصل للإنسان، فتتجلى له في المنام مع تعبير وتبدل لخداع «الأناس» ولا رضاء الشهوة المكبوتة فإن العلم إشباع خيالي لها، وقد ينعكس هذا الميل بنفسه عينا في الحلم (مثل رؤية عاشق لمعشوقته الفقيدة عينا) وقد ينعكس في منامه مع تعبير وتبدل، فيحتاج حينها إلى تعبير وتفسير.

التهويل:

إنَّ ما يقوله فرويد هو فرصة لا أكثر، وفي الحقيقة لا دليل على ما يدعيه أبداً، فقد تكون بعض المسمات مصداقاً لما يدعيه، ثم كون الأحلام كلها من هذا القبيل فهذا ما لا دليل له عليه^١.

نحن نعتقد أن للمسمات أقساماً، وقسم منها هو الرؤيا الصادقة، وبعدها وسيلة للكشف أي كشف بعض الحقائق، وهذه حقيقة استندناها من القرآن (الذي هو وحي الهي) بالدرجة الأولى، وبالدرجة الثانية من التجارب التي حصلت في هذا المجال، ليس المراد تلك الحكايات التي لا سند لها، بل المراد الحوادث التي وقعت لشخصيات كبيرة ومعروفة في عصرنا أو في العصور الماضية، وقد نقلوا هذه المسمات في كتبهم (وقد أشرنا إلى بعض من نماذجها الواضحة في الجزء التاسع من التفسير الأمثل).

ومن هنا يعرف أنه لا يمكن عدّ الرؤيا لوحدها مصدراً للمعرفة، ولهذا يقال بعدم حجية الرؤيا، بل ينبغي ضمّ قرائن من الخارج موضحاً ولم تقبل النفي، لتصبح الرؤيا مصدراً مقبولاً للمعرفة.

— ❦ —

٤ - المكاشفات الرحمانية والمكاشفات للشيطانية

قد ستفني عن التذكير بأنه كما يوجد كشف وشهود واقعي يحصل تارة بالإيمان واليقين الكامل، وتارة أخرى بالرياضات المسمية، فإنه يوجد كشف وشهود وهمي كثير، فقد يحصل هذا الكشف بسبب التلقينات المكررة وانحراف الذهن والمكر عن جادة الصواب، وتارة بسبب الالتقاءات الشيطانية، فتتمثل في ذهن الإنسان صور وحوادث لا واقع لها، إنها

١. لم يكتشف العلماء شيئاً للنوم (لا المسمات) بعد، فلا يحسم هل أن مشاء منبثقي أم كيميائي أم كلاهما أم ما شيء من نشاط الجهاز العصبي، وإذا كان النوم نفسه نراً لم يُحل بعد، فكيف يمكن القول بحل مسألة المسمات التي هي أحد من مسألة النوم أضخفاً مضاعفة!

مجموعة أوهام لا أكثر، ومن هذا القبيل الكشف والشهود الذي يدعيه كثير من « الصوفية »، فإن المرید البسيط يعتقد في بداية عمله (من جراء الإعلام والدعاية التي يتلقاها من البعض) أنه ينبغي له أن يرى مرشده الحقيقي في المنام ، وتقوى هذه الفكرة عنده كل يوم، فيتوقع في كل يوم رؤية جمال مرشده ومراده في عالم الرؤيا يزوره ويرشده (غالباً ما يصع أشخاص معينين نصب عينيه لهذا المنصب ، ودائم يعيهم بالدقة فأنه يعين صفات ومميزات خاصة لهم)

قد يفقد هذا الصوفي توازن فكره الطبيعي من جراء الرياضات الروحية الشاقة واحراف المزاج ، فتزداد قدرة الوهم عنده ، فيرى في المنام يوماً أشخاصاً قريبين - من حيث الصفات والميزات - من الأشخاص الذين رسمهم في ذهنه، وقد يتطابقون في الصفات بالكامل، وقد يحصل هذا في عالم اليقظة، لأن عيني هذا السالك البسيط انشدت إلى الطريق، وأذنيه صاعيتان إليه دائماً فهو ينتظر دائماً أن يفتح له باب من ذلك العالم فتصور هذه الفكرة عنده ليلاً ونهاراً ، وقد تصلى قوة الوهم ^١ لا إرادياً - صوتاً يختر أذنه، أو تتمثل أمامه صورة، فيتحدتها أسامي لاعتقاده.

كما أن الاستماع إلى المواضع المؤسسة والمبسطة (التي قد تبين في اطار إشارات جميلة وتترام مع ألحان معدرة، يريد من تأثير التلقينات عليه أصعافاً مضاعفة

إن تلك الفرقة من الصوفيين الذين يؤيدون « الوجد والسماع »^١، يذوبون فيهما بشكل حيث يفقدون توازنهم، ويُعطّل العقل عندهم، فيتركون الساحة فارغة لقوة الوهم، وأولئك الغارقون في وهم الكشف والشهود ومشاهدة عالم الغيب يسبحون في عوالم خيالية تتوقف سمعتها على شدة الوهم والخيال عندهم ، تتمثل أمامهم صور مثل بحار النور ، وجبل الطور، والسموات السبع والأرضين السبع، وكلما مالت قوة الوهم عندهم إلى شكل أو صورة، تمثل ذلك الشكل أو تلك الصورة أمام أعينهم

١ المراد من السماع، الألحان الموسيقية أو نغمات المطربين التجارية في بعض مجالس الصوفيين، والمراد من الوجد، النوق والشرق واللهفة التي تحصل للصوفيين الذين يحسبون السماع ويغترون مع حركات تشبه الرقص.

إنهم يفرحون لهذه اللحظات كثيراً ، وكأنهم اتفقوا بالمراد وعانقوه ، فيصرحون وتعلو أصواتهم ، مما يريد ويقام هذه الحالة عندهم ، ثم يرمون بحالة شبيهة بالانغماء ، وبعد ما يصحون ويهدئون من هذه الحالة ، يحكون ساس ما رأوا طأ منهم أنه كشف .

إنهم في الحقيقة يسهون نحو السراب طأ منهم أنه ماء ، ورغم عدم وصولهم إلى شيء ، يتلون بأمور بعيدة عن الحق والحقيقة

وبعبارة مختصرة : لا يمكن تصديق كل من ادعى الكشف والشهود ، وكذا لا يمكن اعتبار كل تمثل وكل نداء إلهياً واقعياً ، وذلك لأن هناك كشفاً شيطانياً .

وقد جاء في حديث للإمام علي عليه السلام مع الحسن البصري أن الإمام عليه السلام مر بالحسن البصري وهو يتوصاً فقال يا حسن اسمع الوصوء . فقال يا أمير المؤمنين لقد قتلت بالأمس أناساً يشهدون أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، يصلون الحسن ، ويهجون الوصوء . فقال له أمير المؤمنين عليه السلام قد كان ما رأيت فما صنعت أن تمن عليا عدواً . فقال . والله لأصدقك يا أمير المؤمنين لقد خرجت في أول يوم فاغتسلت وتحنطت وصيبت علي سلاحي وأنا لا أشك في أن التحلف عن أم المؤمنين عائشة هو الكفر ، فلما انتهيت إلى موضع من الخربة ناداني صائد « يا حسن إني أرجع فإن القاتل والمقتول في النار » فرحمت دعراً وجلست في بيتي . فلما كان في اليوم الثاني لم أشك أن التحلف عن أم المؤمنين عائشة هو الكفر ، فتحنطت ، وصيبت علي سلاحي وخرجت أريد القتال ، حتى انتهيت إلى موضع من الخربة ناداني صائد من خلفي . « يا حسن إني مرة بعد أخرى القاتل والمقتول في النار » قال علي عليه السلام صدقت اقتدري من ذلك للمادي ؟ قال : لا ، قال عليه السلام : ذاك أخوك إبليس ، وصدقك أن القاتل والمقتول منهم في النار ، فقال الحسن البصري : الآن عرفت يا أمير المؤمنين أن القوم هلكوا .

إن نداءات كهذه أشير إليها في القرآن بصفة وهي للشياطين ، حيث يقول تعالى في الآية : **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ**

القول غُروياً».

(الانعام / ١١٢)

إنها نوع من الامتحان للتميز بين صفوف المؤمنين وغيرهم، فقد جاء في الآية: «وَإِنَّ

الشَّيَاطِينَ لَكَايُودُونَ إِلَىٰ أُولِيٰئِهِمْ» (الانعام / ١٢١)

وبناءً على ما تقدم، نرى كتب الصوفية مبنية بهذا النوع من المكاشفات، مكاشفات

غريبة وموحشة، ومردوداتها السلبيه كثيرة، نشير إلى بعض منها هنا بشكل مختصر:

١- ورد في كتاب «صورة الصفاء» في شرح أحوال الشيخ صفي الدين الأردبيلي، بقلم

أحد مريديه ما مضمونه: أن رجلاً من دوى المكاشفات أخبر الشيخ بأنه رأى في عالم

الرؤيا أن أكمام الشيخ امتدت من العرش إلى شرى عدل له الشيخ بن رؤياك هذه تتناسب

مع طول أُناتك وصبرك!

٢- كتب محي الدين بن عربي في كتابه «ميسرة الأبرار» بن الرجبيين لأشخاص

مرتاضون برصاصات خاصة. ومن صفتهم أنهم يروون القصص (الشيعية) في حالة الكشف

في صورة خضارير.

٣- وكتب الشيخ عطار في كتابه «تذكرة الأوياء» عن «بابريد لسطامي» طُفْتُ البيت

فترة، وعندما وصلت إلى الحق، رأيت أن نكبة تطوف حولي .. إن الله بلغ بي إلى درجة

حيث أستطيع أن أرى الحلق جملة بين اصبعي!!^١

٤- وقد جاء في نفس الكتاب، أن بابريد قال، عرّض عليّ الحق، لهي مقام عنده وفي كل

مقام سلطان، وما قبلتُ^٢.

إن هذه ادّعاءات لم تُسمع من نبي مرسل ولا من إمام معصوم، بل إن ادّعتهم ومباحاتهم

في حنب بيت الله التي تكون في غاية التدلل والنواصع تكشف عن أن كشفاً كهذا إن لم يكن

فهو - قطعاً - أوهام وتخيلات شيطانية ترسم في أذهان البعض، لأسباب وعوامل مختلفة.

١، تذكرة الأوياء، ص ١٠٢

٢ المصدر السابق، ص ١٠١

أشرنا إلى بعضها سابقاً ، وإن سعة هذه الأوهام تتوقف على مدى وطول آمال الشخص وتغيباته.

❦❦❦

سؤال:

نمة سؤال يطرح نفسه هنا، وهو، هل من طريق تمييز المكاشفات «الرحمانية» من «الشیطانية» و«الحقيقية» من «الوهمية» أم لا؟

❦❦❦

للجواب:

نعم توجد ثلاث علامات يمكن من خلالها التمييز - الإجمالي - للمكاشفات الشيطانية من الرحمانية، وهي: إن الرحمانية إضافة إلى كونها يقينية وقطعية تقرر بمستوى عالٍ من الإيمان واليقين والمعرفة والاحلاص والتوحيد وأعمال الصالح، بينما تفتقد المكاشفات الشيطانية هذه المواصفات، وعلى هذا الأساس فلا اعتبار لقول من يدعي المكاشفات الرحمانية وهو يفتقد هذه المواصفات.

ولقد قرأنا في رواية مصت أن الرسول ﷺ قال: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يحب، فيفتح له، ويشاهد الغيب، ويشرح صدره فيحصل الهدى، قيل: يا رسول الله وهل لذلك من علامة؟ قال: التجافي عن دار الغرور، والإبادة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله»^١.

ثم إن المكاشفات الحقيقية تتفق دائماً مع الكتاب والسنة، وهي نفس الاتجاه الذي يتجه إليه كلام الله والمعصومين عليهم السلام، ولا تعمل قبل نيله عن جادة الطاعة الربانية، وغير ملوثة بأدنى إثم أو ذنب.

١- تفسير الصراط المستقيم، ج ١، ص ٢٦٧

وثالثاً، إنّ محتوى المكاشفات الحقيقية يتفق دائماً مع العقل اتفاقاً كاملاً، وتكون بعيدة عن الأسميات والأوهام غير المعقولة، فالذي يقول: «رأيت الراقصة - مكاشفة - كالخنّازير»، في الحقيقة رأى نفسه في مرآة دته، والذي يقول: «عندما وصلت إلى الحق، فرأيت بيت الله يطوف حولي» فإنه مُصاب بوقع في رأسه، وشخصاً كهذا يرى نفسه مستعياً عن الطواف، ويرى الطواف أدنى من شأنه، بينما لرسول ﷺ بعظمته لم ير نفسه مستعياً عن ذلك، وقد حج حتى في آخر سنة من عمره الشريف وأدى المناسك.

وآخر الحديث في الكشف والشهود هو هذا

لا يمكن عدّ الكشف والشهود كمصدرٍ عامٍ لمعرفة مثل «العقل» و«الحس» و«التاريخ» بل إنّ مصدر خاص، وله شروط ومواصفات صحيحة.

❦❦❦

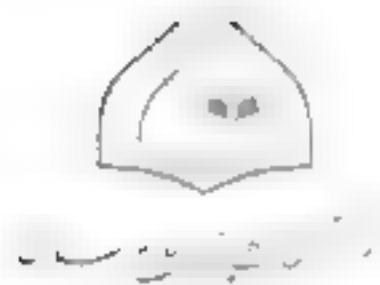


حَبِّبِ الْمَعْرِفَةَ

وَأَفَاتِهَا



در تحقیق سید محمد باقر سید



خُب المَعْرِفَة وَأَفَاتِهَا

تَمْهِيْد:

فِي بَحْثِنَا حَوْل طَرَقِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ تَمَكَّنَا مِنْ اجْتِيَارِ قِسْمٍ مِنْ مَحْطَاتِ هَذِهِ الطَّرِيقِ وَقَدْ سَلَّمْنَا بِوُجُودِ وَاقِعِيَّاتٍ خَارِجِ إِطَارِ لَذِهِ، وَفَسَاهَانِ امْكَانِيَّةِ إِدْرَاكِ تِلْكَ الْوَاقِعِيَّاتِ لَدَى الْإِنْسَانِ هُوَ شَيْءٌ مَعْقُولٌ إِلَى حَدٍّ مَا، وَقَدْ عَرَفْنَا بِدَقَّةٍ مَصَادِرَ الْمَعْرِفَةِ السَّتَّةَ.

كَمَا عَلَّمْنَا أَنَّ حِمْسَةً مِنْ مَصَادِرِ الْمَعْرِفَةِ أَيْ «الْحِسَّ» وَ«الْفِطْرَةَ» وَ«التَّأْرِيخَ» وَ«الْوَحْيَ» عَامَّةً وَيَسْتَطِيعُ الْجَمِيعُ الاستعانة بها للوصول إلى المعرفة المرادة، إِلَّا أَنَّ الْمَصْدَرَ السَّادِسَ وَهُوَ الشَّهَادَةُ الْبَاطِنِيَّةُ مَصْدَرٌ حَاصٌّ بِفَرِيقٍ مِنَ الْمُؤْمِسِينَ وَأَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَلَا يَتِمَّتُ بِهَا الْجَمِيعُ.

بَقِيَ مَحْطَتَانِ يَتَبَعِي الْمَبُورَ مَعَهُمَا لِلْوُصُولِ إِلَى الْمَرَادِ، الْأُولَى «مَوَانِعُ طَرَقِ الْمَعْرِفَةِ»، وَالْأُخْرَى «مَمْهَدَاتُ الْمَعْرِفَةِ»، وَابْتِغَاءُ هُنَا يَنْصَبُ عَلَى الْمَوَانِعِ

فَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ الْعَيْنَ لَوْ حُذِّفَتْ لَا تَكْمِلُ لِرُؤْيَا الْمَوْجُودَاتِ وَالْأَشْخَاصِ، بَلْ يَسْمَعِي أَنْ لَا يَكُونَ هُنَاكَ حِجَابٌ أَوْ مَانِعٌ يَحُولُ دُونِ الرُّؤْيَا، فَلَوْ كَانَ هُنَاكَ دُخَانٌ أَسْوَدٌ أَوْ عِبَارٌ أَوْ ضُحَابٌ غَلِيظٌ يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الشَّيْءِ الْمَرَادِ رُؤْيَاهُ فَاتَّأَنَّا لَا تَرَى الشَّيْءَ الَّذِي أَمَامَنَا وَحَوَالِيهَا مَعَهُمَا كَانَ قَرِيبَهُ مَنَّا، فَضَلًّا عَنِ الْبَعِيدِ، فَالْشَّمْسُ الَّتِي تَنِيرُ كُلَّ أَرْجَاءِ الْعَالَمِ بِنُورِهَا السَّاطِعِ تُحْجِبُ رُؤْيَاهَا عَنَّا إِذَا حَالَتْ الْعُيُومُ بَيْنَهَا وَبَيْنَنَا.

فَإِذَا اسْتَفَادَ شَخْصٌ مِنْ نَظَارَةِ سَوْدَاءَ قَانَمَةٍ لِسَوَادٍ طَبِيعِيٍّ أَنَّهُ لَا يَرَى شَيْئًا، وَإِذَا اسْتَفَادَ مِنْ نَظَارَةِ مَلُونَةٍ فَاتَّهَ سِيرَى الْأَشْيَاءِ مَلُونَةٌ (حَسَبَ لَوْنِ نَظَارَتِهِ)، وَإِذَا كَانَتْ عَدَسَتَا نَظَارَتِهِ

غير مصقولتين جيداً فإنه سيرى الأشياء معوجة ، وإذا كان مبتلياً بعرض اليرقان فإنه سيرى الأشياء صفراء ، وإذا كان أحولاً فإنه سيرى صوراً لا تتطابق مع الواقع .

وأمثال هذه الموانع بالضبط قد تحصل للعقل والفطرة ، وقد تحصل موانع في فهم التاريخ وحتى الوحي وكلمات المعصومين (عليه السلام) ، فقد يساء فهمه لنفس الموانع والحبس التي تحصل للإنسان في مصادر المعرفة لأخرى ، ومن هنا ينهم أهمية بحث موانع المعرفة ونذكر أهمية العلم بها للوصول إلى المعرفة

وبما أن القرآن منطلق بحثنا في تفسير موضوعي ، فسمى لمعرفة الموانع والحبس التي ذكرت فيه بالدرجة الأولى

لقد ورد البحث في القرآن حول موانع لمعرفة بحوث الأول بحوث كلية و«مندره» والثاني بحوث حزنية و«تعليمية» ، ولسائل لأن البحوث الكلية



حُجُبُ الْمَعْرِفَةِ:

نُمن حاشعين أولاً إلى الآيات التالية

- ١- «أَلَمْ نَرُيْكَ لَكَ سُوءَ عَقْلِهِ قَرَأَهُ حَسَبًا» (فاطر / ٨)
- ٢- «وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (الأنعام / ٤٣)
- ٣- «فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ» (ال عمران / ٧)
- ٤- «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (المطففين / ١٤)
- ٥- «لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضًا» (الصحر / ٥٣)
- ٦- «وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ رَبِّي أَعَانِهِمْ وَفَرَّأ» (الاسراء / ٤٦)
- ٧- «وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ» (البقرة / ٨٨)
- ٨- «وَتَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ» (الأعراف / ١٠٠)
- ٩- «وَطْبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ» (النوبة / ٨٧)

- ١٠- «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ» (البقرة / ٧)
- ١١- «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً» (البجائية / ٢٣)
- ١٢- «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالًا» (محمد / ٢٤)
- ١٣- «فَأَيُّهَا لَا تَغْفَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَغْفَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» (الحج / ٤٦)
- ١٤- «وَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْإِثْمَامِ يَلُّهُمْ أَصْلٌ أُولَئِكَ هُمُ الْعَاغِلُونَ» (الأعراف / ١٧٩)
- ❦❦❦

شرح للمفردات:

قبل كل شيء، ينبغي الحوصص في بحث عن انحرافات المعرفة والطريقه التي استعملت في الآيات السابقة التي أشارت إلى حجب المعرفة والحكماء الإنسان منها، كل منها تشير إلى مرحلة من مراحل انحراف دهر الإنسان وحرمانه من معرفة، فتبدأ بالمرحلة الأصعب، وتنتهي بمرحلة أشد وأقوى من الحرمان بحيث تسلب الإنسان قدرته على التمييز، بل تصوّر له الحقائق بالعكس فيرى الشيطان - من حرمانها - ملكاً بريئاً، والقبح حسناً، والباطل حقاً!



إن «زئج» معني - كما يقول كثير من أئمة اللغة - الانحراف، أو الانحراف عن الحق والصواب، ولهذا جاء في القرآن: «وَرَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا» (آل عمران / ٨)

و«زئج» من مادة «زئج» (على وزن عي) وهو الصدأ الذي يصيب بعض الفلوات، هذا ما قاله الرابع في مفرداته، وقد قال بعض أهل اللغة: «إنه قشر أحمر يترسب من الهواء ويظهر على سطح بعض الفلوات مثل الحديد»، وهذا الصدأ علامة للإستهلاك والتلف وزوال

شفافية ولمعان الفلز.

وقد فسر البعض هذه المردة بـ «علبة أمر على أمر آخر» أو «الوقوع فيما لا مخرج منه».

وقد قيل للشراب المسكر «زينة» لأنه يتغلب على العقل^١

«الزئير»: على وزن (عقل) هو الثقل في اسمع بدرجة يصعب السمع بها.

أما «الزئير» على وزن (فكر) فهو الثقل الذي يوضع على ظهر الإنسان أو رأسه، كما يقال

«زئير» للحمل الثقيل، ولهذا قيل لصاحب العقل «دي وقار».

«الغشاوة»: تطلق على كل شيء يغطي شيئاً آخر، ومن هذا الباب قيل للثارة عشاوة.

وقد أطلق لفظ «عاشية» على يوم القيامة من حيث إن الخوف الماشيء منها يغطي جميع

الناس ويخيم عليهم، وقد أطلقت هذه المردة على الليل الأظلم كذلك لأنه كالستار يغطي

الأرض، كما أطلقت على «الخيمة» كذلك.

«أكينة»: جمع كناس، وفي الأصل يعني عطاء يسكب به شيء، و«الكين» على وزن (جن)

يعني الوعاء الذي تحفظ به الأشياء، وقد أطلقت هذه المردة على البيت أو على أي شيء

يحفظ الإنسان من الحرارة والبرودة، وجعل الأكينة على القلوب يعني سلب قدرتها في

التمييز.

«الغلاف»: على وزن (فعل) جمع «غلاف» ومن ماله «غلاف» ونحو غلاف السيف أو

غلاف أي شيء آخر، و«قلوب علف» تعني قلوباً لا تفهم ولا تعي الحقيقة، وكأنها مغلقة

«فكست» من مادة «كسوة» على وزن (مزوة)، وكسوة تعني الصلاة والغلظة وفقدان

المرونة، ويقال للمصنة غير الحالصة «كسي» والقلوب القاسية هي غير اللينة والغلظة

تجاء الحق والعدالة

«نطبع»: من مادة «نطح» ويعني الحتم أو بنقش، ومن هذا الباب تستعمل المفردة هذه

في مجال المسكوكات الذهبية والفضية، ويقال لخاتم الذي تُختَم به الكتب والرسائل

١. تفسير العنبر الكبير ديل الآية ١٤ من سورة المطففين والمنجد مادة (رس).

طابع، وعندما تستعمل هذه المفردة في مجال العقل فتعني أنه مُعطى ومختوم عليه فلا يفهم ولا يعي شيئاً. وكأن أبوابه مغلقة ومختوم عليها، أما مفردة «كُجِب» فتعني الصدأ الذي يملو السيف كما تطلق على المعاصي والذنوب التي تملو القلب وتنطيه.

وهذا الختم: يعني الانتهاء والعراغ من الشيء، وبما أن الرسائل تحتم عند العراغ منها، قيل لوسيلة الحتم خاتم، وفي المعاصي كان كثير من الناس ينقشون أسماءهم على قصوص ما يتختمون به، فيحتمون بها الرسائل، ولهذا أطلق على خاتم اليد خاتماً

وكان وما زال العرف (إذا أرادوا أن يعلقوا بيتاً أو صدوقاً بحيث لا يفتح أحد) يعلقون الباب أولاً بحبل أو قفل، ثم يصبون مادة لصفة أو طين لرح على لقفل أو الحبل ثم يختمون على تلك المادة، بحيث إذا أراد شخص فتح باب أو الصدوق صطراً لأن يكسر الحتم.

إن استعمال القرآن لهذه المفردة في مجال العقول، إشارة إلى أنها عقول مغلقة ومختوم عليها ولا تعي شيئاً بدرجة لا يمكن أن تحصل على بصيص للوصول إلى طريق العلم والمعرفة.



جمع الآيات وتفسيرها

لنفوذ التدريجي لآفات المعرفة:

(الانحرافات والرهين والأمران والأكنة والأقفل):

كما قلنا سابقاً: إن أهمية بحث «موانع المعرفة» تستدعي عرض الموضوع في مرحلتين: المرحلة الأولى: ونبحث فيها - إجمالاً - عن وجود الموانع والحجب وكيفية تأثيرها على العقل، وكيفية تلوث مصادر المعرفة بها تدريجياً، إلى درجة تنتهي إلى تعطيلها

المرحلة الثانية: ونبحث فيها عن جزئيات وخصائص كل من هذه الموانع والآفات، وللقرآن بحث واسع تروى وجذاب في هذا المجال.

ولنبداً أولاً من المرحلة الأولى، فمما تجدر لإشارة إليه، هو أن القرآن تحدث عن موانع

المعرفة والآفات ومهودها التدريجي والفامص، بشكٍ عَرَفَ سالكِي طريق العلم، والمعرفة بها تعريفاً كاملاً، وأندرههم كراداً بأن لا يغفوا عمرهم في السعي نحو السراب ظناً منهم أنه ماء، وبعد سنوات من السعي الحثيث من أجل الوصول إلى الحقيقة يستهون إلى الباطل.



والآن نبحث معاً الآيات المذكورة:

الحديث في الآية الأولى والثانية يدور حول تزيين الأعمال، فتارة بزيينها للشيطان للإسار (كما جاء ذلك في الآية الثانية) وتارة تكون فحشيات لإسار نفسه أو عوامل أخرى هي التي تزين للإسار سوء أعماله (كما جاء ذلك في الآية الأولى، حيث إن الفعل فيها مبني للمجهول) فقالت: «أَلَمْ تَرَ زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ حَسَبًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» فَإِنَّ الْأَوَّلَ يَنْحُهُ نَحْوَ الْهَوَى وَالثَّانِي نَحْوَ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَإِذَا مَا صَدَرَ مِنْهُ عَمَلٌ سَوِيٌّ أَسْرَعَ إِلَى التَّوْبَةِ وَاجْتِرَانِ مَا عَمِلَ

وتصيف الآية الثانية إن قلب الإنسان يقسو في المرحلة الأولى، ثم يتأهل لتقبل وسوسة الشيطان فتتمثل الأعمال السيئة حسنة أيامه، ومن هنا يرى بعض الناس غير مادمين على أعمالهم السيئة، بل قد يمرحون ويتباهون بها، ويصرون على مسقطيتها وصحتها.

وقد حصل هذا الأمر لأخوة يوسف، فعندما ألغوه في البئر وجاءوا أباهم بقميصه مطحاً بدم كاذب ادعوا أكل الدُّبِّ له، وأنهم صادقون في كلامهم.

فأجابهم أبوهم: «هَلْ سَأَلْتُ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَفَرَأَى» (يوسف / ١٨)

أي ظننتم أنكم أحستتم عملاً بهذه الجريمة، وأنكم ستحلون محل يوسف في قلبي، وأن يوسف انتهى أمره إلى الأبد، عافلين عن أنكم توطنون بعصمكم هذا مقدمات عمره وسلطانه، وأن مكانه سيبقى فارغاً في قلبي حتى أرى العقيد مرة أخرى.

ومما يستحق الإشارة إليه هو أن لقرآن يسبب تزيين الأعمال تارة للشيطان وتارة

لنفس الإنسان، وتارة يأتي التزيين في صيغة فعل مجني للمجهول وتارة يسببه إلى الله تعالى كما جاء ذلك في الآية ﴿ إِنَّ الْمَدِينَةَ لَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا آخِرَةَ زَيْتِكَ هُمْ أَعْمَتُ هُمْ ﴾ (النمل / ٤)

هذه ترجع إلى أن مقدمات هذا الأمر بيد من نفس لإسار، فيتمسك بها الشيطان ويعمل فعله، وبما أن الله مسبب الأسباب وحقيق العلل والمعلولات فتنسب إليه نتيجة الأعمال، وتقتضي حكمته بأن يتلى لبعض بصير كهده وما أسوء حال الذي تشتمل السيئات أمامه حسنات!



وقد تحدثت الآية الثالثة عن المراحل الأولى لانحراف القلب، وبعد تسميمها للآيات إلى محكمات (وهي ذات المعاهم الوصية) ومشابهات (وهي ذات المعاني المعقدة) مالم ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَلَمْ نَأْتِ بِكُلِّ شَيْءٍ بِآيَةٍ مُبِينَةٍ ﴾، فالراسخون في العلم يفسرون المتشابهات بالمحكمات، وإمّا الذين في قلوبهم زيغ فيأخذون بالمتشابهات ويفسرونها برأيهم ابتغاء الفتنة.

إنهم يتمسكون بما تشابه من القرآن لتبرير بواياهم غير الحالصة، ولهذا يرى كثيراً من المصنفين وأصحاب البدع وأتباع المذاهب المخرقة يستعملون صفاء قلوب المخلصين والمؤمنين بآيات الله بالكامل، ويرزون بدعهم بالاستعانة بـ « التفسير بالرأي » والاستعانة بالآيات المتشابهة، ويعتبر آخر بما أن قلوبهم وأفكارهم مخرقة فيرون آيات الله مخرقة أيضاً، كالمرآة المعوجة تنعكس فيها الصور معوجة.



ولآية الرابعة تشير إلى الصدا والرين الذي يعصوا القلوب، إنه العار الذي يحلو القلوب بسبب الذنوب والمعاصي، فيتراكم أعبار عليها حتى تتحجر، ويعطي الصدا القلب كله،

حيث قالت الآية: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فلا عجب في عدم تمكنهم من رؤية الحقيقة.



وتحدثت الآية الخامسة عن تقدم الحالة السابقة بحيث تتبدل إلى مرض روحي، فبعد إشارتها إلى الالتفات والوساوس الشيطانية حتى للأسياء والمرسلين قالت: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُنْقِ الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾

نعم، إن هذه القلوب التي لا تستند بطعم لحقيقة، بسبب مرضها، وحلاوة الحقيقة عندها كالمرارة، على استمداد لقبول وسوسة الشياطين.

ومتى بلغت النظر هنا أن حملة ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، تكررت اثنا عشر مرة في القرآن، متى يكشف الأهمية التي أولاها الله لهذه المسألة مع الالتفات إلى أن أغلب هذه الآيات عن المنافقين وشرح بذلك في عدد منها [١]

إلا أن المرض جاء في بعض من هذه الآيات بمعنى «الشهوات والميول والهوى»، كما هو الحال في الآية: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ (الأحراب ٣٢) وعلى أية حال، فإن المستعاد من الآيات هو أن الإنسان كما يصاب جسده بأمراض، كذلك روحه فإنها قد تصاب بأمراض سببها «سفاق» تارة و«الأهواء والميول» تارة أخرى، وتعيّر عند عروصها - ذاتقة روح الإنسان بالكامل، كما يرى ذلك في أمراض الجسم فقد تُعير مزاجه بشكل تجعله يستلذ بالأغذية الشاذة والكريهة ولا يستلذ بالأكلات اللذيذة والمفيدة، فإن إنساناً كهذا غير قادر على إدراك الحقائق ووعي الأمور وفهمها.

ومن المؤسف أنهم كلما استمروا في طريقهم كلما تفاقم عندهم المرض، فإذا كانوا في مرحلة الشك، فسيتفاقم عندهم ويشند ويصل تدريجياً إلى مرحلة الإنكار ومن الإنكار

١ الأنفال، ٤٩، والأحراب، ١٢ و ٣٢

إلى مرحلة أخطر وهي الاستهراء ومحاربة الحق. يقول القرآن في هذا المجال، ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (البقرة / ١٠)

❦

تحدثت الآية السادسة عن جعل الأكنة وحبس على القلوب، وليس حجاباً واحداً بل حُجُب وأكنة وذلك للحيلولة دون فهمهم القرآن، حيث جاء فيها ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

ذكر بعض المفسرين أن التعبير بالأكنة يدل على تعدد الكمان^١، ومن لا شك فيه أنه لم يجعل وقر في آذانهم الظاهرية بل أروحية كي لا يسمعون من الحق شيئاً، كما لم تجعل الأكنة على القلوب التي هي وسيلة لصح الدم في الأوعية، بل جعلت الأكنة على أرواحهم وعقولهم.

وقد وقع كثير من المفسرين - عند الإجابة عن كهدم لمسألة - في إشكال، فبارة قالوا: إنها معجزة حيث كان الرسول ﷺ يحتمي عن أقطار أعدائه المعاندين، فلا يكادون يسمعون شيئاً من كلامه، وذلك كي لا يؤذوه ﷺ، وتارة قالوا: إن الله يسمع لطمه عن أشخاص كهؤلاء فيتركهم لحالهم، وهذا هو معنى جعل لأكنة على قلوب ولوقر في آذان

إلا أن ظاهر هذه الآية (التي تماثل آيات أخرى من القرآن) شيء آخر، وفي الحقيقة أن هذه استعمالات مجازية في حق المعاندين والمتعصين والمنغربين والعارقين في الإثم، وبتعبير آخر: أن حرمانهم من إدراك الحقيقة بسبب صفاتهم الرديلة وأعمالهم القبيحة، فقد جعل الله هذه الميزة في هذه الأعمال، فهي كخاصية لقتل باسسية للسم، فلا يلام صانع السم وشاعل النار إذا تناول شخص ما سمًا ونفى بفسه في النار همت، فإنه في مورد كهذا ينبغي لوم الذي القى بفسه في النار والذي تجرع السم فقط.

وقد نقلت الآية السابعة ما كان يقوله اليهود للرسول ﷺ أو الأنبياء الآخرين، حيث كانوا

١. تفسير روح المعاني، ج ١٥، ص ٨٢.

يقولون: «وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لُعِنَهُمُ اللَّهُ بِكَفَرِهِمْ قَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ»، نعم لهم الله بكفرهم، وأنعمهم عن رحمته، وإن أشعص كاليهود كيف يمكنهم أن يدوقوا حلاوة الحقيقة

قد يكون التعبير بـ«الغلاف» يختلف عن التعبير بـ«الأكفة»، وذلك لأن الغلاف يستتر المغلف ويحطيه من جميع الجهات، بينما يعضى الستار جهة واحدة من المستور، وبتعبير آخر: تارة تصيب الموانع مصدراً واحداً من مصادر المعرفة كالعطرة لوحدتها، أو المسقل لوحدته، وتارة أخرى تعطل جميع المصادر وتجعلها في غلاف يحول دون المعرفة نعم، كلما تلوث الإنسان بالذنوب والفساد أكثر ابتعد قلبه وروحه عن المعرفة وحرم منها أكثر.



وتحدثت الآية الثامنة والتاسعة عن الطبع على القلوب الذي يحول دون المعرفة، وقد اعتبرت الآية الثامنة الطبع سبباً لعدم السمع «فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ»، واعتبرت الآية التاسعة الطبع سبباً لعدم الفهم «فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ»، والمراد في الموردين واحد، فكما قلنا إن المراد من عدم السمع هو عدم الإدراك والوعي والفهم وهذه المرحلة أشد من المراحل السابقة، فالمرحلة الأولى هي جعل الأكفة على القلوب، ثم الغلاف عليها، وفي النهاية يطبع عليها لتحويلها دون موز أي شيء فيها، كما ذكرنا ذلك في بحث شرح المعردات.

طبعاً إن ابتلاءهم بهذا المصير ليس اعتباطياً، بل لأسباب أسارت إليها الآية السابقة حيث قالت «وَإِذَا أَنْزَلْنَا سُورَةً أَنْ آمَنُوا بِهَا وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الدَّاعِيَيْنَ * رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ» (التوبة / ٨٦-٨٧)

إذن إعراضهم عن الجهاد وتحفهم عنه هو السبب في اسطبع على القلوب

وآية أخرى أشارت إلى سبب آخر من أسباب الطبع، حيث قالت: «وَأَوَّلُ نَهْدٍ لِلَّذِينَ يَرْثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ». (الاعراف / ١٠٠)
أي أنهم يذنبون رغم رؤيتهم وعندهم بأحوال السابقين وابتلائهم بالعذاب الإلهي من جراء ذنوبهم، فطبع على قلوبهم.

ومما يذكر هنا أن الطبع جاء في الآية الثامنة بصيغة لمصارع «نطبع» وهي لتاسعة بصيغة الماضي «طبع» وهذا تلميح إني أن الطبع نتيجة سوء أعمالهم وتصرفاتهم.
يقول بعض المفسرين، إن المراد من «الطبع» في مثل هذه الآيات هو نفس السبك والنفس الذي يستخدم للدراهم والمسكوكات، وهو نفس ثابت وباقٍ، لا يتغير بسهولة، فإن نَفَسَ الكفر والفاق والإثم نَفَسَ على قلوبهم فلا يسهى بسهولة.

﴿٥٥﴾

وبعدت الآية العاشرة والحادية عشرة «الْحُجْم» وكما قلنا سابقاً في شرح المعردات إنَّ الحِجْم يعني الانتهاك ونزاع من شيء، وبما أن الرسائل تحتم عند النزاع منها استعملت هذه المعردة هناك أيضاً، وختم الشيء لهله وسده بحيث لا يمكن لأحد فتحه، والمراد من الحِجْم على القلوب والأسماع والأبصار في الآيات، هو سلب قدرتها عن التعبير بين الحق والباطل، والتعير والشر وذلك بسبب أعمال أصحابها وتصرفاتهم، ولهذا يذكر القرآن في الآية السابقة: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ». (البقرة / ٦)

المسلم به هو أن هذا الخطأ لا يهم الكافرين منهم بل يخص المتعصبيين والمعاندين منهم، أي أولئك الذين غرقوا بذنوبهم إلى درجة حيث أصبحت قلوبهم طمعا، وإلا فالنبي أرسل مبشراً ومنذراً للكافرين والمنحرفين.

والجدير ذكره هنا هو أن آيات تحدثت عن الحِجْم على الأبصار ولسمع كما تحدثت

عن الختم على القلوب، وهذا تلميح منها إلى أن السمع والبصر قد يتعطلان، أي قد يتعطّل الإدراك الحسي كما يتعطّل العقلي، وكما تعلم أن أعذب العلوم البشرية تحصل بواسطة هذين الإدراكين، وحتى حقانيه الوحي ودعوة الأنبياء تكشف بهما، ومع تعطلها فإن طرق الهداية والنجاة ستعلق أمامهم، وهذا من سوء أعمالهم وهذا ما أرادوه لأنفسهم، ولا يستلزم جبراً كما يدعيه بعض الظانين.

وقد جاء هذا التعبير في محال الطبع كذلك، حيث يقول تعالى في الآية: «أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ».

(النحل / ١٠٨)

والآية التي سبقت الأخيرة أشارت إلى أن هذا الأمر ليس عاماً وشاملاً لجميع الكفار، بل يختص بمن شرح صدره للكفر، حيث يقول تعالى: «وَلَكِنَّ مَن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا».

(النحل / ١٠٦)

§§§§§



وعد تحدثت الآية الثانية عشرة عن أقفال القلوب التي قد تكون أشد من الختم^١، حيث قالت: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالًا» أي أن آيات القرآن تنعقد في القلوب ولو من نوافذ صغيرة، وذلك لأن منطق القرآن هو البيان البديع، والبلاغة في التعبير، والعمق والدقة في التحليل، وهو نور وصياء خاص ينعقد في قلب كل مؤهل ولو بأقل تأهيل، ويستحوذ على القلوب ويهرق الصمائر، رغم أنه لا ينعقد في قلوب هؤلاء ولا يهرق صمائرهم أبداً، وذلك لانغلاق قلوبهم.

إن «أقفال» جمع «قفلة» ومن مادة «فقل» ويعني الرجوع، وبما أن كل من أتى باباً مقفولة رجع، استعملت هذه المردة في هذا المجال.

إن التعبير بـ«الأقفال» قد يكون إشارة إلى عدد أقفال القلب بحيث إذا ما فتح قفل بقيت أقفال أخرى، وهذه في الحقيقة أسوأ مرحلة وشدها من مراحل حرمان إدراك الحقائق.

١ وقد أشار الفخر الرازي في تفسيره الكبير إلى هذا الأمر

ويلاحظ هنا عدم إضافة «قلوب» إلى الأفعال بل جاءت بصيغة النكرة، وكأن هذا إشارة إلى أن هذه القلوب ليست لهم، والأعجب من هذا هو إضافة «الأفعال» إلى «القلوب» وكأن قلوبهم أهل للأفعال فقط لا شيء آخر.



وفي الآية الثالثة عشرة تعبير يهر المضائر حيث يقول تعالى «إِنَّمَا لَا تَفْقَهُ الْإِنْسَانُ وَلَكِنْ تَفْقَهُ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» (الحج / ٤٦)

أي أن الحاسة الباصرة إذا فقدت فهذا ليس بمعنى، لإمكان أن يسد العقل، يقطع فراغها، وإنما الشقاء والبؤس والتعاسة في انقبوس إذا عميت، فعلى القلوب أكبر حاجب عن إدراك الحقيقة، والإنسان بنفسه يعمي قلبه، ولقد أثبت التجريب أن الإنسان إذا ما جعل عصاه على عييه أو مكث في ظلام لمدة طويلة، فإنه سيفقد بصره تدريجياً، كذلك الأمر بالنسبة للذين يعمسون عمون قلوبهم عن الحقائق، أو يمكنون مدة طويلة في ظلمات الجهل والعمور والائتم فإن قلوبهم ستعمى، وليكون غير قادر على إدراك أي حقيقة.

يُشَكِّكُ البعض أنه لا يمكن أن يرد من القلب (الذي في الصدر ويضخ الدم إلى جميع أعضاء البدن) بل المراد العقل والروح

لأنه بملاحظة استعمال «الصدر» بمعنى الدت والغطاء يتضح لنا أن المراد من «الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» هو الإدراك العقلي لمدح في طبيعة الإنسان.

إضافة إلى هذا، فإن القلب أول عضو في بدن الإنسان يتأثر بحوطف وأحاسيس وإدراكات الإنسان، نلاحظ أن اتخاذ قرار مهم، أو حصول حالة غضب شديدة، أو الاحساس بالحب القوي تجاه شخص ما يُريد من دقات القلب، فإد استعمال القلب الطاهري كناية عن لعقل، فلأجل العلاقة الوثيقة التي بينه وبين الروح^١



وقد تحدثت الآية الرابعة عشرة والأخيرة عن آخر مرحلة لحرمان الإنسان من المعرفة،

١ للمريد من العلم راجع التفسير الامثل دبل الآية ٧ من سورة البقرة

والتي يتعلّل فيها العقل والفطرة والعين ولادن عن عمل بالكامل، فيهوي الإنسان إلى مستوى الأنعام بل أصل.

والآية تلميح إلى هريق من أهل النار وكأنهم خلقوا لأجلها لا لشيء آخر: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْقَائِلُونَ﴾

وعليه، فإنهم فقدوا «هويتهم الإنسانية» وعقبوا أبواب الرجوع على أنفسهم، فهووا من قسم السعادة السماوية المعدة لهم إلى شقاء جهنم التي أعدت لأولئك الذين غلقوا جميع أبواب المعرفة على أنفسهم، وهو مصير صممه نوسهم ودنوبهم وعصيانهم.



النتيجة الأخيرة:

إنّ في القرآن الكريم مادحاً كثيراً يشبه الآيات الأربع عشرة التي ذكرناها في أول هذا الفصل. وانتحبنا هذه الأربع عشرة للمواصفات التي تتجلى بها. وقد انتهينا إلى حقيقة واضحة وهي أنّه قد تعرض آفات ثمصادر المعرفة بالخصوص العقل والفطرة والحس، وبعض تلك الآفات حفيفة طعيمة، وبعضها شديدة، وبعضها بدرجة من الشدة حيث تترك الإنسان في ظلمات مطلقة تسمعه من استيعاب وضع الحقائق الحسنة

وقد سمينا لمتابعة هذا الانحراف التدرجي لجميع مراحل مع الاستشهاد بآيات القرآن، ولا ندعي أنّ الترتيب الطبيعي لهذا الانحراف هو نفس الترتيب الذي جاء في الآيات عينا، بل نقول إنّ الآيات المذكورة قد بيّنت نود آفات في جميع المراحل

وما أجمل تعبير القرآن في هذا المجال، وما أدقه آفانة يتحدث عن العوامل الخارجية مثل «تربيت الشيطان» وتارة يتحدث عن محراف القلب والفكر، وأخرى عن صدا القلوب، وحيثاً عن تحول هذا الانحراف إلى مرض مزمن.

وحيثاً عن الأكمة المعجولة على القلوب

وتارة عن تعلُّف القلوب بالكامل.

وتارة عن الطبع على القلوب والنقش عليها.

وُخْرى عن وضع القلوب في أوعية وحتم نك الأوعية

وأحياناً عن تجاوز الأكنة القلوب لتشمل سَمْع والبصر.

وأحياناً أُخْرى عن تقفل القلوب.

وتارة عن العمى الكامل

وأخيراً عن سلب الإنسان هويته الإنسانية وإسقاطه نفسه إلى درجة الأنعام بل إلى

درجة أدنى من ذلك.

فما دواعي هذه المآسي والمصائب؟ فهو ما نتناوله في بحثنا اللاحق، لأنَّ الهدف من

بحثنا الماصي كان التعريف بالآفات والحجب وتوضيح أمرها بصورة إجمالية

ثم نصل إلى مرحلة علاج هذه الأمراض وكيفية رفع الأكنة ومسح الصدأ والرُس

والوقاية من الوصول إلى مرحلة لا مخرج ولا نعمة منها

ونتهي بحثنا هذا بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ لَكَ قَلْبًا وَمَسَامِعَ وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ

أَنْ يَهْدِيَ عَبْدًا فَتَحَ مَسَامِعَ قَلْبِهِ، وَإِذَا أَرَادَ بِهِ خَيْرَ فَلَكَ خَتَمٌ مَسَامِعَ قَلْبِهِ فَلَا يَصْلُحُ أَبَدًا وَهُوَ

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ «عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا».





حُجُبُ الْمَعْرِفَةِ وَأَفَاتُهَا



- ١- الصفات التي تَحُولُ دُونَ الْمَعْرِفَةِ
- ٢- الأعمال التي تَحْجُبُ عَنِ الْمَعْرِفَةِ
- ٣- الحُجُبُ الْخَارِجِيَّةُ



فُجِبَ المعرفة وأُفَاتَهَا (بالتفصيل)

تمهيد:

كان الحديث في البحث السابق عن اسد دُبواب لمعرفة وطرقها بالاجمال وحديثنا الآن عن «العلل والعوامل» المسببة لهذه الظاهرة المؤلمة التي يمكنها أن تؤدي بالإنسان إلى السقوط إلى درجة الأنعام والبهائم.

حديثنا عن الأمور التي سبب ظهور الصدأ على قلب الإنسان، وحمل الوعر في الأذن، والعمى في القلب، واحتلال توارث الغش، وأخيراً تسبب عدم رؤية الحق ورؤيته معكوساً! تابع القرآن هذه المسألة المهمة في آيات عديدة وبينت سبل الأساسية لهذه الظاهرة، ويمكن تلخيص العلل في ثلاثة أقسام:

١- الصفات التي تحول دون المعرفة أي صفات والأخلاقيات التي يمكنها أن تكون حاجباً عن الرؤية الروحية

٢- الأعمال التي تحجب عن المعرفة أي سلوك والأعمال التي تسود مرة العقل.

٣- الحجب الخارجية أي العوامل الخارجية التي تؤثر على فكر الإنسان وعقله

وعواطفه وفطرته

وستبحث هذه العناوين الثلاثة كلاً على حده (وأنؤكد هنا على أننا نطرح العنصر النسي وردت في القرآن الكريم بوصوح فقط).



١- الصفات التي تحول دون المعرفة

إن هذه الصفات التي ذكرت في القرآن بصراحة تارة وبالكناية تارة أخرى عبارة عن

١- حجاب عبادة هوى النفس

قبل كل شيء، نتمس خاشعين للآيات الدالة

١- ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الجاثية / ٢٣)

٢- ﴿... كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ * وَحَسِبُوا أَنَّهُ لَكُونُ قِتَّةً فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (المائدة / ٧٠ - ٧١)

٣- ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (محمد / ١٦)

﴿﴾

شرح للمفردات:

«الهوى» بمعنى رغبة النفس وميلها إلى الشهوات ويقال إنها مشتقة من «ألهوي» الذي يعني السقوط من الارتفاع، وذلك لأن الهوى يسبب سقوط الإنسان في انمصائب في الدنيا، وابتلاءه بالعذاب في الآخرة. ومن هنا قيل لجهم «هاوية» لأن قعرها منخفض للغاية.

وقد ذكر البعض معنيين لهذه مفردة (الصعود والارتفاع) و (السقوط)، وذكر بعض آخر معنى واحداً لها وهو (الارتفاع والسقوط)، وهذا في الحقيقة تركيب من المعنيين السابقين

وقال البعض: إنَّ الهَوَىَّ يعني « لسقوط » و الهَوَىَّ يعني « الصعود ».

❦❦❦

جمع الآيات وتفسيرها

إتباع الهوىَّ يعني القلب:

تحدثت الآية الأولى عن اتحاد الهوىَّ إليها وإتباعه، والتضحية لأجله بكل ما يملك، وكل من كان كذلك فسوف يختم على قلبه وعلى سمعه ويعمل على بصره غشاوة، فلا يهتدي بعد ذلك، فليقرأ الآية: « أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ... »

❦❦❦

والآية الثانية تحدثت عن فريق من اليهود الممانين خُتِمَتْ كلما جاءهم رُسُلُ الله وأنوا بما يخالف أهواءهم، قاموا بتكذيب بعضهم وقتل البعض الآخر إنَّ عنادهم هذا جعل حجاباً بينهم وبين الحقائق، فيروون أنفسهم آمين من عذاب الله، حيث تاب الله عليهم، وشملتهم رحمته الواسعة في المرة الأولى، لكن في المرة الثانية شملتهم نفسه، وذلك لتقصهم عهدهم وطميانهم، فعموا وحسبوا.

وهذه من المردودات السلبية لإتباع الهوى، حيث يهرفون دماء الأنبياء ولا يدركون فبع عملهم.

إنَّ التعبير بـ « يقتلون » بصيغة المضارع يدل على أن ديدن هذا الفريق من اليهود هو قتل الأنبياء لما يأتون به من الشرائع، المحافضة لأهوائهم.

١ راجع مفردات الراغب، ومجمع البحرين، وكتب التفسير، وترب المورد، والمنجد.

و آية الثالثة تشير إلى فريق من المنافقين الذين يستمعون لنبي ﷺ، ويمجّرون بتعادهم هذه استهزئوا به أمام المؤمنين.

يقول القرآن عن هذا الفريق من المنافقين: «أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ».

إن هذه الآيات الثلاث تبين بوضوح العلاقة بين اتباع الهوى وفقدان قدرة التمييز. لم لا يكون اتباع الهوى مانعاً عن إدراك الحقيقة وقد استحوذ به على جميع حواس الإنسان، فلا يرى شيئاً غيره ولا يفكر إلا به؟ وقد سمعنا قول لرسول كثيراً حيث يقول فيه: «مُحِبِّي النَّفْسِ يُعْبِي قُرْبَهُمْ»^١

كما سمعت في هذا المجال حديثاً آخر نقل عن الرسول الأكرم ﷺ وعن أمير المؤمنين. «أما اتباع الهوى فيصد عن الحق»^٢.

إن هذه المسألة واضحة إلى درجة أنها أصبحت مثلاً في كلام العرب «صاحب الحاجة أعشى لا يرى إلا حاجته»^٣

إن الإنسان الذي حصر قلبه وروحه في حب الجاه وجمال والشهوة، وعيناً كل رأس مال وجوده في هذا المجال، لا يرى شيئاً عني الدنيا غير هذا الحب، وقد جعل هذا الحب ساراً سميكاً حجب عقله وفكره.

وما أجمل ما قاله علي عليه السلام في إحدى خطبه «مَنْ عَشِقَ شَيْئاً / عَشِيَ بَصَرُهُ»^٤
وقد نقلت الرواية التالية في شأن نزول آية ٢٣ من سورة الحائث التي أشرنا إليها سابقاً

إن أبا جهل طاف بالبيت ذات ليلة ومعه لوبيد بن المغيرة (فقد كانت الكعبة محترمة في

١. روضة المتقين، ج ١٣، ص ٢١.

٢. بحار الأنوار، ج ٧، ص ٧٥، ونهج البلاغة الخطبة ٤٢

٣. تفسير المرفعي، ج ٥، ص ١٥٧.

٤. نهج البلاغة، الخطبة ١٠٩

الجاهلية أيضاً ومحلاً للطواف) فتحدثنا في شأن السيِّئ عليه السلام، فقال أبو جهل: والله إني لأعلم أنه صادق. فقال له: مَن؟ وما لك على ذلك؟ قال: يا أبا عبد شمس كنا سميته في صباه الصادق الأمين، فلما تمَّ عقله وكمل رشده سميته الكذاب الحاني؟ والله إني لأعلم أنه صادق. قال: فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به؟ قال: تتحدث عني بنات فريش نبي اتبعته يتيم أبي طالب من أجل كسرة، واللات والعزى إن اتبعته أبداً، فمررت «مؤختم على سمعه وقلبه»^١. وما أجمل ما قاله علي عليه السلام عن الهوى «آفة العقل الهوى»، كما قال في محل آخر «الهوى آفة الألباب»^٢.



٢- حب الدنيا أحد للحجب

يقول القرآن في هذا المحال

«ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ • أُولَئِكَ الَّذِينَ طَغَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَبُغِيَهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ».

(الحمل / ١٠٧-١٠٨)



جمع الآيات وتفسيرها

إن الآية تشير إلى قوم أسلموا رغبة في لإسلام، ثم ارتدوا عنه، فلمعت الآية إلى أن ارتدادهم لم يكن لروبتهم ما يحالف الحق في الإسلام، بل لأنهم فضلوا الحياة الدنيا على الآخرة، ورجحوها عليها، فاسلخوا عن الإسلام وانجسوا نحو وادي الكفر تارة أخرى، فلم يهدهم الله بعد كفرهم لأنهم لم يكونوا أهلاً لذلك، وذلك لحبهم الحياة الدنيا، فطبع الله على

١، تفسير المراغي، ج ٢٥، ص ١٥٧

٢ غرر الحكم.

قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأغلق عليهم أبواب المعرفة فأصبحوا من الغافلين.
 إنَّ حبَّ الدنيا سواء كان في مجال حب المال و لثروه أو في حقل حب الجاه والمقام، أو في مجال حب الشهوات المختلفة، فإنَّ هذا الحبَّ كالريح العاصف يهب في باطن الإنسان فيفقده توازن عقله بالكامل.^١

نعلم أنَّ لميزان الدقيق يُعمل في محفظة تحول دون تأثير النسيم عليه، وحتى الوران ينبغي له حبس أنفاسه حتى الانتهاء من الورن، وذلك لتحيولة دون تأثير امواج الهواء العارضة من رتيبه على تعادل الميزان، فما فائدة ميزان كهده عند هبوب ريع عاصف؟
 إنَّ حبَّ الدنيا سواء كان شكلها افارومي أو لفرعومي أو السامري أو غير ذلك، لا يعطي الإنسان الحرية في أن يحكم على الأمور بشكر صحيح أو يعكر تفكيراً سديماً، وإذا صرح الله تعالى في الآية السابقة بأنَّه طلع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، فالطبع هذا يعمل حب الدنيا، وبما أنهم يتجهون نحو انسب فيبتلون بالمسبب

وبشاهد في الأحاديث الإسلامية أخبار جليله في هذا المجال، يقول الإمام الباقر (ع)
 «مثلُ الحرير على الدنيا كمثل حبة القز كلما ازدادت من القز على نفسها كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غداً»^٢.

كما نقل حديث آخر عن أمير المؤمنين (ع) يقول فيه «الدنيا تقر وتضمر وتمتر»^٣
 ويقول الإمام نفسه في رسالة كتبها لأحد أصحابه ينصحه فيها ويقول «فانقض الدنيا فإنَّ حب الدنيا يضر، ويضم ويضم ويؤذي الرقاب فتدبرك ما بقي من عمرك ولا تقل غداً أو بعد غداً فإنما هلك من كان قبلك باقامتهم على الأماني والتسويات»^٤.

XXXX

١ بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢٢، ح ١٣

٢ نهج البلاغة

٣ بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٧٥، اصول الكافي، ج ٢، باب دم الدنيا والرهده فيها، ح ٢٣

٣- حجاب للكبر والمغرور وحجب السلطة!

- ١- «الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ» (عافر / ٣٥)
- ٢- «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا نُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَفْجَبِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ» (فصلت / ٤٤)



جمع الآيات وتفسيرها

الجهارون والمغرورون لا يدركون الحق!

تحدث الآية الأولى عن كلام «مؤمن آل فرعون» صاحب الصمير الحبي الذي كان في بلاط فرعون يؤيد موسى بن عمران (يؤمن به سرا) فقالت: «الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ»

نعم، إن عناد الحق والاصرار في ذلك انحدار يجعل حجاباً قاتماً على فكر الإنسان ويسلبه قابلية التمييز وحسن المعرفة، فيبلغ به الأمر إلى أن يصبح قلبه كالوعاء المعلق لا يخرج محتواه الفاسد ولا يفسد فيه، المحتوى سليم وسميد

يقول البعض في الفرق بين «الجهار» و«المتكبر» أن «المتكبر» يقابل «الخصوع للسحق» و«الجهروت» يقابل «الشفقة والمحبة للخلق»، فالطَّمَنَة المغرورون لا يحصون للحق ولا يرحمون ولا يشفقون على الخلق.



والآية الثانية نقلت أقوال فريق من المتكبرين المعاندين حول القرآن حيث كانوا

يقولون: لِمَ لَمْ يَنْزَلِ الْقُرْآنُ أَعْجَمِيًّا كَيْ يَهْتَم بِهِ كَثْرُ وَكَيْ يَهْتَمُّ بِهِ عَرَبٌ؟ أَوَلَيْدَ يَكُونُ مَرَادُهُمْ هُوَ الْحَوُولُ دُونَ فَهْمِ النَّاسِ لَهُ.

فَأَجَابَهُمُ الْقُرْآنُ: لَوْ نَزَلَ الْقُرْآنُ أَعْجَمِيًّا لَأَشْكَلْتُمْ إِشْكَالًا آخَرَ وَهُوَ «لَوْلَا فَصَلَتْ آيَاتُهُ» أَيُّ أَنَّ مَحْتَوَاهُ مُعَقَّدٌ وَمُبْهِمٌ وَلَا نَعِي شَيْئًا مِنْهُ، ثُمَّ قُلْتُمْ: عَجِيبٌ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ أَعْجَمِيًّا وَنَازِلًا عَلَى عَرَبِيٍّ؟

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِأَنْ يَقُولَ لِأُولَئِكَ الْمَغْرُورِينَ: «هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ».

وَوَاضِحٌ أَنَّ الَّذِي يَنَادِي مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَرَى إِذَا تُكْرِتَ أَعْيُنُهُمْ بَوْرُ شَمْسِ الْقُرْآنِ السَّاطِعَةِ فَدَلَّكَ لِرَمْدِهَا، وَإِذَا تُكْرِتَ آذَانُهُمْ سَدَاءُ الْعَقْرِ الْمَدْوِيِّ فَدَلَّكَ لِلْوَقْرِ الَّذِي فِيهَا



حُجَابُ الْغُرُورِ فِي الْأَحَادِيثِ الْإِسْلَامِيَّةِ:

١- جَاءَ فِي حَدِيثٍ لِلْإِمَامِ الْبَاقِرِ (ع) «مَا دَخَلَ قَلْبٌ كَمَرِيٍّ شَيْءٍ مِنَ الْكِبَرِ إِلَّا تَقَصَّ مِنْ عَقْلِهِ مَا دَخَلَهُ مِنْ ذَلِكَ قَلٌّ ذَلِكَ أَوْ كَثْرَةٌ».

٢- وَقَدْ حَاطَبَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ (ع) مَرِيضًا مِنْ لُصَحْرَفِينَ فِي كَلِمَاتِهِ الْقَصَارَ قَائِلًا: «بَيْتُكُمْ وَبَيْنَ الْمَوْضِعَةِ حُجَابٌ مِنَ الْعِزَّةِ».

عِنْدَمَا يَتَمَحَوَّرُ حُبُّ الدَّاتِ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ، يَسْمَى الْإِنْسَانُ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي نَفْسِهِ، وَعِنْدَمَا يَصِلُ إِلَى مَسْتَوًى «الْعَجَبِ» يَرَى نَفْسَهُ أَعْلَى وَأَرْفَعَ مِنْ أَيِّ إِنْسَانٍ آخَرَ، وَعِنْدَمَا يَصِلُ إِلَى مَسْتَوًى «الْأَنَانِيَّةِ» يَرَى نَفْسَهُ بِمَقْيَاسِ الْوَحِيدِ لِلْقِيمِ وَالْجَمَالِ.

وَهَذِهِ الْحَالَاتُ تَجْعَلُ سِتَارًا عَجِيبًا عَلَى عَقْدِهِ تَحْبِبُ الْحَقِيقَةَ عَنْهُ، فَيَرَى جَمِيعَ الْقِيمِ

١. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٨٦، باب وصايا الإمام الباقر (ع)، ح ٢٦

٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢٨٢

منحسرة في نفسه، وينسى غيره.

ولهذا، فإن أول خطوة في مجال تهذيب نفس هو الترفع عن «الكبر والغرور»، ولا يتأهل الإنسان للقرب من الله من دون ذلك.

٢- وقد جاء في كلام لأمير المؤمنين عليه السلام «شَرَّ آفات العقل الكبر»^١، كما جاء في كلام آخر له «العجب آفة»^٢



٤- حجاب الجهل والخفة

- ١- «كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» (الروم / ٥٩)
- ٢- «تُنذِر قَوْمًا مَّا أَتَذِيرُ آهَهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ» وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ «وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» (يس / ٦ و ٩ و ١٠)



جمع الآيات وتفسيرها

أكدت الآية الأولى على أن الله صرب لناس في هذا القرآن من كل مثل، فتارة بآيات الآفاق والأنفس وتارة بالوعد والوعيد، وتارة بالأمر والنهي، وتارة بالبشرى والانداد، وتارة بالسبل العاطفية والعطرية، وتارة بالاستدلال، ورغم هذا البيان فإن فريقاً من الجاهلين والغافلين يجحدون بآيات الله ويقولون أنهم مبطلون أي على باطل، ويصيف الله في الآية: هذا كله لأجل أن الله طبع على قلوبهم وذلك بجهلهم.

إن الآية - في الحقيقة - تشير إلى أسوأ أنواع الجهل وهو «الجهل المركب» الجهل الذي

١ غرر الحكم.

٢، المصدر السابق.

بحسبه صاحبه علماً، ولا يصغي لمن أراد إيظافه من عملة الجهل هذه، ولهذا فإن شخصاً كهذا يظل جاهلاً جهلاً مركباً إلى أبد الدهر.

إذا كان الخطاب موجهاً لجاهلٍ «جهلاً بسيطاً» أي لا يعلم ويعلم أنه لا يعلم، ومستعد في نفس الوقت لقبول نداء الحق والهداية، فإن الأمر تجاهه بسيط، والحجاب المانع يطبع على القلب عندما يكون الجهل مركباً وممرجاً بروح العناد وعدم التسليم لنداء الحق وقد نقل في بعض التفاسير شعر جميل لشاعر عربي يقول فيه

قال حمار الحكيم يوماً لو تصفوني لكنتُ أركباً
لأتني جاهل بسيط وصاحبي جاهل مركباً^١

❦❦❦

وتشير الآية الثامنة إلى فريق من العاقلين الذين صدر حكم العذاب بحقهم وذلك لجهلهم وعنادهم وأنهم ليسوا أهلاً للهداية.

ثم صور القرآن الحُجُب التي قد تحيط بالعقل تصويراً عجباً حيث قال «إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْلَالًا قَبَّيْ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَقُونَ» وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ».

إن عبارة «وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا» إشارة إلى الحجب الذي تحول دون رؤية آيات الآفاق والكون.

إن الأغلل التي جاءت في الآية قد تكون إشارة إلى الحجب التي تحول دون رؤية آيات الأنفس، والأسوأ من هذا كله هو جعل الفشاوة على الأبصار بحيث لا إمكان للرؤية، وهي ستار العقل والجهل والغرور

ويذهي أن أشخاصاً كهؤلاء مع كل هذه الحجب، سواء أُنذروهم الرسول أم لم ينذروهم وسواء سمعوا آيات القرآن من شفاه محمد ﷺ الطاهرة أم لم يسمعوا، فهم لا يؤمنون ولا

١، تفسير روح المعاني، ج ٢١، ص ٥٥ ديل الآية ٥٦ من سورة الروم.

يهتدون، إنهم رهائن لا لغلٍ واحد، بل لأغلالٍ عديدة (فالأغلال جاءت بصيغة الجمع لا المفرد)، وقد فسر البعض السد (الذي يجعل مام اشخص) بالحجب التي تحرم الإنسان من الهداية النظرية والاستدلال، والسد (الذي يجعل من لغلف) بالحجب التي تمنع من الهداية العاطفية والرجوع إليها^١.



حجاب الجهل في الأحاديث الإسلامية:

١- قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن الجهل «الجاهل ميت بين الأحياء»^٢

٢- كما قال في محل آخر «الحق من لمار الجهل»^٣.

واضح، كما أن الميت فاعد الإدراك والاحساس كذا الجاهل العنود، لا تتوقع منه الفهم الحقيقي للأمور.

٣- من خصائص الجاهل المركب أنهم يعدون العلماء الحفصيين صائين، ولهذا جاء في حديث الإمام موسى بن جعفر عليه السلام «تعجب الجاهل من العاقل أكثر من تعجب العاقل من الجاهل»^٤.

٤- نهى البحث بحديث للإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول فيه «إن قلوب الجهال تستغرها الأطماع وترتبتها المنى وتستعلقها الغدايع»^٥

ولا عجب أن تعجب الحقائق عن قلب كهذا.



١. تفسير الكبير، ج ٢٦ ص ٤٥ دليل الآيات المذكورة في بحثنا

٢. غرر الحكم، ص ٩٩

٣. المصدر السابق، ص ٤١.

٤. سموة البحار، ج ١، ص ١٩٩

٥. أصول الكافي، ج ١، ص ٢٣، كتاب الظل والجهل، ح ١٨

٥- حجاب للنفاق

١- ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

(البقرة / ٩- ١٠)

٢- ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ صُمُّ بُكْمٌ عُنًى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

(البقرة / ١٧- ١٨)

٣- ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

(الأنعام / ٤٩)

٤- ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾

(الأحزاب / ١٢)

جمع الآيات وتفسيرها

المنافقون عمي للقلوب:

إن في أوائل سورة البقرة ثلاث عشرة آية تحدث عن النفاق والمنافقين، وقد صورتها بدقة متناهية ويتعابير واضحة، والآية الأولى هي من ضمن آيات التي جاءت هناك.

يقول القرآن في هذه الآية: إِنَّ أَحَدَ أَحْطَاءِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَكَذَلِكَ يُخَادِعُونَ الْإِنْسَانَ لَا يَعْلَمُونَ، وذلك لأن النفاق قد عطي قلوبهم بستاره السميك، ثم يصيب لقرآن ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾

من الواضح، أن المراد من المرض في الآية هو «مرض النفاق» الذي يتعلب على قلوبهم، فالإنسان المريض لا يستطيع أن يفكر تفكيراً سليماً (لأن العقل السليم في الجسم السليم)، وكذلك حواسه الظاهرية، وهذا يرى بعض المرضى تبدو ألد لأغذية عندهم كرهية الطعم، وبعض الأغذية كرهية النظم لديدة.

وقد شبهت الآية الثانية المسافقين بالذي ضلّ متورطاً في ظلمات الليل، ثم استوقد ناراً ليرى مما حوله، فعاء ربيع عاصف وأطفا ما استوقد، فبقي هي الظلمات تارة أخرى، فلا يبصر ولا يسمع ولا ينطق شيئاً، ولا طريق له يرجوع قد يكون المراد من النور الذي جاء في الآية هو نور الإيمان الطاهري الذي يراه المسافق ويستضيء به ما حوله ويحفظ نفسه وماله تحت ضيائه.

أو أن المراد منه هو نور العطرة الذي جبل عليه الإنسان، والمافقون يستثمرون هذا النور في البداية، ولا يحضي رمن طويل حتى تأتي ربيعة البفاق فتطفئه.

XXXX

و تحدثت الآية الثالثة والرابعة عن المسافقين مرضى القلوب، وبقرينة الآيات السابقة يدرك أن المراد من *والذين في قلوبهم مرض* هو بعض المسافقين وأن العطف عطف تفسري^١، إلا أن الآية الثالثة تحدثت *عن موقفهم في معركة بدر*، والرابعة عن موقفهم في معركة الأحزاب، والعرق هو أنهم كانوا في «بدر» في صفوف المشركين لأن المشركين يوم ذاك كانوا القوة الراجحة، وفي معركة الأحزاب كانوا مع المسلمين كانوا يقولون: «اغتر هؤلاء المسلمون بديهم، وقد خطوا هذه الخطوة الخطيرة (الجهاد) رغم قلة العدد والعدد ظناً منهم بالنصر، أو بالشهادة التي مصيرها الموت»!

بالطبع، إنهم غير قادرين - بسبب المرض الذي في قلوبهم - على الإدراك الصحيح لعوامل النصر الحقيقية أي الإيمان والثبات والفتوة التي هي وليدة الإيمان فما كانوا يدركون أن من يتوكل على الله الفادر فهو حسبه وهو باصره، وشاهد على هذا الحديث هو ما حصل

١ لقد جاء في تفسير الميرز، ص ١٦٤ و ٣٠٢، وكذلك تفسير الكبير، ج ١٥ ص ١٧٦، أن المراد من الذين في قلوبهم مرض هم ضيعوا الإيمان وهم غير المسافقين. لكن لا يتناسب صعب الإيمان مع المرض في القلب، إضافة إلى أن الآيات الثلاثة عشرة التي جاءت في أوائل سورة البقرة استصمت هذا التعبير في حقهم، كما يبدو بعد الرأي الذي يعسر المرض بالترديد والشك، لأن المرض نوع من لا حراف يسد الشك نوع من القلق.

في صدر الإسلام، حيث إنَّ بعض المسلمين رمض الهجرة إلى المدينة، والعجيب في الأمر أن قريشاً عندما تحركوا نحو بدر لقتال المسلمين، اصطف هؤلاء المسلمون (الموافقون) في صفوفهم، وكانوا يحدثون أنفسهم أنهم سيلتحقون بجيش محمد إذا كان جيشه ذا عدد كبير، وسيبقون مع جيش قريش إذا ما كان عدد المسلمين قليلاً^١

وهل للنفاق مفهوم غير هذا الذي تجسد في هذه المجموعة؟ وإذا لم يكونوا منافقين، فمن هم المنافقون؟

وقد حصل هذا الأمر بالذات في معركة الأحزاب فإنَّ شخصيات كثيرة من المنافقين كانت قد حشرت نفسها مع المسلمين، وعندما شاهدوا كثرة الأحزاب قالوا بصراحة: ما وعدنا الرسول إلا كذباً وباطلاً.

وهذا هو حجاب النفاق الذي لا يسمع لهم من إدراك الحقائق، رغم أنهم شاهدوا بأم أعينهم أن النصر ليس بكثرة العدد، بل بالإيمان والتبات الناشيء عنه.



سؤال:

يطرح سؤال هنا وهو كيف يكون النفاق حجاباً يحجب عن الحقائق؟

❦❦❦

للجواب:

يمكننا الإجابة عن هذا السؤال بالالتفات إلى ملاحظة في هذا المجال وهي: إنَّ روح النفاق تستلزم أن يتحرك الإنسان مع كل التيارات وأن يكون مع جميع الفرق، وأن يتخذ صبغة المحيط الذي يعيش فيه، فيفقد في النهاية أصالته واستقلاله الفكري، إنَّ طريقة تفكير إنسان كهذا تكون متطابقة دائماً مع طريقة تفكير الفريق الذي يكون معهم، فلا عجب أن يكون حكمه غير صحيح.

١. تفسير الكبير، ج ١٥، ص ١٧٦، نيل الآية ٤٩ من سورة الأنفال.

وقد جاء في بعض التفسير: إن التعبير بـ «فسي قلوبهم مرض» يصدق في موارد كهذه الموارد، من حيث إن غاية القلب (العقل) الحاصل هو معرفة الله وعبوديته، وكل صفة سعت وحجبت عن غاية القلب هذه، قيل لها مرض (لأنها تحجب الهدى وتمنع من الظهور)^١ ولهذا جاء في الآية ٧ سورة المساقين: «وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَقْنَهُونَ».

كما قد جاء في حديث الإمام الباقر عليه السلام: «إِنَّ الْقُلُوبَ أَرْبَعَةٌ قَلْبٌ فِيهِ نِفَاقٌ وَإِيمَانٌ وَقَلْبٌ مَنكُوسٌ وَقَلْبٌ مَطْبُوعٌ وَقَلْبٌ أَرْهَرٌ أَجْرَدٌ» فقلت ما الأزهر؟ قال: «فيه كهيئة السراج، فأما المطبوع فقلب المنافق، وأما الأزهر فقلب المؤمن إن أعطاه شكر وإن ابتلاه حشر، وأما المنكوس فقلب المشرك»^٢.

وسمى حديثاً هذا بكلام للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «النفاق على أربع دعائم على الهوى والهوى والحفيظة والطمع»^٣.

ونعلم أن كل من هذه الأمور الأربعة تشكل حجاً سميماً أمام نظر العقل



٦ - حجاب التعصب والعناد

١ - «وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَقًّا إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» (الأنعام / ٢٥)

٢ - «وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلَتْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّشْتُورًا * وَجَعَلَتْ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرَتْ بِكَ فِي الْقُرْآنِ وَخُدَّةٌ وَلَوْ عَلَى أَعْيُنِهِمْ تُغَوِّرًا» (الاسراء / ٤٥-٤٦)

٣ - «فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الشُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا

١ تفسير الكبير ج ٢ ص ٦٤ ديل الآية ١٠ من سورة البقرة

٢ أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٤٢ باب في ظيمة قلب المنافق، ج ١

٣ أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٩٣ باب حجة المنافق والنفاق

أَنْتَ بِهَادِ الْعَنِيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿

(الروم / ٥٢ - ٥٣)

٤ - ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولُنَّ السَّيِّئِينَ كَفَرُوا إِنَّهُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ * كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿

(الروم / ٥٨ - ٥٩)

٥ - ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنَتِكَ حِجَابٌ

(فصلت / ٥)

فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿



جمع الآيات وتفسيرها

للموتى المتعبركون:

حضر عند رسول الله ﷺ أبو سفيان بن الوليد بن المغيرة والنضر بن العارث وأبو جهل وفرداد اخرون واستمعوا إلى حديث الرسول الأكرم ﷺ فقالوا للنصر: ما يقول محمد؟ (وكان النصر تاحراً يسافر إلى أيران وله اطلاع واسع بالأساطير والفصوص التاريخية الإيرانية) فقال: لا أدري ما يقول لكنني أراه يحرك شفطيه ويتكلم بأساطير الأولين كالذي كنت أحدثكم به عن أخبار القرون الأولى وقد أبوسعيان: يبي لا أرى بعض ما يقول حملاً فقال أبو جهل: كلا، فامرل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾^١.

وقال بعض المفسرين في تفسير هذه الآية أنهم لما أصرّوا على الكفر وعاندوا وصمموا عليه فصار عدو لهم عن الإيمان والحالة هذه كالكمال الناصع عن الإيمان^٢ ولهذا نزلت هذه الآية وقالت بصراحة: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ...﴾

١ تفسير الكبير، ج ١٢، ص ١٨٦

٢ المصدر السابق، ص ١٨٧

وقد قال بعض المفسرين في تفسير هذه الآية:

«وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً» بـ عناد هؤلاء الكفرة واصرارهم في معاداة الحق، يجعل ستاراً على قلوبهم يحول دون إيمانها^١.

❦❦❦

وقد تحدثت الآية الثانية عن الحجاب نذري كان يحمل بين الرسول ﷺ وبين فريق من المنافقين عندما كان يتلو القرآن الكريم

وقد فسر البعض هذا الحجاب بـستار حقيقي كان يجعله الله بين الرسول الأكرم ﷺ وبينهم بحيث لا يرونه، إلا أنه مع الانتعاش في الآيات التي لحقت هذه الآية من نفس السورة، يتضح لنا أن الحجاب لم يكن سوى «حجاب، انعصب والساد والمرور والجهل» الذي كتم حقائق القرآن عن عقولهم وإدراكهم.

والشاهد على ذلك هو قوله تعالى ﴿فَوَافُوا ذَكَرْتُ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَخُذْهُ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَذْهَبَ عَنْهُمْ نَفْسُهُمْ﴾ فاستعداد من هذا التعبير هو أنهم كانوا يصغون في البداية إلى حديث الرسول ﷺ ثم يولون مديريهم لعدم سماح المناد لهم لإدراك القرآن، وإدراك حديث التوحيد.

ونشاهد في نفس السورة تعابير أخرى تحكي روح الساد المجسمة فيهم، ومع هذا، فهل يمكنهم إدراك حقيقة ما؟

❦❦❦

وخاطبت الآية الثالثة الرسول الأعظم ﷺ قائلة له: إنك لا تسمع الموتى ولا الصم عندما يولون مديريهم، كما أنك لا تستطيع هداية العمى وانقادهم من الهلاك، فما يسمع كلامك إلا الذين آمنوا بآيات الله وسلموا للحق أي الدين تلهف قلوبهم للحق، فإن قلوباً

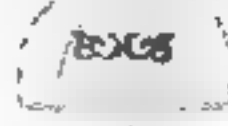
١ تفسير الكبير، ج ١٢، ص ١٨٧.

كهنه كالأرض المعدَّة للزَّرع، تسطع عليها أشمس، وتقطر السماء عليها قطرات لحياة، فتتمو فيها البدور بسرعة، وأمَّا القلوب التي عَصَلُها حُجُبُ التعصب والجهل فأنَّها محرومة من هذه الحقائق^١.



والآية الرابعة تحدثت عن أولئك الكفار الذين وقفوا أمام الرسول الأكرم ﷺ عناداً، وخالفوا كل ما جاء به، فكانوا يرمون الرسول والقرآن بالباطل تارة، وتارة أخرى يقولون إنَّ ما جاء به الرسول سحر وأساطير الأولين ولا مجال للحق فيه فتحدث في هذه عن هؤلاء وقال: «كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ». لأنَّهم لا يعلمون شيئاً عن هذا الكتاب السماوي الذي هو مصدر للحقائق

كما أنَّ الآية توضح العلاقة بين «الجهل» و«العناد»



وعكست الآية العارسة النموذج الكامل من العناد، ثمَّ قيل إلني الآن كان خطاباً من الله ورسوله، أمَّا هنا فهم يعترفون بأنَّهم على قلوبهم أكنه، وفي آذانهم وقراً، وبينهم وبين رسول الله ﷺ حجاب لا يسمح لهم إدراك ما يقول ولتسليم له، فاعمل على شاكلك وسعى عاملون على شاكلتنا.

إنَّ هذه التعابير تبين بوضوح ما هو لعامل الأساسي لهذه الحجب وما هو السبب الرئيسي للوقر الذي يجعل في الادرا؟ إنَّها عذرات يقطر منها لتعصب والعناد وتبين سبب شقائهم وتعاستهم.

كما أنَّ «التعصب» مشتق من مادة «عصب» وهو في البدن خلايا تسبب اتصال العضلات إحداها بالأخرى أو بالعظام، والعصب بمثابة الوسيلة لنقل الايعاز إلى المخ، وبما

١. وقد جاء في سورة النمل الآية ١٦ مضمون يشبه مضمون هذه الآية

أَنَّ لَهُ بَيَانًا قَوِيًّا وَمَحْكَمًا اسْتَعْمَلَتْ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ بِمَعْنَى الشَّدَّةِ وَالِاسْتِحْكَامِ، وَيَوْمَ عَصِيبٍ يَعْنِي يَوْمَ شَدِيدٍ وَصَعْبٍ، وَلِهَذَا يُطْلَقُ «لَتَعْصِبَ» عَلَى حَالَةِ الْإِرْتِبَاطِ الشَّدِيدِ بِشَيْءٍ، كَمَا أَنَّ «الْعُصْبَةَ» عَلَى وَزْنِ أَسْوَةٍ تَعْنِي جَمَاعَةً مِنَ الرِّجَالِ (الْمُقْتَدِرِينَ) الَّذِينَ لَا يَقْلُونَ عَنْ عَشْرَةٍ، وَأَمَّا «عُصْبَةٌ» فَتَعْنِي أَقَارِبَ الرَّجُلِ مِنْ جِهَةِ الْأَبِ^١

إِنَّ «اللَّجَاجَةَ» وَهِيَ مِنْ مَادَّةِ «لَجَّ» هِيَ التَّمَادِي فِي الْعَصَادِ، وَمِلَارِمَةُ أَمْرٍ مَا وَعَدِمَ الْإِنْصِرَافَ عَنْهُ، وَ«اللَّجَّةُ» تَعْنِي حَرَكَةَ أَمْوَاحِ لُجْرٍ، أَوْ التَّبَاسُّطِ طُلُمَاتِ اللَّيْلِ، وَ«اللَّجِي» هُوَ الْبَحْرُ الْوَاسِعُ وَالْمُتَلَاطِمُ، وَالتَّلَمُّعُ فِي الْكَلَامِ هُوَ التَّرَدُّدُ فِيهِ، أَوْ احْتِلَاطُ الْأَصْوَاتِ^٢.

80088

النتيجة:

إِنَّ التَّعَصُّبَ وَاللَّجَاجَةَ وَالْعَصَادَ سَلَّزَمَ أَحَدُهُمُ الْآخَرَ، لِأَنَّ الْإِرْتِبَاطَ الشَّدِيدَ بِشَيْءٍ يَدْعُو الْإِسَارَ إِلَى الْإِلْحَاحِ وَالْعَصَادِ وَالِدِفَاعِ عَنْهُ بِدَوْرٍ قَبْدٍ أَوْ شَرِطٍ بِالطَّبَعِ قَدْ يَسْتَعْمَلُ التَّعَصُّبُ بِمَعْنَى الْأَحْيَازِ وَالْإِرْتِبَاطِ بِالْحَقِّ، إِلَّا أَنَّ الْإِسْتِعْمَالَ الْغَالِبَ لَهُ هُوَ الْإِرْتِبَاطُ بِالْبَاطِلِ

إِنَّ مَشَأَ التَّعَصُّبِ وَاللَّجَاجَةِ وَالْعَصَادِ - بِجَمِيعِ أَشْكَالِهَا - هُوَ الْجَهْلُ وَالْقُصُورُ الْفِكْرِي، لِأَنَّ صَاحِبَ التَّعَصُّبِ وَاللَّجَاجَةِ يَظُنُّ أَنَّهُ إِذْ يَحُلِي عَنْ عَقِيدَتِهِ وَرَأْيِهِ فَهَذَا يَعْنِي يَحْلِيهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، أَوْ أَنَّ هَذَا إِهَانَةٌ لِشَخْصِيَّتِهِ.

وَقَدْ يَكُونُ مَنَشَأُ هُوَ التَّكْبِيرُ وَالْعُرُورُ الْبَدِينِ يَسْمَعَانِهِ مِنَ الْحُصُوعِ أَمَامَ الْحَقِّ وَالتَّسْلِيمِ لَهُ، وَقَدْ يَكُونُ مَنَشَأُ عَوَامِلَ أُخْرَى

إِنَّ التَّعَصُّبَ وَاللَّجَاجَةَ يَجْعَلَانِ سِتَارًا قَائِمًا عَلَى لَعْلٍ لَا يَسْمَعُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَرَى

١ كتاب العين، والمفردات، ومجمع البيان، ولسان العرب.

٢ المصدر السابق

الحقائق، حيث نرى البعض غير مستعدين للشخصي عن عقائدهم بأي شكل كان رغم وجود الأدلة القطعية على بطلانها، وإنْ أُنْجِصَ كَهَوْلًا لَوْ أَقْمَنَّا لَهُمْ أَلْفَ دَلِيلٍ وَدَلِيلٍ عَلَى أَنَّ لِلدَّجَالِ رَجُلَيْنِ، قَالُوا: كَلَّا، بَلْ رَجُلٌ وَاحِدٌ! وَلَوْ أَحْذَيْنَاهُمْ بِأَيْدِيهَا تَحْتَ سُورِ الشَّمْسِ السَّاطِعَةِ وَقَدْ جَاءَهُمْ: إِنَّهُ نَهَارُهُ، قَالُوا: لَا بَلْ لَيْلٌ!

لَقَدْ عَكَسَتِ الْآيَاتُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي بَدِئَةِ الْبَحْثِ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ بِوُضُوحٍ، وَاعْتَبِرَتْ هَؤُلَاءُ صُتًّا وَعَمِيًّا وَأَمَوَاتًا، وَطَعَّ عَلَى قُلُوبِهِمْ، أَوْ نَقَلَتْ قُلُوبَهُمْ مَعْلَقَةً فَلَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا وَقَدْ جَاءَ فِي الرِّوَايَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ مَصَامِينُ تَسْتَمِدُّ إِلَى نَفْسِ الْمُصَمِّمِينَ الَّذِي جَاءَ فِي الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةِ، وَفِيهَا تَوْبِيحٌ لِأَهْلِ الدَّجَالَةِ وَلِصَادِ

مِهَا قَوْلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) «الْجَوْرُ لَا رَأْيَ لَهُ»^١

وَمِهَا قَوْلُهُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) كَذَلِكَ: «الْأَلْبُجُّ يُفْسِدُ الرَّأْيَ»^٢

وَكَذَا قَوْلُهُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «لَيْسَ لِلْجَوْرِ تَدْبِيرٌ»^٣

وَقَالَ الْإِمَامُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي الْخُطْبَةِ الْفَاصِلَةِ: «فَإِنَّ اللَّهَ قَسِي كَبِيرُ الْحَمِيَّةِ وَفَحَرُ الْجَاهِلَةِ فَإِنَّهُ مَلَأَ الشَّعْثَانَ، وَمَنَافِعَ الشَّيْطَانِ الَّتِي خَسَعَ بِهَا الْأُمَمَ الْمَاضِيَةَ وَالْقُرُونِ الْغَالِيَةَ حَتَّى اعْتَقَلُوا فِي حَادِسِ جَهَالَتِهِ وَمَهَارِي ضَلَالَتِهِ»^٤

نَهَى حَدِيثَنَا بِكَلَامٍ آخَرَ لِنَفْسِ الْإِمَامِ الْعَظِيمِ، فِي جَوَابِ لَهُ عَلَى رِسَالَتِ أَهْلِي مَدَنٍ مُحْتَمِلَةٍ حَوْلَ حَوَادِثٍ صَغِيرَةٍ حَقَّنَ كَيْجَ وَتَحَادُّى فَهُوَ الرَّكَسُ الَّذِي رَأَى اللَّهُ صَلَوَى قَلْبِهِ وَحَارَتِ دَائِرَةُ السُّوءِ عَلَى رَأْسِهِ»^٥

بِالطَّبِيعِ - وَكَمَا قُلْنَا سَابِقًا - إِنَّ الْأَصْرَارَ وَالْإِلْحَاحَ فِي الْحَقِّ لَيْسَ تَعْصِبًا، وَإِذَا أُطْلِقَا عَلَيْهِ تَعْصِبًا فَهُوَ «تَعْصِبٌ مَمْدُوحٌ»، وَلِهَذَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ (عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) عِنْدَمَا سُئِلَ

١ غرر الحكم.

٢ المصدر السابق.

٣ المصدر السابق.

٤ نهج البلاغة الخطبة ١٩٢.

٥ المصدر السابق الرسالة ٨٥.

عن مفهوم التعصب: «العصية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصية أن يُحب الرجل قومه ولكن من العصية أن يعين قومه على الظلم»^١.

❦❦❦

٧- حجاب التقليد الأعمى

نُمن خاشعين أولاً في الآيات التالية:

- ١- ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَصَلْنَا أَمْ كُنَّا مِنَ الْوَاعِظِينَ • إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ • وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾
(الشعراء / ١٣٦-١٣٨)
- ٢- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾.

(المائدة / ١٠٤)

- ٣- ﴿ وَإِذَا قَالُوا فَاجِئْنَا بِآيَاتِكُمْ يَا رُسُلَ اللَّهِ أَمْ لِي أَتَى اللَّهُ الْأُمَمَ قَبْلُ وَإِنَّا لَهُ لَنَاسِتُونَ أَنفِقُوا حَتَّىٰ يُفْلِتُوا عَلَىٰ آلِهِم مَّا لَا يُفْلِتُونَ ﴾
(الأعراف / ٢٨)
- ٤- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾
(لقمان / ٢١)

- ٥- ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتَرَفُّوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾
(الزخرف / ٢٣)

❦❦❦

شرح المفردات:

رغم أنه لم ترد مفردة «التقليد» عبثاً في الآيات السابقة بل جاءت مفردة الاقتداء أو

١ بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٢٨٨

الاهتداء أو اتباع ما كان عليه الآباء والاسلاف وامثال هذه لمفردات، إلا أنه من المستحسن ايضاح مفهوم هذه المفردة جيداً.

إن هذه المفردة مشتقة من مادة «قَلَدَ»، وتعني في الأصل - كما ورد عن الراغب في المعرّيات - قتل الحبل، وقيل للفلاة «قِلادة» من حيث إن حبالاً كانت تُقتل وتعلق في الصق، «والقِلادة» جمع قِلادة، استعمالها القرآن ورد بها الأنعام التي تُعدّ للأضحية في مناسك الحج، فإنها تُقَلَّد لتمييز عن غيرها من الأنعام (الآية الثانية من سورة المائدة)، كما أن إطلاق التقليد على اتباع الآخرين، من حيث إن يَمْلُد يجعل كلام المقلد كالقِلادة في عنقه، أو من حيث إنه يلقي المسؤولية على عاتق المقلد

أما «مقاليد» - وكما يقول كثير من لغويين - فجمع «مقلد» أو «مقلد»، إلا أن الزمخشري ادّعى في كشافه: عدم وجود مفرد لهذه الكلمة

وأما «مقلد» و«مقلد»، فمعنى المفتاح، وقد نقل ابن منظور في لسان العرب إن أصل هذه المفردة هو كلمة «كَلِيد» لفارسيه والتي تعني مفتاح كذلك، واستعملت في العربية بنفس المعنى، واستعمل «مقلد» بمعنى حراث أيضاً، وذلك من حيث إنها تفعل ولا طريق لها إلا بالمفتاح

إذن، لا علاقة بين مفردة «مقاليد» مع مادة «لَمَلَدَ» و«القلادة»^١

إلا أنه يحتمل رجوع كلا المفردتين إلى مادة واحدة من حيث إن كثيراً من الناس يجعلون المعانيخ في منائل ويقلدون بها أفعالهم^٢

❦❦❦

جمع الآيات وتفسيرها

قَوْمٌ أَهْلَكْتُمْ تَقْلِيدَهُمْ:

إن الآية الأولى أشارت إلى حديث قوم «عاد» مع رسولهم ذي القلب لعطوف

١. معرّيات الراغب: مجمع البحرين، لسان العرب: البرهان القامع وكتب أخرى

٢. وقد اعتبر البعض «مقلد» مفردة يمنية أو رومية (مجمع البحرين ولسان العرب - مادة قلد -).

الرحوم «هود»، فعدما دعاهم إلى التوحيد وترك الظلم والاجحاف والترف أجابوه: «سَوَاءَ عَلَيْنَا أَوْعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ» وبهذا كُشِّمُوا عن تحجرهم وصلابتهم تجاه كلام النبي المطلق، وذلك لعدم سماح حجاب التقليد لهم بقبول الحقيقة.

❦❦❦❦

وقد كشفت الآية الثانية عن مواقف مشرقي العرب عندما كانوا يُدْعَوْنَ إلى ما أمر الله، وإلى ترك عبادة الأصنام، وترك البدع في تعريم كثير من الأمور الحلال، وكان جوابهم آنذاك: «عَشَيْتُمْ مَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُنَا» فيصور أن هذا يقضيهم عن القرآن هادياً!! إلا أن القرآن أراد إيقاظهم من عفتهم هذه وأراد تمزيق حجاب التقليد عندهم فأجابهم: «أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَحْتَدُونَ» وهل يجوز تقليد الجاهل الصالح؟! ١٢

❦❦❦❦

والآية الثالثة أشارت إلى مشرقي العرب أيضاً (و فريق من دوى الصفات الشيطانية) فاسمهم إذا ما سُئِلُوا عن سبب إتباعهم الفاحشة والمعك الفبيح؟ أجابوا: «وَجَدْنَا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا» ولا يكتمون بهذا بل قد يصيرون «وَاقَةً أَمْرًا بِهِمَا» فينفي القرآن هذه التهمة الكبيرة ويقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ».

يعتقد كثير من المفسرين أن المراد من «فحشاء» في الآية الكريمة هو طوائفهم رجالاً ونساء عراة في عصر الجاهلية، حيث كانوا يعتقدون أن الملابس التي ارتكبت بها ذنب ليست أهلاً لأن يطاف بها حول بيت الله الحرام.

وعلى هذا السؤال، كان ينتقل عملهم الفبيح هذا من سسل إلى سسل بالتقليد الأعمى، وما كان التقليد يسمح لهم لأن يدركوا قبح هذا العمل

❦❦❦❦

إِنْ رَابِعٌ وَخَامِسٌ آيَةٌ أَشَارَتَا إِلَى مَوْفَقٍ وَكَلَامٍ فَرِيقٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ أَوِ الْعُيُودِ الَّتِي سَبَقَتْ عَهْدَهُ بِحَاءِ دَعْوَةِ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ ﷺ أَوْ لِأَنْبِيَاءِ السَّالِفِينَ، حَيْثُ كَانُوا يَقُولُونَ: «إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ»

وهكذا توارثت الأجيال بعد الأجيال الكفر وعبادة الأصنام والآثام والعادات والسنن القبيحة، وقد سبجت روح التقليد حجباً سبكاً على عقولهم لا يسمح لهم لقبول أي حقيقة، فيقول القرآن عن هؤلاء تارة: «أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ».

(المائدة / ١٠٤)

ويقول ناره أخرى: «أَوَلَوْ كُنَّ الشَّيَاطِينُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ»

(الفرقان / ٢١)

وأخرى: «قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ».

(الزخرف / ٢٤).



توضيحات

١- أنواع التقليد المختلفة

إِنْ تَقْلِيدَ الْآخَرِينَ، سِوَاهُ كَانَ تَقْلِيداً بَحِيٍّ أَوْ مَيِّتٍ، أَوْ تَقْلِيداً لِشَخْصٍ أَوْ فَرِيقٍ لَا يَخْرُجُ عَنْ صَوَرٍ أَرْبَعٍ:

١ - تَقْلِيدُ الْجَاهِلِ لِلْعَالِمِ: أَيُّ تَقْلِيدِ الْجَاهِلِ بِشَيْءٍ مِنْ لَهُ تَحْصِصٌ أَوْ حَبِرةٌ بِقَرٍّ أَوْ عِلْمٍ، مِثْلَ مَرَاجَعَةِ الْمَرِيضِ لِلطَّيِّبِ الْخَبِيرِ بِعِلْمِ الطَّبِّ.

٢ - تَقْلِيدُ الْعَالِمِ لِلْعَالِمِ: أَيُّ مَرَاجَعَةِ أَهْلِ بَعِثٍ أَحَدَهُمْ لِلْآخَرِ وَابْتِاعَ كُلُّ مَسْأَلَةٍ لِلْآخَرِ.

٣ - تَقْلِيدُ الْعَالِمِ لِلْجَاهِلِ: أَيُّ يَتْرُكُ الْإِنْسَانُ عِلْمَهُ وَحَبِرتَهُ، وَيَتَّبِعُ الْجَاهِلَ وَيَقْلُدُهُ عَشْوَانِيًّا.

٤ - تَقْلِيدُ الْجَاهِلِ لِلْجَاهِلِ: بِأَنْ يَتَّخِذَ قَوْمٌ جُفَّالَ عَادَاتٍ وَتَقَالِيدَ وَمَعْتَدَاتٍ لَيْسَتْ

قائمة على دليل أو مستندة إلى شيء، ويقوم قوم آخرون باتباع أولئك القوم وتقليدهم فيها، وهذا هو أكبر عامل لانتقال المعتقدات الفاسدة والتفاهيم الخاطئة من قوم إلى آخر، وهذا النوع من التقليد استهدفته أكثر الآيات في دُمت التقليد.

واضح أن القسم الأول من التقليد هو قسم المنطقي الوحيد، وقد اعتمدت حياة الناس على ذوي الاختصاصات وعلى هذا النوع من التقليد المنطقي، لأن الإنسان حتى لو كان نابغة زمانه لا يمكنه التخصص في جميع الاختصاصات والفروع العلمية، خصوصاً وأن العلم - في هذا العصر - أصبحت له فروع وتشعبات لا تعد ولا تحصى، ومن المحال أن يتخصص إنسان في فروع علم أو في واحد، فضلاً عن جميع العلوم والفنون.

وعلى هذا، فكل إنسان يمكنه أن يكون مجتهداً في فرع من فروع العلوم، أما في الفروع الأخرى التي لم يجتهد فيها، فلا طريق له إلا الرجوع إلى المتخصصين فيها.

إن المعمار يراجع الطبيب إذا مرض، والطبيب يراجع المعمار إذا أراد بناء عمارة، أي أن كلا منهما «مجتهد» في تخصصه و«مقلد» في التخصص الآخر، وهذا الرجوع الجاهل إلى العالم وغير المجتهد إلى المجتهد وغير المتخصص إلى المتخصص أصل غفلاتي كان ولا يزال متعارفاً ودارحاً بين الناس، **بَلَىٰ إِنَّ حِجَّةَ بَنِي آدَمَ عَلَىٰ هَذَا النُّوعِ مِنَ التَّقْلِيدِ**، بالطبع أن هناك شروطاً ينبغي توافرها في المجتهد الذي يرجع إليه، سنتعرض لها بعد ذلك.

وهذا التقليد هو الذي أشار إليه لباري تعالى في القرآن الكريم وعنوانه - **وَأَشْوَاهُ حَسَنَةٌ** -.

كما جاء في الآية: **﴿وَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾**. (الأنعام / ٩٠) ورغم أن الخطاب موجه للرسول الأعظم ﷺ، لكن لا يبعد أن يكون الخطاب به الأمة بأكملها.

أما الأقسام الثلاثة الباقية من التقليد فكلها باطنة ولا أساس منطقي لها، فتقليد (العالم للجاهل) و(الجاهل للجاهل) حالهما واضح، وأما تقليد (العالم للعالم) فإن كان من باب مراجعة أحدهما الآخر للتشاور وتكميل المصنوعات، فلا يعدُّ هذا تقليداً بل هو نوع من «التحقيق».

إنَّ التقليد هو عرض الطرف عن التخصص بذي يمتلكه الإنسان واتباع شخص آخر أياً كان بدون قيد أو شرط. فالمسلم أنَّ التقليد من قبل شخص قادر على التحقيق والاجتهاد أمر مدموم وغير صحيح، ولهذا لم يُجرِّ الفقه الإسلامي للمجتهد أن يكون مُقلِّداً. ويتضح مما قلنا فلسفة تقليد المجتهدين في مسائل الفقهية من قبل غير المجتهدين، ومثل هذا دارج في جميع العرور العلمية، وبما أنَّ الفقه الإسلامي واسع إلى درجة حيث لا يمكن للناس جميعاً أن يجتهدوا، فجميع أبوابه والتحقيق فيها تمين على فريق منهم الاجتهاد بالفقه، وعلى الناس سابعهم، إلا أنَّ الأمر يختلف عنه في أصول الدين، فيتعين التحقيق والاجتهاد فيها على كل مسلم، وذلك لإمكانية ذلك، فلا يجوز التقليد فيها.

❦❦❦

٢- شروط للتقليد الممدوح

عادة ما يقال في تعريف «التقليد» أنه عبارة عن قبول كلام الآخرين بلا دليل، وسارة يوسعون المفهوم ويصرون الاتباع العملي تقليد لمن لا يزال الأوامر بعديت أو كلام للآخرين، وتارة يعدون التأثيرات الإرادية التي تركها أعمال وسلوك وصفات الآخرين عند الإنسان) قسماً من التقليد.

بالطبع أن القسم الأخير من التقليد (الذي يتحقق بشكل غير ارادي) خارج عن موضع بحثنا، أما القسم الثاني والثالث، فيمكن أن يكونا ممدوحين إذا ما توافر شرطان في «المقلِّد» - أو مرجع التقليد - وهما: الخبرة والصدق، أي كونه من أهل العلم أولاً، وينقل ما يوحى إليه علمه بصدق ثانياً، وإذا ما انتهى هذان الشرطان دخل التقليد القسم الممدوم.

ومن جهة أخرى، ينبغي أن يكون موضوع لتقليد من مواضيع الاختصاصات كي يباح التقليد فيه، أما إذا كان من المسائل العامة التي يمكن للناس كافة الغوص والتحقيق فيها (مثل أصول الاعتقادات وبعض المسائل لأخلاقية والاجتماعية غير ذات لجانب

الاحتصاصي) فانه يتعين على كل إنسان التحقيق فيها والوصول إليها بنفسه.
ومن جهة ثالثة، فإن المقلد يسعى أن لا يكون قادراً على الاستبطاط، فإذا ما قدر على ذلك في مسألة ما، مُنِع من التقليد فيها

ومن هنا تتضح حدود التقليد الممدوح و تقليد المدموم من انجهات الثلاث (أي شروط المرجع وشروط المقلد) وشروط الموضوع لمقلد فيه)

تنهي كلامنا هذا بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام

قال رجل للصادق عليه السلام: إذا كان هؤلاء الصوام من اليهود لا يعرفون الكتاب إلا بما يسمونه من علمائهم فكيف دتمهم بتقليدهم والقبول من علمائهم؟ وهل عوام اليهود إلا كعوام يقدرون علماءهم، فقال عليه السلام: «بين عوامنا و عوام اليهود فرق من جهة وتسوية من جهة أما من حيث الاستواء فإن الله دم عوامنا بتقليدهم علماءهم كما دم عوامهم، وأما من حيث افتروا فإن عوام اليهود كانوا قد عرفوا علماءهم بالكذب الصراح وأكل الحرام والرشا وتغيير الأحكام واضطروا بقلوبهم إلى أن من فعل ذلك فهو فاسق لا يجوز أن يصدق على الله ولا على الوسائط بين الخلق وبين الله فذلك دتمهم، وكذلك عوامنا إذا عرفوا من علمائهم الفسق الظاهر والعصية الشديدة والتكالب على الدنيا وحرامها فمن قلّد مثل هؤلاء فهو مثل اليهود الذي دتمهم الله بالتقليد لفسقة علمائهم فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلّدوه» .



٣- موانع التقليد الأعمى

التقليد الأعمى أو بتعبير آخر (تقليد جاهل لجاهل) والأسوء منه (تقليد العالم للجاهل)، دليل على الارتباط المكروى، وله عوامل عديدة، نعرض لبعضها بالإجمال هنا:

١ - **عدم النضج الفكري**. إنَّ أشخاصاً قد يصجون ويبلغون جسمياً، إلّا أنَّ فكرهم لا يستقل ولا يبلغ إلى آخر العمر، ولهذا يطمون من أتباع هذا وداك، ولا يفكرون يوماً في مسألة ما ولا يحلّونها باستقلال.

إنَّ أنظار هؤلاء تترصد الآخرين دائماً، فيرددون ما يتفوه به الآخرون، وكأنَّهم حلقوا بلا إرادة، ولهذا قد يغيرون اتجاههم بالكامل إذا ما تغيرت بيئتهم أو تغير محيطهم.

إنَّ طريق مكافحة هذا النوع من التقليد لأعمى هو رفع المستوى الثقافي للمجتمع والسعي لإزدهار الأفكار والقابليات.

٢ - **التأثر بشخصية**. وهي أنَّ يتأثر الإنسان بشخصية ما ويجعلها أسوة له بحيث لا يرى نفسه أهلاً لإبداء الرأي أمام صاحبها، فيتبعه بكن معنى الكلمة ويسير خلفه وإن لم تكن تلك الشخصية أهلاً للاتباع والتقليد.

٣ - **التعلق الشديد بالأسلاف**. والتعلق هذا قد يصع منهم أناساً مفكرين وإن لم يكونوا أهلاً لذلك، فتتبعهم الأجيال اللاحقة عشوائياً، ومع أنَّ الأجيال اللاحقة التي تراث علوم السالين وتصيب إليها علوم أخرى تكون أكثر وعياً بطبيعة الحال، لكنها مع ذلك تتبلى بالتقليد العشوائي.

٤ - **التحزب أو التعصب الطائفي**. إنَّ تعصب كهذا يدفع بصريق من الساس لاتباع حزب أو طائفة والسير خلفهما والتمسك بترديد ما يتبناه ذلك الحزب أو تلك الطائفة، بحيث لا يسمح الإنسان لنفسه بالتفكير باستقلال والعمل خارج إطار الحزب أو الطائفة.

إنَّ هذه العوامل الأربعة وعوامل أخرى سببُ لانتقال كثير من العرافات والأوهام والعقائد الباطلة والتقليد والعادات العائنة ولسن العاهلية والأعمال القبيحة من قوم إلى قوم آخرين ومن نسل إلى نسل آخر.

وبتعبير آخر، فإنَّ الميول الخاطئة تجعل حجاباً على فكر الإنسان تحول دون معرفته للحق.

٨- حجاب حب الرفاء

في البدء تتأمل خاشعين في الآيات التالية.

- ١- ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِهَا وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطُّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ • رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۖ﴾ (التوبة / ٨٦-٨٧)
- ٢- ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَشْأَدُونَكَ وَهُمْ أَغْنَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۖ﴾ (التوبة / ٩٣)

❦❦❦

جمع الآيات وتفسيرها

لمقتنا من الجهاد:

أشارت الآية الأولى إلى أولئك الذين لم يستجيبوا لتعذيب الأوامر الإلهية في مجال الجهاد، وبالرغم من اقتدارهم الجسدي والمالي للحضور في سوح القتال لكنهم انصموا إلى صفوف القاعدين وغير القادرين على الجهاد وقد ألحوا على الرسول ﷺ بأن يدرهم ويجعلهم مع القاعدين والخوالب.

و«القاعدين» جمع «قاعد» وهم المعذورون عن الجهاد.

و«الخوالب» جمع «خالفة» ومن مادة (خلف) ومعناها يقابل الأمام. ولهذا يقال «خالفة» للنساء اللاتي يبقين ماكنات في بيوتهن عند خروج رجالهن، ولا يبعد أن يكون مفهوم هذه المفردة أعم من النساء، بحيث يشمل جميع العاجزين عن الجهاد والمعدورين عن الالتحاق بساحات القتال من النساء والأطفال والشيوخ والمرضى.

يقول الراغب في مفرداته إن «خالفة» عمود يجعل في نهاية الخيمة وتطلق - كناية - على النساء الماكنات في البيوت، ويقول البعض: إن «خالف» من تحلف كثيراً^١.

١ تفسير المصارع ج ١٠، ص ٥٧٢.

وتستعمل هذه المفردة - أحياناً - بمعنى «كراهة الراحة» من باب أن الراحة الكريهة تستحلف الراحة الجيدة إذا ما ذهبت

وقال البعض: إنتها بمعنى الانعطاف والسيل إلى الأمور الدينية لأن هذا المثل يدل على التخلف^١، إلا أن المعنى الأول أسب من بقية المعاني

وعلى أية حال، فإن محبي الرفاه وطلاب العافية غير مستعدين للايثار والتصحية عند الأزمات والكوارث الاجتماعية، وهم مستعدون لأن يجعلوا في صفوف الأطفال والمرضى دون أن يلتحقوا بصفوف المجاهدين، ويقول نيران فيهم، في نهاية الآية نفسها: **«وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ»**

بمعنى: إن حب الراحة والرفاه كالحجاب الذي يمسح من رؤية الفكرية الصحيحة، فهو لا يدركون أن السعادة ليست بالأكل والشرب، بل قد تكون في الحضور في ميادين الجهاد، وفي التحصن بالدماء، وبلقاء الله، إلا أن الذي لا يعهم هذه الأمور ينهزى بها.



وشير الآية الثانية إلى المعدورين عن الجهاد يمثل الصحاء والمرضى والذين لا يملكون الوسيلة للقيام بهذا الأمر، بينما تشاق إلى قلوبهم، وتصب دموعهم لعدم اقتدارهم على الانفاق، يقول الله فيهم **«إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَشْتَأِدُّنَاكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ»**.

ثم يضيف: **«وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ»** وذلك لأن الميل إلى الراحة جعل حجاباً سميكاً على قلوبهم فلا يكادون يفقهون شيئاً، إن كنا الآيتين توضح حقيقة واحدة وهي العلاقة بين «التخلف عن الجهاد لأجل الراحة والصحة» و«عدم إدراك الحقائق».

٩- حجاب الأمانى

١- «يَتَذَوْنَهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَوَبَّيْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِلَاهِ الْقُرْورِ»

(الحديد / ١٤)



جمع الآيات وتفسيرها

الآمال للبعيدة:

إنَّ «الأمانى» جمع «أمنية» وتطلق على الحالة النفسية التي تعرض للإنسان من جراء تسميه لشيء ما^١، والحدير بالذكر أنَّ الأمانى المعقولة والمسطقة ليست نقصاً، بل هي عامل لتقدم البشر وساء مستغل لأفصل لقى الحاصر، إنما القصر في الآمال البعيدة وغير المسطقة، ولهذا يعبرون بالأمانى في موارد كهذه بالمعنى الثاني، حيث تحصل الإنسان في عجلة وتسدل حجاباً من الظلمة على قلبه.

ويقول ابن الأثير: إنَّ التمي معني شهي حصول الأمر وكذلك يطلق على ما يعطر على النفس بالنسبة للمستقبل، كما أنَّ «مُنية» و«الأمنية» وردتا بمعنى واحد^٢، إلا أنَّ بعضاً فسر «الأمنية» بالكذب، ذلك لأنَّ الكاذب يُقدَّر مُراً في قلبه ثم يحدث به^٣.

يقول الراغب لما كان الكذب تصوّر ما لا حقيقة له صار التمي كالمبدأ للكذب فصيح أن يُعبّر عن الكذب بالتمنى.

وادّعى البعض: أنَّ معنى هذه المفردة هي لأصل هو التقدير والفرض والتصوير^٤.

١ مفردات الراغب، ويسمى الالتفات إلى أنَّ الأمانى جمع أمنية أمّا شئ مجمع منية

٢ لسان العرب.

٣ المتجد مادة (مني).

٤ مجمع البحرين للطبري.

وقد قيل للأماي أمانى لأن الإنسان يندرها ويصورها في ذهنه.

وعلى أية حال، فإن المؤمنين عندما يحتارون المحشر نحو الجنة بسرعة في ظل الإيمان بصرخ المنافقون والمنافقات، «أَنْظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِنْ نُورِكُمْ»، فيجيبهم المؤمنون: «إِزْجِعُوا وَزَاءَكُمْ» لدينا «فَالْتَسِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ» (الحديد / ١٢).

وعندها يصرح المنافقون: «أَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ» في الدنيا في مجتمع واحد وقد كنا في بعض الطريق معكم؟ فما الذي حصص حيث انفصلتم عنا واتجهتم نحو رحمة الله وتركتمونا في العذاب؟

فيجيبهم المؤمنون «هَلْ» كما معكم في مجتمع واحد، في ارقاق وفي السوق، وفي السر والحضر، وكما جاراً لكم، بل عشا في بيت واحد، وبكم أخطأتم خمسة أخطاء فاحشة. الأول أنكم سلكتم طريق الكفر والسفاق ففستم أنفسكم «وَلَكِنَّكُمْ فَتِنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ»

وثانياً، كنتم «تَرْتَابُونَ» وترصدتم قتل المسلمين، وموت لرسول الله ﷺ، وبمحضتم في كل عمل خير

وثالثاً «وَأَزْتَبْتُمْ» وترددتم خاصة في مسألة المهاد، وحقانية الإسلام ورابعاً، «وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانِي» التي سمجت حجاباً ضخماً على عقولكم وأفكاركم «حَقٌّ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ».

وخامساً «وَعَزَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْقُرُورُ» أي عركم الشيطان بعفو الله ووعدكم بالألا يسألكنم عذبه.

نعم، إن هذه العوامل معاً وجدت المنظر الذي صورهُ القرآن لنا، وهي التي سببت خلق سورٍ عازل بين المؤمنين والمنافقين.

إن شاهد حديثاً هو الجملة الرابعة، حيث جاء فيها «وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانِي»، الأماي قد تصل إلى درجة بحيث تشغل فكر الإنسان بالكامل، فيفعل عن كل شيء، ويظل في

عالم الوهم والظن، فتعمى عيانه، ويتنقل سمعه، ويفقد وعيه (إذا كان واعياً)،
ويظل في الظلمات التي وضعها بنفسه تائهاً.

إن سعة الأمانى قد تصل إلى درجة يرسم صاحبها خططاً لنفسه لا يمكن تطبيقها حتى لو
كان كنوح عليه السلام في العمر. وقد يقوم بحفقات اسمية، الكل يعلم بعدم امكانها حتى لو كان قد
بدأ بها منذ قرون، وهذا هو حجاب الأمانى لدى يحول دور المعرفة

وقد نقل بعض المعسررين خمسة أقوال في تفسير الأمانى إضافة إلى الآمال البعيدة،
والأقوال هي:

(تسمى فشل المؤمنين وضعفهم، وإغواء شيطان، والدنيا، وتوقع استغفار الرسول
للمنافقين، وتذكر الحسنات ونسيان السيئات)^١، وقد سرها البعض بـ «الأباطيل».



توضيح

حجاب الأمانى في الروايات الإسلامية:

إن مسألة (الآمال الطويلة والأوهام البعيدة عن الواقع، وأنها تجعل حجاباً على عمل
الإنسان وشعوره) لم يشر إليها في القرآن الكريم فحسب، بل لها شواهد كثيرة في الروايات
الإسلامية والتواريخ أيضاً، ففي حديث مشهور للإمام علي عليه السلام يقول فيه: «إن أخوف ما
أخاف عليكم اتنان، إتباع الهوى وطول الأمل، فأما إتباع الهوى فيصد عن الحق وأما
طول الأمل فينسي الآخرة»^٢.

ويقول في كلماته القصار «الأمانى تعمي أعين البصائر»^٣.

ونقرأ في حديث آخر لنفس الإمام عليه السلام «جماع الشر في الاغترار بالسهل والالتكال
على الأمل»^٤.

١ تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٦٤١٧

٢ نهج البلاغة، المحطبة ٤٢

٣ نهج البلاغة الكلمات القصار، الكلمة ٢٧٥

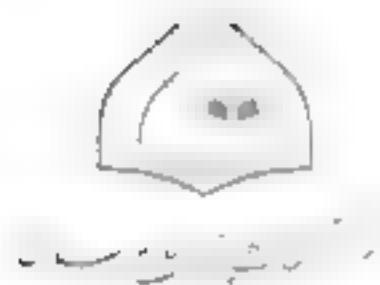
٤ عرو الحكم (حرف ج رقم ٥٥).

كما نقل عن نفس الإمام في هذا المجال أنه قال: «غُرُورُ الْأَمَلِ يَفْسُدُ الْعِلْمُ»^١
 وبالإضافة أن من يريد الاطلاع على جمال الحقيقة كما هي ويصل إلى ينبوع المعرفة
 الصافي، ينبغي له أن لا يغطي عقله بحجاب الأمانى السميكة، وأن لا يصل في متاهات
 طريقها

ونختم هذا البحث بحديث آخر للإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول فيه: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ
 الْأَمَلَ يُسْهِى الْعَقْلَ وَيُنْسِي الذِّكْرَ فَانْذَرُوا الْأَمَلَ فَإِنَّهُ غُرُورٌ وَصَاحِبُهُ مَفْرُورٌ»^٢
 ❦❦❦

١ غرر الحكم (حرف ج، رقم ١٥٥).

٢، نهج البلاغة، الخطبة ٨٦.



٢- الأعمال التي تحجب عن المعرفة

١- حجب الذنوب

نتأمل خاشعين معاً في الآيات التالية:

- ١- ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بَيِّنَاتِ الدِّينِ • وَهُمْ يُكْذِبُ بِهِ إِلَّا كَلَّ مُنْقَدِرَ أَيْتِمٍ • إِذَا تَشَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالِ اسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ • كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.
- ٢- ﴿قَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطُّعُوا أَرْحَامَكُمْ • أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾ (محمد / ٢٢-٢٣)
- ٣- ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَتْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (الأعراف / ١٠٠)
- ٤- ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوْءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ (الروم / ١٠)

❦

جمع الآيات وتفسيرها

للذنوب يعمي الإنسان وبصمته:

أشارت الآية الأولى إلى أولئك الذين أنكروا لقيامة بالكامل، وأصابت أن القيامة لا يسكرها إلا المعتدون والاثمور، فأنهم لا يحصون أمام الحق ولا يسلمون إليه أنفسهم أبداً، ولهذا إذا تليت عليهم آيات الله قابوا أساطير الأولين.

ويصرح القرآن: أن الأمر ليس كما يتوهم هؤلاء، وقولهم هذا سببه الصدا الذي أحاط قلوبهم وحال دون أن يعقلوا شيئاً.

لقد استخدمت مفردة «رئيس» في هذه الآية الكريمة، وقد قلنا سابقاً: أن لها معاني ثلاثة (على ما يدعيه أنفة اللغة) الأول: الصدا الذي يعلو الأشياء القيمة، الثاني: الصدا الذي يعلو العورات وهو علامة تآكل وفساد ذلك العصر، الثالث: كل شيء غلب على شيء آخر. ولهذا تستعمل هذه المفردة في مجال عبث الشرب المسكر على العقل وغلبة الموت على الأحياء، وغلبة النوم على العيون^١.

وبالطبع يمكن جمع هذه المعاني الثلاثة في مفهوم واحد وهو الصدا الذي يستحوذ على الأشياء ويعلوها، ثم أطلقت هذه المفردة على عبث كل شيء على شيء آخر ونستشف من هذه الآية أن الإثم يعكر صدى القلب بحيث يسمع انعكاس الحقائق في هذه المرأة الإلهية، والآيات لله خصوصاً في مسألة المبدأ والسماد واضحة ولا تقل الانكار.



ولهذا قصد قال بعض المفسرين يظهر من هذه الآية أولاً: أن الأعمال القبيحة توجد نقوشاً وصوراً في نفس الإنسان، وثانياً: أن هذه الصور والنقوش تحول دون إدراك الحق. وثالثاً: إن روح الإنسان - وحسب طبيعتها لأولية - صافية وشفافة، وتدرك الحقائق كما هي، وتميز بين الحق والباطل وبين التقوى ومحور، كما جاء ذلك في الآيات «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا»^٢.

(الشمس / ٧-٨)

وقد حلل مفسرون آخرون المسألة بشكل ملخص آخر.

عندما يكرر الإنسان عملاً ما فإن ملكة عسائية لذلك العمل ستحصل عنده تدريجياً، كالقراءة والكتابة، ففي البداية يشق عليه الأمر، وبعد الممارسة يتمكن منهما بدرجة لا يحتاج فيهما إلى فكر ودراسة.

١. تفسير الكبر، ج ٣٦، ص ٩٤: تفسير روح المعاني، ج ٣، ص ٧٢

٢. تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٢٤٩

وكذلك الأمر بالسبب للذنوب، فبالإصرار عليها وارتكابها مرات عديدة تحصل هذه الملكة عند الإنسان، وتعلم أنه لا حقيقة للذنب غير إشغال القلب بغير الله، والتوجه لغير الله ظلمة، وعندما تتراكم الظلمات على القلب تسلبه صغاءه وشفافيته، وإن لهذه الظلمات درجات ومراحل، المرحلة الأولى هي مرحلة «الزُّن» والصدأ، والمرحلة الثانية هي مرحلة «الطبع» والمرحلة الثالثة هي مرحلة «الأفعال» وهي أشد المراحل



والآية الثابتة باطرة إلى المسافقين الذين يدعون الإيمان، فإذا ما زالت آية في الجهاد تمارصوا وتذرعوا بدريعة من هو على وشك الموت، فيحاط بهم لقراَن قاتلاً، إن استمراركم في محالكم هذه وإعراضكم عن العمل بكتاب الله، سيؤدي بكم إلى أن تصدوا في الأرض، وأن تقطعوا أرحامكم، ولا يأمن شركم حتى أرحامكم، ثم يصيب «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ (بدنوبهم) فَأَصْبَحُوا شُرَكَاءَ لِلَّذِينَ هُمَا يُكْفَرُونَ» فما كادوا يسمعون الحق ولا يرونه.

وقد كشفت هذه الآيات عن أن التعاقب حجاب للقلب والروح من جهة، ومن جهة أخرى عن التأثير السلبي للمدوب خصوصاً (الفساد في الأرض) و(قطع صلة الرحم) و(الظلم والخور) على إدراك الإنسان وتمييزه بين الحق والباطل

ولقد فسّر البعض عبارة «إِنْ تَوَلَّيْتُمْ بِالْأَعْرَاصِ» وفسرها بعض آخر بالولاية والحكومة، أي أن مقاليد الأمور إذا أصبحت بأيديكم فستفسدون وترهبون الدماء وتقطعون الأرحام^١، ولهذا جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام أن الآية برلت في بني أمية^٢، وهذا تلميح إلى أنهم عند اسلام زمام الأمور والحكومة الإسلامية سوف لا يرحمون صغير ولا كبيراً، ولم يسلم من ظلمهم أحد حتى أقدارهم وذوهم.

١. ورد كلا التفسيرين في تفسير روح المعاني ومجمع البيان والميراث في ديل الآيات المذكورة في البحث.

٢. تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٤٠، ح ٥٩.

وسواء كان معنى «التولي» هنا هو الإعراض عن الجهاد أو استلام مقاليد الأمور في الحكومة والفساد في الأرض، فإن ذلك لا يضر ببحتنا، لأن الآية على أية حال تبين أن الذنوب حجاب للقلوب.



وقد أشارت الآية الثالثة إلى أولئك الذين ورثوا الأسلاف من دون أن يعتبروا بمصيرهم الذي ابتلوا به، فخطبتهم: «لَوْ تَشَاءُ أَصَبْتَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ».

عطف العقاب على الذنوب مع الطبع على قلوب والآذان، تلميح إلى العلاقة بين هذين الاثنين.

ويقول البعض إن الله إذا شاء عذبهم يأخذ العناس إما بإهلاكهم سبب ذنوبهم، وإما بإبقاءهم أحياء مع سلب قدرة تصير الحق عز الباطل منهم، وهذا عذاب أتقى من عذاب الهلاك الإلهي.

إلا أنه بالالتفات إلى مجي «أصبتهم» بصيغة الماضي «ونطع على قلوبهم» بصيغة المضارع، نفهم أن الجملة الثانية مستقلة وليست عطفاً على ما قبلها، فيكون معنى الآية هكذا: (سواء عجلنا بهذاهم أم لم نعمل فحس طبع على قلوب هؤلاء ونلقي حجباً عليها).^١



أشارت رابع وآخر آية إلى عاقبة الذين يرتكبون الأعمال السيئة فقالت: «ثُمَّ كُفِّرَتْ عَنْهُمْ أَسْوَأُ الَّذِي أَسْأَوْا السُّوْأَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ إِنْ لَا يُكَفِّرْهُمْ هَذَا وَالدُّنْبُ كَالْمَرْضَى الَّذِي يَقْضَىٰ عَلَىٰ رُوحِ الْإِنْسَانِ عِثَ كُلِّ الْإِيمَانِ مِنْ جِرَائِهِ؟ وَلَمْ لَا يُكَفِّرْ هَكَذَا

١. جاء هذا كاحتمال في تفسير الكبر، في دليل حسن الآية. إلا أن صاحب التفسير الميران عد الجملة الثانية مطووعة على «أصبتهم» التي تفيد الاستجبال، نكس الظاهر أن التفسير الأول أنسب.

وهو كالحجاب الذي يغطي القلب ويعميهِ؟ والأسوأ أنه لا يكفر فحسب، بل يقتخر بكفره، وقد شهد التاريخ الكثير من هؤلاء.

وخلاصة الحديث، إن القرآن يعدُّ الذنوب والمعاصي من موانع المعرفة، وهذه حقيقة ملموسة ومحزنة عند كثير من الناس، فيمعرِّد صدور ذنب أو معصية منهم يشعرون بظلمات خاصة في قلوبهم، وإذا ما مالوا إلى الظهارة والتقوى يشعرون بأنوار تترتاح لها قلوبهم.

✽✽✽

توضيح

إنَّ للذنب حجاب في الروايات الإسلامية

لقد انعكست هذه الحقيقة في الروايات الإسلامية بشكل واسع سذكر هنا سماعاً منها

١- جاء في حديث للرسول الأعظم ﷺ يقول فيه:

«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خُطْبَةً نَكَتَ فِي قَلْبِهِ نَكْتَةٌ سَوَاءٌ فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ وَتَابَ خُتِلَ قَلْبُهُ فَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ عَلَى قَلْبِهِ، وَهُوَ الزَّانُ (الرَّيْن) الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: وَكَلَّا بَلْ زَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ»^١

٢- وقرأ في حديث الإمام الصادق عليه السلام أنه قال فيه:

«كَانَ أَبِي يَقُولُ: مَا مِنْ شَيْءٍ أَقْسَدُ لِلْقَلْبِ مِنْ خُطْبَةٍ، إِنَّ الْقَلْبَ كَيَوَاقِعِ الْخُطْبَةِ فَمَا تَزَالُ بِهِ حَتَّى تَغْلِبَ عَلَيْهِ فَيَصِيرَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ»^٢.

بديهي أن المراد من (أعلاه/أسفله) تغير قدرة الإنسان على التمييز - بسبب الالاس باندوب - حيث يرى الحسن قبحاً والقبح حسناً، وهي أخطر مرحلة.

٣- وقد جاء في حديث آخر للإمام الصادق عليه السلام أيضاً يقول فيه:

١ تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٧٠٥٠، روح المعاني، تفسير ج ٣، ص ٧٢، وتفسير الكبير، ج ٣٦، ص ٩٤.

٢، أصول الكافي، ج ٢ باب الذنوب، ج ١.

«إذا أذنّب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء فان تاب انمحت، وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبدا»^١.

واضح، أن الشرط الأول للفلاح هو إدراك لحقائق، فالذى تعطل قلبه (عقله) عن العمل كيف يمكنه الوصول إلى السعادة والصلاح؟!

وقد جاء نفس المضمون في رواية أخرى عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير الآية «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»، وتم التعبير فيه بالسكة السوداء والنكتة البيضاء حيث تتغلب السوداء - سجة تراكم الذنوب - على ليضاء المورانية وتعطىها^٢.

٤- وفي حديث آخر للرسول الأكرم عليه السلام يقول فيه «كَثْرَةُ الذُّنُوبِ مُفْسِدَةٌ لِلْقَلْبِ»^٣.

٥- وقد نقل في كتاب الحصال حديث عن الرسول الأعظم عليه السلام جاء فيه: «أربع خصال يمتن القلب الذنب على النفس»^٤.

ولهذا، بابنا أمرنا - لمعوا آثار الذنوب - فقرأه ودراسة أحاديث الأنعة إضافة إلى التوبة. كما نقل ذلك في نور الثقلين عن الرسول الأكرم عليه السلام «تذكروا وتلاكموا وتحدثوا فإن الحديث جلاء للقلوب وإن القلوب لترين كما يرين السيف، وجلاء الحديث»^٥.

٦- وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام لهذه الحقيقة في خطبة له معاطباً بها بعض عمى القلوب:

«قد خسرنا الشهوات عقله وأمانت الدنيا قلبه ووليت عليها نفسه فهو عبد لها»^٦.

١ اصول الكافي، ج ٢ باب الذنوب، ح ١٣

٢ المصدر السابق، ح ٢٠. وقد نقل عن المصنوع في مجمع البحرين في مادة (الرب) أيضاً

٣ تفسير در المنثور، ج ٦، ص ٣٢٦

٤ الحصال، ج ١، ص ٢٥٢، ح ٦٥. وقد جاء مصموم يشبهه في تفسير در المنثور ج ٦ ص ٣٢٦

٥ تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٣٦، ح ٢٣

٦ نهج البلاغة، الخطبة ١٠٣.

٧- وقد نقل الإمام الصادق عليه السلام عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إِذَا تَطَهَّرَ الْعِلْمُ وَاحْتَرَزَ الْعَمَلُ وَاتَّصَلَتِ الْأَمْسِنُ وَاخْتَلَمَتِ الْقُلُوبُ وَتَقَاطَعَتِ الْأَرْحَامُ هُنَالِكَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ»^١.

٨- وقد صُرح بهذا الأمر بأسبوبة لبعض الذنوب كما جاء ذلك في حديث
لأمير المؤمنين عليه السلام مخاطباً به أولئك الذين تركوا لجهاد
«أَلَيْسَ اللَّهُ حَوْبَ الذِّلِّ ... وَحُرْبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْأَسْهَابِ وَأَدِيلَ الْحَقِّ مَتَهُ يَتَضَيِّعُ
الْجِهَادُ»^٢.



٢- حجاب الكفر والأموال

في البدايه نحن حائمين في الآيات الكريمة التالية

١- «تِلْكَ الْقُرَى نَعُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا
كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ»
(الأعراف / ١٠١)

٢- «فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ
وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا»
(النساء / ١٥٥)

٣- «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا
جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ
يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا»
(الكهف / ٥٧)

٤- «وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ
مَكَانٍ بَعِيدٍ»
(فصلت / ٤٤)

١ تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٤١، ح ٦٣

٢ نهج البلاغة، الخطبة ٢٧

جمع الآيات وتفسيرها

لَمْ يَعْجِبْ الذُّنُوبَ لِلْقُلُوبِ مِنَ الْفَقْهِ

إن الآية الأولى بعد إشارتها إلى ماريح وقصص خمسة أقوام من الأقوام السالفة وهم (قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب) حيث برل عليهم العذاب الإلهي لتكذيبهم آيات الله، قالت: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَعُصُ عَلَيْكَ ...﴾

إن جملة ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ لا تشير إلى أي كافر كان، وذلك كثيراً من المؤمنين كانوا في صفوف الكفار ولحقوا بصفوف المؤمنين بعد سماعهم لدعوه الأنبياء، فالمراد -إدس- ذلك لفريق من الكافرين الذين ألحوا وأصرروا على كفرهم، فإن كفرهم هنا يحول دور معرفتهم ورؤيتهم للحق

والشاهد على هذا الكلام هو قوله: ﴿فَكَذَّبُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي أن تعصيتهم بلع درجة لا تسمح لهم بتغيير طريقتهم والرجوع عن الساطل إلى الحق، وقد ذكرت خمسة وجوه في تفسير هذه الجملة في تفسير العزاني والكفر لرازي، إلا أن أظهرها هو ما تقدم أعلاه

والآية الثانية بعد ما أشارت إلى سلوك فريق من اليهود وعدتهم للأنبياء عالب ﴿فَمَا نَقُصِّهِمْ فِيهِمْ فَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ...﴾

يقول القرآن: إنهم لا يفقهون شيئاً وذلك بكفرهم فطبع الله على قلوبهم من جراء ذلك يديهي أن المراد من الكفر هنا هو الكفر بعتراس مع العباد، والكفر المتراس مع العداء للأنبياء، والكفر المتراس مع بعض الموثيق باسمرار والاستهراء بآيات الله، ومسلم أن كفراً كهذا يجعل حججاً على عمل الإبرس لا يسمح لصاحبه أن يدرك الحقائق، وهذا شيء صحتة أيديهم ولا جبر في البين

ويظهر أن مرادهم من ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ هو الاستهراء بآيات الله وبشخصية موسى بن عمران، لا أنهم يعتقدون أن قلوبهم خلقت معلمة لا تفهم الحقائق (كما جاء ذلك في بعض

التفاسير) ^١، إلا أن الله أخذ كلامهم بانحد وأج بهم «فَبَلَّ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ...»

وهناك احتمال آخر وهو أن مرادهم من الحملة هو أن قلوب كل منهم كالوعاء المليء بالمعلم والعمد الذي فيه السيف فلا تحتاج لسوء الآخرين ^٢، إلا أن هذا الاحتمال بعيد جداً وعلى هذا، فهناك ثلاثة احتمالات في تفسير الآية ولأول أسب من الآخرين، وقد نقل في بعض التفاسير حديث ذا معزى عميق عن رسول الله ﷺ يقول فيه «الطَّائِعُ مُعَلَّقٌ بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ فَإِذَا انْتَهَكَتِ الْحَرَمَةَ وَعُمِلَ بِالْمَعَاصِي وَاجْتُرِيَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى الطَّائِعَ مُطْبِعَ عَلَى قَلْبِهِ فَلَا يَقْبَلُ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْئاً» ^٣

والحديث بالذكر هو أن «طائع» اسم فاعل نطيع و«طائع» اسم آلة الطيع، ويظهر في الحديث أن الكلمة الأولى بالفتح والثانية بالكسر.

وهذا الحديث يؤكد بوضوح الحقيقة الثالثة أن لا جبر هنا، وأن حجب القلوب نتيجة لأعمال الإنسان نفسه.



وطرحت الآية الثالثة سؤالاً تفريراً حيث قالت «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ...»
إن دليل اعتبار القرآن هؤلاء أظلم الناس وأصح لأنهم طعموا أنفسهم كما طعموا الآخرين كذلك فإن طعمهم هذا وقع في محصر الساحة القدسية الإلهية مع وجود تعاليمه الحقة، وعليه فالآية لا تدل على عدم الجبر فحسب، بل تدل على أصالة الاختيار وما يلفت النظر هنا هو أن المعبر الراي بالرغم من كونه من القائلين بالجبر، لكنه

١. تفسير الميراث، ج ٥، ص ١٢٨ تفسير القرطبي، ج ٣، ص ١-٢

٢. لقد جاء هذا الاحتمال في التفاسير التالية في محاسن التفسير، ج ١١، ص ٨٧، والقرطبي، ج ٣، ص ٢٠٤ و

روح المعاني، ج ٦، ص ٨

٣. تفسير روح المعاني، ج ٦، ص ٨

عندما يصل إلى هذه الآية يقول إن آخر الآية دليل لمؤيدي الجبر، بينما صدرها دليل لمؤيدي الاختيار، ثم يضيف: قلما نجد آية هي لقرآن تؤيد أحد الفريقين، وإذا ما وجدنا آية مؤيدة لفريق وجدنا قبالتها آية تؤيد الفريق المقابل، والتحرية شاهد على ما نقول، وهذا امتحان صعب من الله للعباد، وذلك لكي يتمييز الراسخون في العلم عن المقلدين^١ إياه من اعتراف عجيب؟!

ونضيف إلى ما قاله الفخر الرازي: أن كلاً من آيات القرآن لا يمكن دراستها وملاحظتها لوحدها من دون ملاحظة ودراسة الآيات الأخرى فضلاً عن صدر وذيل الآية الواحدة، كما نقول: إن الآية بصدرها ودليلها دليل على مسألة الاختيار لا شيء آخر، وذلك لأن صدرها يقول: إن الإعراض عن آيات الله واقتراف الذنوب من أعمال الإنسان وهو فاعلها باختياره، بينما ذيل الآية يقول: إن الله يعاقب المتصرين على السير في هذا الطريق، وعقابهم هو جعل الأكنة على قلوبهم.

وتتبع آخر إن الله جعل لهذه الذنوب آثاراً وبركومات، وهذه الآثار تصكّر صفاء القلب، وتسلب قدرة التمييز عند الإنسان، فأي جبر في هذا الحديث؟
مثله كمثل الحبير الذي يعلم بأن السم قاتل، وبالرغم من ذلك يتساوله، فهل هذا التأثير القهري للسم جبر؟!



وقد أشارت الآية الأخيرة إلى المعادين لذين يحتلقون الصحيح ويسألون - أحياناً - هذا السؤال: لِمَ لَمْ ينزل القرآن أعجماً كي نعيّر، أهمية أكبر ولكي لا ينحصر في العرب؟
(قد يكون غرضهم الأساسي من هذا هو عدم فهم عامة الناس له والاقبال عليه إذا ما كان أعجماً).

١ تفسير الكبير، ج ٢١ ص ١٤٢، والعجيب أن لآلوسي في روح المعاني عندما نقل عبارة الفخر الرازي ادعى أن الفخر الرازي قال: إن هذه الآية من أدلة القائلين بالجبر والآية التي قبلها من أدلة القائلين بالاختيار. وقد سئل صاحب الميراث العبارة من روح المعاني، يسأله مراد الفخر الرازي صدر وذيل الآية معها (تأمل جيداً).

فَأَجَابَهُمُ الْقُرْآنُ فِي صَدْرِ الْآيَةِ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾.

أي لأشكلتم اشكالاً آخر وهو أن القرآن مبهم وغامض، ثم يصيف القرآن: ﴿عَاجِبِيٍّ وَفَرِّقِيٍّ﴾ أي هل يصحُّ لشيء عربي أن يأتي بقرآن أعجمي؟
ثم أمر الله الرسول ﷺ بأن يجيبهم هكذا: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.
وقد بيّنت الآية بوضوح أن اخلاق الحجاج ولساد والإصرار على الكبر يجعل حجاباً على القلوب يمنعها عن الإدراك والمهم.



٣- حجاب الاعتدال والعدول

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَبُتُّوا بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾
﴿يَهْمُ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْلُعُ عَنْ قُلُوبِ الْمُتَقَدِّينَ﴾

(يونس / ٧٤)



جمع الآيات وتفسيرها

بيّنت الآيات السابقة لهذه الآية من سورة يونس قصة نوح، حيث كان يدعو قومه لله ويسمى لهدايتهم واندادهم من عذاب الله، إلّا أنهم كذبوه، فأغرقهم الله بطوفانه وأهلكهم، وأنقذ المؤمنين منهم بالسفينة فوّرثوا الأرض.
ثم يضيف الله في الآية: إنا أرسلنا -بعد نوح- رسلاً كلاً إلى قومه مع معاجز وأدلة واضحة ومنطقية ورسائل يشهد محسواها على أحقيتهم، إلّا أنهم لم يحصموا للحق واستمروا في تكذيبهم.

١ فسر البعض عبارة: ﴿وهو عليهم عَمًى﴾ بأن القرآن سبب لعمى هذا الفريق، بما قال ابن منظور في لسان العرب والراغب في المفردات إن جملة (عمى عليه) تعني اشتبه عليه حتى صار كالأعمى (تأمل جيداً)

ويقول الله في ديل الآية: ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾. وهذه إشارة إلى أن الاعتداء والمدون يترك حجاباً في قلب يحول دون معرفه القلب لآيات الله وتمييزه بين الحق والباطل.

إن الطبع الإلهي على القلوب بالاصافة بي كونه عقاباً إلهياً للمعتدين. كذلك يكون أثراً من آثار الاستمرار في الاعتداء، والمراد من الاعتداء هنا هو الاعتداء في الساحة الإلهية واستمرار المعصية واقتراف الذنوب ومعاداة الرسل

إن جملة: ﴿فَمَا كَانُوا يَتُوبُونَ﴾ كما كذبوا به من قبل» إشارة إلى أن بعض الرسل جاءوا أقوامهم فكذبوهم، ثم أرسل الله إليهم رسلاً حريين مع أدلة واضحة فما آمنوا بهم أيضاً. وذلك لأن عبادهم سح حاحباً سميحاً على عفوهم فأصبحوا لا يفقهون شيئاً ولا يعقلون ويقول البعض: إن المراد من المكذبين هي آية قوم نوح الذين أغرقوا بالطوفان، والمراد من القوم الذين لم يؤمنوا الأقوام التي جاءت بعد قوم نوح وهذا سلك قوم نوح في الاعتداء على الرسل وتكذيبهم^١.

ويبدو هذا التفسير بعيداً عن الواقع لأنه لا زمة اختلاف مرجع الصميرين في (كذبوا) والبرصرا)، ولهذا فالافضل هو التفسير الأول.

وبحتمل أن يكون المراد هو: الأقوام التي جاءت بعد نوح والتي قد بُعِلت لها حقائق عن دعوة الأنبياء السالفين فكذبوا تلك الحقائق، ثم جاءتهم رسل فكذبوهم كذلك، وعلى هذا فالتكذيب الأول يتعلق بما نُقِلَ وحكي لهم، والتكذيب الثاني يتعلق بالأمور التي شاهدوها من الأنبياء بأم أعينهم^٢ ويبدو أن هذا التفسير مناسب، ولا يبعد الجمع بين التفسيرين.



١ تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ١٢٥

٢ تفسير روح المعاني، ج ١١، ص ١٤٣

٤- حجاب للرؤية السطحية وتركه للتدبر

١- «وَيَذَعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ

(الإنسان / ١١)

عَجُولًا»

(محمد / ٢٤)

٢- «أَنَّا لَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَاتُ»

﴿٢٤﴾

جمع الآيات وتفسيرها

أقفال القلوب للثقيلة:

في الآية الأولى يذكر الله سبحانه وتعالى أحد أسباب الكفر وعدم الإيمان بالله وهو عدم دراسة الأمور بدقة وتبحر، ويقول إنهم وبسبب صطراتهم وتسرعهم يتجهون أحياناً نحو الشر بشكل وكأنهم يتجهون نحو الخير والسعادة، ويتجهون نحو الهاوية بشكل وكأنهم يتجهون نحو مكان آمن ويتجهون نحو الدل وبعاد كم يو كانوا يتجهون نحو طريق الصخر والعز

أي أن تفكيرهم سطحي وتركهم التدبر يجعل خجائاً على عقولهم يحول دون إدراكهم الصحيح، فيرون - لأجل ذلك - الشر حيراً وشفاء سعادة، والصلال صراطاً مستقيماً وقد جاء في تفسير الميراث: أن المراد بكون الإنسان عجولاً هو أنه لا يأخذ بالآلة إذا أراد شيئاً حتى يروى ويفكر في جهاب صلاحه وفساده حتى يتبين له وجه الخير فيما يريده من الأمر فيطلبه ويسمى إليه، بل يستعجل هواه في طلبه بمجرد تعلقه به فربما كان شراً مختصراً به، لكن جسد الإنسان عجول لا يفرق بين الخير والشر بسبب عجلته، بل يطلب كل ما لاح له ويسأل كل ما بدا له فتعلق به هواه من غير تمبير بين «خير والشر»

أما المراد من «يَذَعُ» هنا؟ فيقول البعض أنه لطلب سواء كان في صورة دعاء أو طلب

من الله أو كان بصورة طلب عملي أي، السعي لتحقيق شيء وبذل الجهود لبلوغه^١.
 إلا أن الاستفادة من بعض التفاسير أن المراد هو الدعاء اللفظي والطلب من الله، ولهذا قيل
 في شأن نزول الآية: إنها نزلت في حق المصريين العارث وهو من مشركي العرب المعروفين
 حين قال: «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَ السَّمَاءِ»،
 فاستجاب الله هذا الدعاء وأهلكه^٢.

وقد ذكر المرحوم الطبرسي كلا التفسيرين في مجمع البيان ويظهر أن معنى الآية
 يسع كلا التفسيرين.

وقد جاء في حديث للإمام الصادق عليه السلام في تفسيره لهذه الآية قال فيه «وَأَعْرِفْ طَرِيقَ
 نَجَاتِكَ وَفَلَاحِكَ، كَيْلَا تَدْعُو اللَّهَ بِشَيْءٍ عَسَى يَكُنَّ فَلَاحُكَ وَأَنْتَ تَطْلُقُ أَنَّ فِيهِ نَجَاتَكَ،
 قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا»^٣.
 وقد جاء في حديث آخر أن آدم صبح أولاده وقال لهم: «كُلُّ قَتْلٍ تُرِيدُونَ أَنْ تَعْمَلُوا
 تَقْتُلُوا لَمْ يَأْتِ لَوْ وَفَّقْتُ نَاعَةً لَمْ يَكُنْ أَحْسَنُ مِنِّي مَا أَحْسَنَنِي»^٤.

ومن هذا الباب أطلق العرب عبارة «أَمِ التَّدَامَاتِ» سباً للمعجلة، كما قيل أن المعجلة من
 الشيطان إلا هي سنة موارد أداء الصلاة في وقتها، دس الميت، تزويج البنت الباكر عند
 بلوغها، أداء الدين عند حلول وقته، إطعام الصيف عندما يحل، والتوبة عند اقتراف الذنب
 أمّا ما المراد من الآية هو كان الإنسان عجلًا، وأمثالها الذي ورد في القرآن الكريم
 والتي تعبر عن نقاط الضعف المهمة في طبيعة الإنسان؟ وكما ذكرنا في التفسير الأمثل أن
 المراد بالآية الإنسان الذي لم يتحلل باحلاق لله ولم يرب على أساس التربية الرسالية
 والدينية، لا الإنسان المذهب.

﴿٢٠٠﴾

١. تفسير الميراث ج ١٣، ص ٥٠، وبما أن الباء في «بأنفخهم وبالشَّرِّ» بـ صلة فيكون معنى الجملة هكذا: «يدعو
 الشر كدعائه الخير».

٢. تفسير القرطبي ج ٦، ص ٣٨٤١؛ وتفسير الكبير ج ٢٠، ص ١٦٢.

٣. تفسير نور الثقلين ج ٣، ص ١٤١.

٤. تفسير روح البيان ج ٥، ص ١٣٧.

وتحدثت الآية الثانية عن فريق من المدققين المعاندين حيث أشير إليهم في الآيات السابقة بصفة عمي القلوب، وإذا تسلّموا زمام لحكم ما رحّموا صغيراً ولا كبيراً، واعتبرهم الله الملعونين والمطرودين من رحمته، وقال فيهم ههنا: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفًا» لا فصل واحد بل أقفال، فكيف يمكنهم إدراك الحقائق؟ (محمد / ٢٤)

هناك بحث بين المفسرين في أن «م» متصلة أو مفصلة^١، فإذا كانت متصلة يكون المعنى هكذا أفلا يتدبرون القرآن أو أن ههنا أفعالاً على قلوبهم؟ وأما إذا كانت مفصلة فالمعنى هكذا: أفلا يتدبرون القرآن؟ كلا، بل إن أفعالاً على قلوبهم

وعلى كلا المعنيين فالآية دليل على وجود تضاد بين «التدبر» و«الحجاب على القلوب»، ويمكن القول إن الآية تشير إلى حجاب ترك التدبر.

وقد جاء في تفسير (في ظلال القرآن) «سِرُّ القرآن طغياً لهذه الآية يريل العشاة، ويفتح الموائد، ويسكب نور المعرفة على القلوب، ويحرك المضاعف، ويستجيش القلوب، ويخلص الضمير ويجدد الروح ويحلبها أكثر صفاءً وإشراقاً»^٢

وقد جاء بعض المفسرين بدليلين لذكر القلوب مكررة في الآية، الأول أنها ذكرت نكرة لبيان حال قلوبهم المروّع، وأنها قلوب معهونة مليئة بالتأفّس والتطلعات.

الثاني إن المراد هو بعض القلوب لا كلها، لأن بعضهم لم يصلوا إلى تلك الدرجة من التطلعات بحيث تفعل قلوبهم وتتوقف عن إدراك الحقائق.

وذكر الأفعال بصيغة الجمع إشارة إلى الحجب المختلفة التي تجعل على قلوبهم مثل حجاب النفاق والعناد والفروور وحجب النفس وغيرها.

كما ينبغي الإشارة إلى هذه النقطة وهي إن بين «ترك التدبر» و«حجاب القلب» تأثيراً متبادلاً، فكل منهما يمكنه أن يكون علة للآخر في مرحلة ومعلولاً له في مرحلة أخرى.

١ ينقل الألويسي في روح المعاني عن سيبويه أنها متصلة. ربما ينقل عن أبي حيان وفريق آخر أنها منفصلة (ج ٢٦، ص ٦٧).

٢ تفسير في ظلال القرآن، ج ٧، ص ٤٦٢.

فسارة ترك المدير يشأ عن ظلمات نفسه، وتارة أخرى ظلمات القلب تتشأ عن ترك التدبر. وتنتهي حديثاً هذا برواية عن الإمام البقره عليه السلام فيها: «قرأ القرآن ثلاثاً: رجل قرأ القرآن فاتخذ به ضاعة واستدتر به الملوك واستطال به على الناس، ورجل قرأ القرآن فحفظ حروفه وصنع حدوده وإقامه إقامة القديح فلا كثر الله هؤلاء من حملة القرآن، ورجل قرأ القرآن فوضع دواء القرآن على داء قلبه فأسهر به ليله واطمأ به نهاره وقام به في مساجده وتجاوى به عن فراشه فبأولئك يدفع الله العزيز الجبار البلاء وبأولئك يبدل الله عز وجل من الأعداء وبأولئك ينزل الله عروجهم العيث من السماء فوالله لهؤلاء في قراءة القرآن أعتر من الكبريت الأحمر»^١.



٥ - حجاب الارتداد

في البداية سنأمل حاشعين في الآية الكريمة التالية
 ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ • ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ •﴾

(الصافات / ٢-٣)



جمع الآيات وتفسيرها

إن هذه الآية ناظرة إلى المنافقين، وبالرغم من أن سياق حجاب مستقل بحد ذاته إلا أن القرآن هنا يذكر موضوعاً آخر في هذا المجال حيث يقول: ﴿وَبِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ •﴾

يعتقد بعض المفسرين: أن الأشخاص المعنيين في هذه الآية هم فريق آمنوا ظاهراً وظلوا كفاراً باطنياً.

١ أصول الكافي، ج ٢، باب ٦٢ النوادر، ص ٦٢٧، ح ١

إِلَّا أَنْ ظَاهَرَ الْآيَةُ يَكْشِفُ عَنْ أَنَّهُمْ فِي الْبِدْيَةِ آمَنُوا حَقًّا، ثُمَّ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، وَكَانَ كُفْرُهُمْ هَذَا مُتَرَامِنًا مَعَ النِّفَاقِ، لِأَنَّ اسْتَعْيِيرَ بَدَنِهِمْ بِدَلِّ عَلَى أَنْ كَفَرُوا حَصَلَ بَعْدَ الْإِيمَانِ لَا أَنَّهُ كَانَ مُتَرَامِنًا مَعَ الْإِيمَانِ لِيَكُونَ أَحَدُهُمَا ظَاهِرًا وَالْآخَرُ خَفِيًّا، وَعَلَى هَذَا فَالْآيَةُ تَتَحَدَّثُ عَنْ حِجَابِ الْإِرْتِدَادِ

وَلَا عَجَبُ فِي أَنْ يَطْبِعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِ مَنْ آمَنَ وَذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ وَحَلَاوَتَهُ، وَشَاهَدَ أَنْوَارَ الرِّسَالَةِ، ثُمَّ كَفَرَ كَفْرًا تَرَامِنًا مَعَ النِّفَاقِ

إِذَا التَّبَسُّسُ الْحَقُّ عَلَى شَخْصٍ مَدَّ الْبِدْيَةَ فَعُذْرُهُ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ وَجِيهًا، أَمَّا إِذَا ارْتَدَّ عَنِ الْإِيمَانِ بَعْدَ مَا عَرَفَ الْحَقَّ وَآمَنَ بِهِ، فَهَذَا غَائِبٌ مَا يَكْشِفُ عَنْ حَالَةِ الْعِبَادِ عِنْدَ هَذَا الشَّخْصِ، وَاللَّهُ يَسْلُبُ نِعْمَةَ الْمَعْرِفَةِ عَنْ أَشْخَاصٍ كَهَؤُلَاءِ وَيَطْبِعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ

بِالطَّبْعِ لَا دَلِيلَ لِمَا عَلَى أَنَّ كُلَّ اسْمَافِقِي كَبُو عَمَرُ مُؤْمِنِينَ مَدَّ الْبِدْيَةَ، بَلْ إِنَّ هَرِيفًا مِنْهُمْ آمَنُوا فِي الْبِدْيَةِ حَقًّا ثُمَّ ارْتَدُّوا كَمَا حَاءَ دِيكَ فِي الْآيَةِ ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾

(التَّوْبَةُ / ٧)



وَهَذَا النِّفَاقُ الْمُنْرَمِ مَعَ الْعِبَادِ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ حِجَابًا عَلَى الْقُلُوبِ. وَتُؤَكِّدُ تَارَةً أُخْرَى أَنَّ هَذِهِ الْعِدَّةِ لَا يَدُلُّ عَلَى الْجَهْلِ إِطْلَاقًا، لِأَنَّ مَعْدَمَاتِ هَذِهِ الْحَرَامِ أَوْجَدَهَا الْمُنَافِقُونَ بِأَنْفُسِهِمْ.

❦❦❦

٦ - حِجَابُ الْكُذْبِ وَالْإِفْتِرَاءِ

فِي الْبِدْيَةِ مِلَاحِظْ خَاشِعِينَ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ الْمَالِيَةِ

١ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُرْسِلُوا نُصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ • ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَاتَلُوا لَنْ تَمُوتَ النَّارُ إِلَّا أَيْمَانًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِيْبِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

(آلِ عِمْرَانَ / ٢٣ - ٢٤)

٢ - ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيهِمْ إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ مَنَعًا وَأَنْبَارًا وَأَقِيمْدَةً

فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَخَطُهُمْ وَلَا أَلَمَتْهُم مِّنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْعَلُونَ بِآيَاتِ
اللَّهِ وَحَاقٍ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾

❦❦❦

جمع الآيات وتفسيرها

غداً للكذب:

يقول بعض المفسرين في شأن نزول الآية لأولى:

إن رجلاً وامرأة من اليهود رتبا، وكأما دوي شرف، وكان في كتابهم الرجم، فكرهوا
رجمهما لشرفهما، فرجعوا في أمرهما إلى النبي الأكرم ﷺ رجاء أن يكون عنده رحمة في
ترك الرجم فحكم الرسول ﷺ بالرجم فأكرو ذلك فقال عليه الصلاة والسلام: سيبي
وبينكم التوراة فإن فيها الرجم فمن أعلمكم؟

قالوا عند الله بن صوريا الفدكي، **(نوابه واحضر)** التوراة، فلما أتى على آية الرجم
وضع يده عليها، فقال ابن سلام الذي كان على ملة اليهود وأسلم.

قد جاوز موضعها يا رسول الله، فرفع كفه عنها فوجدوا آية الرجم، فأمر النبي ﷺ
برجمهما فرجما، فغضبت اليهود لعنهم الله لذلك عصباً شديداً فأمر الله تعالى هذه الآية^١.

يقول القرآن في هذا المجال: **«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ
كِتَابِ اللَّهِ لِيُحْكَمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فُرُيقًا مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ»**.

ثم يضيف **«ذَلِكَ بِمَا أَنَّهُمْ قَاتَلُوا لَن تَمْسُقَ الشُّرُ إِلَّا أَكْسَامًا مُّضَوَّدَاتٍ وَعَرَّهُم فِي
وَبَيْنَهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ»**.

«يفترون» من مادة **«الافتراء»** ومن أصل **«نمري»** الذي يعني القطع وشق الجلد بهدف
الإصلاح، إلا أنه قد تستعمل في صيغة **«الافتراء»** فتعني القطع بهدف الفساد، و**«الافتراء»**
معناه واسع، أي القطع سواء كان بهدف الإصلاح أو الفساد، بالرغم من استعماله في أغلب

الأحيان في مجال الفساد والتخريب، كما استعملت هذه المفردة في مجال الكذب والشرك والظلم^١.

ثم «عُثْرُهُمْ» فمن مادة «عُرور» ومشتقة من «عُر» بمعنى ظاهر الشيء، ولهذا قيل للأثر الظاهر في جيب الحصان «عُرة». كما يستعمل في القماش إذا طوى بشكل حيث تظهر عليه آثار الطوي، كما تستعمل هذه المفردة بمعنى الخداع، وكان الطرف المحدث يُطوى كالقماش^٢.

أما «عُثْرُور» فيعني الشخص والشيء الذي يخدع الإنسان، كما تطلق على الشيطان الخادع^٣.

وقد قيل في كهنية أن الكذب والافتراء يخدعان الإنسان ويحجبان عنه المعرفة وما ذكر صاحب الميزان:

«إن الإنسان يحري في أعماله وأفعاله على ما تحصل عنده من الأحوال أو الملكات النفسانية والصور التي زينتها ومقتها [له نفسه دور] الذي حصل له العلم به، كما أن المدمن على استعمال المواد المهدرة ونحوها يستعملها وهو يعلم أنها مضرّة غير لائقة بشأنه وذلك لأن حالته وملكته النفسانية رمت له هذه الأمور وأصفت عليها نوعاً من العبادية بحيث لم تدع له مجالاً للتفكير والاجتناب.

وبعبارة أخرى أنهم كرروا الكذب ولم يزلوا يكررونه ويلقنونه أنفسهم حتى اذعنوا به أي اطمأنوا وركنوا إليه بالتلقين الذي يؤثر في العلم كما بينه علماء النفس فصارت القرينة الباطلة بالتكرار والتلقين تعزهم في ديبهم وتمنعهم عن التسليم لله والحضوع للحق الذي أنزله في كتابه^٤.

١. مفردات الرافعي مادة (عري).

٢. مفردات الرغب مادة (عور).

٣. لسان العرب مادة (عور).

٤. تفسير الميراث، ج ٣، ص ١٢٥.

إن هذا مجرب، فتارة يتفوه الإنسان بحديث كذب ويعلم أنه كذب واقتراء، وعلى صوء
اعادة الحديث يقع في شك منه، ثم يعيده مرت أخرى فيصدق به، حتى يبلغ درجة
الاعتقاد بالرغم من عدم واقعيته، فيصير حديقاً أمام رؤيته العقلية السليمة.
وعلى هذه فلا مجال للقول بأن الكذابين هم فريق من اليهود وأن المحدوعين يمثلون
فريقاً آخر.



وقد أشارت الآية الثانية إلى قوم عاد، وهم قوم ذو قدرة، كانوا يعيشون في الاحفاف
(جنوب أو شمال الجزيرة العربية)، وابتلوا بسريح اعاصف إثر تكذيبهم لرسولهم «هود»
وإثر ظلمهم وفسادهم في الأرض.

فلا آية نقول: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فَيْمَنَا إِنَّ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا ...
وَحَقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ»
إن الآية تؤكد أن تكذيبهم المتوالي لآيات الله سلب إدراكهم ومعرفتهم،
فأبصارهم ترى وأذانهم تسمع وأفكارهم تعقل ظاهراً، إلا أن السار العاجب حال دون
استماعتهم بوسائل المعرفة هذه فابتلوا بعذاب الله.

«يجحدون» من مادة «جحد» ويعني في الأصل نفى شيء نفى الإنسان من وجوده أو
إثبات شيء يؤمن الإنسان بهدمه، وتعبير آخر الجحود يعني انكار الواقعات عمداً وعن
معرفة^١.

إن التجربة أثبتت أن الإنسان إذا ما استمر في انكار الحقيقة، فستصبح القصايا التي يؤمن
بها بشكل قطعي مورد شك وبشكل دائم، وإذا استمر الانكار أكثر فإن قدرته على التمييز
تتبدل بحيث يرى الحق باطلاً والباطل حقاً.

١ معرديات الراءب مادة (جحد) كما يقول الجوهري. إن جحود هو لانكار مع العلم كما ذكر ذلك صاحب مجمع
البحرين في مادة (جحد)

وهناك أسباب وعمل لهذا العمل (أي إنكار الواقعيات مع العلم والمعرفة)، فتارة يسأ عن العناد، وتارة أخرى عن التعصب، وتارة عن الكبر والعز، وتارة يقدم لإنسان عليه حفاظاً على مصالحه المادية التي تتعرض للخطر إذا ما كشف عن الحقائق، وتارة لأهل شهوات أخرى. وعلى أية حال فإن لهذا العمل مردودات سلبية. وهو حدوث حجاب على العمل والمطردة فتقلب قدرة التمييز عند الإنسان رأساً على عقب



٧- حجاب للظن للقاتم

إن اتباع الظنون والخيالات الساطلة يغير عقل تدريجياً ويعرفه عن حادة المعارف الأصيلة. ويحمل حجاباً أمام عينَي الإنسان وادبه في البداية نقرأ معاً خاشعين الآية الكريمة الفانية.

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَخَسَّوْا وَخَسَّوْا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمَّوْا وَخَسَّوْا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

(المائدة / ٧١)



جمع الآيات وتفسيرها

إن هذه لاية باطرة إلى فريق من اليهود ندين عاهدوا الله على أن يسموا دعوات الأنبياء ويحضروا لها، إلا أنهم كلما جاءهم رسول يأمرهم بما يحالف أهواءهم لفسسة بهصو ضده أو قتلوه.

ثم تصيف الآية: إنهم حسبوا أن لا تكون فتنة ولا عذب، وهذا ظل باطل نشأ عن حب الدنيا والكبر والعز، ظل باطل تدعو إليه للشياطين ولأهواء النفسية، وهذا الظن هو الذي ألقى بحجابيه على أفئدتهم وأبصارهم وسمعهم فحل دون أن يعقلوا شيئاً، فلم تعد أبصارهم تدرك الآثار المتبقية من المصير المؤلم للاقوام السالفة ولم تعد آذانهم تملك

قدرة سماع ما يُقبل عنهم، وبهذا فقدوا هابى بوسيلتين المهمتين للمعرفة - السمع والبصر - من الباحية العملية وظنوا أنهم في أمان من عذاب الله، وقد حصل لهم هذا الظن من جلال السير في الأرض ودراسة التاريخ والأقوام سالفة، فما سمعوا عن تلك الأقوام بأذنتهم، ولا شاهدوا بأعينهم، بل إن أبصارهم وآذانهم وأفتدتهم عاطلة عن العمل فحسبوا أن لا عذاب لهم.

إلا أنه بعد انقضاء وطر من الرمن أدركوا خطأهم وازتموا طريق التوبة، وقد وسعتهم رحمة الله فقبل توبتهم.

ومرة أخرى حذعنهم ظنهم الباطلة فظنوا أنهم شعب الله المختار في أرضه (بل أبناء الله)، فأسدلت ستائر العمى والصم ولجهل على أبصارهم وسمعهم وطردوا من رحمة الله تارة أخرى.

إن هذه الآية تنس بوضوح أن الطون الباطلة وخاصة طن الأمان من عذاب الله يجعل عشاوة على الباصر والسمع ويظلمهما **(عن العمل)** وعلى هذا، فالمراد من «معمور ومعمور» هو أن عبيد ما بصرت آيات الله والآثار الباقية من الأقوام السالفة، وأن آذانهم ما صغفت لمواعظ الرسل.

وبديهي أن اتباع الطن الباطل لمرء أو مرات لا يترك هذا المردود السلبي لدى الإنسان، بل الاستمرار عليه هو السبب في ذلك.

وهناك أقوال في سبب عطف الجملة الثانية على الأولى بدوئهم التي يدل على العاصل الرمني.

فقال البعض إن استعمالها للإشارة إلى مصيرين مختلفين لليهود، أحدهما عندما هاجمهم أهل بابل، والثاني عندما هاجمهم لإيرانيون والروميون وأسقطوا حكومتهم^١، وقد جاء شرح ذلك في التفسير الأمثل في بدي سورة يسي إسرائيل.

وقال البعض: إن الجملة الأولى إشارة إلى عهد زكريا ويحيى وعيسى حيث حالقهم

١ تفسير المنار، ج ٦، ص ٤٨١.

اليهود آنذاك، والعبارة الثانية إشارة إلى عهد لرسول الأعظم ﷺ حيث أنكروا نبوته ورسالته^١.

وقال البعض إن العبارة الأولى تبين أن الله لعنهم وطردهم من رحمته وأعمالهم وأصمهم لأجل ظلمهم الباطل من أنهم شعب الله المختار، وقد شملتهم رحمة الله بعد ذلك فتاب عليهم ورفع عن قلوبهم ذلك الباطل، فأبصرهم وأسمعهم تارة أخرى كي يلتفتوا إلى حقيقة هي: عدم وجود فرق بينهم وبين غيرهم، إلا بالتقوى

إلا أن حالة الوعي واليقظة هذه لم تستمر عندهم، وتورط بعضهم ببعض الحساب الخاطيء، القائم على أساس التفرقة العرقية تارة أخرى، فأعمالهم وأصمهم الله ثانية^٢ والجمع بين هذه التفسير ليس مستعدراً، ونتيجتها جميعاً واحدة وهي إن الظن الباطل (كظن اليهود أنهم شعب الله المختار، بمع الإنسان تدريجياً عن الإدراك والعلم ويعرفه عن جادة الصواب، وإذا كان هذا الظن في بدايته فيعطه العمل مسخلة، ورجوعه عن هد الحسبان ممكن، أما إذا تعاقمت الطور وتأصلت في داته فيصبح الرجوع عنها أمراً غير ممكن.

١ وقد ذكر هذا التفسير كاحتمال في تفسير الكبير، ج ١٢، ص ٥١٦ وكذا في تفسير روح المعاني، ج ٦، ص ١٨٤

٢، تفسير الميراث، ج ٦، ص ٧١.



٣- الخُطب الخارجية

١- صحابه للقادة للصلين والمفسدين

إنَّ المحب الخارجية هي المحب التي تكمن وراء أعمال الإنسان وصفاته وتؤثر على العمل والإدراك والشعور وملكة التمييز وتحول دون معرفة الحقائق، وهي عديدة تشكل مساحة واسعة، وقد أشار إليها القرآن بأساليب متعددة وجسلة.

١- ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سِتَ دُنْتَا وَكُفَرْنَا فَاظْلُمْنَا السَّبِيلَا ﴾ رَبَّنَا آتِنَا

صِغْفِيرًا مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿ (الأعراب / ٦٧-٦٨)

٢- ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْجَعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ

الْقَوْلِ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا لِلَّذِينَ سَتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ قَالَ

الَّذِينَ اسْتُكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضِعُّوا أَنْتُمْ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ

مُجْرِمِينَ ﴿ (سبا / ٣١-٣٢)

٣- ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ

كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا مِيزَانًا جَمِيعًا قَالَتْ أُغْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ

رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا

تَعْلَمُونَ ﴿ (الأعراف / ٣٨)

جمع الآيات وتفسيرها

شجار أصحاب النار:

إِنَّ الْآيَةَ الْأُولَى تَبَيَّنَ حَالُ فَرِيقٍ مِنَ الْكُفَّارِ عِنْدَمَا يَرُونَ شِجَةَ أَعْمَالِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ، فَيَقُولُونَ «رَبُّنَا إِنَّا أطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَطَلُونَا السَّبِيلًا»، فَمَا كُنَّا نُبْتَلى بِهَذَا الْمَصِيرِ لَوْلَاهُمْ، ثُمَّ يَقُولُونَ: «رَبُّنَا آتَيْنَاهُمْ ضِيقِي مِنَ الْعَذَابِ» (عَذَاباً لِكُفْرِهِمْ وَعَذَاباً لَأَنَّهُمْ أَضَلُّونَا) «وَالْعَنَتُهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا».

لَهُمْ لَا يَرِيدُونَ سِوَى تَبْرِيرِ أَعْمَالِهِمْ بِكَلَامِهِمْ هَذَا، صَحِيحٌ أَنَّ لِرؤُوسَائِهِمْ دَوْرًا فِي احْتِرَافِهِمْ، لَكِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَسْلُبُ عَنْهُمْ الْمَسْئُولِيَّةَ تَجَاهَ أَعْمَالِهِمْ وَصَحِيحٌ أَنَّ وَسُوءَ الْقَادَةِ الْمُفْسِدِينَ وَارْعَاءَ الصَّائِينَ وَالْمُصْلِحِينَ جَعَلَتْ حِمَايَا عَلَى عَقُولِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ فَحَالَ دَوْنِ تَحْكِيمِهِمُ الصَّحِيحَ، لِأَنَّ مَقْدَمَاتِ هَذَا الْأَمْرِ هِيَ أَوْهَا بِأَنْفُسِهِمْ لِأَنَّهُمْ سَلِمُوا أَنْفُسَهُمْ عَشْوَانِيًّا إِلَى هُزُلَاءٍ مِنْ دَوْنِ احْتِرَارِ أَهْلِيهِمْ لِلْعِيَادَةِ وَهَذَاكَ خِلَافَ بَيْنِ الْمُفْسِرِينَ فِي الْفَرْقِ بَيْنِ سَادَتِنَا وَكِبَرَاءِنَا، أَوْ بِالْأُخْرَى هَلْ هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَهُمَا أَمْ لَا؟

يَعْتَقِدُ الْبَعْضُ أَنَّ «سَادَتَنَا» بِإِشَارَةِ إِلَى مُلُوكٍ وَسُلَاطِينِ الْمَدِينِ وَالْدُّوَلِ، وَ«كِبَرَاءَنَا» بِإِشَارَةِ إِلَى الرُّؤَسَاءِ الْمُحَلِيِّينَ، حَيْثُ عُدَّتْ طَاعَةُ السَّادَةِ مَكَانَ طَاعَةِ اللَّهِ، وَطَاعَةُ الْكِبَرَاءِ مَكَانَ طَاعَةِ الرَّسُولِ، فَقُدْرَةُ وَصْلَاحِيَةِ الْفَرِيقِ الْأَوَّلِ كَثُرَ مِنَ الْفَرِيقِ الثَّانِي وَلِهَذَا قُدِّمَ. وَيَعْتَقِدُ الْبَعْضُ أَنَّ السَّادَةَ بِإِشَارَةِ إِلَى الْمُلُوكِ وَأَصْحَابِ الْقُدْرَةِ، وَالْكَبَرَاءِ بِإِشَارَةِ إِلَى كِبَارِ النَّاسِ، وَلِهَذَا يَتَّبِعُهُمْ بَعْضُ النَّاسِ.

وَيَعْتَقِدُ آخَرُونَ أَنَّ كُلَّيْهِمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ وَأَنَّهُمَا قَدْ وَرَدَا لِلتَّأَكِيدِ^١

وَيَبْدُو أَنَّ الْمَعْنَى الْأَخِيرَ أَنْسَبُ مِنْ جَمِيعِ لِمَعَانِي السَّابِقَةِ.

وَتَجَدُّرُ الْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ «سَادَةَ» جَمْعُ «سَيِّدٍ» وَالسَّيِّدُ يَعْنِي رَئِيسَ السَّوَادِ (أَيِ الْجَمْعِ الْعَفِيرِ مِنَ النَّاسِ)، وَقَدْ أُطْلِقَ عَلَيْهِ سَوَادٌ مِنْ بَابِ أَنَّهُ يَبْدُو أَسْوَدَ اللَّوْنِ مِنْ بَعِيدٍ ثُمَّ أُطْلِقَتْ

١. راجع تفسير روح المعاني، ج ٢٢، ص ٨٧، تفسير المير، ج ١٦، ص ٣٦٩-الكبير، ج ٢٥، ص ٢٢٢.

هذه المفردة على كل رجلٍ كبير.

وقد تحدثت الآية الثانية عن الكفار الطامعين الذين إذا ما رأوا نتيجة أعمالهم في الآخرة سعى كلٌ منهم للإلقاء ذنبه على الآخر. فيقول حينها المستضعفون (أي المغفلون) للمستكبرين (أي الظلمة وأصحاب السلطة الذين أصلوا الآخرين بأفكارهم الشيطانية): لولا وساوسكم المفرية والشيطانية لكنا في صفوف المؤمنين، لقد غسلتم أدمغتنا، وتبعناكم جهلاً، وجعلتمونا آلة بأيديكم لتحقيق مآربكم الشيطانية، وقد فهمنا الآن أننا كنا على خطأ.

بالطبع لم يحرس المستكبرون عندها، بل يجيئون «أَنْحَنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى يَهْدَى إِذْ جَاءَكُمْ» الرسل بالبيات والجمع الكافية؟ بكم معطشون وسحن غير مسؤولين عن ضلالتكم، «بَلْ كُنْتُمْ بُحْرِمِينَ» ومدسين لأنكم تركتم ما دعتكم إليه الرسل واتبعتم الأقاويل الباطلة بالرغم من إرادتكم واختياركم.



وقد أشارت الآية الثالثة إلى «سُحَّار» «القادة» و«الأتباع» الصالين في جهنم، فكلما دخلت أمة لعنت الأخرى واعتبرتها هي المسؤولة عن شقائها وعدايبها في الآخرة، ويقول الأتباع يومذاك: «زَيْنًا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَاتَّبَعْنَاهُمْ عَضَاً وَغُورًا» عدايباً لأنهم ضالون و«عَذَاباً لَّهُمْ أَضَلُّونَا وَأَغْوَيْنَا»

فيجيبهم الله: «لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ»

إن مضاعفة العذاب لقادة الباطل أمر متوقع وليس عجباً، إلا أن مضاعفة العذاب لاتباعهم أمر قد يبدو غريباً للوهلة الأولى، لكننا إذا دققنا في الأمر نجد ضرورة مضاعفة العذاب لهم، عذاب: لأجل أنهم ضالون، وعذاب: لأجل اعانتهم أئمة الكفر والذود عنهم والقتال دونهم، كما جاء ذلك في حديث للإمام الصادق عليه السلام عندما جاءه أحد أصحابه معلماً توبته عمًا قدمة لبني أمية من خدمات، يقول فيه:

« تَوَلَّوْا أَنْ بَنِي أُمِّيَّةٍ وَجَدُوا مَنْ يُكْتَبُ لَهُمْ وَيُجِيبُ لَهُمْ الْقِيَّةَ وَيُمَاتِلُ عَنْهُمْ وَيَشْهَدُ
جَمَاعَتَهُمْ كَمَا تَكُونُ حَقًّا »^١

توضيحات

١- « المستضعفون » و« المستكبرون » في القرآن المجيد

تحدث القرآن المجيد مراراً عن المستكبرين « والمستضعفين » وهو موضوع مهم وجدير بالانتباه ويمكن أن يشكل أحد المباحث المستقلة في التفسير الموضوعي، إلا أنه ينبغي هنا الإشارة إليه بصورة عابرة مع بيان الآيات التي وردت في هذا البحث

يقول الراغب في مفرداته: إنَّ الكبر والنكر ولاستكبار لها معانٍ متقاربة، ثم يصيف: إنَّ للاستكبار معنيين أحدهما أن يتعزى الإنسان ويطلب أن يصير كبيراً وذلك متى كان على ما يحب وفي المكان الذي يحب وفي الوقت الذي يحب والثاني أن يشبه فيظهر من نفسه ما ليس له وهذا هو المذموم وعلى هذا ما ورد في القرآن، وهو قوله تعالى « أَلَمْ يَكُنْ »^٢ (البقرة / ٣٤)

ثم يصيف الراغب: قابل المستكبرين بالصعفاء تنبيهاً لأنَّ استكبارهم كان بما لهم من القوة من البدن والعمال^٣.

إنَّ الاستضعاف يقابل الاستكبار وهو يصي حسب الصعفاء وقلة الجنده، لكن بما أن هذه المادة غالباً ما تستعمل في القرآن بصيغة (فعل مبني للمجهول) أو (اسم مفعول)، فتعني الضعف الذي فرض عليهم من قبل المستكبرين.

وقد استعملت في القرآن بصيغة الفعل المبني للمعلوم كما جاء ذلك في فرعون الذي استضعف بني إسرائيل:

« إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ».

(التقصص / ٤)

١ بعار الأنوار، ج ٧٢ (٧٥)، ص ٣٧٥، سمية البحار، ج ٢، ص ١٠٧ مادة (طلعة).

٢ مفردات الراغب، مادة (كبر).

كما ينبغي ذكر هذه النقطة وهي: أن القرآن استعمل مفردة (مُسْتَغْفِر) بمعنىين الأول المظلومون في الأرض، وهم المشمونيون بأنطاف الله، كما جاء ذلك بالنسبة إلى مستغفري بني إسرائيل حيث قال الله فيهم:

﴿ وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِبُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۖ ﴾
(الفصل / ١٥)

والمعنى الثاني وهو المستعمل غالباً في لقرآن المحيد: الصغفاء فكراً بسبب جهلهم وتقليدهم الأعمى وتعصيتهم، فينبعون الطمعة والقادة الصالحين عشوائياً. وهؤلاء هم الذين أشارت الآيات المذكورة في أول البحث إلى شجارهم مع المستكبرين في يوم القيامة وصرحت أنهم يستحقون العذاب المصاعف كالمستكبرين: عذاباً لأجل أنهم ضالون وعذاباً لأجل أنهم ساهموا في تثبيت أسس حكومة لجبارين.

XXXXXXXXXX

٢- دور القادة والأمراء في التأثير على الناس

لقد جاء في حديث للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «الناس يأمرونهم أشبه منهم بأمرهم»^١. إن هذا الشبه يمكن أن يكون من حيث إن فريقاً من الناس يتبعون الأمراء ويقتدون بهم جهلاً وغفلة ويجعلون قلوبهم وديهم رهناً لإشارات هؤلاء الأمراء وإيعاداتهم، ولهذا اشهر الحديث «الناس على دين ملوكهم»

إن هؤلاء الأمراء في رأي بعض لاس أبطال وقدوت نموذجية وأسوات حسنة وأرفع شأناً من أن ينتقدوا، وقد يفلد البعض أنفسهم مصاصب مقدسة فيفرروا ببعض الجهلة والعموم، ويجعلوا حججاً أمام أفكارهم وعقولهم.

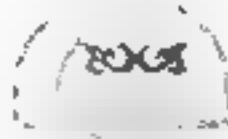
ومن المتعارف أن هناك فريقاً يعتبر «لقدرة» دليلاً على «الحقانية»، ويعتبر المنتصر هو المعق فرداً كان أو جماعة، وهذا لأسلوب من التفكير جعلهم فريسة للكثير من الأخطاء

١ بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٤٦ كتاب الروضة كلمات علي عليه السلام، ح ٥٧

والاكتشافات في حساباتهم الاجتماعية.

إن الملوك والقادة الجبارين أهبوا دخولاً فسدوا، وذلك لاستغلال الضعف والعجز الفكري لدى بعض الناس، كما جاء ذلك في القرآن على لسان ملكة سبأ: «قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَّبَتْكَ بِطَغْوَاهُمْ» (النمل / ٣٤) وبالرغم من أن هذا الحديث تفوهت به ملكة ظالمة، إلا أن ذكره في القرآن من دون أي نقد من جهة، وصدوره من شخصية طالمة وحبيرة بما عليه الظلمة من أمثالها من جهة أخرى دليل على واقعية هذا الحديث الشبيه بالاعتراض.

ولهذا أرادت ملكة سبأ أن تحتبر سلطان هل هو ملك أو ببي حفا؟ فأرسلت إليه هدايا كي تعرف رد فعله تجاهها، وذلك لأنها تعرف أن أفكار الملوك وقلوبهم رهى الهدايا والذهب والفضة والشأن والمقام، بينما الأنبياء لا يهمهم شيء سوى صلاح الأمم



٢- صحاب الأصدقاء الضالين

«وَنَزِمَ يَتَصَرُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَتَلَبَّسُ بِلِبَاسِ الْمُؤْمِنِينَ خَلِيلًا • يَتَأْتِي لِيَتَّبِعُنِي أَنَا أَعْلَمُ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ وَإِذَا جَاءَهُمْ رَأَوْا بِهِ أَعْيُنًا عَالِيَةً قَدِ اسْتَشْفَعُوا لَهُمْ فَوَيْلٌ لِلنَّفْسِ الظَّالِمَةِ» (الفرقان / ٢٧ - ٢٩)



جمع الآيات وتفسيرها

إن هذه الآيات تشرح مشهداً من مشاهد يوم القيامة، وهي لحظات تأسف الظالمين وتأثرهم من أعمالهم إلى درجة حيث يعصون على أيديهم
إن تعبير «يَتَصَرُّ» من مادة «عَصَّ» ومعناها «أصاح»، والتعبير بـ (يَتَصَرُّ) في العربية

وكذا هي الفارسية كناية عن شدة التأسف والارجار، وقد شوهد أن كثيراً من الناس إذا ما واجهوا مصيبة عظيمة ناشئة عن سوء عملهم وجهلهم عضوا على أيديهم أو أصابعهم أو ظاهر أكفهم، وكأنهم يريدون عقاب أيديهم لأجل قيامها بهذا العمل.

إلا أن المصيبة إذا لم تكن شديدة جداً اكتفى بعض أمثالهم كما قال الفران حاكياً حال الكفار في الآية ١١٩ سورة آل عمران: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَنْكُمْ الْأَمْرَ مِنَ الْقَهْظِ﴾. أو اكتفوا بعض ظهر إحدى اليدين، أما إذا كانت مصيبة شديدة جداً فتارة يعضون أيديهم اليسرى وأخرى أيديهم اليمنى، وإذا جاء في الآية للكرامة هو لا يديهم وهذا يكشف عن أن لمصيبة عظيمة للغاية يوم القيامة، وغالباً ما يقرر بعض بالتعوي بحمل وأقويل مفهومها التوبيخ للنفس، ويتحد حينها الكلام مع السوك في برر العصب.

ويقولون عندها: ﴿لَيْسَ أَتَعْدُتْ مَعَ الرَّسُولِ سَيْباً﴾ * يَا وَيْلَتَى لَيْسَ لَمْ أَتَعِدْ فَلَنَا خَلِلاً * لَقَدْ أَصَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ هَذَا إِذْ جَاءَنِي * إِلَّا أَنْ هَذَا الْحَبْلَ مَا سَمِعَ لَهُمْ بِالْقِطْعَةِ

وعلى هذا، فهم يعدون الحبل لهذا هو السهم لأساسي لشعائهم، حيث جعل حجاباً أمام أفكارهم وعقولهم حال دور رؤيتهم لجبال الحق

وهنا أقوال في المراد من «فلان»:

احتمل البعض أنه الشيطان، حيث يختبه لإسار - أحياناً خديلاً، وذلك بقربة قوله في ديل الآية: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً﴾

ويقول البعض: إن المراد منه هو نفس الشخص الذي سرت في شأنه الآية، أي «عقبة» وهو أحد الكفار المعروفين، أسلم وأرتد عن الإسلام وتخلّى عن الرسول لأجل حيله «أبي»، وقتل في معركة بدر، بينما قُتل أبي في معركة أحد^١

لكن الظاهر أن مفهوم الآية - كما يقول البعض - كلّي شامل لجميع لأصدقاء الصالحين والمؤسوسين، وأن شأن الرسول لا يخصّ الآية بدءاً، خصوصاً وأن لمردة

١ تفسير مجمع البيان، ديل نفس الآية مورد البحث ويقول البعض إن «أبي» لإسار الوحيد الذي قتله الرسول

بيده طيلة عمره الشريف (تفسير روح البيان، ج ٦، ص ٤٢٠)

«الشيطان» معنى واسعاً يشمل شياطين الجن ولاس. كما أن ذكر كلمة «فلان» وبصيغة النكرة قريبة واضحة على إطلاق المفهوم^١.

وقد قيل في تفسير «شركاء المشركين» سيد دكروا في الآية ١٣٧ من سورة الأنعام: «وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيُزْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ». أنهم المتولون لمعابد الأصنام، حيث كانوا يعوون لاس ويعرونهم لتضحية أولادهم للأصنام، وبهذا اللبس عليهم الحق، ونُقي حجاب على عقولهم وأفكارهم وعلى هذا التفسير، فإن الآية تُعدُّ شاهداً واضحاً على بحسب أي أن الأصدقاء المضلين يشكلون حجاباً للعقل يمنعهم عن المعرفة



توضيح

دور الأصدقاء في التأثير على طريقة التفكير عند الآخرين:

يشاهد في الروايات الإسلامية تعابير كثيرة في هذا المجال، تكشف عن أن الأصدقاء الصالحين والمستشارين الفضالين يمكنهم السيطرة على فكر الإنسان وتغيير موارين عقله وإعلاق طريق الحق عليه، ونذكر هنا سادج من الروايات التي تشير إلى ذلك:

١- نصيح الإمام علي عليه السلام ابنه الحسن يوماً قائلاً له:

« يا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَمَصَادِقَةُ الْأَحْمَقِ فَإِنَّهُ يَمُرُّ بِكَ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيُضْرِكُ ... وَإِيَّاكَ وَمَصَادِقَةُ الْكَذَّابِ فَإِنَّهُ كَالسَّرَابِ يَهْرُبُ عَلَيْكَ الْهَيْدُ وَيُجِدُّ عَلَيْكَ الْقَرِيبُ »^٢

٢- وقد جاء في عهد الإمام علي عليه السلام لما لك الأشر حول المستشارين:

«وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَحْدِلُ بِكَ عَنْ التَّضَلُّ قَرِيبُكَ الْفَقْرُ وَلَا جَبَانًا

١ تفسير في ظلال القرآن، ج ٦، ص ١٥٦

٢ نهج البلاغة الكلمات القصار الكلمة ٣٨

يُضْحِكُكَ عَنِ الْأُمُورِ وَلَا حَرِيصًا يَزِينُ لَكَ الشَّرَّ بِالْجَوْرِ»^١

ويستفاد من التعبير الأخير أَنَّ المستشارين المعرفين يمكنهم التأثير في فكر الإنسان ويحولون دون الإدراك والمعرفة.

٣- وقد جاء في حديث آخر للإمام علي عليه السلام:

«مَجَالِسَةُ الْأَشْرَارِ تُؤَوِّثُ سُوءَ الظَّنِّ بِالْأَحْيَارِ»^٢

٤- وقد جاء في حديث للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

«السُّرْمَةُ عَلَى دِهْنٍ خَلِيلُهُ وَقَرِينُهُ»^٣.

وبهذا يتضح تأثير الصديق الصالح وغير الصالح على كيفية المعرفة واسلوب التفكير.

❦❦❦

٣- حجاب الإعلام والوسط الاجتماعي

في البداية نتأمل حاشمتين في الآيات الكريمة التالية:

١- ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن دُونِكِ وَأَضَلُّهُمْ السَّامِرِيُّ • فَأَخْرَجَ

لَهُمْ عِجْلًا بَدَلًا لَهُ خُوزًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِنَّهُ مُوسَىٰ قَتِيلٌ •﴾ (طه / ٨٥-٨٨)

٢- ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحِمَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا

أَوْقَىٰ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ •﴾ (القصص / ٧٩)

٣- ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ

عَظِيمٍ •﴾ (الأعراف / ١١٦)

٤- ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمُوا بِالنَّبِيِّ أَنْزَلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ

السَّهَابِ وَآكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ •﴾ (آل عمران / ٧٢)

١ نهج البلاغة، الرسالة ٥٣

٢ سفينة البحار، ج ١، ص ١٦٨

٣ أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٧٥، باب مجالسة أهل المعاصي، ح ٣

٥ - «أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكْتَادُ بَيْنَهُ • فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ
أَسْوَرةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَتْهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ • فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ
كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ» (الزخرف / ٥٢ - ٥٤)

﴿٥٢﴾

جمع الآيات وتفسيرها

الإمام المسموم:

إن الآية الأولى أشارت إلى قصة السامري طالب الشأن والمقام، الذي استعمل غيبة
موسى عليه السلام أثناء ذهابه إلى طور سيناء (للقاء ربه) لمدة أربعين يوماً، فجمع ذهب وحلي بني
اسرائيل وصنع منها صنماً في صورة عجل! ويطهر أنه وضعه باتجاه الريح بحيث يُسمع
صوتاً كزغاة البقرة عند هبوب الرياح، وقد عبر القرآن عن هذا الصوت بـ «صَوَارِهِ» أي صوت
البقرة البطيء.

إنه انتهر الفرصة بأسلوب خاص، حيث قام بعمله هذا بعد مصي خمسة وثلاثين يوماً
من عيبة موسى، أي عندما أحدث أنوار التبليغ التوحيدي تنصاع في قلوب بني
اسرائيل، حيث كان المفروض أن يرجع موسى من طور سيناء بعد ثلاثين يوماً، إلا أن الله
أخر ميعاده لامتحن بني اسرائيل فاتهم أربعين يوماً.

يقول القرآن في هذا المجال: «قَالَ قَائِلًا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ
السَّامِرِيُّ».

وعلى أي حال فإن انحراف بني اسرائيل الذين ينقل أن عددهم بلغ الستمائة ألف)
عن طريق التوحيد الخالص إلى الشرك والكفر وعبادة الأصنام ليس بالأمر الهين، إن الآيات
التي جاءت في هذا المجال في سورة «طه» وغيرها من السور وكذا التواريخ والتفاسير
تكشف عن أن السامري كان يستعين بأسلوب خاص من الاعلام والتبليغ للإستحواذ على
أفكار الناس وغسل أدمغتهم، بحيث جعل حجاباً على عقولهم، فظنوا (بسبب ذلك

العجائب) أَنَّ هَذَا الْعَجَل هُوَ إِلَه مُوسَى؟!

والعجيب هنا أَنَّ الأمر بلغ بني اسرائيل لئِنْ حَدَّثَ حَيْثُ رَدَدُوا مَا قَالَه السامري: «هَذَا إِلَه

موسى»، والتعبير بـ«قَالُوا» شاهدٌ على هذا

والتعبير لآخر دليل واضح على تأثير إعلام السامري الشديد، إنه كان يستثمر إعلامه

في الجهات التالية

١- انتهاز فرصة غيبة موسى.

٢- تمديد غيبته إلى أربعين يوماً.

٣- الاستعانة بالذهب والحلي التي كانت ثمينة بالنسبة لبني اسرائيل

٤- استثمار الأرضية المساعدة، وبمعرفة مثل طبهم من موسى حمل صمم إليها عندما

نجوا من العرق في الليل، ومرو يقوم يهدون لأصنام: «قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا

كُنْتَ تَعْبُدُ آلِهَةً» (الأعراف / ١٣٨)

٥- مكانته الاجتماعية عند بني اسرائيل وعظماءهم عليه إلى حدٍ حيث كانوا يولون له

قدسية خاصة ويهدونه ذهب جبرئيل

٦- حب صفاء الفكر لأله محسوس، وعدم الثقاتهم إلى أَنَّ الله بعيد عن المحسوس

والصفات الجسمانية، حيث بلغ بهم الأمر أن ضنوا من موسى رؤية الله جبهة كما عكس

القرآن ذلك في الآية الخامسة والخمسين من سورة البقرة.

إن هذه الأمور وأموراً أخرى سببت انحراف بني اسرائيل عن جادة التوحيد بالكامل،

واغواءهم بتبليغ السامري واعلامه وفي النهاية عبادتهم للأصنام.

ولهذا، عندما رجع موسى وعلم بهم، وبين القبح لشديد لعملهم هذا، استيقظوا من

غفوتهم وصرخوا قائلين ندمنا! ندمنا! واستعدوا لأجل قبول توبتهم أن يقتل بعضهم بعضاً

كفارة لذنبهم العظيم (البقرة / ٥٤).

١- تفسير روح البصائر، ج ٧، ص ٤٨٢؛ تفسير روح البصائر، ج ٥، ص ٤١٤؛ دائرة المعارف - دهخدا - مادة (سامري).

(بالمدرسية).

وعلى أي حال، فإن الآية دليل واضح على حجاب الاعلام المصلل.

❦❦❦

وتحدثت الآية الثانية عن «قارون» العني والمعروف في بني اسرائيل الذي قام يوماً باستعراض ثروته أمام بني اسرائيل

لقد نُقِلَ في التواريخ قصص كثيرة في هذا المجال. فكتب بعضهم: ظهر قارون مع فريق يُعدُّ بأربعة آلاف رجل وامرأة من العدم والحشم والجاريات، فالرجال على خيول أصيلة، بألبسة حمراء، والجاريات على بعال بيض سروجها من ذهب، والجميع مزينون بالحلي والحلى والذهب والمجوهرات^١

وقد قدر البعض عدد أفراد قارون بسبعين ألفاً، وإذا لم تعتبر هذه الأرقام واقعية، فتعبير القرآن «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ» يكشف عن عطية تلك اللعطة، وقد يكون عمله هذا من أجل تحدي وأعصاب موسى ﷺ أو تثبيتاً لقدرته في بني اسرائيل، أو أنه جود عرض الثروة والثروة اللتين يُبتلى بهما كثير من المستمولين والأصياء، وعلى أي حال، فإن تلك اللقطات والاعلام المتزامن معها كان بدرجة من العظمة سلبت عمول الكثير من بني اسرائيل وألقَتْ بستار على أرواحهم حتى جعلتهم يتمنون أن يكون لهم ثروته وقدرته، ويعدونه سعيداً و«نور حظهم عظيم».

وبعد ما جاء ذلك اليوم الذي حسف الله الأرض بقارون وثروته بسبب جرائمه وأعماله المشينة، وعلم الجميع بما خلَّ به استيقظوا من غفلتهم وأبدوا سرورهم من حيث إنهم لم يكونوا مثل قارون.

إن تأثير الاعلام لا ينحصر على ذلك الرمان محسب، بل يشمل في كل عصر وهذا أمر لا يُسَكَّر، وإن كثيراً من جبايرة العاصي والحاصر يستعينون باستعراض قوتهم وامكانياتهم كاستعراض قارون لأجل تخدير أفكار الناس، وتضييقها، وسحر أعينهم، وقد

١ راجع تفاسير الكبير والقرطبي وروح المعاني في ديل الآيات في سورة القصص.

جَنُّوا ثَمَارَ مِثْلِ هَذِهِ الاسْتِعْرَاضَاتِ وَلَا يَرَالُونَ، وَإِنَّ لِعُلَمَاءَ وَالْمُفَكِّرِينَ الرِّسَخِينَ هُمْ فَقَطِ الْقَادِرُونَ عَلَى رَفْعِ هَذِهِ الْحُجُبِ عَنْ أَفْكَارِهِمْ وَأَفْكَارِ غَيْرِهِمْ، وَتَبْيَانِ الْوُجُوهِ الْحَقِيقِيَّةِ لَهُؤُلَاءِ الْجَبَابِرَةِ



وقد بيّنت الآية الثالثة جواباً من جواب مفارقة موسى للسحرة، الذين دعاهم فرعون من جميع أرجاء مصر وأعرأهم بالكثير من الوعود، والذين يقدر عددهم بعشرات الآلاف من السحرة طبقاً لبعض الروايات، وبخمسة عشر ألف ساحر طبقاً لروايات أخرى (يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْعِدَدُ مُتَعَلِّقاً بِمَنْ السَّحَرَةُ وَأَعْوَانُهُمْ وَعَمَالُهُمْ، كَمَا يُسَمَّى الْإِلْتِقَاتُ إِلَى أَنَّ السَّحَرَةَ كَانَ رَانِجاً فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ بِكَثْرَةٍ)

وقد اجتمع لأجل ذلك جمعٌ عظيم من الناس عند الصبح في يوم كان عندهم عيداً (كما عَيَّرَ عَنِ الْقُرْآنِ «يَوْمَ الزَّنْيَةِ» وَ«ضَحِيَّ» فِي الْآيَةِ ١٠٢) مِنْ سُورَةِ طه، وَقَدْ كَشَعَتِ الْقُرْآنُ عَنْ أَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ وَاقِفاً مِنْ انْتِهَارِ السَّحَرَةِ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَدَلَّكَ لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ سَحَرَ جَمِيعَ وَسَائِلِ الْأَعْلَامِ لخدمة هذه القضية

تَقُولُ الْآيَةُ: «فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ»

وَيَنْبَغِي هُنَا مَعْرِفَةُ مَعْنَى «الاسترهاب» و«السحر» جيداً لهما الآية.

جاء «السحر» - لمة - بمعنىين، الأول هو «الخدعة»، والثاني هو الشيء الذي غمضت عوامله وكانت غير مرئية، وقد أرجع البعض كلا المعنيين، إلى معنى واحد وقالوا: إِنَّ حَقِيقَةَ السَّحَرِ هِيَ قَلْبُ الشَّيْءِ مِنْ حَقِيقَتِهِ إِلَى شَكْلِ آخَرٍ

وكما علنا في المجلد الأول من التفسير الأمل عند تفسير الآية ١٠٢ من سورة البقرة أَنَّ السَّحَرَةَ غَالِباً مَا يَعْتَمِدُ عَلَى الْحَوَاصِّ الْكَيْمَاتِيَّةِ وَالْفِيزِيَاثِيَّةِ لِلْمَوَادِّ الَّتِي لَمْ يَعْرِفْهَا النَّاسُ إِلَّا أَنَّ السَّحَرَةَ يَعْرِفُونَهَا جَيِّداً وَقَدْ اعْتَمَدُوا عَلَيْهَا كَيْدًا، كَمَا أَنَّهُ جَاءَ فِي التَّفَاسِيرِ حَوْلَ قِصَّةِ

مقارعة موسى ﷺ للسحرة، إذ يحتمل أن ما جاء به لسحرة هو مجموعة من العصي والحبال الجلدية الجوفاء والمليئة بمادة الرنبق الرز. وما أن الحركة والتمدد الشديد من خواصه عند ارتفاع درجة حرارته، فعندما ألغوا هذه العصي والحبال بدأت بالحركة والفقر والتقلص والانبساط بفعل حرارة الشمس أو الحرارة المنبعثة من المكان الذي يحتمل وجود مصدر حراري تحته^١.

وقد يستعين السحرة في عروضهم - أحياناً - بالشعوذة وحفة اليد، فيرى الناس أشياء لا واقع لها، وقد شاهد كثير من الناس مباح من هذه العروض، وقد يشرون مواد كيميائية خاصة عن طريق الطلوع وتبخر عشاب معينة بحيث تؤثر على الحاسة الباصرة وحاسة السمع بل وحتى على اعصاب الحضور لتمثيل صور غير واقعية أمامهم. كما يحتمل أنهم يستعينون بالترويم المغناطيسي وتلقين بحيث تمثل صور غير واقعية أمام الناس.



بالطبع هناك قسم آخر من السحرة يحتمل استعانة السحرة به وهو تسخير بعض أو بعض الأرواح (وهذه خمسة طرق رئيسية للسحر)

وقد يطلق السحر على معنى أوسع من المعاني السابقة، فيقال لمن حسن بيانه « له بيان ساحر » كما جاء في الحديث: « إن الفقه سحر، لأنها تفرق بين الأحبة، إلا أن الذي جاء في الآية هو « سحرُوا أعين الناس » وهو التلاعب بباصرة الحضور بحيث يجعلهم يرون أموراً لا واقع لها، فيرون حيه تسمى وإن لم يكن هناك حيه أبداً، والشاهد على هذا الحديث هو الآية « فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخُلُقِهِ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْفَى » (طه / ٦)

(مع أنها لا تسمى ولا تتحرك لكن الرنبق - احتمالاً - هو الذي جعلها تبدو هكذا) وأما « استرهبوا » فمن مادة « رهب » وهو نحوف لمتراحم مع التحفظ والاضطراب (كما

١ راجع تفسير روح المعاني، ج ٩، ص ٢٢ التفسير الكبير ١٤ ص ٣ ٢، تفسير روح البيان، ج ٣، ص ٢١٣، تفسير المنار، ج ٩، ص ٦٦ وتفسير أخرى.

يقول الراغب في مفرداته) وقد هسر كثير من مفسرين الاسترهاب بالارهاب أي إيجاد الخوف والاضطراب، والتعبير هذا يكشف بوضوح عن استعانتهم بوسائل الاعلام والتلفزيون إضافة إلى سحر (وغالباً ما يستعمل سحرة يهدين، الأمرين، بل لقسم الأعظم من موقفتهم يرجع اليهما وإلى حسن القيام بهما).

وقد نقل أن مساحة المحل الذي عُدَّ لهم لأمر كان ميلاً في ميل^١، كما نقل أيضاً أنهم أعدوا جبلاً من العبال والعصي التي تبدو وكأنها أفاعي تسمى^٢ ثم خاطب السحرة الناس بأقوال مثل: بها أساس ابتعدوا عن مساحة لكي لا تمسكم الأفاعي بصرر لآتها خطرة ومحيفة! ومثال هذه لتعابير التي أُشير إليها في بعض التفاسير^٣، وقد نأثر بهم الناس كثيراً لأنهم سحروا أعينهم وقلوبهم، وبهذا ألفوا بحجبتهم على حواس الناس وعلى عقولهم للحيولة دون إدراك الحقائق والواقعات

❦❦❦

لقد كشفت الآية الرابعة عن إحدى المؤامرات الإعلامية التي حاكها اليهود ضد الإسلام، والتي كان هدفها تصغير عقيدة المسلمين بالإسلام، وقصتها أن فريقاً منهم أسلموا وآمنوا ظاهراً في النهار وارتدوا عن الإسلام في الليل، وعندما سئلوا عن سبب رجوعهم عن الإسلام قالوا: إنا لاحظنا صفات محمد ﷺ من قريب فوجدناها لا تتطابق مع كتبنا الدينية وأحاديث علمائنا فرجعنا عنه.

إن هذه الحملة الإعلامية سببت في ارتداد قوم من المسلمين عن الإسلام، إذ قالوا: إذا ارتد عن الإسلام أهل الكتاب الذين هم فهم منا ويعرفون القراءة والكتابة، فلا بد وأن الذين باطل ولا أسس قوية له، وبهذا استطاعوا أن يشوشوا على أفكار البسطاء من الناس

١ تفسير روح المعاني، ج ٩، ص ٢٢

٢ تفسير المنار، وقد نقل هذا الحديث عن مصر باسم ابن إسحاق، ج ٩، ص ٦٦

٣ التفسير الكبير، ج ١٤، ص ٢٠٣

ويلقوا بحجاب فنتهم على عقولهم.

إنَّ مُردة « طائفة » في عبارة « وقالت طائفة » من مادة « طواف » وتعني فريقاً من الناس بشكل حلقة، وكانهم يطوفون حول موضوع ما، والمراد منها على ما يقول بعض المفسرين: هو الاثنا عشر يهودياً من يهود خيبر أو المدينة أو نجران، حيث تألموا كثيراً عند تدمير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، فعكوا هذه المؤامرة^١

إنَّ التعبير بـ « وجه النهار » إشارة إلى بداية لهار لأنَّ الوجد أول شيء يواجهه الإنسان، وهو أشرف عضو، بالطبع أنَّ الآية حكمت المسألة كاقتراح اقترحه البعض ولم تتكلم عن تمييز هذا الاقتراح، إلا أنَّ الفرائض أُنسب أسهم بدوا مؤمرتهم بعد ما حاكوها، وإلا فيستبعد أن يذكره القرآن باهتمام بالغ، والآيات اللاحقة تحكي عن هذه الأهمية لكننا نعلم على أية حال، أنَّ خطبهم الإعلامية هذه لم تترك أثراً ملحوظاً في قلوب المؤمنين الذين طهرت قلوبهم.



إنَّ الآية الاحمسة والأخيرة بيَّنت كذلك جانباً من جوانب معارضة موسى عليه السلام لفرعون، فعندما اتجهت الأنظار إلى موسى وكادت القلوب أن تهتدي والأفكار أن تُصحح، قام فرعون بحملة إعلامية شديدة سعياً منه لعرف الناس عن اتجاههم نحو دين موسى، وقد انعكس في هذه الآية جانب من جوانب الاعلام الفرعوني المصلل اعتمد اعلامه في البداية على ذكر شرفه العائلي ونسبه، وقال: «أنا خير من هذا الشخص مشيراً إلى موسى» الذي ينحدر من عائلة فقيرة حيث يعمل راعياً وعبداً من عبيد بني إسرائيل.

وهو لا يملك قدراً من الفصاحة وأنا أفصح منه.
وقضلاً عن ذلك «قلوا لا آتيناك أسورة من ذهب» أي لِمَ لم يكن له سوار من ذهب

١ التفسير الكبير، ج ٨، ص ٨٥ تفسير روح المعاني، ج ٣ ص ١٧٦، تفسير القرطبي، ج ٢، ص ١٣٥٤

الذي كان يُعد علامة وبيان لشخصية صاحبه.

ثم أنه إذا كان صادقاً لِمَ لم يأتِ بملائكة معه كي تكون شاهداً وعلامة على صدق كلامه؟

وبهذه الحجة الأربع ادّعى بطلان نبوة موسى عليه السلام.

يقول القرآن في هذا المجال ﴿فَسْتَحَفُّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾^١

إنَّ «استحف» من مادة «خففت» والمراد منه هنا هو أنَّ فرعون سعى لأنَّ يستحف عقول قومه، جاء في تفسير مجمع البيان: «فرعون استحف عقول قومه فأطاعوه فيما دعاهم إليه لأنَّه احتج عليهم بما ليس بدليل وهو قومه أليس لي ملك مصر... إلخ»^٢ (أو استحقاق الطاعة للحماهير أمر لاغربة فيه؛ فهم بمربوب الحماهير أولاً عن كل سبل المعرفة، ويحبسون عنهم الحقائق حتى ينسوها ولا يوردون يبحثون عنها؛ ويلقون في روعهم ما يشاؤون من المؤثرات حتى سطع بعوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة، ومن ثمَّ يسهل استحقاقهم بعد ذلك، وليس قبادتهم). فليحییون بهم ذب اليمين ودين الشمال مطمئنين^٣ والجدير بالذكر أنَّ القرآن يقول في نهاية الآية: «إِنَّهُمْ أَطَاعُوهُ وَاسْتَسْلَمُوا لِعَلَامِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ مَذِيبُونَ وَفَاسِقُونَ، وَهُوَ يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ الْهَادِفَ وَالْوَاعِي لَا يَكُونُ عَرِصَةً لظاهرة غسل الأدمغة، بل العسق والدوب هي التي تهيب الأرصية لتقبل إعلام باطل كهذا وتعتبر آخر. فإنَّ «النفس الامارة» من داخل، و«الوساوس الشيطانية» من الخارج يتعاضان فيكتمان المعرفة عن الإنسان.

❦❦❦

١. تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٥٦.

٢. تفسير في ظلال القرآن ج ٧، ص ٣٤٠.

توضيح

الجهات المتعددة للإعلام الفضل:

إن هذه القضية في عصرنا الحاضر أوضح من أن تبحث أو تُناقش، كما أنها لم تخف على
انسان في العهود الغابرة.

إن الجبايرة الدين أرادوا فرض إرادتهم وحاكمتهم على الناس، توسلوا بوسائل
إعلامية مختلفة لفصل أدمغة الناس، بدءاً بالمك تيب القديمة وانتهاءً بالمحاريب والمبار،
وأخيراً برواة القصص والأساطير في المذهبي، وانتهاءً بالكتب العلمية.

والخلاصة إنهم استعملوا بجميع الوسائل المصطنعة للوصول إلى مآربهم، من تحريف
التاريخ، وأشعار الشعراء، وثناء المذاهب، ومراكر التقديس والاحترام عند الناس،
واختلاق الأساطير والكرامات والقيم غير الواقعية، وغيرها من الوسائل، فإنهم يستطيعون
بوسائل الاعلام هذه أن يصوروا الشيطان ملكاً أو إبساً محرمأ، وذلك كله من أجل
الوصول إلى مآربهم

وقد جاء في بعض التواريخ الإسلامية المعروفة أن طاعة أهل الشام لمعاوية بلغت
درجة عجيبة، وسفل هنا عبارة السعودي في هذا المجال

«لقد بلغ من أمرهم في إطاعتهم له أنه صمى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة في يوم
الأربعاء»^١.

والقصة التالية قصة معروفة (ولَوْ لَمْ تكن مرويّة في كتب التاريخ لكان قبولها صعباً)،
حيث إن رجلاً من أهل الكوفة قدم دمشق راكباً جملأ في وقت كان أهل الشام يرحمون من
صفين، فرآه رجل دمشقي فقال له: إن هذه الناقة لي وأنت أحدثها مي في صفين، فتسارعاً
فاشتكى الشامي عند معاوية (وكأنها اتحدت صبعة سياسية) وجاء بحمسين شاهداً على أن
هذه الناقة له، فقضى له معاوية على أساس الشهود.

فصرخ الكوفي قائلاً لمعاوية: إن هذا جمل وليس ناقة (أنشئ الحمل)، وطلب منه أن

يلاحظها بعينه، فأدرك معاوية صدق الكوفي فيما يقوله، لكن رغم ذلك قال له: إِنَّ الحكم صدر وانقضى، وبعد ما تفرّق الناس أرسل معاوية رجلاً إلى الكوفي، فأتاه وأعطاه ضعف قيمة جملة، وقال له: «أبلغ علياً أنّي أقبله بمائة ألف ما فهم من يُفرق بين الناقة والجمال»^١ وخلاصة القول: إِنَّ في التاريخ شواهد ومناجح كثيرة تكشف عن كيفية إغواء الطغاة والساسة لأمم عظيمة وغسل أدمعتهم بحيث صلوا خياري في متاهات الدروب، وبتلوا بمصائب كثيرة، وعند استتباب الأوضاع ورجوعها إلى حالتها الطبيعية، وعند سقوط الجبار المصل، وارتفاع حجب الاعلام، يستوقف بعض الناس وينسبون لماصيهم فيتناسعون ويندمون كثيراً.

وفي العصر الحاضر اكتسب الاعلام قدرة عظيمة بدرجة أن في بعض الدول المتقدمة - اصطلاحاً - تأخذ وسائل الاعلام بأيدي شخصيات الملمية والمفكرين الواعين نسبياً صديق الافتراء ليصوتوا للشخصيات التي تدعو إليها وسائل الاعلام تلك، وقد يتصور أنهم احرار على الاطلاق، بينما لا خيار لهم من حراء وسائل الاعلام تلك.

إنّ اسراع وسائل الاعلام المسموعة والمرئية واستعاضتها بعنق علم النفس يريد في تأثير الاعلام على العنق بدرجته يحدّ فيها الخارجون عن دائرة الاعلام والمتمكّنون من متابعة الأمور من دون رأي مسبق فيها.

إنّ هذا الأمر لم يحصر في الأمور السياسية محسب، بل في الأمور الاقتصادية كذلك، فإنّ وسائل الاعلام يمكنها بحملة إعلامية أن تسوق المجتمع نحو استهلاك سلعة قد تكون اعتباطية أو مضرّة أحياناً، وبهذا يقرص على المجتمع اقتصاداً سقيم.

إنّ الاستعانة بعناوين وقيم كاذبة مثل الاستعانة بعنوان «موديل» أحد أوسع وأعقد الطرق للوصول إلى هذه الأهداف غير المشروعة.

كما أنّه يستعان بالاعلام التعمامي اعماص فخر المذاهب الفكرية المختلفة على الشعوب، فتارة يُقرض مذهب باطل وعارٍ عن الأسس المنطقية، وكأنّه مذهب فلسفي منطقي إنساني.

١- مروج الذهب ج ٢، ص ٧٢؛ الإمام علي صوت المظلة الإنسانية، ج ٤، ص ٩٥٦.

وعلى أية حال، فمما لا شك فيه أنه يسمى رفع هذه الحجب عن المجتمع وتصحيح اتجاه المعرفة فيه، كما ينبغي عدم ترك وسائل الاعلام أن تفكر وتقرر بدلاً عن المجتمع، بل يحدد عملها في توعية الناس، وتهينة الأرضية لهم لاتخاذ انقرارات الصحيحة ينبغي أن لا يكون هدف وسائل لأعلام جماعية هو وضع الحجب على عقول الناس والتعتيم عليهم. بل ينبغي أن يكون الهدف هو رفع حجب التعصب والجهل والعقلة والتقليد العشوائي عن العقول. وهذا هو البرنامج الراقى لوسائل الاعلام في مجتمع رشيد ومودعي، والمؤسف في عصرنا الحاضر هو قلة مثل هذه المجتمعات.

إن العصى في وسائل الاعلام هو أنها بيد سياسة، والأسوء من ذلك أنها بيد العمالقة الاقتصاديين الذين يوجهون الناس أين ما شاءوا.

❦❦❦

٤- حجاب وساوس الشياطين

في البداية نتمسح حاشعين في الآيات الشريفة التالية

- ١ - ﴿ قُلُوا إِذَا جَاءَهُمْ بِأُسْتَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام / ٤٣)
- ٢ - ﴿ وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (المل / ٢٤)
- ٣ - ﴿ وَعَادَا وَنَمُودَا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُشْتَبِعِينَ ﴾ (المكيات / ٣٨)
- ٤ - ﴿ وَمَنْ يَفْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقْضِ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْضَبُونَ عَنْهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (الزخرف / ٣٦-٣٧)
- ٥ - ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (الأنعام / ١١٢)
- ٦ - ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ

وَأَنْزَلَ هُمْ»

(محمد / ٢٥)

٧ - «يَتْلِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرُّكُمْ الْهَيْئَةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُمْ بِإِلهِ

(فاطر / ٥)

الْعُرُورُ».



شرح المفردات:

كلمة «الشيطان» خلافاً لما يظن البعض - يس - سماً خاصاً بابليس وعلماً له، بل له مفهوم عام، وعلى ما يُصطلح عليه فهو «اسم جسس» شمل كل موجود متعبد وبساع ومحزب، سواء كان من الجن أو الانس أو شيت أو حر وهنالك قولان في أصل هذه المعردة:

القول الأول هو الفاعل بأنه من معردة «مُتَطَوِّر» أي «مُتَعَدِّ»، ولهذا قيل للشر العميق والبعيد قعره عن متناول الأيدي «مُتَطَوِّر»، ويقول «خَسَلُ بْنُ أَحْمَدَ» إِنَّ شَطْنَ تَعْنِي الْحَبْلَ الطَّوِيلَ، وبما أَنَّ الشيطان بعيد عن الحق وعن رحمة الله استعصب هذه المعردة فيه

والقول الثاني هو الفاعل بأنه من مادة «تَطَيَّبَ» وَيَعْنِي الْإِلْتِهَابَ وَالْإِحْتِرَاقَ غَضَباً، وبما أَنَّ الشيطان حَقٌّ مِنْ نَارٍ وَاشْتَعَلَ عَصاً عَمَدًا مَرَّ بِالسَّجُودِ إِلَى آدَمَ ﷺ أَطْلَقَتْ هَذِهِ الْمَعْرَدَةُ عَلَيْهِ وَعَلَى الْمَوْجُودَاتِ الْآخَرَى مِنْ أَمْثَالِهِ.

«الْعُرُورُ»: من مادة «عُرِرَ» أي الحذعة ونحيلة والعصاة عبد الیقطة، وقد أطلقت هذه المعردة على الشيطان لأنه يغرر الناس بخديعه وجبله ويخرجهم عن الطريق الصواب، ويغير رؤيتهم للحق والباطل.

«الْقُرُورُ» كل شيء يغرر ويخدع، وهو عَمٌّ مِنْ أَعْمَالِ وَالْمَقَامِ وَلِشَهْوَةِ وَالشَّيْطَانِ. وَإِذَا فُسِّرَ أَحْيَانًا بِالشَّيْطَانِ فَقَطْ فَدَلَّكَ لِأَنَّهُ أَخْبَثُ نَحَادِعِينَ وَالْمَاكِرِينَ أَتَاهُ «التَّصْوِيلُ» فَمِنْ مَادَّةِ «تَوَلَّى» وَفِي الْأَصْلِ يَعْنِي الْحَاجَةَ وَالْأُمِّيَّةَ الَّتِي تَرْعِبُ النَّفْسَ

١ التحقيق في كلمات القرآن الحكيم؛ معرّفات الراغب؛ بسن العرب ومجمع البحرين مادة (شيطان).

فيها، والتسويل يعني تزيين الشيء بشكل حيث تشنق إليه النفس، كما جاء بمعنى تزيين الأشياء القبيحة

هذا التفسير ذكره الرابع في مفردته، إلا أنه يستعاد من صحاح اللغة وكتاب العين، أن معناها في الأصل هو الاسترخاء المتر من مع مرور وبغلة، ولهذا أطلقت هذه المفردة على تزيين الأمور غير السائغة وإظهار عكس ما هي عليه وبشكل سائغ، بحيث يُخدع الإنسان من جرائها ويسترخي.

وعلى أية حال، فإن المراد من تسويلات لسيطان في الآيات هو إظهار القبح حساً بشكل يخدع الإنسان ويحرفه.

جمع الآيات وتفسيرها

كيف يُزَيَّن للباطل؟ وكيف تُسحر العيون؟

تحدث الآية الأولى عن فريق من الأتوم اساعلم لادى أرسل إليهم رسول لىموا ويسلموا أنفسهم للحق، إلا أنهم اعرصوا عن ذلك، فأمر الله عليهم بأسه، فابتلاهم بمختلف المشاكل والمصائب والحوادث الصعبة، والفقير والمرضى والقحط وغير ذلك، كى يوقفهم من عملتهم، ولكى يحصروا للحق، إلا أنهم اتخذوا السبيل المحرف بدل سبيل الرشاد والرجوع إلى الحق والتوبة

يقول القرآن في هذا المجال: لماذا لم يتصرفوا بأرعم من معيـ بأسا لهم؟ ثم يمد أسباب هذا الأمر ويقول: الأول هو «قَسَتْ قُلُوبُهُمْ» مما كادت تحصى للحق.

والثاني هو: «وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ»، بحيث أصبحوا يرون المعاصي صواباً والقبح جمالاً، وقد مد الشيطان هـ من طريق عبادة الهوى.

وبتعبير آخر: لم تؤثر فيهم لا مواعظ الأنبياء، بلعطف، ولا مواعظ الله العملية والتكوينية، وعامل هذا الحجاب هو قسوة القلوب من جهة، ومن جهة أخرى تزيين الشيطان لهم، بحيث سلب منهم روح التصرع والحصوع.

هناك بحث بين المفسرين في المراد من «تزيين الشيطان»، فيقول البعض إنه الوسواس الشيطانية التي تبدو المحاسن فيها قبائحاً و نقائص فيها محاسناً، أو العوامل الخارجية التي تزين للإنسان سوء أعماله، كما تجعل المواد سامة في غلاف مُعَرِّجٍ وجميل، وكما يُدعى للانحرافات الكبيرة تحت عطاء التمدن والأفكار البيرة وانحرة

وتحدثت الآية الثانية عن هدهد سليمان عندما قدم من رحلته إلى بلاد الملكة سبأ، فبعد حكايته لقصة سبأ وحضارة بلادها العظيمة قال: ﴿وَجَدْنَاهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ هُمُ الشَّيْطَانُ أَغْتَابَهُمُ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾.

إن هذه الآية تكشف عن أن الهدد بالرغم من محدودية عقله ودهيته الخاصة به وبالعالم يدرك بالاحمال حجب المعرفة، ويعرف أن الشيطان يجعل ستاراً على فكر الإنسان يحول دون تمكنه من إدراك الحقائق ويعلق أبواب المعرفة عنه ويحول دون وصول الإنسان إلى مراده المشود.

وقد بحثنا إمكانية اطلاع الحيوانات على عالم الإنسان، كما بحثنا مدى معرفتها لهذا العالم في تفسير الأمثل دبل الآية ١٨ من سورة النمل، وفي ذيل الآية ٢٨ من سورة الأنعام، كما تحدثنا في دبل الآية عسها عن كيفية طي الهدد المسافة الطويلة بين الشام واليمن ووصوله إلى بلاد سبأ.



وقد تحدثت الآية الثالثة عن قوم عاد وثمود وطغيانهم وعصيانهم ثم هلاكهم، كما عرصت على عرب الحجار مدنهم لحرية أني يمرون بها عند رحلاتهم إلى الشام واليمن كعبرة لهم، ثم أشارت إلى السبب الأساسي في إهلاكهم وهو تزيين الشيطان لأعمالهم بحيث ما كادوا يبصرون شيئاً ولا يعقلون رغم امتلاكهم للابصار والعقول، وقد قالت الآية: ﴿وَزَيْنُ هُمُ الشَّيْطَانُ أَغْتَابَهُمُ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُشْتَبِعِينَ﴾.

إن عبارة «وَكَانُوا مُشْتَبِعِينَ» - كما يقول كثير من المفسرين - تعني عملتهم وعدم

تدبرهم في الحقائق بالرغم من امتلاكهم للعقول والحواس واقتدارهم على الاستدلال والتمييز بين الحق والباطل.^١

وقد جاء في تفسير الميراث: «بأنهم كانوا يعرفون طريق الحق بنظرهم إلا أن الشيطان زعم لهم أعمالهم فمنعهم عنه»^٢

ويقول البعض إن المراد من العبارة هو معرفتهم للحق بواسطة دعوة الأنبياء وتعاليمهم.^٣ إن الآية بجميع تفاسيرها (سواء قبلنا أحدها أو قبلنا الجميع لعدم المسافاة بينها) شاهد على ما قلناه من أن تزيين الشيطان يجعل حجاباً على عقل الإنسان وفكره.



وقد بيست الآية الرابعة بصورة عامة مصر سدي يعشو عن ذكر الله ويعضل عنه وقالت: «وَمَنْ يَفْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ وَتَحْشَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ».

ذكر المفسرون «أتممة اللغة معسن الفعل «فَشَى» فقال بعض إبه ظلام خاص بحل في العين يعقد الإنسان من جرائه بصيرة ويكون أعشى (أى لا يرى في الليل) وهو من مادة «عَشَى» كما يقال «عشواء» للمحمل الذي لا يرى أمامه ويعطأ عند المشي. وعبارة «خبط عشواء» إشارة إلى هذا المعنى

وعلى هذا فيكون معنى الآية الشريعة هو: «لدي لا يرى آيات الله في الكون بعينه، ولا يسمع من أنبيائه، فانه سيقع في فخ شيطان وتسويلاته

وقال بعض آخر: إنها من مادة «عشور»، وعندما تستعمل مع «إلى» فتعني الهداية بصير ضعيف، وعندما تستعمل مع «عن» فتعني الإعراض»^٤.

١. تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٨٢، تفسير روح البين، ج ٦، ص ٤٦٨، كما نقل هذا عن بعض المفسرين في تفسير القرطبي

٢. تفسير الميراث، ج ١٦، ص ١٣٦

٣. التفسير الكبير، ج ٢٥، ص ٦٦

٤. يقول بعض المفسرين إن هذه المعردة إن كانت من مادة (عش، يشو)، فتعني التعامي من دون أن تكون علة في

وعلى هذا فيكون المراد من الآية هو **إِنَّ** الذين يعرضون عن ذكر الله **فَقَيَّضُ** ونسأط الشيطان عليهم^١.

إِنَّ «فَقَيَّضُ» من مادة «قَيَّضَ» وتعني قشر البيض ثم استعملت بمعنى الاستيلاء، واستعمال هذه المعردة في الآية أمرٌ متبر، حيث يكشف عن أَنَّ الشيطان عندما يَفْقِضُ على الإنسان يحيط به من جميع الجهات، ويقطع اتصاله بالمحارج بالكمال كما تفعل قشرة البيض بالبيض، وهذا أسوأ أنواع حجب المعرفة التي يُثَلِّي بها الإنسان، كما أَنَّ هناك مثلاً عند العرب يقرب معنى الآية للأدهان «ستلاء لقيص على البيض»

ولأسوء من هذا هو أَنَّ احاطة الشيطان بالإنسان واستيلاءه عليه ومقارنته له تستمر إلى درجة تجعله يفتخر بصلاته ويحسب أَنَّ طريقه هو طريق الحق والهداية «وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ».

❦❦❦

وهذه نعدت الآية الخامسة عن **الشياطين** **لَا يُبْرَأُ** ولعن الذين نصبوا أعداء للأسياء والذين أعدوا أنفسهم لأطال فاعلمية تعليم الأنبياء، **وَيُوحِي** بعضهم إلى بعض أقاويل مخرقة باطلية لا أساس لها من الصحة، كما يعلم بعضهم البعض طرق المكر والخداع، وذلك لأفعال الناس وكنم الحقائق وحمل الحجب عليها، ويعاد الناس عن تعاليم الأنبياء وينبغي ذكر هذه النقطة هنا وهي: إِنَّ العدو ذكر بصيغة المفرد، بينما الشياطين بصيغة الجمع، وهذا قد يكون من حيث إِنَّ الشياطين متعدون ومتفقون في سبيل إغفال الناس وخداعهم وكأنهم عدو واحد.

ويقول البعض إِنَّ «عدوه» هنا بمعنى أعداء أي بمعنى الجمع^٢.

❦ بصره. أنا إذا كانت من مادة (عشئ يفسد)، فتعني حصول عنة في بصره. تفسير روح البيا، ج ٨، ص ٣٦٨.

وينبغي الالتفات هنا إلى أنها في الآية من باب (عشاء، يفسد).

١. راجع لسان العرب ومعربات الراحب و تفسير القرطبي وروح البيا، والغير.

٢. تفسير روح المعاني، ج ٨، ص ٤.

كما صرح بعض آخر: إنّ «العدو» تطلق على المعرد والمشئ والجمع^١

﴿٢٢﴾

والآية السادسة هي من آيات سورة محمد ﷺ التي أُشير فيها إلى حجب متعددة من حجب المعرفة، فتارة تعدّ الفساد في الأرض وقطع صلة الرحم سبباً للعصيان الباطني لهم الآية ٢٣، وتارة أخرى تعدّ ترك التدبر في القرآن بعثابة الأفعال على القلوب.

والآية المذكورة تعدّ تزوين الشيطان وتسويلاته سبباً لارتداد الصالحين، حيث يتبين لهم الحق ويؤمنون به أولاً، ثم يعترفون عنه من حراء تسويلاته وتزيينه لهم إلى درجة يفتخرون فيها بصلاتهم الأخيرة

من هم المشار إليهم في الآية؟

هذا ما بحثه المفسرون وانقسموا من حرائه إلى فريقين، فبعض يقول إنهم اليهود، حيث كانوا مؤمنين بالرسول ﷺ قبل ظهوره وذلك لوجود العلامات المذكورة في كتبهم عن ذلك الرسول، ثم سلكوا سبيل العناد والمخالفة له بعد ظهوره، ويُعدّ هذا نوعاً من الارتداد وبعض يقول: إنها تشير إلى المنافقين الذين آمنوا في البداية ثم ارتدوا بعد ذلك، أو أنهم آمنوا ظاهراً وهم كافرون باطناً، لكن مع الالتفات إلى كون الآيات التي سبقت هذه الآية والتي تليها ناطرة إلى المنافقين، لا يبعد أن تكون هذه الآية مشير إليهم كذلك فالمراد من الآية -إذن- المنافقون الذين آمنوا في البداية ثم ارتدوا بعد ذلك

إنّ «المشئ لهم» من مادة «ملا» أي الإمهال^٢، والمراد منها هو الآمال البعيدة التي يوحىها الشيطان للإنسان، الآمال التي تشغل فكر الإنسان وتزين له الباطل وتبعده عن الحق.

﴿٢٣﴾

أمّا الآية السابعة والأخيرة فقد أذرت الناس -بتعبير وافي- بأن وعد الله حق، ثم ذكر

١ تفسير المنار، ج ٨ ص ٥

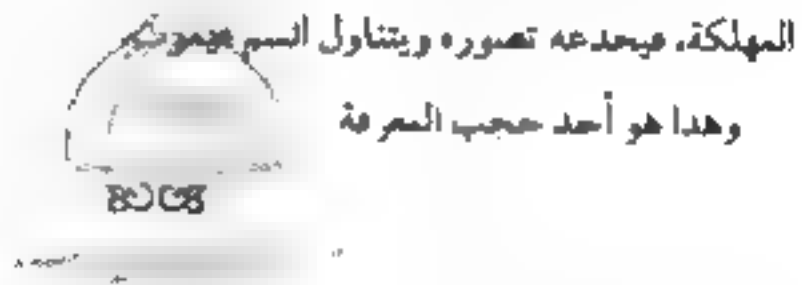
٢ يعني الالتفات هنا إلى أنّ أصل هذه المادة هو (ملو) لا (ملا) -بالهمزة-

عاملين للصلالة والانحراف عن الحق، الأول الدنيا ﴿فَلَا تَغُرُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾، والثاني؛ الشيطان ﴿وَلَا يَغُرُّكُمْ بِإِلهِ الْغُرُورِ﴾ فتارة يؤملكم بكرمه ويسبيكم غضبه، وتارة أخرى يفويكم بشكل بحيث تتسولن لله وتعاليمه، أو تبدو لكم تعاليمه بشكل معكوس.

إن «غُرُور» - كما أشرنا سابقاً - هو كل ما حذع الإنسان، سواء كان مالا أو جاهاً أو شهوات أو غير ذلك، وبما أن الشيطان أوضح مصداق للحذع، أطلق عليه ذلك كثيراً، وفُسِّر به^١

يعتقد كثير من المفسرين أن عبارة ﴿لَا يَغُرُّكُمْ بِإِلهِ الْغُرُورِ﴾ تلميح إلى أن الشيطان عَرَّ الإنسان بَعَفْوِ الله وكرمه بدرجة يمكنه من ارتكاب أي معصية أراد، ويبلغ به الأمر أن يعتقد بأن هذا ناشئ عن كمال معرفته لصمات الله، وهذا أمر عجيب.

وحالُه كحال من يتصور أن جسمه قوي ودو ماعة تمكنه من مقاومة جميع السموم



توضيحات

١- من هو الشيطان؟

إن «الشيطان» - وكما قلنا سابقاً - ليس سماً خاصاً أو علماً لإبليس، بل إن إبليس الذي امتنع عن السجود لآدم هو أحد الشياطين.

إن إبليس جنوداً كثيرة من جنسه ومن ساس، وتطلق مردة الشيطان على الجميع، وعلى هذا فقيادة الكفر والشرك والطغيان والفساد في الأرض، والعاملون في الأجهزة الظالمة كدعمهم من جنود الشيطان، ولقد جاء في رواية أن هناك شياطين من الأسوأ من شياطين الجن، حيث سأل رسول الله ﷺ أبازر يوماً «هل تعرفت بالله من شر شياطين الجن

١. إن «غُرُور» صيغة مبالغة.

والإيس؟

فقال أبوذر: وهل من الناس شياطين؟

فأجابه رسول الله ﷺ «نعم هم شر من شياطين الجن»^١

كما أن المستشف من القرآن هو أن للشيطان جنوداً مرسائاً وراجلين كما جاء ذلك في

الاية: «وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ»^٢ (الاسراء / ٦٤)

إن «اجلب» من مادة «اجلاب» ويعني لجمع لسريع أو الضجيج والصياح لحث مجموعة ما على الحركة.

أما المراد من «خيلك ورجلك» فيقول الكثير من المفسرين إنه اراجل أو الفارس الذي يخطو في معصية الله، أو قاتل في هذا السيل^٣

ويقول البعض: إن للشيطان أعواناً وأنصاراً راجلين ومرسائاً حقاً

وحمل البعض العبارة على الكتابة. وقال: المراد من الآية هو أن الشيطان أعداء البعده

ووفر جميع الوسائل لصراع ومحابة الناس^٤

كما يحتمل أن يكون المراد من الخيل هو قدة الكفر والنظم والفساد، ومن الرجل، انشحيات المتوسطة الأصعب من انشحيات السابقة

كما يحتمل أن يكون المراد من لجيل هو شهوات والصفات الذميمة التي تتعبد على روح الإنسان وتمتطيها، والمراد من اراجلين هو العوامل الخارجية التي تسعى لانحراف الإنسان عن الصراط المستقيم.

﴿﴾

٢- الإجابة عن سؤال

١. التفسير الكبير، ج ١٢، ص ١٥٤.

٢. نقل القرطبي هذا التفسير عن أكثر المفسرين

٣. ذكر الفخر الرازي هذا التفسير كاحتمال في تفسير الكبير ج ٢١، ص ٦، وقد جاء ما يشبه هذا الاحتمال في

تفسير في خلال القرآن، ج ٥، ص ٣٤٣

هناك سؤال يرتبط ببحثنا وهو: كيف يمكن أن يتركنا الله لوحدنا نواجه جنود الشيطان القوية والقاسية؟ وهل يتفق هذا مع حكمة الله وعدله؟
يمكننا الإجابة عن هذا السؤال بالالتصاف بنقطة وهي إن الله - وكما جاء في القرآن الكريم - يجهز المؤمنين بجنود رحمانية، أي لملائكة، ويوظف القوى الغيبية التي في العالم يؤازرونهم وينصرونهم في طريق جهاد النفس والعدو.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَعْمُوا تَدْرُسُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ • نَحْنُ أَوْزِينَاكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ...﴾

(فصلت / ٣٠ - ٣١)

8068

٣- للنقطة للمهمة الأخرى

هي إن الشيطان لا يدخل قلوبنا فجأة ولا يمس حدود دوله بروح من دون حوار. إن هجومه ليس مباغتاً بل يدخل برخصتنا، نعم إنه يدخل من الباب لا من النافذة، ونحن نفتح له الباب، كما يقول القرآن في هذا المجال: ﴿هُوَ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ • إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾

(الحل / ٩٩ - ١٠٠)

في الحقيقة إن أعمال الإنسان هي التي توفر الأرضية لنفوذ الشيطان، وذلك ما يقوله القرآن ﴿إِنَّ الْمُتَذَكِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ (الاسراء / ٢٧)

إلا أنه لا طريق للنجاة من مكائد الشياطين المتنوعة وجنودهم في أشكالها المختلفة من لشهوات ومراكز الفساد والسياسات الاستعمارية والمذاهب المسحرفة والشقايات الفاسدة، إلا للجوء إلى الإيمان والتوكل والتوكل بالله والتوكل على ذاته لمقدسة. وكما يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَفُتِنْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا

قَلِيلًا.

(النساء / ٨٣)

﴿٨٣﴾

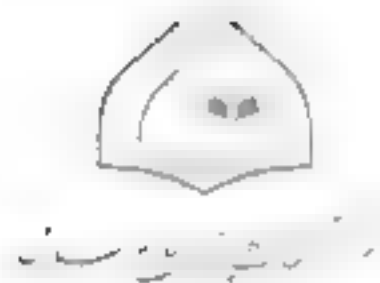
وقد انتهت إلى ها حجب المعرفة المشروء. فستقل معاً إلى مؤهلات المعرفة



مؤهلات المعرفة



وزارة التعليم
Ministry of Education



مؤهلات المعرفة

تمهيد:

كما أنَّ البدور تنمو في الأراضي الخصبة، وكما أنَّ الأزهار لا تتفتح في الأراضي المالحة بالرغم من استعمال أفضل البدور. وبرول الحطر المتولي عليها، كذلك بدور المعرفة فإنها لا تنمو إلا في قلوب الصالحة والمؤهلة، ولا تتفتح أزهارها إلا في الأرواح الطاهرة. ولهذا السبب فإنَّ الاطلاع على الروحيات والأعمال التي نهى وتُعذَّ أرضية المعرفة بعد من أهم السموت التي تتعلق بـ «المعرفة»، وقد استعمل القرآن في هذا المجال تعابير ذات معاني عميقة وإشارات جميلة.

وبالرغم من أنَّ المؤهلات للمعرفة كثيرة، إلا أنَّ الأسس المهمة والتي أشار إليها القرآن عبارة عن الأمور التالية.

١- علاقة التقوى بالمعرفة.

٢- الإيمان والمعرفة.

٣- علاقة الصبر والشكر بالمعرفة.

٤- المعرفة تهىء الأرضية للمعرفة.

٥- علاقة الخوف بالمعرفة.

وسيتحدث كلاً من هذه الأمور في فصل خاص بعد ذكر الآيات التي تتعلق بها، كما سنستعين بالروايات الإسلامية في هذا المجال كمؤكد وموضح لها إن شاء الله.

١- علاقة التقوى بالمعرفة

في البداية نتأمل خاشعين في الآيات المباركة التالية:

- ١- ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُكُمُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا يَأْخُذُ بِهِ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَ أَيْدِيهِمْ وَلَا يُحِيطُ بِشَيْءٍ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة / ٢٥٥)
- ٢- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ (الأفـال / ٢٩)
- ٣- ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة / ٢٨٢)
- ٤- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَهُ يُؤْتِكُمْ بِرَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الحديد / ٢٨)



شرح للمفردات:

إن «التقوى» من مادة «وَقَّى» وتعني - كما يقول العرب في معرداته - حفظ الشيء من الآفات.

ثم يضيف إن التقوى بمعنى حفظ الروح والنفس من ما يحشى مصرته، ثم أطلقت على الخوف، كما أن التقوى في الشرع تطلق على الحفاظ من المعاصي، وكمالها ترك بعض المباحات المشكوكة^١.

ولياقي أئمة اللغة تعابير تشبه ما جاء في المعردات، فقد فسرها بعض بالصيانة^٢، وبعض آخر بـ «الامتناع عن القبائح والأهواء»^٣.

وقد نقل عدد من المفسرين حديثاً عن بعض الصحابة أنهم سألوا عن حقيقة التقوى فأجابوا:

١. معردات الراغب مادة (وقى).

٢. لسان العرب نفس المادة.

٣. مجمع البحرين، نفس المادة، كما ينبغي الالتفات إلى أن أصل معردة التقوى هو «وقى» فانتقلت الواو تاء، كما ذكر ذلك التحليل بن أحمد في كتابه «المعين».

«هل سررت بطريق مليء بالأشواق في يوم ما؟ قال السائل نعم، قال: لم تجمع ثيابك وترفع أديالك وتسعى للخلاص من الأشواق؟ فحالتك هذه هي التقوى».

نعم، إن الطريق إلى الله مليء بالأشواق كأشواق الشهوات والميول والأهواء والآمال البعيدة والكاذبة، ومن هنا ينبغي على الإنسان أن يحافظ على ثباته فيتنجب أن يكون عرصة لهذه الأشواق، وينبغي أن لا تشغله عن مسيره إلى الله سبحانه وتعالى.

وهذا لا يكون إلا باليقظة والمعرفة والخبرة ومراقبة النفس على الدوام.

وبتعبير أبسط: إن التقوى هي الوقاية من الآفات التي تعترض الروح في سيرها التكاملي، وتحسب الدروب والشبهات حتى يوصل إلى الملكة

وقد ذكر بعض المفسرين معاني عديدة سقوى، وجاءوا بشاهد من القرآن لكل منها، وفي الحقيقة أن كلًّا منها مصداق من مصاديق التقوى، مثل التوبة والطاعة والإحلاص والإيمان (العبادة والتوحيد)^١

ويقول البعض: إن حقيقة التقوى هي أن يجعل الإنسان حائلاً أو مانعاً أمام آفة ما، فكما يدفع الإنسان تأثير ضررات العدو بالدرع، كذلك المتقوى فاهم يصونون أنفسهم من عذاب الله بواسطة درع طاعة الله^٢

نقسم التقوى إلى ثلاث مراحل: تقوى عن الكفر، والتقوى عن الذنب، والتقوى عما ينسي الإنسان ذكر ربه^٣.

ولكن - كما هو واضح - فإن المعنى هذه كلها ترجع إلى المعنى الأساسي الذي ذكره للتقوى في البداية.



١ وجوه القرآن، ص: ٥٥، التفسير الكبير، ج ٢، ص ٢٠

٢. تفسير روح البيان، ج ١، ص ٣٠ و ٣١

٣ المصدر السابق.

جمع الآيات وتفسيرها

لَقَوْلَا كَيْ يَسْطِعُ نُورُ الْعِلْمِ عَلَى قُيُوبِكُمْ!

يقول الله عز وجل في الآية الأولى «ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُسْتَقِيمِينَ» والتعبير هذا يثبت بوضوح تأثير التقوى على المعرفة كمؤهل لها

وهذه هي الحقيقة، مما لم تحصل في باطن الإنسان مرحلة من مراحل التقوى، لا يمكنه الاستفادة من ينابيع الكتب السماوية، وأقل التقوى هو أن يسلم الإنسان نفسه إلى الحق ويترك العباد، فإن الذين يفتقدون هذه المرحلة من التقوى، سوف لا يرتفعون إلى أدنى درجة من درجات المعرفة ولا يتقبلون الهداية أبداً.

طبيعي أن الإنسان كلما كانت روح التقوى والتسليم إلى الحق وقبول الحقائق والواقعيات قوية عنده كانت استغاضته من ينابيع الهداية أكثر.

إن ينابيع الهداية وعلى رأسها القرآن المحمود كالعبث لذي يحيي الأرض ويقع زهرار المعرفة فيها، وهذا يحدث في الأرض ^(الخصبة فقط) لا في كل أرض
إن التعبير «لا يهدي» أي بصيغة المصدر، تأكيداً لضعف أن روح التقوى إذا استيقظت عند الإنسان وأصبحت فعالة، فإن القرآن سيصبح للهداية ذاتاً (نأمل جيداً).

وفي هذا المجال يقول بعض المفسرين العظام

«إن الهداية الشافية لما كانت بالقرآن فالهداية الأولى قبل القرآن وبسبب سلامة الفطرة، فإن الفطرة إذا سلمت لم تفك من أثر تنبيه شاهدة لغيرها وحاجتها إلى أمر خارج عنها، وكذا احتياح كل ما سواها متى يقع عليه حس أو وهم أو عقل إلى أمر خارج تفك دونه سلسلة الحوائج، فهي مؤمنة مذعنة بوجود موجود عائب عن الحس، منه بدأ الجميع وإليه ينتهون ويعودون، وأنه كما لم يهمل دقيقة من دقائق ما يحتاج إليه الخلق كذلك لا يهمل هداية الناس إلى ما ينجيهم من مهلكات الأعمال والأخلاق وهذا هو الاذعان بالتوحيد والنبوة والمعاد وهي أصول الدين»^١

١. تفسير الميراث، ج ١، ص ٤٢.

كما يقول الفخر الرازي:

«والبحص الآخر ذكر في حصر لهداية بالمتقين لأن الله تعالى ذكر للمتقين مدحاً ليهيئ
أنهم هم الذين اهتدوا وانتصموا به كما قال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهَا﴾. (الزعات / ٤٥)
وقال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذُّكْرُ﴾
وقد كان عليه السلام منذراً لكل الناس، فذكر هؤلاء، أناس لاجل أن هؤلاء هم الذين
انتصموا باندازه»^١.

وقد استنتج الفخر الرازي في بعض عبارته.

«ولو لم يكن للمتقي فضيلة إلا ما في قوله تعالى (هدي للمتقين) كفاء لانه تعالى يبي أن
القرآن هدى للناس في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ...﴾
(البقرة / ١٨٥)

ثم قال إنه هدى للمتقين فهذا يدل على أن المتقين هم كل الناس فمن لا يكون مستقيماً
كانه ليس بإنسان»^٢.

وبالرغم من عدم تعارض التفسير المأخوذ، إلا أن التفسير الأول يبدو أوضح، ومن
هنا يعرف عدم صحة الرأي القائل (بحمل «المتقين» في الآية على المجاز، والقول بأن
المراد منهم سالكو طريق التقوى، وذلك للحيلولة دون الوقوع في إشكال (بحصي
حاصل)، وذلك لأن للتقوى - وكما قل - مراحل ودرجات، فمرحلة منها تؤهل لهداية
القرآن، والمراحل الرفيعة الأخرى تكون ولادة هداية لقرآن

ويطرح هنا سؤال وهو: إن الآيات التي جاءت بعد «هدي للمتقين» عرفت
للمتقين بالدين يؤمنون بالعيب ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، وعلى هذا، أفلا تكون
هداية القرآن تحصيلاً للحاصل يا ترى؟!

إن الإجابة على هذا السؤال تنصح بالانتفاع إلى نقطة في هذا المجال وهي، إن
الوصول إلى هذه المراحل المذكورة في أسؤال ليست نهاية الطريق، بل هناك مراحل
كثيرة أخرى ينبغي عليها لبلوغ المرحلة التكميلية للاتقة بالإنسان، وهذه المرحلة عند

١ التفسير الكبير، ج ٢، ص ٢١

٢ المصدر السابق.

المتقين ستهديهم إلى مراحل ارفع واسمى بالاستعانة بهداية القرآن.

وتوجد تعبيرات في القرآن شبه ما جاء في آية السابقة، مثلما جاء في الآية ﴿وَإِنَّهُ لَتَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (الحاقة / ٤٨)

فعدت الآية الأولى القرآن «هدى» لمتقين وسبباً بهدايتهم، والثانية «تذكيرة» لهم، ونعلم أن «التذكير» من مقدمات «الهداية»، ولهذا عندما وصل عدد من المفسرين إلى هذه الآية أرجعوا الحديث فيها إلى نفس الحديث في بداية سورة البقرة.

وعلى أية حال، فإن هذه الآيات شاهد ناطق على دور التقوى كمهّد للمعرفة والهداية



وقد وضحت الآية الثانية علاقة التقوى بالمعرفة توضحاً أكثر من الآية السابقة وصرحت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَشَاءُوا لَنُخَفِّلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾.

إن «الفرقان» - كما يقول بعض [ثمة اللغة] (اسم مصدر)، وادعى بعض آخر (مصدر) إلا أن أغلب المفسرين يصرحون بأن له - في موارد كهذا المورد - معنى فاعلياً مقرونأً بالناكيد (أشبه ما يكون بمفهوم صيغة المباعدة)، ومعناه الشيء الذي يفرق بين الحق والباطل، وله مفهوم واسع يشمل القرآن المجيد ومعجزات الأنبياء والأدلة العقلية الواضحة وشرح الصدر والتوحيق والنورانية الباطنية وغير ذلك^١

وبهذا، فالقرآن يقول بأن «التقوى» هي الأرصية التي تعد للمعرفة والتي يمكن الاستدلال بها تماماً في بعض المراحل، وتنطوي في المراحل الأخرى ضمن الامدادات الإلهية المعنوية.

سمى القرآن المجيد يوم معركة بدر «يوم الفرقان»، وذلك من حيث إنه يوم شهد آيات الله البارزة تؤيد جند الإسلام ضد جند الشرك، فبالرغم من عدّة وعدد المشركين الذي يقدر بثلاثة أضعاف عدد المسلمين، تحملوا صربات قسية من المسلمين لم يتوقعها أحد.

١ راجع المفردات، وكتاب العين، ولسان العرب، ومجمع البحرين، والعمدة والكشاف في ديل الآية نفسها

بصافته إلى هذا، فإن معركة بدر كانت أول مواجهة مسدحة بين المسلمين والمشركين
انفصلت بها صفوف المسلمين عن المشركين، ولد سميت بـ«يوم العرقان».
وينبغي لالتفات إلى أن «فرقانا» جاءت بصيغة نكرة ومطلقة، فدلّت على عظمة ذلك
النور الإلهي وعلى سعته، بحيث يشمل المسائل الاعتمادية والعملية وكل ابتداء رأى تجاه
أمر الحياة المهمة، وعلى هذا، فثمره شجرة لتقوى هي الولوح في كل خير وبركة والابتعاد
عن كل شرّ وفساد.

يقول الفخر الرازي في شرحه لهذه الآية: بما أن لفظ العرقان مطلق فيسمي حمده على
كل ما يفرق المؤمنين عن الكافرين، فهذا العرقان إما في أحوال الدنيا وإما في أحوال
الآخرة، والذي يتعلق بأحوال الدنيا إما أنه يتعمق بالقلب وهي الأحوال الباطنة أو هي
الأحوال الظاهرة، فبالنسبة للقلب والباطن فإنه يهدي قلوب المؤمنين وينقي فيها المعرفة
ويشرح صدورهم ويصحو عنها الحقد والبغضاء والعص والعداوة، بينما يحلّي قلب
المساكين والكافرين من هذه الرذائل ولصّفات السيئ، لأن القلب إذا سور سور الإيمان زالت
ظلمات هذه الرذائل عنه، أما الذي يتعلق بالظواهر، فإنه يسهر المسلمين ويمنح لهم
وينحهم الرفعة^١.



والآية الثالثة التي هي جزء صغير من أصول آية، أي بعد أن بيّنت عددًا من لأوامر
الإلهية قالت: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ».
يقول القرطبي في تفسيره:

«إنه وعد من الله تعالى بأن من اتقاه علّمه، أي يجعل في قلبه نوراً يفهم به ما يلقي
إليه، وقد يجعل الله في قلبه ابتداء فرقاناً، أي فصلاً يفصل به بين الحق والباطل»^٢.

١ التفسير الكبير، ج ١٥، ص ١٥٣ (بتلخيص)

٢ تفسير القرطبي، ج ٢، ص ٤٠٦.

إن هذا الحديث لا يعني ترك كسب العلم، ولا اكتفاء بتهديب النفس - كما يقول بعض الصوفية وأشخاص منحرفون - بل لمراد هو أن التقوى تهيب الأرضية لكسب العلم الحقيقي أشبه ما يكون بالأرض الحصية والسعدة ليدر ليدور صحيح أن جملة « اتقوا الله » ليست شرطاً وأن جملة « يعلمكم الله » ليست جزء لها (ولهذا أكرر البعض العلاقة بين التقوى واسم الاستفادة من هذه الآية)، لكن مثلاً لا شك فيه هو أن اقتران أحدهما بالآخر لم يكس اعنيطاً، بل هو تلميح إلى العلاقة الموجودة بين هذين الاثنين، والأفترض اسجام الآية للسؤال.



إن رابع وآخر آية بيّنت العلاقة بين التقوى والمعرفة بوضوح، فبيّنت ثلاثة أجور للمدين يتقون الله ويؤمنون برسوله

الأول يؤتاهم الله كفلاً^١ين أو نصيبين من رحمته، نصيباً لإيمانهم ونصيباً لتقواهم، ونصيباً لأجل إيمانهم بالأنبياء السالطين ونصيباً لأجل إيمانهم بالرسول ﷺ، وبالرغم من أن المحاطين في الآية مؤمنون إلا أن الله يأمرهم أن يؤمنوا بالرسول ﷺ، كما أن شأن نزول الآية بيّن أنها بصدد فريق من نصارى حبشة الذين سمعوا القرآن وأمسوا بختي الإسلام ﷺ^١.

والثاني: هو جعل الله لهم نوراً - لأجل إيمانهم وتقواهم - يهتدون به في صراطهم: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾.

وبالرغم من أن البعض أراد تفيد مفهوم لاية والقول بأن السور الذي ذكر فيها إشارة إلى النور الذي يسعى بين أيدي المؤمنين وبإيمانهم في يوم القيامة (كما تشير إلى ذلك الآية ١٢ من سورة الحديد: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾).

لكن لا دليل لهم على هذا التقييد، بل إن مفهومها - وكما يقول صاحب الميزان - واسع

١. «الكفل» ما يحمل الإنسان ويرفع حاجته، ويعتقد البعض أن هذه المردة حبشية دحيمة على الحرية

يشمل الأنوار الإلهية كلها في الدنيا والآخرة، وعلى هـ فتكون الآية شاهداً على العلاقة بين «التقوى» و«المعرفة».

أما الأخير فهو: «وَيَقْفِزْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» وهذا كله لأجل إيمانهم وتقواهم.

﴿٢٢٢﴾

توضيحات

١- علاقة العلم بالتقوى في الروايات الإسلامية

وفي الروايات الإسلامية أيضاً تم بيان مدى تأثير التقوى على مسألة العلم، هذه الروايات تبين بوضوح أن تطهير القلب والروح بالتقوى يعد الأرسية لتلقى المعارف الإلهية.

تذكر هنا الأحاديث التالية كنماذج لبعضها في الروايات الإسلامية

ونقرأ في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:
«من غرس أشجار التقى جنى ثمار الهدى».

٢- وجاء أيضاً في إحدى حطب نهج البلاغة أنه عليه السلام قال:

«أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله .. فإن تقوى الله دواء داء قلوبكم وبصر عيني أفئدتكم
وشفاء مرض أفسادكم وصلاح فساد صدوركم وظهور دس أفسادكم وجلاد عشا
أفسادكم»^١.

٣- وفي حديث عنه أيضاً أنه عليه السلام قال:

«المتقي هدى في رشاد وتخرج من فساد»^٢.

٤- ونقرأ أيضاً في نهج البلاغة أنه عليه السلام قال

١. غرر الحكم

٢. نهج البلاغة، خطبة ١٩٨.

٣. غرر الحكم.

«أين الخول المستصعبة بصاحب الهدى والأبصار اللامعة إلى منار التقوى»^١.
 ٥- ونحتم حديثنا بحديث ذي معنى عميق عن الرسول الأكرم ﷺ حيث قال: جاء
 في وصية الخضر لموسى عليه السلام: «يا موسى وطن نفسك على الصبر تلق العلم واشعر
 قلبك التقوى تسل العلم ودرّس (روّض) نفسك على الصبر تخلص من الإثم»^٢.

❦❦❦

٢- كيفية الارتباط بين نتائج العلم والتقوى؟

ما هو تأثير التقوى واجتناب الدوب وترك اللوث بها على مسألة المعرفة؟ وباعتبار
 آخر: ما هي العلاقة المنطقية بين العلم والأخلاق؟
 في الحقيقة أن لهذين الاثنين علاقة تقارب قوية، وأي علاقة أقرب وأوثق من العلاقة
 المبادلة بين هذين الاثنين؟ فالتقوى يسوع العلم، كما أن العلم يسوع التقوى، وليس هذا
 بامر طبيعي محسب بل إنه أصل أساسي للصبر في طريق المعرفة
 فممكن الاستدلال على تأثير التقوى على العلم بالطرق التالية
 (أ) إن السعي والتسبيح تسببان الجاذبية والارتباط دائماً.

فعندما تتطهر روح الإنسان وتركى بالتقوى تحصل جاذبية قوية بينها وبين المعارف
 والعلوم الحقيقية «فالسخرية تبث على الارتباط المحب».

(ب) إن سجل التقوى يحصد جميع الأشواك من مررعة روح الإنسان، ويُعد القلب وبهينه
 لنمو بذور العلم والمعرفة، بل إذا دققنا النظر فإن بذور العلوم جميعها قد بذرها الله في هذه
 المزرعة، والمهم في الأمر هو حصد الأعشاب مزاحمة وإرواء المررعة.

وقد جاء في حديث للمسيح عليه السلام مخاطباً فيه أنصاره قائلاً:

«ليس العلم في السماء فينزل إليكم، ولا في تخوم الأرض فيصعد عليكم، ولكن العلم

١ نهج البلاعة، خطبة ١١٤

٢ مئة المرشد للشهيد الثاني (ينقل عن بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٢٧).

مجهول في قلوبكم مركز في طبائعكم، تخلفوا باخلاق الروحانيين يظهر لكم»^١.

ح) نعلم أنه لا وجود للبخل ولحسد في مبدأ عالم الوجود، وعلى ما جاء في الآية: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (الحجر / ٢١) فإن خزائن النعم غير المتناهية عند الله، ما ينقصه زيادة كرمه وكثرته شيئاً، بل إن جوده وكرمه يتجلى أكثر حولاً تزيده كثرة الطاعة إلا جوداً وكرماً.

وعليه، فإن الحرمان سببه عدم أهلية الأشخاص، إن التقوى تجعل الإنسان أهلاً للفيض الإلهي، وأي فيض أرفع شأناً من المعارف والعلوم الإلهية؟ إن القلوب كالأوعية كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ تُخْتَرُهَا أَوْعَاها»^٢، والمهم هو أن توسع هذه الأوعية، وأن لا تكون مقلوبة لا تسع ولو لفطرة واحدة، وهذا الأمر ممكن في ظل التقوى.

أما التأثير المتبادل بين العلم والتقوى: فهو أن عدم العميق يمحو جذور الدلائل الأخلاقية وباسع الإثم والذنب، ويميل أمامه عواقب الأمور، وهذه المعرفة تعين الإنسان على تبلور التقوى في قلبه وعلى ابتعاده عن الإثم، ويتصح من هنا أن العلم ينبوع للتقوى، كما أن التقوى ينبوع للعلم، غاية الأمر أن مرحلة من التقوى تسبب مرحلة من العلم، وتلك المرحلة من العلم تسبب مرحلة أرفع من التقوى، وعلى هذا السؤال فإن كلا منهما يؤثر في الآخر تأثيراً متبادلاً، وقد تكون الآية: مشيرة إلى هذه النقطة

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾

(الاعراف / ٢٠)

أي أن التقوى تكون في البداية، ثم التذكر، ثم البصيرة، والنتيجة هي البصيرة من وساوس الشياطين.



١. تفسير الصراط المستقيم، ج ١، ص ٢٦٢

٢. نهج البلاغة، الكلمات المنصاة، الكلمة ١٤٧

٣ - لمتخلخل العلاقة بين «العلم» و«التقوى»

بالرغم من أن علاقة المعرفة بالتقوى علاقة لا يمكن انكارها، سواء من وجهة نظر القرآن المجيد، أو من وجهة نظر الدليل والعقل (وقد يسا ذلك بالتفصيل)، إلا أن هذا لحديث لا يعني ترك طرق كسب العلم والمعرفة المتعارفة، والاستعناء بتهذيب النفس بحجة أن تهذيب النفس سيقذف العلم والمعرفة في صندوقاً كما طس ذلك عدد من الصوفية الذين اتخذوا هذه المسألة حجة لمقارعة لمعرفة وكسب العلم وظلوا في جهل دامس.

إن الإسلام أوجب كسب العلم بدرجة حيث اعتبر الحصول في مجلس العلم كالحصول في روضة من رياض الجنة «مجلس العلم روضة من رياض الجنة». كما عدّ انظر إلى وجه العالم عبادة «النظر إلى وجه العالم عبادة»^١، وكل خطوة بخطوة في سبيل العلم فهي خطوة نحو الجنة^٢.

وقد عدّ مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء^٣، وحفظ الحديث وكتابته من الصالحات العظيمة^٤، ويدعو الإسلام - من جهة أخرى - إلى تهذيب النفس وتركيتها لأجل تهيتها لقبول المعارف والعلوم الإلهية.

وعلى هذا، فأولئك الذين تركوا طلب العلم وأوصوا رملهم وأتباعهم بتركه، والتوجه إلى تصفية الباطن وتركيتها على حطاً، لأن تركية هذه غالباً ما تحرف عن جادة انصواب بسبب عدم اقترانها بالعلم والمعرفة، وكذلك وشك الذين انهمكوا في كسب العلوم الرسمية وأهملوا تهذيب النفس، فإنهم في صلالة، نعم يسمى السعي نحو كليهما.



١ غرر الحكم.

٢ بحار الأنوار ج ١، ص ١٦٤.

٣ المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤.

٤ المعجزة البيضاء، ج ١، ص ١٥.

٢- الإيمان والمعرفة

تمهيد:

إن روح الإيمان هي التسليم للحق والخضوع أمام لحقائق، وبما أن أكبر حقيقة في عالم الوجود هي ذات الله المقدسة، فإن روح الإيمان تتمحور حول التوحيد ومعرفة الله. إن الإيمان يفسح المجال أمام عقل الإنسان لأن يدرك الحقائق كما هي حقاً، سواء كانت مرة أو حلوة، وسواء كانت ملائمة لمراحه وطبعه أم لا. إن معلومات أولئك الذين لم يسلموا للحق هي تصوّر وتمثل لرغباتهم وأهوائهم، لا لتمس الحقائق الموجودة في الخارج، أنهم يرون الدنيا بالشكل الذي يرغبون فيه، ولا يرونها بشكلها الواقعي.

وبهذا التمهيد تصبح علاقة الإيمان بالمعرفة اجمالاً، ونأمل الآن حاشعين في آيات القرآن في هذا المجال.

- ١- ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّناً فَأَخْتَسَامُ وَجَعَلْتُ لَهُ نُوراً تَنبِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَمْ يَلْمِزْ بِخَارِجٍ مِّنْهَا...﴾ (الأعراف / ١٢٢)
- ٢- ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي تَحْرِ الْجَمِّ يَفْضَاءُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ بَدَأَ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَحْغَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَتَأَلَّى مِنْ نُورٍ﴾ (البور / ٤٠)
- ٣- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ...﴾ (الحديد / ١٩)
- ٤- ﴿أَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الزمر / ٢٢)

جمع الآيات وتفسيرها

تأثير الإيمان على الرؤية الصحيحة:

تحدثت الآية الأولى عمن كانوا موتى ثم أحياهم الله وجعل لهم نوراً يهتدون به في الطريق.

والمراد من الموت والحياة هنا هو الإيمان بعد الكفر، كما جاء ذلك في الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾. (الأنفال / ٢٤)
وعلى هذا فالحياة هي حياة الإيمان الحقيقي والصادق، الحياة المقترنة بالنور ولصياء والمعرفة.

والجانب المقابل لجانب الأحياء، هو جانب أولئك الذين صلوا في ظلمات الكفر ولم يخرجوا منها أبداً ﴿كَتَنُ مُثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مُنْتًا﴾
يعتقد كثير من المفسرين أن هذا النور هو نور القرآن، وقد فسر بعضهم سور الدين، وبعضهم نور الحكمة^١، وقد أضاف البعض على ذلك نور الطاعة^٢، لكن المسلم أن لهذا النور مفهوماً واسعاً يشمل جميع أنواع المعرفة، ومن البديهي أن مراد القرآن هو اكمل مصادقه

إن التعبير بـ «يمشي به في الناس» يتناسب كثيراً مع الحياة الاجتماعية في الدنيا، كما يكشف عن أن «الإيمان» بعد أرضيه «المعرفة» في قلب الإنسان ويحول دون ارتكاب الأخطاء في الحياة الدنيا.



وقد شبهت الآية الثانية غير المؤمنين (واعماسهم) بظلمات أعماق بحر لجي تسلاطهم الأمواج على سطحه، وسمائه ملبدة بالغيوم بحيث إذا أخرج شخص يده لم يكدرها أحد

١ التفسير الكبير، ج ١٣، ص ١٧٢، تفسير القرطبي، ج ٤، ص ٢١٤، تفسير المنار، ج ٨، ص ٣٠

٢، تفسير روح البیان، ج ٥، ص ٥٠

وقد كُذبت في النهاية: أن الذين لم يجعل الله بهم نوراً فماتهم من نور أبداً.
إن عبارات هذه الآية تثبت بوضوح أن تكفر وعدم الإيمان ظلمات، وأن الإيمان والإسلام نور.

إن الأخطاء التي تصدر من غير لمؤمنين ومن المنحرفين بدرجة من الكثرة بحيث يحار الناظر اليهم كيف أنهم لا يكادون يرون حتى موضع أقدامهم؟! وكيف أنهم لا يستطيعون تمييز ما ينفعهم عما يضرهم؟

حقاً أنه لا ظلام أشد من الظلام الذي رسمته الآية، فإن طبيعة أعماق البحار هي الظلام، لأن نور الشمس لا يبعد إلا لمدى قصاء سبعائة متر، وبعد ذلك لا شيء سوى الظلام الدامس، هذا إذا لم يكن لبحر لجياً، وإلا فلا تعد أشعة الشمس إلا لمدى قريب جداً من سطح البحر، وفصلاً عن هذا، فإن لعموم نفع من وصول أشعة الشمس أساساً.
ويقول البعض، إن المراد من الظلمات الثلاثة هي الآية هي ظلمات الكفار في الاعتقاد، وظلماتهم في الكلام، وظلماتهم في العمل.

ويعتقد بعض أن المراد منها هو ظلمات القلب، وظلمات الماصرة وظلمات السمع، وأصاف بعض آخر أن هذه الظلمات عبارة عن أنه لا يعلم ولا يعلم أنه لا يعلم، ويظن أنه يعلم^١، ولكن لا مبالاة بين هذه التفسير، ومفهوم الآية يسع جميع هذه التفسير.



والآية الثالثة، بعدما وصفت المؤمنين بـ «الصادقين» و«الشهداء» أصافت «لهم أجرهم ونورهم».

إن «الصادقين» صيغة مبالغة لصادق، ومعني كثير الصدق، ويقول البعض، إنها تعني الشخص الذي لم يصدر منه كذب أبداً، ويعتمد بعض آخر إنها تعني الذي اعاد على الصدق بحيث يمتنع عليه الكذب عادةً، وتعبير آخر حصلت له طبيعة ثانوية على أساس الصدق وعدم الكذب

١. التفسير الكبير، ج ٢٤، ص ٨

ويقول البعض، إنها تعني الشخص الصادق في اعتقاده وكلامه، يكشف سلوكه عن صدق اعتقاده^١.

وتجتمع جميع هذه المعاني في القول بأنها صيغة مبالغة لصادق، لأن المفهوم آنذاك يكون شاملاً لجميع المعاني المقدمة، وعلى هذا فالمسلم أن المراد ليس جميع المؤمنين بل المؤمنون أصحاب الدرجات اربعة في ايمانهم

أما «الشهداء» فقد يكون المراد من ذلك هو أن المؤمنين الصديقين لهم أحر كأحر الشهداء، كما جاء ذلك في حديث للإمام الصادق عليه السلام عندما جاءه شخص يطلب الدعاء له بالشهادة، فأحابه الإمام عليه السلام. «إِنَّ الْمُؤْمِنَ شَهِيدٌ» ثم تلا الآية: «وَالَّذِينَ آمَنُوا...»^٢.

كما يحتمل أن يكون المراد من الشهداء، هو الشهداء على أعمال الناس، لأن المستشف من آيات عديدة هو أن فريقاً من المؤمنين (الأنبياء والأئمة) يشهدون على الأمم ولا يعد الجمع بين هذين المعنيين^٣

إن «الأجر» في عبارة «لَهُمْ أَجْرُهُمْ» (تجري) حراء الأعمال، أما «النور» فمستزاه البعض بأنه النور الذي يسعى بين أيدي المؤمنين الذي يفتح الطريق نحو الجنة يوم القيامة، إلا أنه لا دليل على هذا التحديد، وقد جاء هنا مطلقاً، ليسمي القول بصومية مفهومه وشموله بنور الذي يجعله الله للمؤمنين في الدنيا كما شمل النور الذي يهتدي به المؤمنون إلى الجنة يوم القيامة^٤.

١ المبررات ومجمع البحرين مادة (صدق)، تفسير المبرر، ج ١٩ ص ١٨٦؛ تفسير المراعي ج ٢٧، ص ١٧٤

تفسير مجمع البيان، ج ٩ ص ٢٣٦

٢ تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٣٨

٣ احتمل البعض أن جملة «وَالشَّاهِدَةُ بِعَدِّ رُبُّهُمْ» ليست عطفاً على الجملة التي سبقتها، وإنما جملة مستقلة مركبة من مبتدأ وخبر، إلا أن هذا الاحتمال بعيد جداً

٤ الظاهر من تعبير بعض المفسرين أن الصمائر في جميع هذه الحمل ترجع إلى المؤمنين، بينما يصرح صاحب الميزان بأن الصمير في «لَهُمْ» يرجع إلى «لديهم أمور» وتصمير الآخرين يرجعان إلى «الصديقين» و«الشهداء»، أي أولئك الذين لهم أجر الصديقين والشهداء ولهم نورهم، إلا أن هذا الاحتمال بعيد.

وقد طرحت الآية الرابعة والأخيرة استعهاماً تفرسياً قائلته: ﴿أَقْنِ شَرَحَ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَّبِّهِ﴾؟ وهذا دليل واضح على أن قبول الإيمان متزامناً ومقترباً مع شرح الصدر، وشرح الصدر أرسية حصية للنور الإلهي، النور الذي يصي العالم أمام أعين المؤمنين، ويكشف به حقائقه كما هي.

إن المراد من «شرح الصدر» هو تساع الروح إلى درجة تكون مستعدة لاستيعاب حقائق كثيرة. وما يقابل شرح الصدر هو «ضيق الصدر» أي تضيق الروح بدرجة لا تتمكن من استيعاب شيء من الحقائق، وبعبارة أخرى: إن شرح الصدر هو اتساع وعظمة الروح الذي يقد الارتباط بالذات اللامسائية أحد عوامله، نعم إن الروح التي سجد صبغة الله وتتسع تكون أهلاً لقبول العلوم والمعارف الإلهية.

إنها لا تسع محسوب، بل تلين وتختصب وتتهيء لشر بذور المعرفة فيها، ولهذا صرحت الآية في النهاية: ﴿قَوْلُ لِلْعَنَابَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

3068

توضيح

علاقة الإيمان بالعلم في الروايات الإسلامية:

١- جاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ»^١ فطلب أحد الصحابة بيان معنى الحديث فقال عليه السلام: «هَذَا إِنَّمَا هُوَ لِأَجْلِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ خَلَقَ الْمُؤْمِنَ مِنْ نُورِهِ وَاحْاطَهُ بِرَحْمَتِهِ».

٢- ونقرأ في حديث آخر عن لرسول الأكرم عليه السلام أنه قال:

«اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ لَمْ تَلَا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لِلْمُتَوَسِّمِينَ»^٢.

٣- وفي رواية أخرى عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عن آبائه الكرام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

١ بحار الأنوار، ج ٦٤، ص ٧٤، ح ٢.

٢، المصدر السابق، ح ٤.

قال: «إياكم وقراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى»^١.

٤- وبعد أن هذه الأمثال اتخذت أهمية كبرى كما هو المشاهد في بعض الروايات حيث ينقل نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «اتقوا عيون المؤمنين فإن الله سبحانه جعل الحق على السنتهم»^٢.

٥- وجاء عنه عليه السلام في نهج البلاغة أيضاً أنه قال: «وبالصالح يستدل على الإيمان وبالإيمان يصير العلم»^٣.

٦- ونختم البحث بحديث عن الإمام الباقر عليه السلام يقول فيه: «ما من مؤمن إلا وله قراسة ينظر بنور الله على قدر إيمانه»^٤.

وكما قلنا في بداية البحث، فإن لإيمان نصادق يجعل الإنسان عاشقاً للحق ولحقيقة ومذعناً أمام الواقعيات والحقائق، وبهذا تتحرر روح الإنسان من جميع القيود وتنتهي لقبول جميع المعارف.



٣- علاقة الصبر والشكر، بـ المعرفة

في البداية نقرأ حاشيتين الآيات الشريفة التالية:

١- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (إبراهيم / ٥)

٢- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِسُيُوفِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (لقمان / ٣١)

٣- ﴿فَقَاتِلُوا رَبَّنَا بَيْنَ يَدَيْنَا نَصَرْنَا وَأَنزَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ فَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَحَادِيثَ

١ بحار الأنوار، ج ٦٤، ص ٧٥، ح ٨.

٢ نهج البلاغة الكلمات القصار، الكلمة رقم ٣٠٩.

٣ نهج البلاغة، خطبة ١٥٦.

٤ عيون الأخبار، ج ٢، ص ٢٠٠ (ينقله عن كتاب الحياة، ص ٩٢).

وَمَزَقْنَاهُمْ كُلٌّ مِزْقٍ وَإِنْ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾
 ٤. «وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَغْلَامِ • إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ
 عَلَى ظَهْرِهِ وَإِنْ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ». (الشورى / ٣٢-٣٣)

8568

جمع الآيات وتفسيرها

للسير في الآفاق والأنفس مع الصابرين:

تحدثت الآية الأولى عن «نبي إسرائيل»، حيث بُعث فيهم موسى ﷺ بمعجز
 وآيات إلهية واضحة، وكان موظفاً بأن يحرحهم من ظلمات الشرك والكفر والفساد إلى نور
 التوحيد الذي هو يسوع جميع البركات والعمرة، ولأن يذكرهم بأيام الله، ثم قالت الآية
 في النهاية: «إِنْ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ».
 ما المراد من أيام الله؟

هناك بحث بين المفسرين في هذا المجال، يحكمهم من فسرهما بالنعمة والاستلاءات
 الإلهية^١، ومنهم من فسرهما بأيام انتصار الرسل والأمم الصالحة، ومنه من اعتبرها بإشارته إلى
 أيام عذاب الأقوام الطاغية والعاوية والظاهر عدم التعارض للأيام بين هذه التفسيرات لأنها
 كلها من «أيام الله».

إن معناها الواضح، وإضافتها إلى الله «إضافة تشريفية»، والمراد منها هو جميع الأيام
 المهمة من حيث أهميتها البالغة، أو من حيث إن فيها نعمة إلهية شملت أقواماً صالحين
 كالاتصارات العظيمة على جسد الشرك وظلم، وكإسجاة من الطلعة والطواغيت
 وكالموقفية لأداء الجهاد أو قرصة عظيمة أخرى.

أو من حيث شمول عذاب الله ونقمته لأقوام عصاة وهلاكهم، أو شمول نعمة من العقاب
 الإلهي لهم ليستيقظوا من غفلتهم ويحوا كل هذه هي «أيام الله» وداحلة في مفهومها الواسع.

١. لقد جاء هذا التفسير في عدد من الأحاديث النبوية تفسير المصنف، ج ٥، ص ١٥ و ١٦ تفسير نور الثقلين، ج ٢

أما سبب كون هذه الآيات عبرة للصائرين والشاكرين فقط دون غيرهم (ينبغي الالتفات هنا إلى أن «صبور» و«شكور» صيغة مبالغة، الأولى تعني كثير الصبر والثانية كثير الشكر)، فذلك لأجل أن دراسة دقائق هذه الحوادث وجذورها من جهة، ونتائجها من جهة أخرى يحتاج إلى صبر وتأنٍ

إضافة إلى هذا، فإنه لا يستفيد من هذه الحوادث إلا أولئك الذين يقدرّون نعم الله ويشكرونه عليها، وعلى هذا، فالصبر والشكر رصيتان ملائمتان للمعرفة والعلم كما يحتمل أن يكون تفارق الصبر مع الشكر لأجل أن هؤلاء مسحورون بالصبر عند المصائب، وبالشكر عند النعم، وعلى هذا فلا يركعون أمام المصائب، ولا يعترفون عند برول النعم، فلا يصلون أنفسهم على أية حال، فهم مؤهلون لقبول المعرفة وأخذ العبر والدروس من هذه الحوادث الطيبة

في الآية الثانية والرابعة جاءت هذه العبارة «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ»، وقد ذكرنا بعد التعرض لحركة السهم في السحاب والمحيطات التي تتم بإيحاء من الله وبالاتعانة بالرياح فتطوى المسافات البعيدة وتصل إلى مقاصدها بسرعة. يذهي أن هذا الموضوع هو إحدى آيات الله التكوينية، واية من آيات النظام الإلهي وعظمة الله

لكن هل يأتى يكون استثمار هذه الآيات الإلهية الموجودة في عالم الوجود وحتى الكائنات في هبوب الرياح ممكناً للجميع، أو أنه خاص بأولئك الذين يدرسون ويسامعون نظام الخلق المعجيب بدقة وصبر وتأنٍ إلى المستوى الذي يتيح لهم العلم الشري فرصة الاستثمار، ومن جهة أخرى فإن الدافع نحو «شكر النعم» نفسه عامل للمضي والحركة في طريق المعرفة

يقول «القرطبي» في تفسيره:

«والآية: العلامة، والعلامة لا تنبئ في صدر كل مؤمن إنما تنبئ لمن صبر على البلاء وشكر على الرخاء»^١.

١ تفسير القرطبي، ج ١٤، ص ٧٩

وقد جاء في تفسير «روح البيان»

«مبالغ في الصبر على المشاق فيتعبد نفسه في التمكن من النفس والآفاق»^١
والجميل هنا هو أن الهواء الذي يحيط بالكرة لأرضية من نطف الموجودات، وبالرغم
من ذلك فهو عندما يتحرك وينقل هذه الكرة لا يحرك السفن العظيمة في البحار فحسب، بل كذلك
العموم التي تُعدُّ يابغ للميت، فيأخذ بها بحوار صحارى ولأراضي الميتة فيحييها،
كما ينتقل الهواء الحار إلى المناطق الباردة والهواء البارد إلى المناطق الحارة تنهياً
الأراضي الميتة للحياة، واصافة إلى هذا فإن هواء يلقح النباتات كالزهور والأشجار
ويحصل احباً البذور فتزرع في الأماكن التي تسقط فيها، ألم تكن هذه من آيات الله؟ ومن
يمكنه استثمار هذه الآيات غير الصابرين والشاكرين؟

وقد جاء في حديث للرسول الأعظم ﷺ «الايمان نصفان نصفه صبر ونصفه شكر»^٢
وهذا الحديث تأكيد لما جاء في الآيات.



وأخيراً فإن الآية الثالثة أشارت إلى قوم سيأخذونهم التوفيق الإلهي فاستطاعوا
أن يوجدوا سداً عظيماً بين الجبال في «الهمس» و«دحرو» فيه الماء الكثير، وبمكنا من
ايجاد سائين كثيرة، فعمروا في انيقم و«لرح»، إلا أنهم سلكوا طريق كفران النعم،
فتسلطت لأقوام المرفهة على الأقوام الصعيرة ظلماً وجوراً فقام مساكنهم الحرات
والدمار، بحيث هلك الحرث والنسل لا يحد السد، فتمككوا وشتتوا بشكل حيث جعلهم
الله أحاديث للآخرين «فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ» و«هَلَكُوا جَمِيعاً» «وَمَرَقْنَاهُمْ كُلُّ مُمْزَقٍ»، ثم
أضاف القرآن: «إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ».

وذلك لأنهم يستخلصون الدروس والعبر بدقتهم وتأنيهم

١ تفسير روح البيان، ج ٧، ص ٩٨

٢ تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ٣٢٣؛ تفسير الكبير ج ٢٥، ص ١٦٢؛ تفسير المراغي، ج ٢١، ص ٩٧؛ تفسير

القرطبي، ج ٥، ص ٢٥٧١ وتفسير خري

ومن جهة فإن هذه الحقيقة تثبت، وهي: أن بين الحياة والممات مسافة قصيرة جداً، بحيث يمكنك البحث عن الممات في قلب الحياة، فإن وفرة الماء التي سببت تقدم قوم سبأ وإردهار بلادهم وتطور حضارتهم، سبب هلاكهم يوماً ما!

ومن جهة أخرى فإن هذا يكشف عن شدة ضعف هذا الإنسان المروور، وذلك لأنه يقال إن السدّ (الذي أطلق عليه سد مأرب)، قد نُقب بواسطة الجردان الصحراوية نقباً صغيراً في البداية ثم توسع الثقب إلى أن أدى بالسدّ لأن يهدم بالكامل، وبهذا نرى أن جرداناً صحراوية أبادت حصارة عظيمة.

ومن جهة ثالثة، فإن المستكبرين من قوم سبأ الذين لم يؤق لهم رؤية المستضعفين بقرهم، وحسبوا أنه ينبغي وجود فاصلة أو سد عظيم كسد مأرب بين أقلية الأشراف والأكثرية المستضعفة، طلبوا من الله أن يبعد مدبرهم عن مدن المستضعفين كي لا يتمكنوا من السر مع المستكبرين. ويسمى اعتبار السر مدبراً بهم «رَبُّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا»، (سبأ / ١٩) إلا أن الله فرغهم بشكل حين لا هم يقرأ ولا طوبهم الباطلة

ومن جهة رابعة، فإن حبايبهم المرفهة أغفلتهم عن شكر الله، وما صحوا إلا بعد أن انتهى كل شيء.

وعلى هذا، يمكننا بالتأمل والدقة والاستعانة بالعقل أن نستشف آيات كثيرة من هذه القصة وهذا الحديث.

النتيجة:

إن المستشف من الآيات الأربع العاضية هو أن كل من كان أدق وأكثر صبراً في دراسته لأسرار الخلق والحياة الاجتماعية، ولكل من كان شاكراً بلسم ومستعياً بوسائل المعرفة فإن له نصيباً أوفر وأكثر من المعرفة، وهذا كان نصير والشكر أرضيتين ممهدتين للمعرفة



١ يبقى الالتفات إلى أن مرادة «أحاديث» التي جاءت في الآية، منهي الجموع وتكشف عن وجود أحاديث ونصوص كثيرة في ماضي قوم سبأ لا قصة واحدة.

٤- للمعرفة تهيء الأرضية للمعرفة

تجهيد:

المعروف هو أن الثروة تجلب الثروة، أي أن مقداراً من رأس مال يكون أرضية لربح رأس مال أكبر، وكلما ازداد مقداره ازداد مورد الإنسان من رأس ماله. أن هذا الأمر ينطبق على العلوم والمعارف كذلك، فالذي يملكون رأس مال من العلوم تتوفر عندهم الأرضية الحسنة لتصل علوم ومعارف أخرى، ولهذا قلنا إن المعرفة تهيء الأرضية للمعرفة أي ليل معارف أخرى هي أرفع وأوسع.

وقبل انخوض في البحث مع حاشيتين للآيتين لآيتين

١- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الروم / ٢٢)

٢- ﴿قِيلَ لِمُتَّى هُنَّ جَنَّاتٌ مِّنْ دُونِ هَذِهِ قَالُوا هُنَّ أَجْنُودٌ مِّنْ دُونِ هَذِهِ قِيلَ لِمُتَّى هُنَّ جَنَّاتٌ مِّنْ دُونِ هَذِهِ قَالُوا هُنَّ أَجْنُودٌ مِّنْ دُونِ هَذِهِ﴾ (الملك / ٥٢)



جمع الآيات وتفسيرها

ما لم تكن مثالاً تطلع على لسورتها:

إن الآية الأولى من جملة الآيات الكثيرة في سورة الروم التي أشارت لآيات الأفق والأنفس، وعدت بعضاً من آيات الله في العالم الأكبر (الكون) وبعضاً من آيات العالم الأصغر «الإنسان» فإشارت الآية إلى العالم الأكبر من جهة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ثم أشارت إلى بعض دقائق خلق الإنسان من جهة أخرى ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْوَانِكُمْ﴾.

الاختلاف ليس في الألوان الطاهرة فحسب، بل في السمة الفكر والألوان الأدواق والبواطن، فإنها مختلفة إلى درجة بحيث لا يمكن العثور على شخصين متشابهين

بالكامل، وهذا الاختلاف جارٍ حتى بالنسبة للتوأم.

إنّ هذا الاختلاف يسبب - من جهة - التعارف والاختلاف بين الناس، لأنّه إذا لم يكن تمايز بين الناس احتل النظام الاجتماعي للحياة، كما هو الحال بالنسبة للتوأم فالذي يعاشرهم كثيراً يقع في أخطاء تجاههم، فقد يقدم أحدهم من السفر ويقوم صديقهم بزيارة الآخر الذي لم يسافر، أو يمرض أحدهم فيمرض الآخر وهو صاح، أو يعطي الإهوان الدواء للسليم لعدم التمييز بينهما.

تصوروا ما الذي يحصل لو كان أساس جميعاً متشابهين من جميع الجهات؟! ومن جهة أخرى، فإنّ هذا التنوع والاختلاف يسبب انحراف كل مجموعة من الناس في جانب من جوانب الحياة وبهذا الاختلاف في الأذواق وتباينيات تسد جميع احتياجات البشر الاجتماعية فلا يحصل خلل في هذا المجال، ثم تكن هذه الدقة المحيطة في هذا النظام من آيات الله؟!

والحدير بالذكر أنّ المعسر ذكر الاحتمالات كمدّة في تفسير (اختلاف الألسنة) فتارة قالوا، إنّ المراد منه هو الاختلاف في اللغة حيث يعلم أنّ اللغات الموجودة حالياً أكثر من ألف لغة، وهذا التنوع الذي لا يزيد الخوض في تفصيلاته فعلاً، حيد لتعرف الأقوام المختلفة على بعضها البعض.

وبارة قالوا إنّ المراد هو اللهجات وكيفية حديث الأشخاص التي تختلف من شخص إلى آخر اختلافاً كبيراً، فلكل منطق وأسلوب في البيان يميز عن شخصيته.

وتارة قالوا، إنّ المراد هو الأصوات أو ما يصطلح عليه بـ «الذنبات الصوتية» التي تختلف عند الأشخاص اختلافاً فاحشاً، ولهد فإنّ الأعمى يميز الأشخاص من أصواتهم، كما أنّ البصير يميزهم من وجوههم.

ومن هنا يتضح أنّ اقتران اختلاف الألسنة ولألوان بعلى السموات والأرض في الآية هو لأجل الإشارة إلى أنّ جميع موجدات العالم - صغيرها وكبيرها، وأسطها وأعقدها - بحسب الظاهر - تحكمها قوانين وأظمة دقيقة، وهي آيات لعلم الله وقدرته وينبغي لإشارة

إلى أن الآية صرحت في النهاية: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْقَالِينَ» نعم إن لعلماء هم الذين يدرسون أسرار الكون ويتفحصونها واحدة تلو الأخرى، وهم الذين تكون معرفتهم السابقة أرضية خصبة لمعارفهم الأكثر والأدق.

✽✽✽

وقد تحدثت الآية الثانية عن مجاميع صغيرة مفسدة تعيش في «وادي القرى» بين قوم صالح (على ما يقوله المفسرون)، وكان عددهم تسعة رهط (أي مجموعات صغيرة)، وكانوا يفسدون في الأرض دائماً كما يصنعهم القراى ككريم «وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ» (النمل / ٤٨)

أمهلهم الله كثيراً كفرصة للتوبة ونرجوع إلى أنفسهم، لكن ما ردهم الأمهال إلا عروراً، وكان نهاية أمرهم أن أمر الله عليهم صاعقة من السماء، ورزلة من الأرض حتمت حياتهم بقول القرآن فيهم: «فَبَلَغْتَ فِئَتَهُمُ الْخَاوِيَةَ عِماً ظَلَمُوا» أي حاله منهم بسبب ظلمهم وطغيانهم.

ثم يصيب: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»^١ إن عبارة: «عِماً ظَلَمُوا» تدل على أن الظلم هو سبب في دمار البيوت وحربها، وقد نقل عن ابن عباس أنه قال: إنني وجدت هذه الحقيقة في كتاب الله وهي: إن الظلم يهدم البيوت، ثم تلا الآية المذكورة.

وقد جاء في التوراة «بما أن آدم لا يظلم قبيهم بيتك»^٢ ويسفي الالتفات هنا إلى أن مفردة «خاوية» تعني - في الأصل - حاله، إلا أن كثيراً من المفسرين فسرها بالخربة، وهذا قد يكون لأجل أن البيت إذا حلل وهجر حرب ويهدم^٣

١ تفسير روح المعاني، ج ١٩، ص ١٩٤

٢ ذكر صاحب تفسير روح البیان معین لعادة (حوى) أخذها الخلو والثاني القوط ولا يهدم، ومن هنا يحبر

للتبجئة:

من المعلوم أن آيات الله - سواء كانت آفاقية أو اسمية أو تعلقت بدروس وعبر تاريخ الأقسام الغابرة - تحصى الجميع، وبما أن الجميع لا يستفيد منها ولا يستثمرها، يقول القرآن عنها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. وتارة يقول: «الملتزمين».

وتارة يقول: «لكل صَّابِر شُكْر».

وهذه إشارة إلى أن هذه الفرق - هي التي تنتفع بهذه الآيات وتستفيد منها دون سواها، إما عندهم من أرضيته حصبة لهذا الأمر.

وهناك آيات كثيرة في القرآن المجيد لا نعو من الإشارة إلى حقيقة أن المعرفة تعتبر أرضيته معدة وخصبة لمعارف أكثر، كما جاء ذلك في الآيات التالية:

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الاعراف / ٣٢)

﴿يَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (يونس / ٥)

﴿كِتَابٌ قُضِيَ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت / ٣)

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة / ٢٣٠)

كما اتضح - مما مر - الجواب على لسؤال عن حاجة العالمين لشرح وتبيين الآيات الإلهية.

٥- علاقة الخوف بالمعرفة

تمهيد:

إن الإنسان ما لم يشعر بالمسؤولية لا يلتفت إلى مصادر المعرفة وسوف لا يبالي بآيات الله ومواعظه.

عرب الجاهلية عن النجم إذا سقط (حوى النجم) إلا أن يظهر أن المصطفى الأوتي لهذه العادة هو الأول فقط. ويستعمل تعبير (حوى النجم) إذا ما غرب نجم أو أهل بلا مطر (حيث كان يعتقد عرب الجاهلية أن طلوع كثير من النجوم متراس مع المطر وإذا لم يكن هناك مطر استعملوا التعبير السابق بذلك النجم).

ومن هنا ينبغي القول بأن الإحساس بالمسؤولية والحسوف من الله هو إحدى أرضيات المعرفة التي تُعدُّ روح الإنسان وتهيئها لتقبل علوم ومعارف محتلة

وبالالتفات إلى هذا التمهيد نتأمل حاشعين في الآيات التالية

١- ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِىَ ظِلَّةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ .
(هود / ١٠٢ - ١٠٣)

٢- ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَفْسًا غَافِلَةٌ فِيهِمُ الْأَرْضُ أَوْ تُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾
(سبا / ٩)

٣- ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخْتَفُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (الذاريات / ٣٧)

❦❦❦

شرح الآيات وتفسيرها

المعرفة والشعور بالمسؤولية:

إن الآية الأولى بعدما أشارت إلى ماضي بعض من الأمم السالفة (مثل قوم لوط وشعيب والعراصة) ونزول أنواع من لعذاب عليها، قالت ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِىَ ظِلَّةٌ ﴾ ثم قالت في النهاية: ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ ثم قالت ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ أي هي قصص الأمم السالفة وعقابهم ونزول العذاب عليهم آية واضحة لمن خاف عذاب الآخرة

لقد جاءت مرادة «آية» مكررة، وذلك للإشارة إلى عظمة وأهمية هذه الآية الإلهية ودور العبرة فيها، والتعبير بـ ﴿ لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ إشارة إلى الأرصية المعدة للمعرفة عند أولئك الذين يخافون من عذاب الآخرة

أما أولئك الذين لا يخافون عذاب الآخرة فلا يدركون علاقة هذه الدوب بأنواع العذاب الإلهي، إنهم يعدون العذاب أمراً قهرياً وجبرياً، أو يرجعون أسبابه إلى حركة الأفلاك

والمجوم وأوهام وخرافات أخرى، ولا يدركون لأسباب الحقيقة به^١
 إضافة إلى هذا، فإنَّ الإنسان لا يقطع بالعذب الدنيوي ما لم يقطع بالعذاب الأخروي،
 لأنَّ كليهما وليد شيء واحد وهو معرفة الله ومعرفة عدله.
 إنَّ جملة «وهي ظالمة» تلميح إلى أنَّ لأخذ والدمار كان بسبب ظلم تلك القرى.
 وتعتبر آخر: فإنَّ جميع الانحرافات لعقائدية والسلوكية داخله في مفردة الظلم
 ❦❦❦❦

والآية الثانية بعدما أشارت إلى آيات الله في السموات والأرض. وبيان قدرته على كلِّ
 شيء أكدَّ بأنَّ الله لم يعجز عن عذاب أولئك العصاة الذين سحرُوا بآيات الله واتَّهموا
 الرسول الأعظم ﷺ بالجنون، وأعسروا المعدَّ محالاً. إنَّ نشأ حسماً بهم الأرض، أو
 أسقطوا عليهم من السماء أحجاراً سماوية ﴿إِنْ نَشَأْ نُخِيفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ
 كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

إنَّ «كسف» جمع كشف ويعني القماش المقطَّع قطعاً قطعاً، وقد استعملت هذه
 المفردة هنا إشارة إلى بعض الكرات السماوية التي تنحصر تحت ظروف خاصة وتتحول إلى
 قطع متعددة يسبح في السماء، وإذا ما دخلت في مدار الأرض، تحولت (بإيعاز من الله) إلى
 أمطار من حجر، أو سقطت على وجه الأرض بصورة قطع حجرية كبيرة، كلُّ منها يحكمها
 تدمير منطقة واسعة من سطح الأرض، كما أنَّ علماء اكتشفوا مادَّج من هذه لكُتِل
 الحجرية في منطقة «سبيريا»

ثم قالت الآية في النهاية ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُلِّ غَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ أي لكل عبد راجع الله
 وخائف من عذابه ومتخذ سبيل التوبة.
 المسلم هو أنَّ هذه الآيات عامة لجميع لبشر، لكن لا يستفيع بها إلا من خاف الله وشعر
 بالمسؤولية^٢.

١ لقد تشير إلى هذا الأمر في التفسير التالية تفسير روح المعاني، ج ١٢، ص ١٢٣؛ تفسير الكبير، ج ١٨، ص ١٥٨؛

تفسير روح البيان، ج ٤، ص ١٨٥

٢، تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٣٤٦.

وبتعبير آخر: فإن جملة «لِكُلِّ عَبْدٍ مُبِيبٌ» بمثابة بيان لسبب جملة «إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ»، أي أن الالتفات إلى حقيقة العبودية والتوبة والإنابة سبب للانتفاع بهذه الآيات^١ وفي الحقيقة، إذا ما درسنا حقيقة مفهوم لعبودية، رأينا لا يحلو من التوبة والإنابة عند اقتراف الذنب.



ما ثالث وأحر آية في البحث، فقد أشارت مرة أخرى إلى المصير الرهيب لقوم لوط ذلك المجتمع الذي بلغ من العار أقصاه، وسحر من جميع قيم الإيمان والإنسانية وعمر في وحل الفساد والفحشاء...

إن الآية بعدما أشارت إلى تدمير مدتهم وتحريرها قالت: «وَتَرْكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخْافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» يعتقد الكثير أن معنى قوم لوط كانت في الشامات قرب «البحر الميت» أو بس الشام والعمارة. وكان يطلق عليها «المدائن المؤتلفة»، وقال إنه عندما زلزلت الأرض من مدتهم هدمتها، ثم روت عليهم فطار من الأحجار، وبشعب عسدها الأرض شماً يذ فيه ماء «البحر الميت»، وبذلك يهدى المدن إلى مستنقعات تنة، ولهذا يدعي البعض العثور على آثار من الأعمدة وغيرها من هذه المدن في أطراف البحر الميت وعلى أي حال، فإن هذه الآثار باقية - سواء كانت في اليابسة أو تحت المستنقعات الأسنة - درس وعبرة، ولا يستفيع بهذا الدرس إلا الذين يخافون عذاب الله، ويشعرون بالمسؤولية (وتواجدت فيهم أرضية المعرفة)

وبتعبير بعض المفسرين:

آية العبرة هذه هي لأولئك الذين من شأنهم أن يحذروا لسلامة فطرتهم ورقة قلوبهم دون من عداهم من ذوي القلوب القاسية فانهم لا يعتلون بها ولا يعدونها آية ودليلاً^٢



١. تفسير روح المعاني، ج ٢٢، ص ١٠٤.

٢. تفسير روح المعاني، ج ٢٧، ص ١٣.

النتيجة:

إنَّ الخوف سواء كان بمعنى الخوف من الله أو من عذابه أو من الدسب والمعصية (لأنَّ جميعها ترجع إلى معنى واحد)، بُعدٌ لأرضية الروح الإنسان لتقبل الحقائق والمعارف، الإنسان ما لم يشعر بالمسؤولية لا يتجه نحو مصادر المعرفة ولا يبحث في آيات الآفاق والأنفس والتكوين والتشريع

وخلاصة الحديث، أنَّ الحركة نحو العلم و معرفة كأي حركة أخرى تحتاج إلى محرك، والمحرك يمكنه أن يكون أحد الأمور التالية

١- جاذبية العلم والعشق للمعرفة التي ودعت في روح الإنسان منذ البدايه

٢- الاطلاع على النتائج المنيرة والآثار القوية للمعرفة، ووصول الإنسان إلى المراحل الرفيعة تحت ظلها

٣- الشعور بالمسؤولية والخوف من العواقب المؤلمة لفقدان المعرفة والجرء الترتب

عليها

إنَّ كلاً من هذه الأمور يمكنها أن تهيب الأرضية المناسبة لطى هذا الطريق الملىء بالمتعرجات، وإذا ما تعاضدت هذه الأمور مع بعضها البعض، فإنَّ الحركة نحو المعرفة ستكون أسرع وأعمق وأكثر ثماراً



وآخر الحديث إنَّ أكبر عجز للإنسان هو لعملم والمعرفة، والجاهلون هم موتى الأحياء.

إنَّ بلوغ مرحلة المعرفة الكاملة، لا يتم إلّا مع توفر لأسباب ورفع المواسع والحسب وتهئية الأرضية المناسبة.

وما أحمل ما قاله الشاعر:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فأجسامهم قبل القبور قبور
وإن امرأ لم يحیی بالعلم ميتة فليس له حتى النشور نشور

❦❦❦

ربنا علّمنا المعارف الحقيقية، والأرفع من ذلك أي
معرفة ذاتك المقدّسة الطاهرة وصفاتك الجليلة،
إلهي! نعلم أنّ أعظم فخرنا هو علما ومعرفتنا،
والاطلاع على أسمائك وصفاتك وعالم خلقك أي أفعالك،
إلا أنّه لا يتيسر طي هذا الطريق الصعب إلا بتوفيقك، فوفّقنا
ونبت أقدامنا.

يا مولانا! إنّ شياطين الدرب كثيرون وأوديتهم
خطرة، وموانع عديدة، ولا يمكن رفع هذه الموانع إلا
بامداداتك، **نزولها** **بأطرافك** **الحاصّة**
أمين يا رب العالمين
نهاية المجلد الأول **على كتابات القرآن**
(التفسير الموضوعي)

صباح الجمعة - ٨ رجب ١٤٠٨ هـ . ق
الموافق لـ ٧ / ١٢ / ١٣٦٦ هـ . ش



الفهرس

٥	المقدمة:
٥	أنواع التفسير:
٧	ما هو التفسير الموضوعي؟
٩	ما هي المشاكل التي يمكن حلها بواسطة التفسير الموضوعي؟
١١	تاريخ التفسير الموضوعي:
١٤	التفسير الموضوعي في كلمات العلماء السابقين:
١٦	الأسلوب الصحيح في التفسير الموضوعي
١٧	عميات تواجه التفسير الموضوعي:
١٩	لماذا لم يتطور هذا الموضوع من التفسير؟ ..

كل عمل باسم الله / ٢١

٢٢	شرح المفردات:
٢٤	جمع الآيات وتفسيرها
٢٤	لماذا يبدأ فقط باسم الله؟
٢٦	توصيحات
٢٦	١- الأهمية الخاصة لـ «البسملة»
٢٨	٢- هل أن بسم الله جزء لكل سورة؟
٣١	٣- لماذا لم تذكر بسم الله في بداية سورة براءة؟
٣٢	٤- لا تقرّبوا اسم الله باسم غيره؟
٣٥	طريقة المعرفة ...
٣٦	هل هناك عالم خارج أدهاسا؟

القرآن وضرورة المعرفة / ٣٩

- ١- وحبوب تحصيل العلم ٤٢
- ٢- التأكيد المتواصل على عدم ترك التفكير ٤٣
- ٣- التأكيد على لزوم التعليم والتعلم ٤٣
- ٤- العلم والمعرفة هما الهدف من خلق العالم ٤٤
- ٥- الهدف من بعثة الأنبياء هو التعليم والتربية ٤٥
- ٦- التفكير والتدبر هو الهدف من نزول القرآن ٤٥
- ٧- المعرفة هي الهدف من المعراج ٤٦
- ٨- الدعوة للإسلام بدأت بالدعوة للعلم ٤٦
- ٩- العلم نور وضياء ٤٧
- ١٠- إدراك أسرار الوجود خاص بالعلماء ٤٧
- ١١- الله أول معلم ٤٨
- ١٢- بالعلم يتميز لإنسان عن الموجودات الأخرى ٤٨
- ١٣- درجات العرب من الله تناسب مع درجات المعرفة ٤٩
- ١٤- الأنبياء يطالبون بعلم أكثر ٤٩
- ١٥- المعرفة مفتاح نجات الإنسان ٥٠
- ١٦- العلم خير بجميع أشكاله ٥٢
- ١٧- المعرفة شرط أساسي للإدارة والقيادة ٥٢
- ١٨- العلم مسبح الإيمان ٥٣
- ١٩- العلم منشأ تقوى الله وخشيته ٥٥
- ٢٠- العلم منشأ الرهد ٥٥
- ٢١- التطور المادي مرهون بالعلم ٥٦
- ٢٢- العلم مصدر القوة أو (العلم قوة) ٥٧
- ٢٣- العلم والتركيبية ٥٨
- ٢٤- علاقة العلم بالصبر ٥٨
- ٢٥- العلم والمعرفة خير كثير ٥٩

٦٠	٢٦- أصحاب السعير هم الجاهلون
٦١	٢٧- الجهل مصدر انحطاط البشر
٦٢	٢٨- الجهل عمى
٦٢	٢٩- الحياة مع الجهل هي أرذل العمر
٦٣	٣٠- الجهل مصدر الكفر
٦٤	٣١- الجهل السبب الأساسي للفشل
٦٥	٣٢- الجهل مصدر لاشاعة الفساد
٦٦	٣٣- الجهل أساس لتعصب والعدا
٦٧	٣٤- الجهل مصدر لاختلاق الحجاج
٦٨	٣٥- الجهل هو سبب التقليد الأعمى
٦٩	٣٦- الجهل عامل الخلاف والفرقة
٧٠	٣٧- الجهل هو سبب سوء الظن بالآخرين
٧١	٣٨- سوء لأدب يشأ عن الجهل
٧١	٣٩- الجهل سبب ابدم والمشاكل الاجتماعية
٧٢	٤٠- الجهل وتبدل القيم
٧٣	الخلاصة و النتيجة
٧٤	توصيات
٧٤	١- إمكانية لمعرفة من وجهة نظر نفسية
٧٤	ما هي شروط الوصول إلى المعرفة؟
٨٠	٢- العلم البشري المحدود ..
٨١	شرح المفردات: ..
٨١	جمع الآيات وتفسيرها
٨٥	نتيجة البحث:
٨٦	٣- الفلاسفة والعلماء يشهدون بقصور العلم بشري
٩١	تذكير: ..

مصادر وشبيل المعرفة / ٩٣

٩٧	١- الحس والتجربة
٩٨	شرح المفردات
٩٩	جمع الآيات وتفسيرها
١٠١	النتيجة
١٠٢	توصيح: الفلاسفة ومصدر الحس:
١٠٧	٢- العقل والتحليل المنطقي
١٠٩	شرح المفردات:
١١٢	فعال العقل:
١١٤	جمع الآيات وتفسيرها
١١٤	قيمه العقل في مقياس القرآن:
١٢٠	توصيحات
١٢٠	١- الإدراكات العقلية بروية فلسفية
١٢١	٢- مرلة العقل في الروايات الإسلامية
١٢٣	٣- المعالون لتحكيم العقل
١٢٧	٣- التاريخ والآثار التاريخية
١٢٨	شرح المفردات:
١٣٠	جمع الآيات وتفسيرها
١٣٤	توضيحات
١٣٤	١- مرآة التاريخ
١٣٦	٢- جاذبية التاريخ
١٣٧	٣- شوائب التاريخ
١٣٩	٤- فلسفة التاريخ
١٤٠	٥- التاريخ «النقلي» و«العلمي» و«فلسفة التاريخ»
١٤١	الإجابة على إشكال

١٤٢	٦- التاريخ في نهج البلاغة والروايات الإسلامية
١٤٦	آخر التحديث حول التاريخ المعلم:
١٤٧	٤- الفطرة والوجدان .
١٤٩	تقرأ أولاً الآيات الآتية:
١٤٩	معاني المفردات.
١٥١	جمع الآيات وتفسيرها
١٥٤	لنتيجة:
١٥٥	توضيحات
١٥٥	١- فروع الفطرة والوجدان ..
١٥٦	٢- هل توجد معرفة فطرية؟
١٦١	٣- «الفطرة» و«الوجدان» في الروايات الإسلامية
١٦٣	٥- الوحي السماوي
١٦٤	شرح المفردات .
١٦٨	شرح الآيات وتفسيرها
١٦٨	الوحي شمس مشرق:
١٧٢	توصيحات
١٧٢	١- أقسام «الوحي» في القرآن المعيد
١٧٤	٢- ماهي حقيقة الوحي؟ ..
١٧٦	٣- الوحي عند فلاسفة الشرق والغرب
١٨٠	٤- فرضية كون الوحي غريزة
١٨٣	٥- كيف يتقن الرسول بأن الوحي من الله؟
١٨٤	٦- القرآن أعنى مصدر للمعرفة في الأحاديث الإسلامية ..
١٨٥	٧- الوحي الخاص إلى غير الأنبياء (وحي الإلهام)
١٨٧	٨- كيفية نزول الوحي على الرسول الأعظم ﷺ
١٨٨	٩- الإلهامات العريضة
١٩٣	٦- الكشف والشهود .

١٩٥	شرح المفردات:
١٩٦	جمع الآيات وتفسيرها
٢٠٥	النتيجة:
٢٠٥	توضيحات:
٢٠٥	١- نماذج جميلة من الكشف والشهود في الأحاديث الإسلامية
٢٠٩	٢- كيف تُرفع العجب؟
٢١٢	٣- سبعة منامات صادقة في القرآن لمجد
٢١٩	النتيجة
٢٢٠	٤- المكاشفات الرحمانية والمكاشفات الشيطانية

حُجُب المعرفة وآفاتها / ٢٢٧

٢٣٠	حُجُب المعرفة: ..
٢٣١	شرح المفردات:
٢٣٣	جمع الآيات وتفسيرها
٢٣٣	المود التدريجي لآفات المعرفة:
٢٣٣	(الانحرافات والرئ والأمراض والأكمة والأفدل)
٢٤٢	النتيجة الأخيرة:

(حُجُب المعرفة وآفاتها) بالتفصيل / ٢٤٥

٢٤٩	١- الصفات التي تحول دون المعرفة:
٢٤٩	١- حجاب عبادة هوى النفس ..
٢٤٩	شرح المفردات:
٢٥٠	جمع الآيات وتفسيرها
٢٥٠	إتباع الهوى يُعمي القلب:
٢٥٢	٢- حب الدنيا أحد الحُجُب
٢٥٢	جمع الآيات وتفسيرها

٢٥٤	٣- حجاب الكبر والغرور وحب السلطة
٢٥٤	جمع الآيات وتفسيرها
٢٥٥	حجاب الغرور في الأحاديث الإسلامية
٢٥٦	٤- حجاب الجهل والتفلة
٢٥٦	جمع الآيات وتفسيرها
٢٥٨	حجاب الجهل في الأحاديث الإسلامية
٢٥٩	٥- حجاب النفاق
٢٥٩	جمع الآيات وتفسيرها
٢٥٩	المنافقون عمي القلوب
٢٦٢	٦- حجاب التعصب والعناد
٢٦٣	جمع الآيات وتفسيرها
٢٦٣	الموتى المتحركون
٢٦٦	النتيجة
٢٦٨	٧- حجاب التقليد الأعمى
٢٦٨	شرح المفردات
٢٦٩	جمع الآيات وتفسيرها
٢٦٩	قوم أهلكتهم تقليدهم
٢٧١	توضيحات
٢٧١	١- أنواع التقليد المختلفة
٢٧٣	٢- شروط التقليد الممدوح
٢٧٤	٣- عوامل التقليد الأعمى
٢٧٦	٨- حجاب حب الرفاه
٢٧٦	جمع الآيات وتفسيرها
٢٧٦	اعفنا من الجهاد
٢٧٨	٩- حجاب الأمانى
٢٧٨	جمع الآيات وتفسيرها

٢٧٨	الآمال البعيدة:
٢٨٠	توضيح: حجاب الأمانى في الروايات الإسلامية
٢٨٢	٢- الأعمال التي تعجب عن المعرفة
٢٨٢	١- عجب الذنوب
٢٨٢	جمع الآيات وتفسيرها
٢٨٢	الذنب يُعمي الإنسان ويصمه:
٢٨٧	توضيح: إن الذنب حجاب في الروايات الإسلامية
٢٨٩	٢- حجاب الكفر والأعراض
٢٩٠	جمع الآيات وتفسيرها
٢٩٠	لِمَ يعجب الذنبُ القلوبَ عن الفقه؟
٢٩٢	٣- حجاب الاعتداء والعدوان
٢٩٢	جمع الآيات وتفسيرها
٢٩٥	٤- حجاب الرؤية السطحية وترك التدبر
٢٩٥	جمع الآيات وتفسيرها
٢٩٥	أفقال القلوب الثقيلة:
٢٩٨	٥- حجاب الارتداد
٢٩٨	جمع الآيات وتفسيرها
٢٩٩	٦- حجاب الكذب والافتراء
٣٠٠	جمع الآيات وتفسيرها
٣٠٠	خداع الكذب:
٣٠٢	٧- حجاب الظن القائم
٣٠٢	جمع الآيات وتفسيرها
٣٠٧	٣- الحُجُب الخارجية
٣٠٧	١- حجاب القادة الضالين والمفسدين
٣٠٨	جمع الآيات وتفسيرها
٣٠٨	شجار أصحاب النار:

٣١٠	توضيحات:
٣١٠	١- «المستضعفون» و«المستكبرون» في القرآن المجيد
٣١١	٢- دور القادة و الأمراء في التأثير على الناس
٣١٢	٢- حجاب الأصدقاء الضالين
٣١٢	جمع الآيات وتفسيرها
٣١٤	توضيح: دور الأصدقاء في التأثير على طريقة التفكير عند الآخرين:
٣١٥	٣- حجاب الاعلام والوسط الاجتماعي
٣١٦	جمع الآيات وتفسيرها
٣١٦	الإعلام المسموم:
٣٢٤	توضيح: الجوانب المتعددة للإعلام المضلل
٣٢٦	٤- حجاب وساوس الشياطين
٣٢٧	شرح المفردات:
٣٢٨	جمع الآيات وتفسيرها
٣٢٨	كيف يُزَيَّن الباطل؟ وكيف تُسحر العيون؟
٣٣٣	توضيحات
٣٣٣	١- من هو الشيطان؟
٣٣٤	٢- الإجابة عن سؤال
٣٣٥	٣- النقطة المهمة الأخرى

مؤملات المعرفة / ٣٣٧

٣٤٠	١- علاقة التقوى بالمعرفة
٣٤٠	شرح المفردات:
٣٤٢	جمع الآيات وتفسيرها
٣٤٢	اتقوا كي يسطع نور العلم على قلوبكم!
٣٤٧	توضيحات
٣٤٧	١- علاقة العلم بالتقوى في الروايات الإسلامية

٣٤٨	٢- كيفية الارتباط بين ينابيع العلم والتقوى؟
٣٥٠	٣- استغلال العلاقة بين «العلم» و«التقوى»
٣٥١	٢- الإيمان والمعرفة
٣٥٢	جمع الآيات وتفسيرها
٣٥٢	تأثير الإيمان على الرؤية الصحيحة:
٣٥٥	توضيح: علاقة الإيمان بالعلم في الروايات الإسلامية:
٣٥٦	٣- علاقة «الصبر والشكر» بـ«المعرفة»
٣٥٧	جمع الآيات وتفسيرها
٣٥٧	السير في الآفاق والأنفس مع الصائرين:
٣٦٠	النتيجة:
٣٦١	٤- المعرفة تهيء الأرضية للمعرفة
٣٦١	جمع الآيات وتفسيرها
٣٦١	ما لم تكن مثالن تطلع على أسرارنا:
٣٦٤	النتيجة:
٣٦٤	٥- علاقة الخوف بالمعرفة
٣٦٥	شرح الآيات وتفسيرها
٣٦٥	المعرفة والشعور بالمسؤولية:
٣٦٨	النتيجة:
٣٧١	الفهرس



مركز أبحاث إسلامية